المنقول والمعقول

في دراسـة ومناقشة مسـائل

الثَّلاثَةُ الأُصُولُ



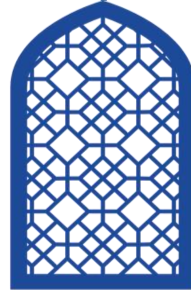
لشيخ الإسلام
محمد بن عبدالوهاب النجدي التميمي
رحمه الله تعالى

شرح

أبي العباس أنور بن محمود الرفاعي



الطبعة الأولى
1447 - 2025





المنقول والمعقول

في دراسة ومناقشة مسائل

الثَلَاثَةُ الأُصُول

وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ

مقدمة المؤلف

الحمد لله رب العالمين، وأشهد أن لا إله إلا الله الواحد الأحد هادي الموحدين ومضل المشركين، وأشهد أن محمدًا عبده ورسوله النبي الأمين الصادق الأمين خاتم الأنبياء والمرسلين.

أما بعد:

فقبل عقد ونصف كتبت أصل هذا الشرح على متن "الأصول الثلاثة"، ومنعني من نشره سببان:

- **الأول:** أني كتبته يدويًا بالحبر على الورق، ولهذا لم أتمكن من نشره الكترونيًا.
- **الثاني:** أن الشروح على هذا المتن الطيب كثيرة ووفيرة بفضل الله تعالى، بعضها لعلماء أجلاء وبعضها لطلاب فضلاء وأقوياء، فكان هذا من أسباب إهمالي للاهتمام بالتفرغ لتجهيزه ونشره.

وعندما تيسرت كتابته وتجهيزه للنشر ورأيت أن الجهد قد بذل وزال المانع الأول، لم أمتنع حينها من نشره بحجة المانع الثاني.

وقد اخترت في هذا الشرح الطريقة التالية:

١- الاهتمام بذكر التعاريف اللغوية والاصـطلاحية والشـرعية للألفاظ والكلمات التي تحتاج إلى ذلك، وقد أتوسـع أحيانًا وأختصـر أحيانًا بحسب الحاجة.

٢- التفصيل في المسائل المهمة كأنواع العبادات التي ذكرها مثل: الاستعانة والاسـتغاثة والدعاء، وغير ذلك، بقصـد بيان حكمها بناء على أنواع المتنوع وغير المتنوع منهـا. كي لايظن الطـالب أن الحكم الواحـد هو الحكم النهائي في المسألة فتزل قدمه.

٣- الاعتماد على ذكر الكثير من الأدلة في الموضـوع الواحد كي يتمكن الطالب والقارئ من استيعاب الموضوع بناء على أدلته. وهذا في بعض المسائل لا في كلها.

٤- جعلت التعليق على جميع فقرات المتن لايخرج عن أمرين:

الأول: ما كان من أقوال العلماء فأعزوه للقائل والمصدر.

الثاني: وما كان من تعليقي وشـرحي فهو عبارة عن مسـتخلص لفهم المسـائل مما تعلمته، فتارة أعبر عنه بقولي: قلت. وتارة بقولي: قال أبو العباس. وتارة أنثره مجردًا.

٥- جعلت المتن في ثلاثة أقسام:

- المقدمة: وهي من البداية حتى الأصول الثلاثة.

- الأصول الثلاثة: وتبدأ من قول المؤلف: "فإذا قيل لك" ما الأصول الثلاثة".

- الخاتمة: وتبدأ من نهاية الأصول الثلاثة حتى نهاية المتن.

وأعلم أن التوسع في شروح المتون القصيرة والمختصرة منكر عند العلماء؛ وذلك أن التطويل والتفصيل قد يشكل على المبتدئين ولايزيدهم إلا صعوبة في الفهم، ولهذا سلك العلماء في التعليم التدرج مع المبتدئين.

وجوابي على هذا الانتقاد من وجهين:

الأول: أن كتابي هذا كان خاص بي ولهذا استخرجت منه العديد من الرسائل التي نشرتها مستقلة بعد تطويرها والزيادة عليها، وأصلها موجود في هذا الكتاب.

الثاني: أن كتابي هذا ليس للمبتدئين، فقد قصدت بإخراجه أن يستفيد منه غيري من المدرسين والمعلمين، فبعد أخبرت بعض الزملاء بالعمل عليه طلب مني بعضهم وألح بطلبه كي يستفيدون منه في التحضير والتدريس.

وعلى كل فأنا عازم على اختصاره وإخراجه بطريقة صالحة للمبتدئين بإذن الله تعالى.

أبو العباس أنور بن محمود الرفاعي

١٩/ ربيع الآخرة/ ١٤٤٧





القسم الأول:

مقدمة الأصول الثلاثة



قال المؤلف:

بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الشرح:

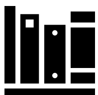
أصل هذا المتن موجود في "الدرر السنية في الكتب النجدية" من (١/١١٣) إلى (١/ ١٢٤) بدون ذكر البسملة، والكثير من الشراح يثبتونها للمؤلف وهم أعلم بالنسخ التي ظهر منها هذا المتن العظيم.

وأما بالنسبة للبسملة فالكثير من المؤلفين يبتدؤون الكتابة بالبسملة لثلاثة أسباب:

- السبب الأول: أن القرآن الكريم مبدوء بالبسملة.
- السبب الثاني: أن النبي ﷺ كان يبدأ رسائله للملوك بالبسملة.
- السبب الثالث: ورود حديث يقتضي الأمر بالبداءة بالبسملة، وهو حديث مختلف في صحته كما سيأتي.

فمنهم من يبدأ الكتابة بالبسملة لسبب واحد من هذه الأسباب الثلاثة، ومنهم من يفعل ذلك لسببين، ومنهم من يفعل ذلك للأسباب كلها.

ولاشك أن البداءة بالبسملة هو الأصل، وهو من أهم وأعظم أسباب البركة والتوفيق في الكتابة.



مسألة (١): وهل الأفضل أن يبدأ بالبسملة أم بالحمدلة؟

بعض العلماء يفصل فيقول: إذا كان الخطاب باللسان كالخطب والمواعظ فحقه الابتداء بالحمدلة، وإذا كان بالبنان كالكتب والمراسلات فحقه الابتداء بالبسملة، وهذا تفصيل حسن يوافق الأدلة.

مسألة (٢): في حديث الابتداء بالبسملة:

بالنسبة لحديث: (كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه ببسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع) فقد رواه الرهاوي في "الأربعين"

وقال الإمام النووي في "الأذكار" (١/٩٤): وقد روى موصولًا كما ذكرنا وروى مرسلًا ورواية الموصول جيدة الإسناد اهـ.

ويرى العلامة ابن باز رحمه الله أن طرقه يشد بعضها بعضًا وأنه من باب الحسن لغيره، وحسنه ابن الصلاح وغيره من العلماء.

وأما العلامة الألباني فإنه يرى ضعف الحديث فقال كما في "تفريغ سلسلة الهدى والنور" (١٠/٩١):

هذا الحديث مع شهرته ففيه رجل اسمه عبد الرحمن بن قرة وهو ضعيف لسوء حفظه ولذلك فالحديث بسبب ذلك ضعيف لا يحتج به والمحفوظ والثابت عن النبي ﷺ إنما هو قوله: (كل كلام لا يبتدئ بالحمد فهو أجذم) بالحمد هذا هو الثابت في سنن أبي داود وغيره اهـ

مسألة (٣): شرح الباء في باسم:

الباء في (باســـم) قيل: للاســـتعانة، وقيل: للتبرك، وقيل: للابتداء، وقيل: للمصاحبة، وهذا الأخير باطل؛ وهو قول المعتزلة، ولهم فيه مداخل عقدية باطلة.

والصـــحيح أن الباء للاســـتعانة وتقديرها: أبدأ مســـتعينًا بالله متبركًا باسمه تعالى. فإذا كان الباء للاســـتعانة فإننا نســـتنتج قاعدة مهمة وهي أن أســـاس نجاح الأعمال يكون بالاستعانة بالله تعالى، فدل ذلك على أمرين:

- **الأول**: أن العمل الذي يغفل فيه العامل عن الاســـتعانة بالله تعالى ممحوق البركة إلا أن يشاء الله تعالى.
- **الثاني**: أن الاستعانة بغيره فيما لا يقدر عليه إلا هو أساس فشل كل عمل في هذه الدنيا، وفشـــل العامل في الدنيا وفي الآخرة، إلا أن يتداركه الله برحمته.

مسألة (٤): مادة اشتقاق الاسم:

والاسم: مشتق من السمو وهو العلو، وقيل: من السمة وهي العلامة.

قال الباقلاني في "تمهيد الأوائل وتخصيص الدلائل" (١/ ٢٥٦):

اختلف الناس في الاســـم ومما اشـــتقاقه، فقال أهل الحق: إنه مشـــتق من الســـمو، وقالت المعتزلة وغيرها من أهل الأهواء: إنه مشـــتق من الســـمة وهي العلامة!! والدليل على صـــحة ما قلناه إنه مشـــتق من سما يســـمو وليس من وســـم

يسم، أن العرب صغرته فقالت: سمي ولو كان من السمة لقالوا: وُسَيم كما قالوا في تصـــغير عدة وزنة وعيدة ووزينة، فدل ذلك على أن المحذوف منه لام الفعل دون الفاء، وأهل العربية يعنون بلام الفعل آخر حرف من حروفه ويريدون بفاء الفعل أول حرف من حروفه، وقد أطبقوا على أن اســـم قد حذف منه لأنه على حرفين السين والميم وأصله سمو على ما قلناه اهـ.

قال أبو العباس: وكون المعتزلة قالوا: إن الاسم مشتق من السمة فهذا لا يعني أنه قول مردود؛ بل نرد ماهم فيه من لوازم؛ لأن الصحيح أن الاسم مشتق من السمو ومن السمة أيضًا.

قال سماحة الشيخ العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (٢ / ١٢٦):

واختلف في اشتقاقه فقيل: من السمو وهو الارتفاع، ووجه هذا أن المسمى يرتفع باسمه ويتبين ويظهر، وقيل: من السّـمة وهي العلامة، ووجهه: أنه علامة على مسماه، والراجح أنه مشتق من كليهما اهـ.

قال كبير العلماء الشيخ صالح الفوزان "إعانة المستفيد" (صـ / ٣٣٢):

والأسماء: جمع اسـم، والاسـم: ما يوضَـع علامةً على الشـيء مميِّزاً له عن غيره، مأخوذ من السُّمُو وهو الارتفاع، أو من السِّمَة وهي العلامة اهـ.

فائدة:

قال شـــيخ الشـــافعية باليمن العلامة يحيى بن أبي الخير العمراني في كتابه "الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار" (٢/ ٦٠٢):

والأسماء على ثلاثة أضـــرب: ألقاب: كزيد وعمرو. وأسماء مشـــتقة: كعالم وقادر وظالم. وأسماء وضعت للتمييز بين الأجناس: كالبر والبحر وغير ذلك اهـ

مسألة (٥): الفرق بين البسملة والتسمية:

البسملة هي: قولك: بسم الله الرحمن الرحيم، والتسمية هي قولك: باسم الله؛ وفي الحديث: (**يا غلام سم الله وكل بيمينك وكل مما يليك**) [(١)] فقال: (سـم) ولم يقل: (بسـمل) ولهذا نقول في الطعام: (باسـم الله) ولا نقول: (بسـم الله الرحمن الرحيم) على القول الصحيح من أقوال أهل العلم..

وعليه فالتسـمية جزء من البسـملة، والبسـملة تتضـمن التسـمية.. وقيل: لافرق بين التسمية والبسملة؛ لأن قول القائل: بَسْمِل، أو سَمّ: المراد به قل: بسم الله، أو قل: بسم الله الرحمن الرحيم.. والله أعلم

مسألة (٦) في الفرق بين الاسم والمسمى:

---

(١) البخاري (٥٠٦١) ومسلم (٥٣٨٨) عن عمرو بن أبي سلمة رضي الله تعالى عنه

هذه المسألة جدلية من زمن قديم!! وقد ذكرها شيخنا العلامة الحجوري في كتابه "الوسائل الخفية لضرب الدعوة السلفية" تحت كلام في معرض التحذير من إثارة أهل الباطل لها في صفوف طلاب العلم؛ كي يفرقوهم!!

قال الإمام أبو جعفر الطبري في "صريح السنة" (صـ / ٢٦):

وأما القول في الاسم: أهو المسمى أم غير المسمى؟ فإنه من الحماقات الحادثة التي لا أثر فيها فيتبع، ولا قول من إمام فيستمع، فالخوض فيه شين، والصمت عنه زين، وحسب امرئ من العلم به والقول فيه أن ينتهي إلى قول الله عز وجل ثناؤه الصادق وهو قوله: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإسراء:١١٠] وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف:١٨٠] اهـ.

قال أبو العباس:

إنما يخوض أهل السنة في مثل هذه المسائل الجدلية لدفع شبهات المبطلين فيها، وإبطال تلبيساتهم تحت مظلتها. وقد ذكر العلامة يحيى بن أبي الخير العمراني اليماني بعض شبهات القوم فقال في "الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار" (٢/٦٠٤):

واستدل من قال: الاسم للمسمى بقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾. فأضاف الأسماء إليه بلام الاستحقاق، والشيء لا يضاف إلى نفسه.

وروي عن النبي ﷺ أنه قال: "إن لله تسعة وتسعين اسمًا من أحصاها دخل الجنة" [٢]. فلو كان الاسم هو المسمى لكان لنا تسعة وتسعين ربًا اهـ.

ومن هنا أقول: سأنقل مختصر القول فيها ومن أراد التوسع فليرجع لبعض الكتب كـ "الملل والنحل" لابن حزم (١٩/٥) و "تمهيد الأوائل وتلخيص الدلائل" للباقلاني (١/ ٢٥٥)

قال الإمام ابن أبي العز في "شرح الطحاوية" (صـ / ٨٢):

وكذلك قولهم: الاسم عين المسمى أو غيره؟ وطالما غلط كثير من الناس في ذلك، وجهلوا الصواب فيه: فالاسم يراد به المسمى تارة، ويراد به اللفظ الدال عليه أخرى، فإذا قلت: قال الله كذا، أو سمع الله لمن حمده، ونحو ذلك، فهذا المراد به المسمى نفسه، وإذا قلت: الله اسم عربي، والرحمن اسم عربي، والرحمن من أسماء الله ونحو ذلك، فالاسم هاهنا هو المراد لا المسمى، ولا يقال غيره، لما في لفظ الغير من الإجمال: فإن أريد بالمغايرة أن اللفظ غير المعنى فحق، وإن أريد أن الله سبحانه كان ولا اسم له، حتى خلق لنفسه أسماء، أو حتى سماه خلقه بأسماء من صنعهم ، فهذا من أعظم الضلال والإلحاد في أسماء الله تعالى اهـ.

وقال سماحة العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (٢ / ١٢٩):

(٢) هذا الحديث جاء في الصحيحين من حديث أبي هريرة.

هل أسماء الله تعالى غيره، أو أسماء الله هي الله؟

إن أُريد بالاسم اللفظ الدال على المسمى فهي غير الله عز وجل، وإن أُريد بالاسم مدلول ذلك اللفظ فهي المسمى.

فمثلًا: الذي خلق السماوات والأرض هو الله، فالاسم هنا هو المُسَمَّى، فليست (اللام والهاء) هي التي خلقت السماوات والأرض، وإذا قيل: اكتب باسم الله. فكتبت بسم الله، فالمراد به الاسم دون المسمى، وإذا قيل: اضرب زيدًا. فضربت زيدًا المكتوب في الورقة لم تكن ممتثلًا، لأن المقصود المسمى، وإذا قيل: اكتب زيد قائم، فالمراد الاسم الذي هو غير المسمى اهـ.

مسألة (٧) شرح لفظ الجلالة (الله):

الله أي المألوه، والمألوه أي المعبود حبًا وإجلالًا وتعظيمًا فيكون المعنى: باسم إلهي ومعبودي، وهذا من أبلغ الاستعانة بالله تعالى؛ لأن فيه ربط الاستعانة بالعبادة.

مسألة (٨): شرح اسمي الله تعالى: (الرحمن الرحيم):

مختصر شرح الاسمين يكمن في معرفة الفرق بينهما وقد حرصت على جمع ما قيل في ذلك فتوصلت لأربعة أقوال:

القول الأول:

أن (الرحمن) ذو الرحمة الحاصـــلة، و (الرحيم) ذو الرحمة الواصـــلة؛ لأن الأثر المتعدي للعباد وهو (الرحمة) يكون من الاسم (الرحيم) وليس (الرحمن)

قال الإمام ابن القيم "بدائع الفوائد" (١/ ٢٨):

وأما الجمع بين: ﴿الرَّحْمَنِ الرَحِيم﴾ ففيه معنى هو أحســـن من المعنيين اللذين ذكرهما وهو أن الرحمن دال على الصـــفة القائمة به ســـبحانه، والرحيم دال على تعلقها بالمرحوم فكان الأول للوصـــف والثاني للفعل، فالأول دال أن الرحمة صفته والثاني دال على أنه يرحم خلقه برحمته.

وإذا أردت فهم هذا فتأمل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ ﴿إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ ولم يجيء قط رحمن بهم، فعلم أن الرحمن هو الموصـــوف بالرحمة ورحيم هو الراحم برحمته وهذه نكتة لا تكاد تجدها في كتاب اهـ.

قلت: وهذا مُعارض بكونه قد جاء ما يدل أن {الرحمن} دال على الصفة القائمة بالذات وعلى تعلقها بالمرحوم أيضًـــا، وذلك في قوله تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ ۞ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۞ خَلَقَ الْإِنْسَانَ ۞ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾ وبقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ﴾ والشاهد من الآيتين أنه برحمته من اسمه {الرحمن} علم وخلق برحمته، وأمســـك الطير برحمته، أنتج أن {الرحمن}

اسم يشتق منه صفة وهي (الرحمة) وأن هذه الصفة متعدية، وهذا يقرر إثبات الفعل الذي نفاه ابن القيم رحمه الله والله أعلم.

القول الثاني:

وقيل: إن الفرق بينهما أن [الرحمن] في الدنيا والآخرة، وأن [الرحيم] في الآخرة فقط.

قال الإمام السبكي في "طبقات الشافعية الكبرى" (٩/١٤٢):

من كتاب "كشف المعاني" لابن جماعة، في الجمع بين الرحمن والرحيم في البسملة، أن أحسن ما يقال فيه ولم نجده لغيره: أن فعلان مبالغة في كثرة الشيء ولا يلزم منه الدوام كغضبان، وفعيل لدوام الصفة كظريف فكأنه قيل: العظيم الرحمة الدائمة، قال: وإنما قدم الرحمن على الرحيم؛ لأن رحمته في الدنيا تعم المؤمنين والكافرين، وفي الآخرة دائمة لأهل الجنة ولذلك يقال: رحمن الدنيا ورحيم الآخرة اهـ.

قلت: نعم فإن الرحمة وسعتهم في الدنيا ولكنها منقطعة عن الكفار في الآخرة فيوافق على ذلك، وأما قوله: (رحمن الدنيا ورحيم الآخرة) فإنه مردود بدليلين اثنين:

الأول: قوله تعالى: ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الْأَرْضِ إِلَّا بِإِذْنِهِ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [الحج: ٦٥] فهو دليل أن اسم {الرحيم} شمل الناس جميعًا

وليس خصوص المؤمنين، فدل أن الرحمة منه في الدنيا لهم جميعًا وفي الآخرة للمؤمنين خصوصًا وعليه فلا يصح تخصيص {الرحيم} بالآخرة فقط

الثاني: قوله تعالى: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ [الأعراف:١٥٦] فقوله: ﴿وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ﴾ دليل أنها من الاسم {الرحمن} لدلالتها على السعة، وقوله: ﴿كُلَّ شَيْءٍ﴾ دليل على أنها عامة للمسلم والكافر وسائر الحيوان في الدنيا، وقوله ﴿فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ﴾ فإن قلنا: هي خاصة بالمؤمن بدلالة آخر الآية، تعارض ذلك مع أولها. فدل أنها وسعت الجميع وأن للمتقين الحظ الأوفر منها في الدنيا وهي لهم خاصة في الآخرة.

القول الثالث:

وقيل: إن [الرحمن] رحمة عامة بالمسلم والكافر، و [الرحيم] خاصة بالمسلم فقط، استدلالاً بقوله تعالى: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ [الأحزاب:٤٣].

وهذا استدلال مردود؛ بقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [البقرة:١٤٣]؛ لأن لفظ "الناس" يدخل فيه المسلم والكافر، بل يشمل الجن والإنس على التأويل الراجح والواضح، وتؤول الآية السابقة بأن الرحمة على قسمين:

عامة: بدليل قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ فيدخل فيها رحمته بهم في تسخير أمور الدنيا ومعاشاتها، ولا مانع من دخول الدلالة والإرشاد على الإيمان؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] فإنه من رأفته بعموم الناس ورحمته بهم أرسل إليهم محمدًا عليه الصلاة والسلام.

خاصــة: بدليل قوله: ﴿وَكَانَ بِالْمُؤْمِنِينَ رَحِيمًا﴾ فيدخل فيها رحمته بهم دون غيرهم بأن هداهم للإيمان وحببه في قلوبهم.

القول الرابع:

وقيل: لا فرق بينهما استنادًا لحديث النبي ﷺ: (رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما)

ولكنه حديث أنكره الحفاظ: ذكره الطبراني في "الكبير" (٣٢٣) عن معاذ بن جبل: وفيه أن رســـول الله ﷺ قال له: (يا معاذ ألا أعلمك دعاء تدعو به) وذكر دعاء طويلًا جاء فيه: (رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما).

وذكره ابن أبي شيبة في "المصنف" (٣٠٤٨٦) عن عبد الرحمن بن سابط، قال: كان رســـول الله ﷺ يدعو بهؤلاء الكلمات ويعظمهن: (اللهم يا فارج الغم، وكاشـــف الكرب، ومجيب المضـــطرين، ورحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما، ارحمني اليوم رحمة تغنيني بها عن رحمة من سواك).

قال المنذري في الترغيب (٢٢٠٣): رواه الطبراني في الصـغير بإسـناد جيد اهـ وحكم عليه العلامة الألباني بالنكارة والوضع.

ولو لم يكن مما يثبت الفروق إلا أن المخلوق قد يوصـف بالرحمة ويقال له: (فلان رحيم) ولكن لا يصح بحال من الأحوال أن يقال له: (فلان رحمن) لكان هذا الفرق كاف في الدلالة على الفرق بينهما، ومع ذلك ففي هذا القول وجه صـــواب وذلك أنه لا فرق بين الاسمين من حيث أن كلاهما يشـــتق منهما صـفة الرحمة وهل كلاهما متعدية؟ هذا مما فيه النزاع وسيأتي بإذن الله.

الترجيح:

قال الإمام الماوردي رحمه الله في "النكت والعيون" (١/ ٥٣):

واختلفوا في اشتقاق: {الرحمن والرحيم} على قولين:

- أحدهما: أنهما مشتقان من رحمة واحدة، جعل لفظ الرحمن أشد مبالغة من الرحيم.
- والثاني: أنهما مشـــتقان من رحمتين، والرحمة التي اشـــتق منها الرحمن، غير الرحمة التي اشتق منها الرحيم، ليصح امتياز الاسمين، وتغاير الصفتين، ومن قال بهذا القول اختلفوا في الرحمتين على ثلاثة أقوال:
- أحدها: أن {الرحمن} مشتق من رحمة الله لجميع خلقه، و {الرحيم} مشتق من رحمة الله لأهل طاعته.
- والقول الثاني: أن {الرحمن} مشتق من رحمة الله تعالى لأهل الدنيا والآخرة، و {الرحيم} مشتق من رحمته لأهل الدنيا دون الآخرة.
- والقول الثالث: أن {الرحمن} مشـــتق من الرحمة التي يختص الله تعالى بها دون عباده، و "الرحيم" مشتق من الرحمة التي يوجد في العباد مثلها اهـ

قلت: والراجح هو القول الأول الذي ذكره الماوردي رحمه الله أي أنهما مشـــتقان من رحمة واحدة؛ فهو يرحمنا لأنه رحمن ولأنه رحيم ولفظ الرحمن أشـــد مبالغة من الرحيم.

ونلخص المبحث بالتالي:

١- أن كلا الاسمين يشتق منهما صفة الرحمة.

٢- أن الرحمن هو البالغ الذروة في الرحمة، والرحيم دلالة على إيصال هذه الرحمة للخلق بتفوت كل بقدر رحمة الله تعالى به، أو بحسب ما يستحق.

٣- ولأنه لا يمكن لأحد سواه أن يبلغ الذروة في الرحمة كان اسم "الرحمن" خاص بالله تعالى وحده، ولأنه يمكن أن يتراحم الخلق بينهم ويتواصلون بها كان اسم "الرحيم" عامًا من حيث الاشتراك اللفظي وليس في حقيقة المعنى.

فهذا هو خلاصة ما انتهى إليه قلمي في هذه المسألة بعد بحث أخذ مني قرابة الأسبوع وأنا أتقلب بين الخوف والرجاء، أرجو التوفيق للصواب وأخشى الزلل في القول المعاب، فاللهم ارحمني برحمتك فأنت واسع الرحمة يا رحمن وأنت المتفضل بها يا رحيم.

قال المؤلف:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَيْنَا تَعَلُّمُ أَرْبَعِ مَسَائِلَ:

الشرح:

وهنا بدأ المؤلف بذكر المسائل الأربع بأسلوب جميل جدًا؛ من خلال الدعاء للمتعلم بالرحمة، ثم بين أهميتها بتقرير ثلاثة أمور وهي: الأمر والحكم والعدد، فقال: (اعلم) وهذا فعل أمر يقتضي إيجاد المأمور به. وقال: (يجب) وهو بيان حكم إيجاد المأمور به وأنه للوجوب لا للاستحباب. وقال: (أربع مسائل) وهي عين المأمور بإيجادها وتحقيقها عن طريق تعلمها والتفقه فيها كما في قوله: (تَعَلُّم). فدل على أهمية العلم بهذه المسائل الأربع.

والنظر فيها يكون بعينين:

الأولى: بعين الجهل: والناظر هنا كالحمار الذي يحمل فوق ظهره العنب ويأكل التبن من تحت قدمه، ولهذا قال المؤلف: (تعلم) أي أنه لايكفي المرور على هذه المسائل مرور الغافلين؛ فهي من العلوم المهمة التي لايسع أحد جهلها. ولهذا قال: (يجب) أي أن تعلمها واجب.

الثانية: بعين العلم: والناظر هنا يتحقق له الفوز والنجاة في الدنيا والآخرة؛ كما يحصل على الرفعة وعلو المكانة؛ وذلك أنه يصير من ورثة الأنبياء وحملة وظيفتهم المباركة.

وهنا يتجلى السـبب في دعوة المؤلف لمتعلم هذه الأصـول بالرحمة؛ وذلك أن رحمة الله تعالى لعباده على قسمين:

رحمة ربوبية: وهذه الرحمة تشـمل المؤمن والكافر؛ فكلهم يشـتركون بعطاء الله العطاء العام كالليل والنهار والشـمس والقمر والتراب والمطر والبحر والشجر والأذن والنظر وغير ذلك من العطاء الكوني المشترك.

رحمة ألوهية: وهذه الرحمة لاينالها إلا من وحدوه، فهي رحمة خاصـة تتضـمن العطاء الخاص لأوليائه الذين لاخوف عليهم ولاهم يحزنون، كالرعاية، والحماية، والمعية، واستجابة الدعاء، والنصر على الأعداء، ومن أعظم وأهم عطاء الألوهية هو رحمة الله تعالى بهم وهدايتهم للتوحيد الخالص، وصيانتهم من الضلال والوقوع في الشرك.

ومن أراد أن يعرف منزلته في هذه الرحمة فليقس نفسه في ثلاثة أمور: فإن كان ممن إذا أعطي شكر وإذا ابتلي صبر وإذا أذنب استغفر فليعلم أنه قد نالته رحمة الله تعالى الخاصة بعطاء وحظ وافر.

بحث في تعريف الواجب

والواجب: في اللغة له معنيان:

الأول الســـــاقط: قال ابن فارس في "معجم المقاييس" (٦/٨٩): "الواو والجيم والباء: أصلٌ واحد، يدل على سقوط الشيء ووقوعه ثم يتفرع اهـ

قلت: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا﴾ [الحج: ٣٦]؛ أي: إذا سـقطت على الأرض بعد نحرها. والسـقوط هنا بمعنى اللزوم والاسـتقرار؛ لأن الشيء إذا سقط يلزم مكان سقوطه ويستقر فيه.

ومنه حديث أبي هريرة عند الإمام مسـلم ﷺقال: كنا عند رسـول الله ﷺ يومًا، فسـمعنا وَجْبَةً، فقال النبي ﷺ: (**أتدرون ما هذا؟**) قلنا: الله ورسـوله أعلم، قال: (**هذا حجر أرسـل في جهنم منذ سـبعين خريفًا، فالآن انتهى إلى قعرها**).

الثاني: الثبوت: فيقال: وجب عليك أي ثبت عليك، وهنا قال أبو البقاء الكفوي في كتابه "الكليات" (١/١٠٩١): والواجب من وجب الشيء ثبت اهـ

وقال (١/١٤٩٧): والواجب هو الساقط أو اللازم والحق أنه الثابت اهـ

والواجب قد يعرف بالحقيقة وقد يعرف بالحكم:

تعريفه بالحقيقة: هو المأمور به على سبيل الإلزام.

وتعريفه بالحكم: هو ما يثاب فاعله امتثالًا ويستحق العقاب تاركة اختيارًا.

وهو على قسمين: واجب عيني وواجب كفائي.

والواجب العيني: هو ما يشمل جميع المكلفين.

والواجب الكفائي: هو الذي إذا قام به البعض أخذًا وأداء سقط عن البعض الآخر.

وقول الشيخ رحمه الله تعالى: (أنه يجب علينا تعلم أربع مسائل) يعني الوجوب العيني لا الكفائي؛ فالواجب العيني هو الذي لايسع جهله على أحد من المكلفين كل بعينه. فاستدعى دقة التعبير أهمية التركيز على هذه المسائل؛ لأنك معني بها ويشملك وجوب معرفتها.

واعلم أنه ما من واجب أوجبه الله عليك إلا كان فيه دلالة لك على الخير وتحذير لك من الشر، ولايمكنك تحصيل هذه المقاصد العظيمة إلا بتعلم ذلك الواجب وحسن التعرف عليه.

فائدة في الفرق بين الفرض والواجب

اختلف العلماء في الفرض والواجب هل هما بمعنى واحد أم أن كل واحد منهما يحمل معناه الخاص به؟

القول الأول: وهو قول الجمهور أن الفرض والواجب مترادفان أي أن كل واحد منها يدل على الآخر، سواء قلت: هذا واجب أو هذا فرض فهما بمعنى واحد، كقولة: هذا سنة أو مستحب.

القول الثاني: وهو قول الحنفية، فهم رحمهم الله تعالى أول من أحدثوا التفريق ولم يتفقوا في صورته، وبعد التتبع لصورة التفريق عندهم رأيتهم على خمس فرق:

الفريق الأول: أن الفرض هو ما أمر الله تعالى به في القرآن الكريم والواجب ما أمر به الشرع سواء كان في القرآن أو السنة، وهذا القول هو أحسن أقوالهم وأسلمها من الخلل.

الفريق الثاني: أن الفرض هو الثابت بالنص القطعي والواجب هو الثابت بالنص الظني، والقطعي عندهم هو النص من القرآن والنص المتواتر من السنة، وأما الظني فهو عندهم ما جاء في القراءة الشاذة أو أحاديث الآحاد أو القياس.

قال أبو البقاء الكفوي في "الكليات" (١/١٠٩١):

والفرض ما ثبت بدليل قطعي متنه وسنده والواجب ما ثبت بدليل فيه شبهة متنًا كالآية المؤولة أو سندًا كخبر الواحد اهـ

الفريق الثالث: وحكى الشيخ أبو حامد الإسفراييني عن الحنفية أن الفرض ما أجمع على وجوبه والواجب ما كان مختلفًا في وجوبه.

الفريق الرابع: أن الفرض ما ثبت بنص القرآن، والواجب ما ثبت من غير وحي مصرح به حكاه القاضي في التقريب وابن القشيري.

وألزمهم القاضي أن لا يكون شيء مما ثبت وجوبه بالسنة كنية الصلاة ودية الأصابع والعاقلة فرضًا، وأن يكون الإشهاد عند التبايع ونحوه من المندوبات الثابتة بالقرآن فرضًا

الفريق الخامس: وفرق العســـكري بينهما من جهة اللغة بأن الفرض لا يكون إلا من الله، والإيجاب يكون من الله ومن غيره: يقال: فرض الله كذا وأوجب. ولا يقال: فرض السيد على عبده، وإنما يقال: أوجب، وهذا يشبه الأول من وجه الوجوب الشرعي فإنه خاص بالمشرع، ويخالفه من وجه الوجوب اللغوي فإنه أعم.

ومن خلال هـذا التفريق كـان حكمهم على منكر الفرض بالكفر ومنكر الواجب بالبدعة والفســق، وكان تفريقهم بين المنكرين بناء على التفريق بين الثابت القطعي والظني حســـب مذهبهم الفاســـد، والذي عليه أهل الســـنة هو العمل بأحاديث الآحاد إذا ثبت صـحتها، وإنما يفرقون بين من ثبت عنده الحديث ومن لم يثبت وهذا يدخل فيه الآحاد وغيره.

ومن أنكر عليهم هذا التفريق من العلماء:

قال العلامة تاج الدين السبكي في كتابه "الأشباه والنظائر" (٢/٨٧):

الفرض والواجب مترادفان خلافًا لأبي حنيفة "حيث" أنزل رتبة الواجب عن الفرض اهـ.

وقال السبكي في "الإبهاج" (١/٥١):

وادعوا أن الفرض والواجب مختلفان بالحقيقية، وقصـدهم من هذا أن الوتر واجب وليس بفرض، وقراءة الفاتحة في الصلاة واجبة بالحديث وأصل القراءة فرض بقوله تعالى: ﴿فاقرأوا ما تيسر منه﴾ ولو سـلم لهم الاختلاف في الطريق لم يلزم منه الاختلاف في الحقيقة اهـ

وقال العلامة الزركشي في "البحر المحيط" (١/١٤٥):

من أسماء الواجب: المحتوم والمكتوب والفرض، ولا فرق عندنا بين الفرض والواجب شـــرعًا، وإن كانا مختلفين في اللغة، إذ الفرض في اللغة التقدير ومنه فرض القاضي النفقة، والوجوب لغة قد سبق.

ومن الدليل على ترادفهما حديث قال: هل عليَّ غيرها؟ قال: (لا إلا أن تطوع) [٣] فلم يجعل بين الفرض والتطوع واسـطة، بل الخارج عن الفرض داخل في التطوع اهـ

وقال الزركشي أيضًا في "البحر المحيط" (١/١٤٦):

الفرض والواجب مترادفان شـــرعًا في أصـــح الروايتين عن أحمد، اختارها جماعة منهم ابن عقيل، وقاله الشافعية اهـ.

(٣) رواه البخاري (٤٦ – ٢٥٣٦) ومسلم (١٠٩) من حديث طلحة بن عبيد الله رضي الله تعالى عنه.

قال المؤلف:

المســـألة الأُولَى: الْعِلْمُ: وَهُوَ مَعْرِفَةُ اللهِ، وَمَعْرِفَةُ نَبِيِّهِ ﷺ، وَمَعْرِفَةُ دِينِ الإِسْلامِ بالأَدِلَّةِ.

الشرح:

حدد المؤلف المسألة الأولى أنها العلم.

والعلم في اللغة: هو ما يزول به الجهل، ولا يكون ذلك إلا بإدراك المعلوم على حقيقته التي هو عليه.

فخرج بقولنا: (إدراك المعلوم) عدم الإدراك بالكلية وهو ما يسميه العلماء الجهل البسيط، وضابطه أن الجاهل يعرف جهل نفسه.

وخرج بقولنا: (على حقيقته التي هو عليه) الإدراك على غير الحقيقة وهو ما يسـميه العلماء الجهل المركب، وضـابطه أن الجاهل لايعرف جهل نفسـه!! بل ينسب جهله للعلم.

والإدراك درجات متفاوتة، وبتفاوت الإدراك يكون الشيء المدرك إما علمًا أو ظنًا أو شكًا أو وهمًا.

وأنكر العلامة الكَلْوَذاني الحنبلي وصـف العلم بالإدراك في كتابه "التمهيد في أصول الفقه" (٣٨/١) فقال:

فصـل: أما من قال حد العلم: "هو إدراك المعلوم على ما هو به" فهو غير صـــحيح. لأن هذا لفظ مجمل وهو يســـتعمل في الأفعال أكثر مما يســـتعمل في الأقوال، ولهذا يقال: أدرك الزرع، إذا حان حصـــاده، وأدرك الغلام، إذا بلغ حد التكليف، وأدرك الرجل، (إذا) لحقه، وهذه كلها أفعال، وتستعمل أيضًا في الأقوال قال تعالى: ﴿لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَـارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَـارَ﴾ أي يحيط بها، وإذا كان لفظًا مشتركًا كان اللفظ (الخالص) أولى اهـ.

ويفســر العلم بالمعرفة فقد جاء في "الصــحاح" للجوهري (٤٩٣/١) وفي "لسان العرب" لتلميذه ابن منظور، قالا: وعلمت الشيء أعلمه علمًا: عرفته اهـ.

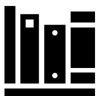
والعلم في الشــرع: هو المعرفة بالكتاب والســنة؛ لقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ زِدْنِي عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤] وزيادة العلم هنا هي زيادة المعرفة بالقرآن الكريم. والقرآن تضمن المعرفة بالله وبرسوله وبدينه

وحد العلم بالمعرفة قاله الكثير من العلماء ومنهم أبو الخطاب الكَلْوَذَاني الحنبلي والقاضـــي أبوبكر ابن العربي والبقاعي وابن الملقن وابن تيمية وابن بطال والمؤلف والمعلمي اليماني وابن عاشور والألباني وغيرهم

وأنكره فخر الـدين الرازي على القـاضـــي فقـال في "مفـاتيح الغيـب" (١٨٥/٢):

أما قوله: العلم هو المعرفة ففيه وجوه من الخلل:

- أحدها: أن العلم هو نفس المعرفة فتعريفه بها تعريف للشـــيء بنفســـه وهو محال.



- وثانيها: أن المعرفة عبارة عن حصـــول العلم بعد الالتباس ولهذا يقال: ما كنت أعرف فلانًا والآن فقد عرفته.
- وثالثها: أن الله تعالى يوصـف بأنه عالم ولا يوصـف بأنه عارف؛ لأن المعرفة تستدعي سبق الجهل وهو على الله محال اهـ

وكلام الرازي ليس صحيحًا؛ لثلاثة أسباب:

الســـبب الأول: أن العلماء أقروا هذا التعريف، بل جاء أنهم أجمعوا عليه لكثرة القائلين به، ولهذا قال العلامة ابن القيم في "إعلام الموقعين" (١/٧):

قال أبو عمر وغيره من العلماء: (أجمع الناس على أن المقلد ليس معدودًا من أهل العلم، وأن العلم معرفة الحق بدليله) وهذا كما قال أبو عمر رحمه الله تعالى؛ فإن الناس لا يختلفون أن العلم هو المعرفة الحاصـــلة عن الدليل وأما بدون الدليل فإنما هو تقليد اهـ

السبب الثاني: أن القرآن بين إقامة المعرفة مقام العلم فقال تعالى: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ فأقام العلم مقام المعرفة والمعرفة مقام العلم. مع أن القاســـم المشـــترك بينهما وجهي لا من كل وجه.

الســـبب الثالث: أن النبي ﷺ أخبر عن الله تعالى بالمعرفة فلايصـــح نفي المعرفة عن الله تعالى، ولايصح وضع اللوازم الباطلة على ذلك؛ فقد ثبت عند أحمد والحاكم من حديث ابن عباس رضـي الله تعالى عنهما أن النبي ﷺ قال: (**احفظ الله يحفظك احفظ الله تجده أمامك تعرف إلى الله في الرخاء يعرفك في الشدة**).

وجعلها العلامة صالح آل الشيخ في "شرح الأربعين" على المقابلة فقال كما في (صـ/١٦١):

فهذا إذن لا يقتضي أن يكون من صفاته جل وعلا المعرفة، فإنه لا يوصف الله جل وعلا بأنه ذو معرفة، بل يقيد هذا على جهة المقابلة اهـ

وأثبتها الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم" فقال (١/١٨٩):

ومعرفة الله أيضًا لعبده نوعان:

معرفة عامة: وهي علمه تعالى بعباده واطلاعه على ما أسروه وما أعلنوه كما قال: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ [ق: ١٦] وقال: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنْتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ﴾ [النجم:٣٢]

والثاني معرفة خاصة: وهي تقتضي محبته لعبده وتقريبه إليه وإجابة دعائه وإنجائه من الشدائد وهي المشار إليها بقوله صلى الله عليه وسلم فيما يحكي عن ربه: (ولا يزال عبدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها ولئن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه) اهـ

ففسر المعرفة بالعلم في الأولى وهي العامة، وبالمعية في الثانية وهي الخاصة، وعليه لايصح القول إن المعرفة تكون مسبوقة بالجهل في حق الخالق فالخالق ليس كالمخلوق؛ فكما أن المخلوق موجود ووجوده مسبوق بعدم والخالق موجود ووجوده غير مسبوق بعدم، فكذلك معرفة المخلوق إن كانت مسبوقة بجهل فمعرفة الخالق غير مسبوقة بجهل.

والعلم منه ما يكون بالنظر والاستدلال ومنه ما يكون بالضرورة، وكي لا يتبادر ذهن الجاهل لبعض العلوم غير المعنية، قام الشيخ بتحديد المعلوم بثلاث معلومات مهمات متحتمات المعرفة على كل مسلم ومسلمة، بل على كل الناس من الجن والإنس: ذكورهم وإناثهم. وهذه الثلاث هي: معرفة الله وهو المرسل ومعرفة نبيه وهو الرسول ومعرفة دين الإسلام وهو الرسالة.

وبهذا سميت هذه الرسالة "الأصول الثلاثة"، وسوف يعيدها المؤلف بالتصريح في موطن آخر. ولهذا سنشرحها هنا إجمالًا ونعيد شرحها هناك بشكل أوسع إن شاء الله تعالى.

الأصل الأول: معرفة الله تعالى: ومعرفته تكون بالإيمان بوجوده، والإيمان أنه الرب فلا خالق ولا رازق إلا هو، ولا متصرف بالأمور كلها إلا هو، والإيمان أنه المعبود فلا إله إلا هو وحده لاشريك له.

وشرحه المؤلف بقوله: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ اهـ

الأصل الثاني: معرفة رسول الله: ويدخل في ذلك معرفة نسبه، ومعرفة وظيفته ومنزلته، وكل ذلك يكون باتباع سنته، والتمسك بها، والدعوة إليها، والحذر والتحذير من مخالفتها.

وشرحه المؤلف بقوله: وَهُوَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللهِ بْنِ عَبْدِ الْمُطَّلِبِ بْنِ هَاشِمٍ، وَهَاشِمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ

عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلاةِ وَالسَّلامِ، وَلَهُ مِنَ الِعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ في النبوة.

نُبِّئَ بـ (اقْرَأ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ. بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالَدْعُوة إِلَى التَّوْحِيدِ اهـ

الأصل الثالث: معرفة دين الإسلام: وهو دين كل الأنبياء من أولهم إلى آخرهم، والإسلام هو دين الفطرة وتوحيد الخالق. وأنه على قسمين: شريعة ومنهج.

وشرحه المؤلف بقوله: وَهُوَ: الاسْتِسْلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ، وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

بحث حول تعريف الدليل

وقوله بالأدلة: يريد بذلك أن العلم بالأصول الثلاثة لابد أن يكون بالأدلة، فخرج بذلك التقليد فإنه ليس علمًا وليس حجة، وقد اتفق العلماء أن المقلد ليس من أهل العلم وأن التقليد هو اتباع من ليس حجة بغير حجة.

تعريف الدليل:

لغة: هو المرشد إلى المطلوب. وهو الموصل إلى المطلوب. وهو الهادي إلى شيء حسي أو معنوي. ومنه: دليل القافلة، وهو الرجل الذي يدلهم إلى الطريق.

ومنه قول الصديق عندما سألوه: من هذا الرجل الذي بين يديك؟ فقال: هذا الرجل يهديني السبيل. فيحسب الحاسب أنه إنما يهديه الطريق، وإنما يعني سبيل الخير.

فالصديق ورى عليهم بالتعريف اللغوي وهو يقصد التعريف الشرعي وذلك أن النبي ﷺ هو دليله مرشده في الطريق إلى الله سبحانه وتعالى.

اصطلاحًا: هو ما يكون العلم به مستلزمًا للعلم بالمطلوب. وقيل: هو الذي يلزم من العلم به العلم بشيء آخر. وقيل: ما يمكن التوصل بصحيح النظر فيه إلى العلم بالغير. وقيل: مَا يُمْكِنُ التَّوَصُّلُ بِصَحِيحِ النَّظَرِ فِيهِ إِلَى مَطْلُوبٍ خَبَرِيٍّ.

شرعًا: هو نصوص الوحي.

والفرق بين الدليل وبين الدلالة: أن الدليل هو النص والدلالة هي الشاهد من النص.

قال شيخ الإسلام في "النبوات" (١/٢٤٨):

وفي الكلام المأثور عن الإمام أحمد: أصول الإسلام أربعة: دالٌ، ودليل، ومبيِّن، ومُستدِلّ. فالدالّ هو الله، والدليل هو القرآن، والمبيّن هو الرسول؛ قال الله تعالى: ﴿لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾، والمستدِلّ هم أولوا العلم وأولوا الألباب الذين أجمع المسلمون على هدايتهم ودرايتهم.

وقد ذكره ابن الْمَنِّي [٤] عن أحمد. وهو مذكور في العدّة للقاضي أبي يعلى، وغيرها، إما أنّ أحمد قاله، أو قيل له، فاستحسنه اهـ.

قال ابن بطال في "شرح البخاري" (٣/٤٥):

وتمام العلم هو المعرفة بالله ورسوله، ومعرفة الدلالة على ذلك اهـ

وقال العلامة الألباني كما في "تفريغ السلسلة" (١٤/٣٣٣):

ونعني نحن حينما نذكر العلم هو المعرِفة بالكتاب والسنة، ولا نعني بالعلم العلم التقليديّ اللي بيسموه اليوم: "الفقه"، وهذا يتفقه بمذهب الحنفي، أو الشافعي، والمالكي، الحنبلي. لا، العالم ليس فقط الحاكم الأول أي: الخليفة، أي

(٤) قال محقق "النبوات" عبدالعزيز الطويان (١/٢٤٨): ابن المني: هو أبو الفتح؛ نصر بن فتيان بن مطر بن المني النهرواني الحنبلي، شيخ الحنابلة. ولد سنة ٥٠١ هـ. كان ورعاً، عابداً، حسن السمت، على منهج السلف. توفي سنة ٥٨٣ هـ.

عالم مســـلم يريد أن يُفتي الناس، فلا يجوز له أن يُفتي إلا بما قال الله، وقال رســـول الله صلَّى الله عليه وسلَّم اهـ

مسألة في أقسام الأدلة:

وتنقسم الأدلة إلى نقلية: وهي نصوص الشرع، وعقلية: وهي إعمال العقل والمنطق في التأمل في الأمور والاستنتاج للحقائق البديهية والخفية من خلالها.

ومن ذلك عندما قيل لبعض الأعراب: ما الدليل على أنّ للعالم صـــانعًا؟ فقال: إنّ البعرة تدل على البعير، وآثار القدم تدل على المســـير، وهيكل علوي بهذه اللطافة ومركز سفلي بهذه الكثافة أما يدلّان على الصانع الخبير.

والدلالات العقلية تكون بالقياس على دليل آخر، وتكون بالاســـتقلال وتكون بالاستنباط من نفس الدليل.

قال المؤلف:

المسألة الأُولَى: الْعَمَلُ بِهِ.

الشرح:

وهنا يقرر المؤلف أنك بعد أن تتعلم الأصــــول الثلاثة: وهي: معرفة الله تعالى، ومعرفة نبيه ﷺ، ومعرفة دين الإســــلام بالأدلة، فإنه يجب عليك بعد ذلك الانتقال للمرحلة الثانية وهي مرحلة العمل بالعلم؛ فدل أن العلم يسبق العمل.

وكل الأدلة الدالة على العلم هي أدلة على العمل به، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران: ١٩] والإسلام هو العمل بعد العلم؛ ولهذا كانت جميع أركانه أركان عملية.

وفي الحديث عن النبي ﷺ قال: (لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يســـأل عن عمره فيم أفناه وعن علمه فيم فعل فيه وعن ماله من أين اكتســـبه وفيم أنفقه وعن جسمه فيم أبلاه)

جاء عن ابن مســـعود ومعاذ بن جبل وأبي برزة، وإنما صـــح عن أبي برزة الأسلمي، وتصح الروايات الأخرى لصحة رواية أبي برزة فهي من باب الصحيح لغيره.

والشاهد من الحديث أن الإنسان يُسأل يوم القيامة عن العمل بالعلم، وقد توسع شيخنا العلامة الحجوري بذكر خطورة عدم العمل بالعلم في كتابه "النصيحة المحتومة لقضاة السوء وعلماء الحكومة" فليستفد منه من أحب ذذلك.

وقال في كتابه "شـرح لامية ابن الوردي" (صـ/٨٣) تعقيبًا على قول صاحب الزبد: وعالمًا بعلمه لم يعملن معذب من قبل عباد الوثن:

فهذا وإن كان فيه مبالغة، لكن العالم الذي لم يعمل بعلمه، معرّض للعذاب، واليهود لما لم يعملوا بعلمهم؛ غضب الله عليهم، قال الله عزوجل: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ۝٦ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ۝٧﴾ [الفاتحة:٦-٧]، والمغضوب عليهم هم: اليهود؛ كانوا أحبارًا لم يعملوا بعلمهم فغضب الله عليهم، والضالون هم: النصارى، رهبانًا بلا علم ضلوا لعدم تعلم العلم، واليهود والنصارى جميعًا ضالون ومغضوبًا عليهم، لكن سبب ضلال النصارى وغضب الله عليهم عدم تعلم العلم، وسبب ضلال اليهود وغضب الله عليهم عدم العمل بالعلم اهـ.

والخلاصة أن تحصيل العلم واجب وعدم العمل به حرام:

- فمن ترك العلم أثم مرتين: لعدم العمل ولعدم تحصيل العلم الموجب للعمل، فإنه مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب.
- ومن ترك العمل بالعلم أثم مرتين: لعدم العمل الموجب للعلم به، ولعدم العمل بالعلم الموجب للعمل.

قال العلامة ابن الأمير الصنعاني رحمه الله في "التنوير شرح الجامع الصغير" (٥/٦٢):

لا شك أن العلم ليس مطلوبًا لذاته، بل للعمل به. قال العلائي: مقصود الحديث أن العمل بالعلم هو المطلوب من العباد والنافع عند قيام الأشهاد ومن تخلق بالعلم عن العمل كان حجة على صاحبه وخزيًا وندامة يوم القيامة اهـ

وقال (٩/٥٢٤):

وفي الحديث الحث على العمل بالعلم ولا يكون العالم من الذين يقولون مالا يفعلون فقد مقت الله أولئك أكبر مقت، وفيه إعلام بأن الجاهل في ظلمة والعلم نور يضيء لصاحبه اهـ.

وقال سماحة الشيخ العلامة ابن عثيمين رحمه الله كما في "اللقاء المفتوح" (٥/١٣٣):

يجب على طالب العلم أن يكون عاملاً بما علم؛ لأن هذه هي ثمرة العلم، أيُّ ثمرة للعلم إذا علمت ولم تعمل؟! لا شيء، بل إن هذا الذي علم ولم يعمل أشد ضرراً على الأمة من رجل جاهل؛ لأنه سيكون قدوة، والناس أكثر ما يأخذون هو: الاقتداء والتأسي بفعل العالِم، فإذا كان هذا العالِم يبث الشرع في عباد الله ويدعو إليه لكن لا يَعْمَل به لم يثق الناس بعلمه ولا بدعوته، وهو مع ذلك من أول من تُسَعَّر بهم النار يوم القيامة نسأل الله العافية اهـ.

مسألة: ما حكم عدم العمل بالعلم؟

الجواب:

ترك العمل بالعلم له ثلاثة أحوال:

الأول: العلم الواجب:

وتركه محرم، وهو على قسمين: ترك يصل لدرجة الكفر، كترك العمل بعلم التوحيد، وترك يصل لدرجة الفسق كترك العمل بأدلة بر الوالدين وأدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مع القدرة.

الثاني: العلم المحرم:

كعلوم النجوم الممنوعة؛ فقد ثبت أن من اقتبس شعبة من النجوم فقد اقتبس شعبة من السحر، فدل أن العمل بالعلوم الضارة حرام بعضها كفر وبعضها فسق، وترك العمل بها واجب.

الثالث: العلم المباح:

والعلم المباح العمل به مباح وتركه مباح، وبما أن المباح فإنه قد يجب إن الواجب لا يتحقق إلا به، وقد يحرم إذا كان يصل به لحرام.

وهل يكره ترك المستحب ويستحب ترك المكروه؟

والجواب:

قال العلامة ابن دقيق العيد "إحكام الأحكام شرح عمدة الأحكام" (١/٦٩):

وليُعلم الفرق بين قولنا: "يُستحب فعل كذا" وبين قولنا: "يُكره تركه" فلا تلازم بينهما؛ فقد يكون الشيء مستحب الفعل ولا يكون مكروه الترك كصلاة الضحى مثلا وكثير من النوافل اهـ

وقال الحافظ ابن حجر "فتح الباري" (١١/١٧):

ولا يلزم من ترك المستحب الكراهة بل يكون خلاف الأولى اهـ

وقال سماحة الشيخ العلامة ابن عثيمين "الشرح الممتع" (٤/٣٥٨):

لا يلزم مِن ترك السُّنّة الوقوع في المكروه، ولهذا لو أن الإِنسان لم يرفع يديه في الصلاة عند الركوع: لم يفعل مكروهًا، وهذه قاعدة: أنه لا يلزم من ترك المستحب الوقوع في المكروه.

وقال بعض أهل العلم: إن الإِتمام مكروه؛ لأن ذلك خلاف هدي النبي ﷺ المستمر الدائم فإن الرسول ﷺ ما أتم أبدًا في سفر وقال: (صلوا كما رأيتموني أصلي)، وهذا القول اختيار شيخ الإِسلام ابن تيمية رحمه الله، وهو قول قوي، بل لعله أقوى الأقوال اهـ

قال أبو العباس:

وقولهم: (قد) و (لا يلزم) يعني أنه قد يكون مكروهًا وقد لايكون مكروهًا، بل يرى بعض العلماء ترك المستحب يدخل في الكراهة كما ظاهر نقل ابن عثيمين عن شيخ الإسلام أن خلاف الأولى داخل في المكروه، وقد حقق هذه المسألة العلامة الزركشي في "البحر المحيط" بكلام مختصر ولكنه قوي جدًا فقال (١/٤٠٠):

والتحقيق: أن خلاف الأولى قسم من المكروه، ودرجات المكروه تتفاوت كما في السنة، ولا ينبغي أن يعد قسمًا آخر، وإلا لكانت الأحكام ستة، وهو خلاف المعروف، أو كان خلاف الأولى خارجًا عن الشريعة وليس كذلك اهـ.

قال المؤلف:

المسألة الأُولَى: الدَّعْوَةُ إِلَيْهِ.

الشرح:

والدعوة إليه داخلة في العمل به، فإذا كان العلم والعمل بالأصـــول الثلاثة واجب عيني على كل مكلف، فهل يصـــح القول بوجوب الدعوة إليها على كل المكلفين؟

والجواب من وجوه:

الأول: أن الأصـــل في منصـــب الدعوة أنه خاص بورثة الأنبياء من العلماء ومن يليهم من طلابهم والآخذين عنهم، وعليه فالدعوة واجب كفائي إذا قام به البعض سقط عن الآخرين.

الثاني: أن الأصـل هو العلم والعمل بهذه الأصـول الثلاثة، بشـكل مجمل، ولم يقل أحد من العلماء أنه يجب على العامة أن يكونوا مثلهم في العلم، بل يكفيهم من العلم ما يرفع عنهم الجهل فيما افترض عليهم.

الثـالـث: أن العامي إذا لم يكن ثم غيره في موطن يحتاج للبلا غ فإنه يجب عليه تبليغ ما عنده من العلم؛ لعموم أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأدلة النهي عن كتمان العلم.

فدل أنه مكلف بقدر استطاعته، وإن لم يكن بمستوى التكليف الذي يجب على غيره، ولو من باب: (بلغوا عني ولو آية)

وهناك مناســـبة لجعل منزلة الدعوة إليه بعد منزلة العمل به، وذلك أن الواجب على الداعي البداءة بنفسه ثم الانتقال لتعليم غيره؛ كما قال شعيب عليه السـلام: ﴿قَالَ يَاقَوْمِ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كُنْتُ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ رَبِّي وَرَزَقَنِي مِنْهُ رِزْقًا حَسَـنًا وَمَا أُرِيدُ أَنْ أُخَالِفَكُمْ إِلَى مَا أَنْهَاكُمْ عَنْهُ إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْـلَاحَ مَا اسْـتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨].

فبين لهم أنه ملتزم بما يدعوهم إليه ولايخالف قوله فعله، وقد نهى الله تعالى عن هذا الخلق فقال: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ * كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللَّهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصف: ٢، ٣]

وتصدر عدم العامل بالعلم للدعوة إلى الله يتسبب بعدم قبول الناس للعلم والعمل به؛ لافتقاده للقدوة الحسنة في نظر الناس، فيأثم لتسببه بذلك ويأثمون لعدم قبولهم للحق.

قال المؤلف:

المسألة الأُولَى: الصَّبْرُ عَلَى الأَذَى فِيهِ.

الشرح:

الدعوة إلى الله منصب عظيم جدًا وهو تكليف وتشريف في نفس الوقت، وليس كما يعبر البعض أنه تكليف لا تشريف. فكيف لاتكون من التشريف والله تعالى يقول: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [فصلت:٣٣].

وعلى رأس هذه الوظيفة خير الرجال وهم أنبياء الله تعالى من أولهم نوح إلى آخرهم محمد عليهم الصلاة والسلام، ولاتقوم هذه الوظيفة العظيمة إلا بعلم الوحي، وهو علم يأخذه الأنبياء عن الله تعالى ثم يورثه الأنبياء لجميع أتباعهم، إلا أنه لايوفق للأخذ به إلا من اصطفاهم الله تعالى لأخذ هذه الوظيفة والسير على حذو الأنبياء وهم العلماء الصادقون؛ ولهذا قال النبي ﷺ: (**إن العلماء ورثة الأنبياء وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهمًا إنما ورثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر**).

وهذا الحديث رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي الدرداء، وصـــححه العلامة الألباني، وقد أدركنا علماءنا على الاحتجاج والاستشهاد به، وذكره شيخنا العلامة يحيى الحجوري في كتابه "النصيحة المحتومة" (صـ/٩)

وهذا الحديث دليل أن هذا المنصـــب يناله الإنســـان بالاجتهاد فإن بذل الأسباب وصدق وأخلص وفق لذلك بإذن الل تعالى.

قال العلامة المجتهد ابن الوزير الصنعاني في كتابه "الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم" (١/١١):

العلم ميراث النبي كـذا أتى ... في النص والعلماء هم وراثه
فإذا أردت حقيقة تدري لمن ... وراثـه وعرفـت مـا ميراثـه
ما ورث المختار غير حديثه ... فينـا فـذاك متاعـه وأثاثـه
فلنـا الحـديـث وراثـة نبوية ... ولكل محدث بدعة إحداثه

وحديثنا هذا يتوافق مع فقرة (الدعوة إليه) ونحن في فقرة (الصـــبر على الأذى فيه) إلا أن شـــاهدنا هو أن الدعوة إلى الله تعالى هي منصـــب الأنبياء، وأن ســـائر الأنبياء تعبوا في هذا الطريق، كما قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الْإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ [الأنعام: ١١٢] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾ [الفرقان: ٣١]

ولهذا قرن الله تعالى الأمر بالدعوة بالأمر بالصبر فقال لنبيه عليه الصلاة والسلام: ﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِلْ لَهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِنْ نَهَارٍ بَلَاغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [الأحقاف: ٣٥]

وقال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ عَلَى مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ الشَّمْسِ وَقَبْلَ الْغُرُوبِ﴾ [ق: ٣٩]

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾ إلى قوله: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾ [المدثر: ١-٧]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْقُرْآنَ تَنْزِيلًا ۝٢٣ فَاصْبِرْ لِحُكْمِ رَبِّكَ وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا ۝٢٤ وَاذْكُرِ اسْمَ رَبِّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٢٥﴾ [الإنسان: ٢٣ - ٢٥]

وهنا قال العلماء: إن هذه الآية تخبر عن إنزال القرآن وهو النعمة العظيمة التي حقها الشكر ومع ذلك أمر نبيه ﷺ بالصبر، فدل أن المتمسك بالوحي يحتاج إلى صبر في مواجهة أعداء الحق، وهم من نص عليهم بقوله: ﴿آثما أو كفورًا﴾ فأهل الإثم والكفر سيحاولون الإغراء أولًا، ثم العداء ثانيًا، والصبر هو أعظم سلاح في مواجهتهم والانتصار عليهم.

وقد أمر الله تعالى أنبياءه موسى ويحيى عليهما السلام أن يأخذا الوحي بقوة.

- قال تعالى لنبيه موسى: ﴿قَالَ يَامُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ ۝١٤٤ وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ

كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ ﴿١٤٥﴾﴾ [الأعراف: ١٤٤، ١٤٥]

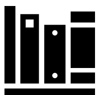
- وقال تعالى لنبيه يحيى: ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ﴿١٢﴾﴾ [مريم: ١٢]

وأخبر سبحانه وتعالى عن قوة أنبيائه إسماعيل وإسحاق ويعقوب في التمسك بالحق والدعوة إليه رغم الأذى من الأعداء فقال: ﴿وَاذْكُرْ عِبَادَنَا إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ أُولِي الْأَيْدِي وَالْأَبْصَارِ﴾ [ص: ٤٥]

وقد أبدع العلامة ابن القيم في تفسير هذه الآية فقال في كتابه "الجواب الكافي" (صـ/٦٣):

فالأيدي القوة في تنفيذ الحق والأبصار البصائر في الدين، فوصفهم بكمال إدراك الحق وكمال تنفيذه، وانقسم الناس في هذا المقام أربعة أقسام:

- فهؤلاء أشرف الأقسام من الخلق وأكرمهم على الله تعالى.
- **القسم الثاني:** عكس هؤلاء من لا بصيرة له في الدين ولا قوة على تنفيذ الحق وهم أكثر هذا الخلق الذين رؤيتهم قذي للعيون وحمي الأرواح وسقم القلوب يضيقون الديار ويغلون الأسعار ويستفاد من صحبتهم إلا العار والشنار.
- **القسم الثالث:** من له بصيرة في الهدى ومعرفة به لكنه ضعيف لا قوة له على تنفيذه ولا الدعوة إليه، وهذا حال المؤمن الضعيف والمؤمن القوي خير وأحب الى الله منه.



- **القسم الرابع:** من له قوة وهمة وعزيمة لكنه ضعيف البصيرة في الدين لا يكاد يميز بين أولياء الرحمن من أولياء الرحمن الشيطان، بل يحسب كل

سوداء تمرة وكل بيضاء شحمة، يحسب الورم شحمًا والدواء النافع سمًا

وليس في هؤلاء من يصلح للإمامة في الدين ولا هو موضعًا لها سوي القسم الأول؛ قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ٢٤]

فأخبر سبحانه أن بالصبر واليقين نالوا الإمامة في الدين، وهؤلاء هم الذين استثناهم الله سبحانه من جملة الخاسرين وأقسم بالعصر الذي هو زمن سعى الخاسرين والرابحين على أن من عداهم فهو من الخاسرين، فقال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ ولم يكتف منهم بمعرفة الحق والصبر عليه حتى يوصى بعضهم بعضًا ويرشده إليه ويحثه عليه فاذا كان من عدا هؤلاء فهو من الخاسرين اهـ

كما أبدع وأحسن في كتابه "الفوائد" فقال (١/٤٣):

يا مُخَنَّثَ العزم! أين أنت؛ والطريقُ طريقٌ تعبَ فيه آدمُ، وناحَ لأجلِهِ نوحٌ، ورُمِيَ في النار الخليلُ، وأُضْجِعَ للذبح إسماعيلُ، وبيع يوسفُ بثمنٍ بَخْس ولَبِث في السجن بضعَ سنين، ونُشِرَ بالمنشار زكريًّا، وذُبح السيدُ الحصورُ يحيى، وقاسَى الضُّرَّ أيوبُ، وزاد على المقدار بكاءُ داود، وسار مع الوحش عيسى، وعالج الفقرَ وأنواعَ الأذى محمدٌ ﷺ؛ تُزْهَى أنت باللهوِ واللعب؟! اهـ

وفي سـبيل هذا الطريق تعب الكثير من العلماء ومنهم المؤلف رحمه الله تعالى، ولايزال أهل الباطل يؤذونه حتى بعد موته؛ فجل مؤلفاته تتحدث عن التوحيد، ولهذا أعلن المتعلقون بالقباب والغلاة بالألقاب عداوتهم له وقاموا بصب التهم الباطلة عليه وعلى طلابه وأبنائه وأحفاده، بل سموا كل من دعا للتوحيد أنه وهابي.

وممن نال ألوان الأذى في سبيل هذا الطريق شيخنا العلامة المجدد الوادعي رحمه الله تعالى، ونال أشد منه تلميذه وخليفته شيخنا العلامة الحجوري حتى اتهمه خصومه بالطعن في الله وفي الرسول وفي الصحابة والعياذ بالله من فجورهم وشدة جورهم.

وأنا أبالغ بل لا أشـك في صـواب قولي: إنني لم أجد في هذا الزمان عالمًا كُذِبَ عليه، وكيل له من الافتراءات والمؤتفكات بقدر ما حصـل لشـيخنا العلامة الحجوري، ونلتمس العذر لمن يرى المبالغة في قولنا، لكونهم غير مبالين وغير متابعين لأحوال دعوتنا في اليمن، ولهذا لايعلمون ما نعيشه من البلاء أحيانًا بالشكل اليوم، وأحيانًا بالشـكل الأسبوعي، ولا أظن أنه لايمر علينا الشـهر دون أن نجد بلاء إما من المخالفين أو من المخذلين، ومن البلاء الذي يمارسه القوم معنا أنهم يكيدون لنا ثم يذهبون للعلماء والمشـايخ في بعض الدول يشـكون ظلمنا لهم حتى اغتر بهم البعض، وتم تصـديق الكاذب وتكذيب الصـادق وتخوين الأمين وائتمان الخائن!! كما أخبر نبينا الكريم ﷺ.

وقد ذكرت أشياء من أخبار الدعوة، وما تعرضت له من الحرب والخيانة في كتابي "الحنكة السلفية" ولم أنشره بعد لأسباب وقائية، وسيأتي اليوم الذي يظهر للخلق بما فيه من الحق بإذن الله تعالى.

قال المؤلف:

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: بســـم الله الرحمن الرحيم:

﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾

سورة العصر كاملة.

الشرح:

قرر المؤلف رحمه الله تعالى وجوب تعلم المسائل الأربع:

- الأولى: العلم بالأصول الثلاثة وهي: معرفة الله ونبي الله ودين الله.
- الثانية: العمل بهذه الأصول الثلاثة.
- الثالثة: الدعوة إليها.
- الرابعة: الصبر على الأذى فيها.

وقد أطلنا في شرحِ هذه المسائل الأربع!! إلا أن المؤلف أوجز شرحها بأبلغ شرح فقال: والدليل قوله تعالى، وذكر سورة العصر؛ وذلك لتضمنها على المسائل الأربع؛ فقد أقســم تعالى فيها بالعصــر وهو الوقت على خســارة الإنســان، وقد اختلف العلماء في تفسير العصر إلى ثلاثة أقوال:

- **الأول**: أنه الدَّهر: أي السـنة: قاله ابن عباس، وزيد بن أسـلم، والفراء، وابن قتيبة. وإنما أقسـم بالدهر لأن فيه عبرة للناظر من مرور الليل والنهار على تقدير لا ينخرم.
- **الثاني**: أنه العشي، وهو ما بين زوال الشمس وغروبها، قاله الحسن وقتادة.
- **الثالث**: صلاة العصر، قاله مقاتل.

انظر "زاد المسير" للعلامة ابن الجوزي (٤/٤٨٧).

قلت: ولم يصـب من قال: إن العصـر هو عمر الدنيا، لأنه يجمع بقولهم: العصـور، فدل تكراره أنه زمن متعدد لا واحد. ويقال: العصـران: الأول: العشـي. والثاني: الغداة.

ومن غرائب اللغة أن العصـر قد يأتي بمعنى النجاة، حتى قال أبو عبيدة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِـرُونَ﴾ قال: يعصرون، أي ينجون.

ثم استثنى الله تعالى من هذه الخسارة كل من تمسك بهذه الأربع المنجيات، وهي:

الأولى: الإيمان: ودليها من السورة في قوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ وقد اتفق العلماء أن الإيمان لا يكون إلا بعلم، وهذا على قاعدة أهل الحق أن الاستدلال يسبق الاعتقاد.

وهنا قال العلامة السعدي: الإيمان بما أمر الله بالإيمان به، ولا يكون الإيمان بدون العلم، فهو فرع عنه لا يتم إلا به اهـ.

الثانية: العمل بالعلم: ودليها من السورة في قوله تعالى: ﴿وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ فتعلموا الصالحات من الكتاب والسنة ثم عملوا بها، وهنا يقول العلامة السعدي عن العمل الصالح: وهذا شامل لأفعال الخير كلها، الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله وحق عباده، الواجبة والمستحبة اهـ.

شبهة وجوابها:

وهنا شبهة للمرجئة قالوا فيها: إن العمل لايدخل في مسمى الإيمان؛ واستدلوا بقوله تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾ قالوا: فغاير بين الإيمان والعمل.

والصحيح أن الواو هنا ليست للمغايرة، بل هي من باب عطف الخاص على العام، وهذا كثير في اللغة والشرع، ومنه قوله تعالى: ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلَاةِ الْوُسْطَى وَقُومُوا لِلَّهِ قَانِتِينَ﴾ [البقرة: ٢٣٨] مع أن الصلاة الوسطى داخلة في عموم المحافظة على عموم الصلوات.

وقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِلَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَرُسُلِهِ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَالَ فَإِنَّ اللَّهَ عَدُوٌّ لِلْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٩٨] مع أن جبريل وميكال يدخلون في عموم الملائكة.

فهل يقول المرجئة: إن صلاة العصر ليست من الصلوات الخمس؟!! وإن جبريل وميكال ليسوا من الملائكة؟!! فإن لم يقولوا فكذلك الجواب في واو الإيمان والعمل الصالح.

وعطف الخاص على العام يكون لأهمية زائدة في الخاص، فدل أن العمل من مهمات الإيمان وأن جبريل وميكال من أعظم الملائكة.

الثالثة: الدعوة إليه: ودليلها من السورة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ﴾ والحق الذي يتواصون به في الفقرة الثالثة هو الإيمان المذكور في الأولى، والعمل الصالح المذكور في الثانية.

قال سماحة العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (١/ ٨٩):

هذا الترتيب الذي ذكره المؤلف من أحسن ما يكون، لأنه لما ذكر توحيد الإنسان بنفسه ذكر دعوة غيره إلى ذلك، لأنه لا يتم الإيمان إلا إذا دعا إلى التوحيد، قال تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۝١ إِنَّ الْإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ فلا بد مع التوحيد من الدعوة إليه، وإلا كان ناقصًا، ولا ريب أن هذا الذي سلك سبيل التوحيد لم يسلكه إلا وهو يرى أنه أفضل سبيل، وإذا كان صادقًا في اعتقاده، فلابد أن يكون داعيًا إليه، والدعاء إلى شهادة أن لا إله إلا الله من تمام التوحيد، ولا يتم التوحيد إلا به اهـ.

الرابعة: الصـــبر على الأذى فيه: ودليلها من الســـورة في قوله تعالى: ﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ والصبر الذي تضمنته الآية هو أنواع الصبر الثلاثة:

- الصبر على طاعة الله:
- الصبر عن معصية الله:
- الصبر على أقدار الله المؤلمة.

والأقدار المؤلمة كثيرة ومنها أذية أهل الباطل لأهل الحق، وهذا النوع هو شاهد المؤلف من الآية

قال العلامة السعدي في "تيسير الكريم الرحمن" (صـ/٩٣٤):

فبالأمرين الأولين، يكمل الإنسان نفسه، وبالأمرين الأخيرين يكمل غيره، وبتكميل الأمور الأربعة، يكون الإنسان قد سلم من الخسار، وفاز بالربح العظيم اهـ.

قال المؤلف:

قَالَ الشَّــافِعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: لَوْ مَا أَنْزَلَ اللهُ حُجَّةً عَلَى خَلْقِهِ إلا هَذِهِ السُّورَةَ لَكَفَتْهُمْ.

الشرح:

الشـافعي رحمه الله تعالى: هو أحد الأئمة الأربعة، وثالثهم حسـب الترتيب الزمني، واسمه: محمد بن إدريس الشـافعي المطلبي من آل البيت الأشـراف الكرام، ويسمى أسد السنة، عرف بسعة العلم والفقه، وبالذكاء والدهاء، وقوة التصنيف، وهو أول من ألف في أصول الفقه.

ولد سنة خمسين ومائة، وتوفي سنة أربع ومائتين.

قال رحمه الله تعالى: لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السـورة لكفتهم.

وقد أشـكلت هذه العبارة على البعض؛ لأن مفهومها يدل أن بقية القرآن بالإمكان الاسـتغناء عنه!! والاكتفاء بهذه السـورة العظيمة عن بقية السـور!! ولتوضيح هذا الإشكال نجيب من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن العلماء اختلفوا في النص الثابت عن الإمام الشـافعي فقد نقلت عنه هذه العبارة بصيغ مختلفة، ومنها:

١- (لو ما أنزل الله حجة على خلقه إلا هذه السورة لكفتهم). وهذه الصيغة نقلها المؤلف ولم أقف عليها في مصدر من المصادر القديمة.

٢- (لو تأمل الناس هذه السورة لكفتهم) وهذه الصيغة ذكرها الشيخ عطية محمد سالم في "تتمة الأضواء" (٣٢٧/٢).

٣- (لو تدبر الناس هذه السورة لكفتهم) وهذه الصيغة ذكرها الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٢٠٣/١).

٤- (لو تدبر الناس هذه السورة لوسعتهم) ذكرها الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٤٧٩/٨).

٥- (إنها سورة لو لم ينزل إلى الناس إلا هي لكفتهم) وهذه الصيغة ذكرها العلامة الشافعي برهان الدين البقاعي في "نظم الدرر" (٥٢١/٨).

٦- (لو فكر الناس كلهم في سورة العصر لكفتهم) ذكرها شيخ الإسلام في "الاستقامة" (٢٥٩/٢) وابن القيم في "إغاثة اللهفان" (٢٥/١) وفي "التبيان في أقسام القرآن" (صـ/٥٤) وفي "مفتاح دار السعادة" (٥٦/١)

ولو تتبعت أكثر ربما وجدت أكثر، ولهذا لم أتعمد النقل كثيرًا من كتب المتأخرين؛ لأني رأيت الكثير منهم ينقل بالمعنى!! وهذا لا يجعل اللفظ من ضمن الألفاظ المنسوبة له رحمه الله تعالى.

وها أنت ترى أن بعض الصيغ لا يلزم منها ما قد يتوهم إلزامه من الصيغ الأخرى.

الوجه الثاني: أنه على فرض صحة أي لفظ من الألفاظ السابقة، فإن هذا لا يعني أن هذه السورة تغني عن بقية السور، بل إنه لا خلاف بين أهل السنة أن الناس في حاجة ماسة لكل حرف في كتاب الله تعالى.

فالقرآن فيه الارشادات والأوامر، وفيه النواهي والزواجر، وفيه بيان الشريعة والمنهج، وفيه القصص والأخبار، وفيه المجمل والمفصل، والظاهر والمؤول، وفيه المحكم والمتشابه، وهذا كله لا تشمله سورة النصر بالاتفاق.

الوجه الثالث: أن جميع تلك الصيغ تعني أن هذه السورة تتحدث عن المسائل الأربع التي فيها بيان الرابح والخاسر من الناس، وعليه فالمراد هو أن هذه السورة كافية شافية في أمرهم بتعلم القرآن والعمل به والدعوة إليه والصبر فيه، ووعظهم وزجرهم وتحذيرهم من هجره والإعراض عنه، وعليه هي حجة عليهم في بيان طريق النجاة من الخسارة المتحققة لعموم الناس إلا من عمل بها.

ومن الأدلة أن مراد الإمام الشافعي رحمه الله تعالى هو الاكتفاء بها كموعظة مانقله بعض العلماء الشافعية عنه أنه قال: الناس في غفلة عن هذه السورة: ﴿وَالْعَصْرِ إِنَّ الإِنسَانَ لفي خُسْرٍ﴾ وهذا ذكره الإمام النووي في "تهذيب الأسماء واللغات" (٥٤/١) وفي "المجموع" (١٢/١)

قال المؤلف:

وَقَالَ البُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: بَابُ: العِلْمُ قَبْلَ القَوْلِ وَالْعَمَلِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إله إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ [محمد:١٩]، فَبَدَأَ بِالْعِلْمِ قَبْلَ القَوْلِ وَالعَمَلِ.

الشرح:

البخاري: نسبة لبخارى وهي بلدة فارسية في أوزباكستان. واسمه: أبو عبد الله محمد بن إسماعيل بن إبراهيم بن المغيرة بن بردزبه الجعفي البخاري.

وهنا نرى أن اسمه كله عربي، وفي الأخير له جد باسم فارسي وهو بردزبه ولقبه الجعفي البخاري، والجعفي قبيلة ترجع لمذحج وهي قبيلة عربية يمنية قحطانية، فقيل: إن أصله يرجع لليمن، وقيل: لأن جدَّه الأعلى المغيرة أسلم على يد اليمان الجعفي؛ فهو مولى له بولاء الإسلام.

ولد سنة أربع وتسعين ومائة، في آخر القرن الثاني، ومات سنة ست وخمسين ومائتين في وسط القرن الثالث. كان عمره اثنتين وستين سنة.

قال رحمه الله تعالى في كتابه "الصحيح" باب: العلم قبل القول والعمل؛ لقول الله سبحانه: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ﴾؛ فبدأ بالعلم اهـ

وليس في الصــــحيح أنه قال: قبل القول والعمل. ولكنه قال ذلك في التبويب فقط، ولاشـــــك أن البدء بالعلم يلزم منه أن العمل يكون بعد العلم، فالواجب على الإنسـان أن يتعلم أولًا، ثم يعمل بعلمه ثانيًا؛ ومن الأدلة على ذلك قوله تعالى: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨] أي أدعو إلى الله تعالى على علم.

وقال ابن المنير: أراد أن العلم شرط في صحة القول والعمل فلا يعتبران إلا به، فهو متقدم عليهما؛ لأنه مصـــحح النية المصـــححة للعمل. فنبه البخاري على ذلك حتى لا يســـبق إلى الذهن من قولهم: إن العلم لا يفيد إلا بالعمل تهوين أمر العلم والتساهل في طلبه اهـ

ذكره الحافظ ابن حجر العســـقلاني الشـــافعي في "النكت على صـــحيح البخاري" (٢/١٠٦) وفي "فتح البـاري" (١/١٦٠) والعلامة بدر الدين العيني الحنفي في "عمدة القاري" (٢/٣٩)

قال الحافظ في "فتح الباري" (١/١٦٠):

قوله: (فبدأ بالعلم) أي حيث قال: ﴿فَاعْلَمْ أَنَّهُ لاَ إِله إِلاَّ اللَّهُ﴾ ثم قال: ﴿وَاسْتَغْفِرْ لِذَنبِكَ﴾ والخطاب وإن كان للنبي فهو متناول لأمته اهـ

والعلم بلا إله إلا الله هو العلم الذي جاء به كل الأنبياء عليهم الســـلام؛ كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُـولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وفيها دليل أن الأنبياء كلهم دعوا الى هذه الكلمة وعلموها أقوامهم، فدل أن تعلمها يشمل الدعوة إليها.

وقال تعالى عن أولهم نوح عليه السلام: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَقَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾ [الأعراف:٥٩]

وقال تعالى عن هود عليه السلام وهو أول نبي بعد الطوفان: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا مُفْتَرُونَ﴾ [هود:٥٠]

وقال تعالى عن صالح عليه السلام وهو ثاني نبي بعد الطوفان: ﴿وَإِلَى ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَالِحًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ هَذِهِ نَاقَةُ اللَّهِ لَكُمْ آيَةً فَذَرُوهَا تَأْكُلْ فِي أَرْضِ اللَّهِ وَلَا تَمَسُّوهَا بِسُوءٍ فَيَأْخُذَكُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٧٣]

وقال تعالى عن شعيب وهو قريب من زمن الخليل وكان بعد لوط وقبل إسماعيل واسحاق عليهم جميعًا الصلاة والسلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَتْكُمْ بَيِّنَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأعراف: ٨٥]

وقال تعالى عن عيسى عليه السلام وهو خاتم أنبياء بني إسرائيل: ﴿وَقَالَ الْمَسِيحُ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ وَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ أَنْصَارٍ﴾ [المائدة: ٧٢]

وقال تعالى عن خاتم النبيين وسيد المرسلين نبيه محمد الصادق الأمين: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الأنعام: ١٦٢ - ١٦٤]

وهذه الكلمة هي الإسلام الذي لايقبل الله غيره، وهي شهادته وشهادة ملائكته وأنبيائه كما قال تعالى: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿١٨﴾ إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾ فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَأَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾ [آل عمران: ١٨ - ٢٠]

***

قال المؤلف:

اعْلَمْ رَحِمَكَ اللهُ أَنَّه يَجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ وَمُسْلِمَةٍ، تَعَلُّمُ هَذِهِ الثَّلاثِ مَسَائِل، والْعَمَلُ بِهِنَّ:

الشرح:

مقدمة هذه الثلاث تشبه مقدمة الأربع السابقة، من حيثية الشرح وبيان الحكم؛ فهي ثلاث مسائل مهمات وواجبات متحتمات المعرفة عينيًا لا كفائيًا؛ لايحق لأي مكلف الجهل بها.

وسوف يتحدث عنها المؤلف بقصدين:

القصد الأول: وجوب العلم بهذه المسائل الثلاث، وهي من حيث الإجمال على النحو التالي:

١- علاقة الربوبية بالألوهية.

٢- النهي عن الشرك وبيان كفر صاحبه.

٣- بيان عقيدة الموحدين في الولاء والبراء.

القصد الثاني: وجوب العمل بها؛ فهي عقيدة الموحدين الصادقين والمخلصين لرب العالمين.

مسألة: هل الكافر مكلف بهذه المسائل الثلاث؟

قال المؤلف رحمه الله تعالى: (على كل مسلم ومسلمة) وهذا يحتمل أحد أمرين:

الأول: أنه لايرى وجوب تعلم هذه المسائل على الكافر، وهذا الاحتمال ضعيف جدًا، بل هو احتمال باطل.

الثانى: أنه خصص المكلف المسلم لأنه المقصود بالخطاب باعتبار البلد التي كان ينشر العلم فيها، وهذا هو الاحتمال الصحيح.

وهنا مسألة وهي هل الكافر مكلف بهذه الثلاث؟ والجواب: أن العلماء إنما اختلفوا في كونهم مخاطبون في الفروع أم لا، وأما التوحيد فلاخلاف بين العلماء في أنهم مكلفون.

وأما في الفروع فقد اختلف العلماء إلى ثلاثة أقوال:

الأول: أنهم مخاطبون في الفروع وهو قول الإمام الشافعي.

الثاني: أنهم مخاطبون بالنواهي المتضمنة للترك كي لاتزيد ذنوبهم، وأما الأوامر فهم حتى وإن أطاعوها فهي غير مقبولة منهم مالم يسلموا.

الثالث: أنهم غير مخاطبين نهائيًا

قال العلامة القرافي المالكي في "الذخيرة" (١/ ٨٥):

أجمعت الأمة على أنهم مخاطبون بالإيمان واختلفوا في خطابهم بالفروع، قال الباجي: وظاهر مذهب مالك رحمه الله خطابهم بها خلافًا لجمهور الحنفية وأبي حامد الإسفراييني؛ لقوله تعالى حكاية عنهم: ﴿قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ﴾ [المدثر: ٤٣] ولأن العمومات تتناولهم، وقيل: مخاطبون بالنواهي دون الأوامر وفائدة الخلاف ترجع إلى مضاعفة العقاب في الدار الآخرة أو إلى غير ذلك وبسطه في غير هذه المقدمة اهـ

قلت: من أظهر أدلة تكليفهم بما دون التوحيد هذه الآية وفيها: ﴿مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرَ ﴿٤٢﴾ قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾ وَلَمْ نَكُ نُطْعِمُ الْمِسْكِينَ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾ وَكُنَّا نُكَذِّبُ بِيَوْمِ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى أَتَانَا الْيَقِينُ ﴿٤٧﴾﴾ [المدثر: ٤٢، ٤٧] ولاشك أن دخولهم في سقر هو نقضهم للتوحيد، إلا جوابهم تضمن أنهم يعاقبون على ترك الصلاة ومنع الصدقة وعلى الخوض ونكران الآخرة، وهذه كلها من مسائل الدين لكنها ليست من مسائل التوحيد.

قال المؤلف:

الأُولَى: أَنَّ اللهَ خَلَقَنَا، وَرَزَقَنَا، وَلَمْ يَتْرُكْنَا هَمَلا، بَلْ أَرْسَلَ إِلَيْنَا رَسُولاً، فَمَنْ أَطَاعَهُ دَخَلَ الجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَاهُ دَخَلَ النَّارَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

الشرح:

يجب على كل مكلف أن يعلم باليقين الذي لا يخالطه مثقال ذرة من شك أن الله تعالى هو الذي خلقنا، وهو الذي رزقنا، وأنه لم يخلقنا ويتركنا عبثًا نأكل ونشرب ونلهو ونلعب كما تفعل البهائم، بل أرسل إلينا رسولًا يدعونا لعبادته؛ وهذه هي وظيفة إخراج الناس من ظلمات الشرك إلى نور التوحيد، فمن أطاع الرسول عاش في النور ومن عصاه عاش في الظلمات.

وحين النظر لما حصل لفرعون من الأخذ الوبيل نجد أن السبب هو معصيته لرسول الله موسى عليه السلام، وما حصل لفرعون هو نفسه الذي حصل لقوم نوح حين عصوا نبيهم، ولقوم عاد حين عصوا نبيهم هود، ولقوم ثمود حين عصوا نبيهم صالح، وهكذا قوم لوط وقوم شعيب وغيرهم.

والمراد من الآية هو تحذير أمة محمد ﷺ أنهم إن عصـوا نبيهم فإن المصـير نفسه ينتظرهم، فيجب أن نعلم أن سبب هلاك الأمم هو عصيانهم لرسلهم ولهذا يجب علينا طاعة رسولنا وأن لانعصيه.

ولن يتحقق لنا ذلك إلا بطَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْـدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعِ لا بالأهواء والمحدثات والبدع.

فمن اتصف بذلك فقد شهد أن لا إله إلا الله وشهد أن محمدًا رسول الله، وعلى قدر الخلل في طاعته يكون الخلل في شـــهادته؛ فالشـــهادتان بالمعنى اللغوي تدل شـهادة أن لا إله إلا الله على توحيد العبادة للمرسـل، وتدل شـهادة أن محمدًا رســـول الله على وجوب الاتباع للرســـول. وبالمعنى الشـــرعي متلازمتان من أنكر احداهما أنكر الأخرى.

والكثير من الناس يجهلون مفهوم طاعته!! فيظنون أن طاعة الله فريضـــة وطاعة رسوله سنة؛ أي أن طاعة القرآن واجبة واتباع السنة مستحبة!! وهذا جهل عظيم بحقيقة الســـنة؛ فالســـنة تأتي بمعنى المندوب والمســـتحب، ولكنها بالمفهوم الأولوي يراد بها الطريقة والمنهج؛ والمنهج هو الســـبيل المســـتقيم؛ ولهذا قال تعالى لنبيه ﷺ أن يقول لأمته: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [يوسف: ١٠٨]

ســـبيلي أي طريقتي في الدعوة إلى الله وطريقي الموصـــل إليه، وهو الطريق الوحيد الموصـــل إلى دخول الجنة والنجاة من النار. ولهذا قال النبي ﷺ: (كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى). قالوا: يا رســـول الله ومن يأبى؟ قال: (من أطاعني

دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى) رواه البخاري من حديث أبي هريرة، ورواه ابن حبان من حديث أبي سعيد الخدري.

قال أبو حاتم محمد بن حبان (١/٥٤٦):

طَاعَةُ رَسُولِ اللهِ ﷺ هِيَ الِانْقِيَادُ لِسُنَّتِهِ بِتَرْكِ الْكَيْفِيَّةِ وَالْكَمِّيَّةِ فِيهَا، مَعَ رَفْضِ كُلِّ مَنْ قَالَ شَيْئًا فِي دِينِ اللهِ جَلَّ وَعَلَا بِخِلَافِ سُنَّتِهِ، دُونَ الِاحْتِيَالِ فِي دَفْعِ السُّنَنِ بِالتَّأْوِيلَاتِ الْمُضْمَحِلَّةِ، وَالْمُخْتَرَعَاتِ الدَّاحِضَةِ اهـ.

فدل أن طاعته واجبة ومعصيته محرمة، وأعظم ما نطيعه به هو القيام بالتوحيد والحذر من الشرك. ومن هنا كانت طاعته هداية ومعصيته ضلال؛ ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ﴾ [النور: ٥٤] فجعل طاعة نبيه هداية لمن أطاعه، فدل أن معصية نبيه ضلال. ولو كان اتباع السنة له حكم الاستحباب فقط لكانت مخالفة السنة لها حكم الكراهة في أشد أحوالها، ولو كان مخالفها لم يتجاوز الكراهة ما وصفه القرآن بالضلال كما هي دلالة المفهوم. فكيف وهو متوعد بالويل والأخذ الوبيل؟

والناس في طاعته على قسمين:

القسم الأول: الذين أطاعوه، وهم على ثلاث درجات:

- **الأولى:** الذين اكتفوا باتباع سنته.
- **الثانية:** قاموا باتباع سنته والدعوة إليها.
- **الثالثة:** قاموا باتباع سنته والدعوة إليها والدفاع عنها.

القسم الثاني: الذين عصوه، وهم على درجتين:

- **الأولى:** الذين أنكروا سنته بالكلية وهؤلاء يعتبرون كفارًا، وهم على قسمين: كفار أصليون، وكفار مرتدون.
- **الثاني:** الذين أحدثوا فيها ما ليس منها وهم المبتدعة وهم على قسمين: قسم بدعتهم مفسقة، وقسم بدعتهم مكفرة.

فدل أن السنة هي الطريقة والفريضة وهذا متقرر في ثلاث آيات في القرآن الكريم:

الآية الأولى: قال تعالى: ﴿مَا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨]

وقوله: ﴿فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ﴾ دليل أن السنة تأتي بمعنى الفرض، والمراد بهذه الآية أن الله تعالى وسع لنبيه ﷺ في الإكثار من الزوجات، كما وسع لبعض الأنبياء الذين خلوا من قبله كداود وسليمان. وقد ذكر بعض أهل التفسير أنه كان لداود مائة امرأة وثلاثمائة سرية، ولسليمان ثلاثمائة امرأة وسبعمائة سرية.

الآية الثانية: قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الأحزاب: ٦٢] والسنة هنا بمعنى العادة والطريقة.

الآية الثالثة: قال تعالى: ﴿سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٣] والسنة هنا بمعنى العادة والطريقة.

مسألة (١): في خطورة معصية الرسول.

وقال تعالى: ﴿فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣]

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله كما في "مجموع الفتاوى" (٢٥/١٥):

وكل شر في العالم وفتنة وبلاء وقحط وتسليط عدو وغير ذلك، فسببه مخالفة الرسول ﷺ والدعوة إلى غير الله اهـ

قال أبو العباس:

من خالف السنة من أجل تحقيق شيء من رغباته فقد تسبب بفساد هذا الشيء، وقد رأينا بأعيننا من خالف السنة بالخروج على الحكام كيف كان قصدهم رغد العيش وتطور الحياة ومواكبة المترفين!! ولم يحصلوا إلا على نقيض ذلك:

- فالأسعار التي كانت في أعينهم مرتفعة، لم يتحقق لهم سوى تضاعف ارتفاعها.
- والتطور الذي أرادوه، حصل نقيضه من الدمار في البنيان والعمران، وخراب الطرقات، وهلاك الإنسان.
- ورغبتهم في مواكبة المترفين من الدول المتحضرة دنيويًا الفاسدة دينيًا، لم يحصل لهم إلا احتقار تلكم الدول لها، للحضيض الذي سقطنا فيه وسقطت قيمتنا كإنسان بعد سقوط دولتنا التي كانت هي قيمتنا رغم ما فيها من الأخطاء.

والحقيقة أننا لانريد بقاء دولنا على الفساد التي هي فيه!! ولكننا نختلف مع خوارج العصر في طريقة التغيير، وقد جربوا طريقتهم فزادت الطين بلة، والنار

شعلة، وأما الطريقة التي نحن نسعى لتحقيقها هي ما تضمنته الآية السابقة من امتناع مخالفة رسول المرسل واهمال تعاليم الرسالة.

والنصوص في هذا الشأن كثيرة بيناها في الكثير من المناسبات، وقد رأيتم ما ذكره شيخ الإسلام من حصول فساد في العالم بسبب مخالفة الرسول، ولتلميذه ابن القيم رحمه الله كلام أوسع.

قال في "زاد المعاد" (١/٢٧٤):

ومن له معرفة بأحوال العالم ومبدئه يعرف أن جميع الفساد في جوه ونباته وحيوانه وأحوال أهله، حادث بعد خلقه بأسباب اقتضت حدوثه، ولم تزل أعمال بني آدم ومخالفتهم للرسل تحدث لهم من الفساد العام والخاص ما يجلب عليهم من الآلام، والأمراض، والأسقام، والطواعين، والقحوط، والجدوب، وسلب بركات الأرض، وثمارها، ونباتها، وسلب منافعها، أو نقصانها أمورًا متتابعة يتلو بعضها بعضا.

فإن لم يتسع علمك لهذا فاكتف بقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ﴾ [الروم: ٤١]، ونزّل هذه الآية على أحوال العالم، وطابق بين الواقع وبينها، وأنت ترى كيف تحدث الآفات والعلل كل وقت في الثمار والزرع والحيوان، وكيف يحدث من تلك الآفات آفات أخر متلازمة، بعضها آخذ برقاب بعض، وكلما أحدث الناس ظلمًا وفجورًا، أحدث لهم ربهم تبارك وتعالى من الآفات والعلل في أغذيتهم وفواكههم، وأهويتهم ومياههم، وأبدانهم وخلقهم، وصورهم

وأشـكالهم وأخلاقهم من النقص والآفات ما هو موجب أعمالهم وظلمهم وفجورهم .

ولقد كانت الحبوب من الحنطة وغيرها أكبر مما هي اليوم، كما كانت البركة فيها أعظم.

وقد روى الإمام أحمد بإسناده: أنه وجد في خزائن بعض بني أمية صرة فيها حنطة أمثال نوى التمر مكتوب عليها: هذا كان ينبت أيام العدل. وهذه القصـــة، ذكرها في "مسنده" على إثر حديث رواه [٥]

وأكثر هذه الأمراض والآفات العامة بقية عذاب عذبت به الأمم السـالفة، ثم بقيت منها بقية مرصـدة لمن بقيت عليه بقية من أعمالهم، حكمًا قسطًا، وقضـاء عدلًا، وقد أشـــار النبي ﷺ إلى هذا بقوله في الطاعون: (إنه بقية رجز أو عذاب أرسل على بنى إسرائيل) [٦]

وكذلك سـلط الله سبحانه وتعالى الريح على قوم سبع ليال وثمانية أيام، ثم أبقى في العالم منها بقية في تلك الأيام، وفي نظيرها عظة وعبرة.

وقد جعل الله سـبحانه أعمال البر والفاجر مقتضـيات لآثارها في هذا العالم اقتضــاء لا بد منه، فجعل منع الإحســان والزكاة والصــدقة ســببا لمنع الغيث من

---

(٥) وذكرها ابن القيم في "الجواب الكافي" أيضًا (صـ/٤٣) وضعفها محققو المسند

(٦) رواها البيهقي في "الكبرى" (٦٣٥٠) والنسائي في "الكبرى" (٧٥٢٤) وابن حبان في "الصحيح" (٢٩٥٤) والترمذي في "السنن" (١٠٥٦) عن أسامة بن زيد رضي الله عنه، وصححه الترمذي، وصححه الألباني في مواضع من كتبه.

السماء، والقحط والجدب، وجعل ظلم المساكين، والبخس في المكاييل والموازين، وتعدي القوي على الضعيف سببًا لجور الملوك والولاة الذين لا يرحمون إن استرحموا، ولا يعطفون إن استعطفوا، وهم في الحقيقة أعمال الرعايا ظهرت في صور ولاتهم، فإن الله سبحانه بحكمته وعدله يظهر للناس أعمالهم في قوالب وصور تناسبها، فتارة بقحط وجدب، وتارة بعدو، وتارة بولاة جائرين، وتارة بأمراض عامة، وتارة بهموم وآلام وغموم تحضرها نفوسهم لا ينفكون عنها، وتارة بمنع بركات السماء والأرض عنهم، وتارة بتسليط الشياطين عليهم تؤزهم إلى أسباب العذاب أزا، لتحق عليهم الكلمة، وليصير كل منهم إلى ما خلق له.

والعاقل يسير ببصيرته بين أقطار العالم فيشاهده وينظر مواقع عدل الله وحكمته، وحينئذ يتبين له أن الرسل وأتباعهم خاصة على سبيل النجاة، وسائر الخلق على سبيل الهلاك سائرون، وإلى دار البوار صائرون، والله بالغ أمره، لا معقب لحكمه، ولا راد لأمره.. وبالله التوفيق اهـ

مسألة (٢): في وصف الرسول بالشاهد على أمته:

قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً ﴿١٥﴾ فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً ﴿١٦﴾﴾ [المزمل: ١٥، ١٦].

وفيها ان نبينا ﷺ شاهد علينا، وهذه صفة ملازمة لسائر الأنبياء فهم المبلغون وهم الشهود على موقف أممهم من البلاغ.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣]

وقال تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيدًا﴾ [النساء: ٤١]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا ثُمَّ لَا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾ [النحل: ٨٤]

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيدًا عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيدًا عَلَى هَؤُلَاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾ [النحل: ٨٩]

مسألة (٣): أتباع محمد ﷺ شهداء يوم القيامة أن الأنبياء بلغوا اقوامهم:

ومن خصوصيات هذه الأمة أن الأنبياء يشهدون على أقوامهم، وأنهم يشهدون للأنبياء أنهم بلغوا أممهم وأقوامهم، والظاهر أن هذه من خصوصيات خاصة الخاصة من هذه الأمة وليست لسائرها، وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء، كما قال تعالى: ﴿لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٨].

قال العلامة السعدي في "التفسير" (صـ/٥٤٦):

لكونكم خير أمة أخرجت للناس، أمة وسطًا عدلًا خيارًا، تشهدون للرسل أنهم بلغوا أممهم، وتشهدون على الأمم أن رسلهم بلغتهم بما أخبركم الله به في كتابه اهـ

قلت: ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣] فآية الحج تحمل دلالة آية البقرة في أن هذه الأمة تشهد على غيرها من الأمم يوم القيامة. وشهادتهم على الناس تتضمن شهادتهم لأنبيائهم.

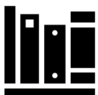
قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٥/٤٥٧):

لأن جميع الأمم معترفة يومئذ بسيادتها وفضلها على كل أمة سواها؛ فلهذا تقبل شهادتهم عليهم يوم القيامة، في أن الرسل بلغتهم رسالة ربهم، والرسول يشهد على هذه الأمة أنه بلغها ذلك اهـ

مسألة (٤): في أن سبب شهادة هذه الأمة على سائر الأمم هو بسبب إيمان أمة محمد بجميع الرسل:

وقد ذكر بعض العلماء أن فضل هذه الأمة على سائر الأمم هو بسبب أنها الأمة الوحيدة التي آمنت بسائر الأنبياء، كما قال تعالى عن هذه الأمة: ﴿آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [البقرة: ٢٨٥]

وقد قسم الله سبحانه وتعالى الناس في باب الإيمان بالأنبياء إلى ثلاثة أقسام:



قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴿١٥٠﴾ أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿١٥١﴾ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أُجُورَهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا ﴿١٥٢﴾﴾ [النساء: ١٥٠-١٥٢]

القسم الأول: الكفار بسائر الأنبياء

القسم الثاني: يؤمنون ببعض الأنبياء ويكفرون ببعض

القسم الثالث: يؤمنون بسائر الأنبياء

قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٢/ ٤٤٥):

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ﴾ يعني بذلك: أمة محمد ﷺ، فإنهم يؤمنون بكل كتاب أنزله الله، وبكل نبي بعثه الله اهـ

قال المؤلف:

الثانية: أَنَّ اللهَ لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدٌ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨].

الشرح:

ذكر في المسألة الأولى أن الله تعالى خلقنا ولم يتركنا هملًا، بل أرسل الرسل لهدايتنا، وذكر في المسألة الثانية أن الله لايرضى أن يشرك معه أحد، وبالنظر للمسألتين نجد أن الأولى دليل على الثانية؛ وذلك أن الله تعالى لم يرسل الرسل إلا لأنه لايرضى أن يشرك به.

والرضى ضد السخط، فدل أن الشرك به من أسباب سخطه على المشرك، وكما أنه سبحانه لايرضى أن يشرك به فهو أيضًا لايرضى لعباده الوقوع في الشرك؛ لأن من أشرك فقد كفر والله تعالى يقول: ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَى لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِنْ تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ﴾ [الزمر: ٧]

فالوعيد بالعذاب لأهل الشرك يحمل دلالة بينة أن عدم رضاه بالشرك يقتضي غضبه على المشرك، وأدلة وقوع الغضب على المشركين كثيرة في القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُفْتَرِينَ﴾ [الأعراف: ١٥٢]

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ أَتُجَادِلُونَنِي فِي أَسْمَاءٍ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ مَا نَزَّلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ فَانْتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُمْ مِنَ الْمُنْتَظِرِينَ﴾ [الأعراف: ٧١]

فصل في تعريف الشرك وبيان أقسامه

الشـرك لغة: يأتي بمعنى التسـوية، وبمعنى الخلطة، وبمعنى النصـيب، وهو مأخوذ من المشاركة، وهو ما كان اثنين فأكثر، ومنه الشريك.

قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٣/ ٢٦٥):

(شـرك) الشـين والراء والكاف أصـلان، أحدهما يدل على مقارنة وخلاف انفراد، والآخر يدل على امتداد واستقامة.

فالأول الشـركة: وهو أن يكون الشـيء بين اثنين لا ينفرد به أحدهما. ويقال شـاركت فلانا في الشـيء، إذا صـرت شـريكه. وأشـركت فلانا، إذا جعلته شـريكا لك. قال الله جل ثناؤه في قصـة موسـى: ﴿وَأَشْـرِكْهُ فِي أَمْرِي﴾ [طه ٣٢]. ويقال في الدعاء: اللهم أشـركنا في دعاء المؤمنين، أي اجعلنا لهم شـركاء في ذلك، وشركت الرجل في الأمر أشركه.

وأما الأصل الآخر فالشرك: لَقَمُ الطَّرِيقِ، وَهُوَ شِرَاكُهُ أَيْضًا. وَشِرَاكُ النَّعْلِ مُشَبَّهٌ بِهَذَا. وَمِنْهُ شَرَكُ الصَّائِدِ، سُمِّيَ بِذَلِكَ لِامْتِدَادِهِ اهـ

الشرك شرعًا: يختلف تعريفه باختلاف أقسامه.

مسألة (١) في أقسام الشرك:

قال الإمام المروزي في "تعظيم قدر الصلاة" (٢/٥٢٦):

الشرك شركان: شرك في التوحيد ينقل عن الملة، وشرك في العمل لا ينقل عن الملة وهو الرياء، قال الله جل وعز: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ [الكهف:١١٠] يريد بذلك المراءاة بالأعمال الصالحة اهـ.

وبنفسه قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٧/٣٢٩).

وقال ابن القيم في "الصلاة وحكم تاركها" (صـ/٥٩):

الشرك شركان: شرك ينقل عن الملة وهو الشرك الأكبر، وشرك لا ينقل عن الملة وهو الشرك الأصغر: وهو شرك العمل: كالرياء.

- وقال تعالى في الشرك الأكبر: ﴿إِنَّهُ مَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ حَرَّمَ اللَّهُ عَلَيْهِ الْجَنَّةَ وَمَأْوَاهُ النَّارُ﴾. وقال: ﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾.
- وقال في شرك الرياء: ﴿فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾.

ومن هذا الشرك الأصغر قوله ﷺ: (**من حلف بغير الله فقد أشرك**). رواه أبو داود وغيره، ومعلوم أن حلفه بغير الله لا يخرجه عن الملة ولا يوجب له حكم الكفار اهـ.

وفصل تفصيلًا واسعًا وشاملًا في "الجواب الكافي" في أكثر من عشرين صفحة.

وقال كبير العلماء الشيخ عبد العزيز بن باز كما في "الفتاوى" (٣/٤٥٢):

الشرك شركان: أكبر وأصغر:

فالشرك الأكبر: مثل دعاء الأموات والاستغاثة بهم والنذر لهم أو للأصنام والأشجار والأحجار والكواكب.

والشرك الأصغر: مثل لولا الله وفلان، وما شاء الله وشاء فلان، والواجب أن يقول: لولا الله ثم فلان، وما شاء الله ثم شاء فلان اهـ.

قال أبو العباس:

- **الأول: الشرك الأكبر:**

عرفه النبي ﷺ بقوله: (أن تجعل لله ندًا وهو خلقك) والند هو المثل والشبه، والتنديد أي المماثلة والتشبيه. وشرح العلماء ذلك بتعاريف أخرى من باب التوضيح لمعنى الحديث.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الاستقامة" (صـ/٣٤٤):

وأصل الشرك أن تعدل بالله تعالى مخلوقاته في بعض ما يستحقه وحده، فإنه لم يعدل أحد بالله شيئًا من المخلوقات في جميع الأمور، فمن عبد غيره أو توكل عليه فهو مشرك به، كمن عمد إلى كلام الله الذي أنزله وأمر باستماعه فعدل به سماع بعض الاشعار اهـ

وقال العلامة عبد اللطيف آل الشيخ كما في "الدرر السنية في الأجوبة النجدية" (٢/ ٣١٩):

والشرك قد عرفه النبي ﷺ بتعريف جامع، كما في حديث ابن مسعود رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: (أن تجعل لله ندا

وهو خلقك)، والند: المثل والشبيه. فمن صرف شيئًا من العبادات لغير الله فقد أشرك به شركًا يبطل التوحيد وينافيه، لأنه شبه المخلوق بالخالق، وجعله في مرتبته اهـ

وقال الشيخ العلامة عبد الرحمن السعدي في "القول السديد شرح كتاب التوحيد" (صـ/ ٥٤):

فإن حد الشرك الأكبر وتفسيره الذي يجمع أنواعه وأفراده: أن يصرف العبد نوعًا من أفراد العبادة لغير الله، فكل اعتقاد أو قول أو عمل ثبت أنه مأمور به من الشارع فصرفه لله وحده توحيد وإيمان وإخلاص، وصرفه لغيره شرك وكفر، فعليك بهذا الضابط للشرك الأكبر الذي لا يشذ عنه شيء اهـ.

وقسم المؤلف رحمه الله الشرك الأكبر إلى أربعة أقسام فقال في رسالته المسماة: "الرسالة المفيدة" (صـ/٤٣):

وهو أربعة أنواع:

النوع الأول: شرك الدعوة: والدليل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ فَلَمَّا نَجَّاهُمْ إِلَى الْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ﴾.

النوع الثاني: شرك النية والإرادة والقصد: والدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

النوع الثالث: شرك الطاعة: والدليل قوله تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَاباً مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهاً وَاحِداً لا

﴿إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ وتفسيرها الذي لا إشكال فيه، طاعة العلماء والعباد في المعصية لا دعاؤهم إياهم، كما فسرها النبي ﷺ، لعدي بن حاتم لما سأله، فقال: (لسنا نعبدهم)، فذكر له أن عبادتهم طاعتهم في المعصية.

النوع الرابع: شرك المحبة: والدليل قوله تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَتَّخِذُ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَنْدَاداً يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ﴾ اهـ.

- **الثاني: الشرك الأصغر:**

قال العلامة ابن القيم في "إغاثة اللهفان" (١/٥٩):

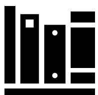
الشرك الأصغر، كيسير الرياء، والتصنع للمخلوق، والحلف به وخوفه ورجائه اهـ

قال الراغب الأصفهاني في "المفردات في غريب القرآن" (صـ/٤٥٢):

الشِّرْكُ الصّغير، وهو مراعاة غير الله معه في بعض الأمور، وهو الرّياء والنّفاق المشار إليه بقوله: ﴿جَعَلا لَهُ شُرَكاءَ فِيما آتاهُما فَتَعالَى اللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ [الأعراف: ١٩٠]، ﴿وَما يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُمْ بِاللَّهِ إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ [يوسف: ١٠٦]، وقال بعضهم: معنى قوله ﴿إِلَّا وَهُمْ مُشْرِكُونَ﴾ أي: واقعون في شرك الدّنيا، أي: حبالتها، قال: ومن هذا ما قال عليه السلام: (**الشّرك في هذه الأمة أخفى من دبيب النّمل على الصّفا**) اهـ

قال العلامة السعدي في "القول السديد شرح كتاب التوحيد" (صـ/ ٥٤):

كما أن حَدّ الشرك الأصغر هو: (كل وسيلة وذريعة يتطرق منها إلى الشرك الأكبر من الإرادات والأقوال والأفعال التي لم تبلغ رتبة العبادة).



فعليك بهذين الضابطين للشرك الأكبر والأصغر، فإنه مما يعينك على فهم الأبواب السابقة واللاحقة من هذا الكتاب، وبه يحصل لك الفرقان بين الأمور التي يكثر اشتباهها والله المستعان اهـ.

مسألة (٢): وهل الشرك الأصغر تحت المشيئة؟

قال سماحة العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (١٤٨/١):

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: إن الشرك لا يغفره الله لو كان أصغر، لعموم قوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ [النساء: ١١٦] و ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ مؤول بمصدر تقديره: شركًا به، وهو نكرة في سياق النفي، فيفيد العموم.

وقال بعض العلماء: إن الشرك الأصغر داخل تحت المشيئة، وإن المراد بقوله: ﴿أَنْ يُشْرَكَ بِهِ﴾ الشرك الأكبر، وأما الشرك الأصغر، فإنه يغفر لأنه لا يخرج من الملة، وكل ذنب لا يخرج من الملة، فإنه تحت المشيئة، وعلى كل، فصاحب الشرك الأصغر على خطر، وهو أكبر من كبائر الذنوب، قال ابن مسعود رضي الله عنه: "لأن أحلف بالله كاذبًا أحب إلي من أن أحلف بغيره صادقًا اهـ

مسألة (٣): في تقسيم الشرك إلى ستة أقسام:

قال أبو البقاء الكفوي في "الكليات" (صـ/٥٣٣):

والشرك أَنْوَاع:

١- شرك الِاسْتِقْلَال: وَهُوَ إِثْبَات إِلَهَيْنِ مستقلين كشرك الْمَجُوس.

٢- وشرك التَّبْعِيض: وَهُوَ تركيب الْإِلَه من آلِهَة كشرك النَّصَارَى.

٣- وشـــرك التَّقْرِيب: وَهُوَ عبَادَة غير الله ليقرب إِلَى الله زلفى، كشـــرك مُتَقَدّمي الْجَاهِلِيَّة.

٤- وشـــرك التَّقْلِيد: وَهُوَ عبَادَة غير الله تبعا للْغَيْر، كشـــرك متأخري الْجَاهِلِيَّة.

٥- وشرك الْأَسْبَاب: وَهُوَ إِسْنَاد التَّأْثِير للأسباب العادية، كشرك الفلاسفة والطبائعيين وَمن تَبِعَهُمْ على ذَلِك.

٦- وشرك الْأَغْرَاض: وَهُوَ الْعَمَل لغير الله.

فَحكم الْأَرْبَعَة الأولى الْكفْر بِإِجْمَاع، وَحكم السَّـــادِس الْمعْصِـــيَة من غير كفر بِإِجْمَاع، وَحكم الْخَامِس التَّفْصِيل.

فَمن قَالَ فِي الْأَسْـــبَاب العادية إِنَّهَا تُؤثر بطبعها فقد حُكيَ الْإِجْمَاع على كفره، وَمن قَالَ إِنَّهَا تُؤثر بِقُوَّة أودعها الله فِيهَا فَهُوَ فَاسق اهـ

قال أبو العباس: وإنما جعل العلامة الكفوي النوع الســـادس وهو (شـــرك الْأَغْرَاض: وَهُوَ الْعَمَل لغير الله) ليس شـــركًا أكبرًا مع أنه لغير الله؛ لأنه لم يقصـــد بالعمل العبادة من الأصـــل، وأما لو قصـــد بالعمل التعبد فهو داخل في الشـــرك الأكبر بلا خلاف.

مسألة (٤): المذاهب الواقعة في الشرك:

قال فخر الدين الرازي في تفسيره "مفاتيح الغيب" (٨/٥٤٢):

واعلم أن المذاهب المفضية إلى الشرك أربعة:

أحدها: قول من يقول: الله تعالى خلق السماء والسماوايات، وجعل الأرض والأرضيات في حكمهم، ونحن من جملة الأرضيات!! فنعبد الكواكب والملائكة التي في السماء؛ فهم آلهتنا والله إلههم، فقال الله تعالى في إبطال قولهم: إنهم لا يملكون في السماوات شيئًا كما اعترفتم، قال: ولا في الأرض على خلاف ما زعمتم.

وثانيها: قول من يقول: السماوات من الله على سبيل الاستبداد، والأرضيات منه ولكن بواسطة الكواكب؛ فإن الله خلق العناصر والتركيبات التي فيها بالاتصالات والحركات والطوالع، فجعلوا لغير الله معه شركًا في الأرض والأولون جعلوا الأرض لغيره والسماء له، فقال في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِنْ شِرْكٍ﴾ [سبأ:٢٢] أي الأرض كالسماء لله لا لغيره، ولا لغيره فيها نصيب.

وثالثها: قول من قال: التركيبات والحوادث كلها من الله تعالى، لكن فوض ذلك إلى الكواكب، وفعل المأذون ينسب إلى الآذن ويسلب عن المأذون فيه، مثاله إذا قال ملك لمملوكه: "اضرب فلانًا" فضربه، يقال في العرف: "الملك ضربه" ويصح عرفًا قول القائل: "ما ضرب فلان فلانًا"، وإنما الملك أمر بضربه فضرب، فهؤلاء جعلوا السماويات معينات لله، فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَمَا لَهُ مِنْهُمْ مِنْ ظَهِيرٍ﴾ [سبأ:٢٢]. ما فوض إلى شيء شيئًا، بل هو على كل شيء حفيظ ورقيب.

ورابعها: قول من قال: إنا نعبد الأصنام التي هي صور الملائكة ليشفعوا لنا، فقال تعالى في إبطال قولهم: ﴿وَلَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ﴾ [سبأ:٢٣] فلا فائدة لعبادتكم غير الله، فإن الله لا يأذن في الشفاعة لمن يعبد غيره، فبطلبكم الشفاعة تفوتون على أنفسكم الشفاعة اهـ.

وهذا التفصيل ذكره أبو حيان الأندلسي في "البحر المحيط" ونظام الدين النيسابوري في "غرائب القرآن" وكلاهما نقلا ذلك عن فخر الدين الرازي فهو أقدم منهما.

قال العلامة صالح آل الشيخ في كتابه "هذه مفاهيمنا" (صـ/١٥٤):

فتأمل قوله: إن من طلب الشفاعة فوت على نفسه الشفاعة التي تكون يوم القيامة؛ لأنها لا تنال إلا بالتوحيد، ومن التوحيد ترك طلب الشفاعة من المقبورين، سواء كانوا أنبياء أو صالحين وإنما تطلب شفاعة الأنبياء من الله سبحانه لا منهم، وتطلب من الله بتحقيق التوحيد والاستقامة عليه، وترك طلب الشفاعة ممن لا يملكها اهـ.

والخلاصة في أقسام الشرك أن العلماء قسموه باعتبارات وعبارات مختلفة في اللفظ متفقة في الأصل:

١- بعض العلماء جعلوا الشرك على قسمين:

- أكبر وأصغر، وجعلوا الخفي داخل في القسمين.
- وجعله بعضهم على نوعين مختلفين: شرك في الربوبية، وشرك في الألوهية، وجعلوا الأسماء والصفات داخلة في الربوبية.

٢- وبعض العلماء جعلوه ثلاثة أقسام:

- أكبر وأصغر وخفي.

- وبعض العلماء جعلوه ثلاثة بحسب أقسام التوحيد: شرك في الربوبية، شرك في الألوهية، شرك في الأسماء والصفات.

٣- وبعض العلماء جعلوه أربعة أقسام:

- شرك الدعوة، وشرك النية والقصد والإرادة، وشرك الطاعة، وشرك المحبة.
- وبعض العلماء جعلوه أربعة مختلفة: شرك الاحتياز، شرك الشياع، شرك الإِعانة، شرك الشفاعة، وهذه الأنواع أسماء للأربعة المذاهب التي نقلناها عن الرازي.

٤- وبعض العلماء جعله ستة: شرك الاستقلال، شرك التبعيض، شرك التقريب، شرك التقليد، شرك الأسباب، شرك الأغراض، وهذه الأقسام هي التي سبق نقلها عن الكفوي الحنفي.

فصل في الفرق بين الكفر والشرك

اختلف العلماء في الفرق بين الكفر والشرك على ثلاثة أقوال:

القول الأول: أن الكفر والشرك كل واحد منهما يختلف عن الآخر:

وذلك أن اللغة تفرق بين اللفظين: "كفر" و "شرك":

- فإذا نظرنا إلى لفظ "كفر" رأيناه مشتق من الكفر، وهو الجحود وهو "الإنكار والتكذيب"، فدل أنه نقيض الإيمان، وهو "الإقرار والتصديق".
- وإذا نظرنا إلى لفظ "شرك" رأيناه مشتق من الشرك، وهو التنديد، أي أن تجعل شريكًا مع الله في شيء من خصائصه سبحانه وتعالى، فدل أنه نقيض التوحيد، وهو "إفراد الله تعالى بربوبيته وألوهيته وأسمائه وصفاته".

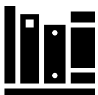
فدل أن الكفر غير الشرك والشرك غير الكفر، وهذا حق لا غبار عليه، ولكن بتتمة تحقيقه أكثر يتضح أن الفرق بينهما ثابت من جهة ثم يجتمع الكفر والشرك من جهة أخرى كما سيأتي.

القول الثاني: أن الكفر أعم من الشرك:

قال العلامة ابن عثيمين في "تفسير الأحزاب" (صـ/٣٥٠):

الفرق بين الشرك والكفر: أن الكفر أعم فإن كل مشرك كافر، وليس كل كافر مشركًا، قد يجحد الإنسان شيئًا مما أنزل الله تعالى فيكون كافرًا، وليس بمشرك

اهـ



وهذا القول رجحه العلامة النووي وابن الصلاح والعسكري والعلامة السعدي والعلامة الفوزان، ومعنى هذا القول أن أسباب الكفر كثيرة، فإن كفر بجحود كان سمي جاحدًا نسبة لفعله ولكن حكمه هو الكفر، وإن كفر بشرك سمي مشركًا نسبة لفعله ولكن حكمه هو الكفر، وإن كفر بإلحاد سمي ملحدًا نسبة للفعل ولكن حكمه هو الكفر، فالكفر أعم لتضمنه لكل المكفرات.

القول الثالث: أن الكفر والشرك معناهما واحد:

قال كبير العلماء الشيخ ابن باز كما في "فتاوى نور على الدرب" (١/ ٢٧٩):

كل شرك يسمى كفرًا، دعوة غير الله والاستغاثة بغير الله، وصرف العبادة لغير الله يسمى شركًا، ويسمى كفرًا، وقد يسمى كفرًا وشركًا أيضًا، كمن جحد وجوب الصلاة، أو قال: الزنى حلال، يسمى كافرًا ويسمى مشركًا، ولكن الغالب على ما كان جحدًا لواجب، وجحدًا لمحرم يسمى كفرًا، والغالب ما كان دعوة لغير الله، والاستغاثة بغير الله، والنذر لغير الله، يسمى شركًا، وإلا فكل شرك يسمى كفرًا، وكل كفر أكبر يسمى شركًا اهـ.

وقال العلامة عبد العزيز الراجحي كما في "فتاوى منوعة" (٢/ ١٤):

الكفر هو الشرك، والشرك هو الكفر، والكافر الجاحد لتوحيد الله مشرك؛ لأنه عبد الهوى وعبد الشيطان، والمشرك كافر؛ لأنه جاحد لتوحيد الله وجاحد لحقه، لكن إذا كان كفره من جهة الجحود هذا أخف بالنسبة للكفر، وإذا كان

شركه من جهة عبادة غير الله صار أخف في الشرك، وإلا فكل مشرك كافر، وكل كافر مشرك اهـ

واختار هذا القول كبير المحدثين العلامة الألباني.

الخلاصة العلمية للمسألة:

قال أبو العباس: عند إمعان النظر وإيعان الفكر في المسألة والأقوال التي قيلت فيها، نجد بالشكل المجمل أن الأقوال الثلاثة كلها صحيحة، ولكننا عند التعمق والتفصيل نجد أن هناك قولًا هو أشد الأقوال صحة.

القول الأول: وهو قول الذين فرقوا بين "الكفر" و "الشرك" ولاشك أن التفريق ظاهر؛ فالكفر في اللغة: هو الستر، والشرك في اللغة هو المشاركة، ولا وجه للشبه بين اللفظين (الستر) و (المشاركة) لغة.

والكفر في الشرع: هو الجحود لشيء مما شرعه الله تعالى، ولهذا جاء في القرآن الكريم ذكر الكفر في مقابلة الشكر لأن الشكر هو الاعتراف.

والشرك في الشرع: هو التنديد والتسوية أي أن تجعل لله ندًا وهو خلقك، ويدخل فيه صرف العبادة، وهذا شرك في الألوهية ويدخل فيه اعتقاد أن غير الله يفعل بعض أفعال الله الخاصة به وهذا شرك الربوبية.

ولاشك أن هذا التفصيل يوجب ثبوت التفريق بين "الكفر" و "الشرك" من حيث اللفظ والمعنى.

القول الثاني: وهو قول الذين جعلوا الكفر أعم من الشـــرك، وهو قول قوي جدًا؛ لأن أصــحاب هذا القول يقرون بالقول الأول، ولكن بالرجوع للحكم الشرعي فإن الكفر حكم والشرك عمل يقتضي الحكم، ولما كان حكم الشرك هو الكفر بين أصــحاب هذا القول: إن الكفر أعم والشـــرك أخص؛ لأن الكفر حكم للكثير من الممارســات، كالشــرك بالله، والســحر، والاســتهزاء بالدين، واســتحلال الحرام، فكان الكفر أعم والشــرك أخص. ولخصــوا مذهبهم بقولهم: كل شــرك كفر وليس كل كفر شرك.

كل شرك كفر: لأن حكم الشرك هو الكفر والمشرك كافر، وليس كل كفر شــرك: لأنه قد يكفر بشــيء غير التنديد؛ كمن يكفر بســبب الســحر، أو بســبب الاســتهزاء بالدين، أو بســبب اســتحلال المحرم: كالزنا، والخمر، وقد يكفر بســبب إنكار وجود الخالق.

القول الثالث: أن الكفر والشـــرك كلاهما واحد: وهذا القول قد يظنه البعض غريبًا، لاســيما بعد الاطلاع على القولين الســابقين، والذي يظهر أن هذا القول هو القول الراجح والأقوى، وهؤلاء يقرون بالقول الأول من حيثية التفريق اللغوي، ويقرون بالقول الثاني من حيث غلبة الاســتعمال اللفظي، ولكنهم يمتلكون زيادة تدل أن الكفر يطلق على شـــيء والشـــرك يطلق على شـــي مع جواز إقامة أحدهما مقام الآخر، كإقامة العلم مقام المعرفة، مع أن القاســـم المشـــترك بينهما وجهي لا من كل وجه.

وعلى كل فالكفر قد يكون بشـــرك وقد يكون بغير شـــرك، فالإعراض والاستهزاء والجحود والسحر واستحلال المحرمات وسب الدين كل هذه صور من صـور الكفر وليس فيها وجه من معاني الشـرك (الظاهرة)، ومن هنا يعتبر الشـرك نوعًا من أنواع الكفر.

ولكن الناظر في القرآن الكريم والسنة النبوية يجد أن الوحي وصف الكافر بالشرك فدل أن هناك وجه خفي لدخول الكفر في صورة من صور التنديد فماهي هذه الصورة؟

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾ قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٣٨﴾﴾ [الكهف: ٣٥ - ٣٨]

مع أن هذا الرجل لم يشـرك في ظاهر الأمر، بل جحد قيام السـاعة وهذا من معاني الكفر لا الشـرك، ولهذا خاصـمه الآخر بقوله: ﴿أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ﴾ ثم نزه نفسـه عن القيام بما قام به صـاحبه فقال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

فدل أن صـاحبه حين قال: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِنْهَا مُنْقَلَبًا ﴿٣٦﴾﴾ أنه وقع بالأمرين في الوقت نفسـه!! أنه كفر وأشـرك أيضًا.

ووجه الشرك هنا ليس تعظيم المخلوق وجعله بمنزلة الخالق من حيث القوة والقدرة، بل هو من التشريك بالضد وهو جعل الخالق بمنزلة المخلوق من حيث الضعف والعجز وعدم القدرة على إبادة جنته وعلى بعثه بعد موته.

وقد اختلف في تأويل وجه وقوعه في الشرك، وفي بعضها أن المعنى أنه قد يتحول إلى الشرك، أي أنه ليس مشركًا حينها، وهذا مردود بوقوعه بالشرك الظاهر ويتجلى ظهوره من جهتين:

الأولى: قوله: ﴿مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَدًا﴾ وقوله: ﴿وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً﴾ وهذا كما سبق أنه لم يجعل لله ندًا من الخلق بل جعل الله تعالى ندًا لهم من وجهين: بعجزة عن إبادة جنته وكأنه هو من خلقها وأوجدها استقلالًا. وعجزه عن بعث خلقه.

ولهذا وصف صاحبه أقواله بالشرك فقال: ﴿لَكِنَّا هُوَ اللَّهُ رَبِّي وَلَا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَدًا﴾.

الثاني: أن هذا الرجل قد وفر علينا التخبط في خلافات العلماء فأقر على نفسه أنه أشرك كما قال تعالى:

﴿وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَالَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَدًا ﴿٤٢﴾﴾ [الكهف: ٤٢]

وظاهر النص أنه ندم على الشرك الذي جعله في تلك الخسارة الدنيوية الكبيرة!! فهل ندم رغبة بالتوحيد الذي كان يفتقده، أم ندم من أجل الدنيا التي

خســرها لا من أجل التوحيد؟ ظاهر النص يؤيد الاحتمالين ولهذا نتوقف عما ليس لنا به علم.

الدليل الثاني: ومن الأدلة على ذلك من السنة ما رواه مسلم من حديث جابر أن النبي ﷺ: (بين الرجل وبين الشــرك والكفر ترك الصــلاة) فجعل ترك الصــلاة كفرًا وشــركًا في نفس الوقت، وهو دليل حســن باعتبار أنه دل أن تارك الصلاة واقع في الشرك، ولكن الحديث يتضمن النظر من زاويتين:

الزاوية الأولى: من نظر منها وجد أن الحديث أثبت التفريق؛ ووجه ذلك أنه لوكان أحد اللفظين يدل على الآخر لاكتفى بأحد اللفظين.

الزاوية الأخرى: أن الحديث أثبت أن ترك الصــلاة يدل على أمرين: الكفر والشــرك، وقد جاء في رواية الترمذي وأحمد أنه قال: (وبين الشــرك أو الكفر) وشاهدنا أن ترك الصلاة ليس تديدًا في الظاهر فدل وصفه بالشرك على وجود التنديد وأنه خفي.

وبما أن ترجيح الزاوية الأولى يتعارض مع دلالة النص فهو ضعيف لتعارضه مع النص، وبما أن ترجيح الزاوية الثانية لايتعارض مع صراحة النص بوصف الترك بالشرك فهو الراجح حقًا وصدقًا.

بيان وجه القول
بأن الكفر والشرك معناهما واحد

إذا اتضح تقرير أن الشرك هو الكفر والكفر هو الشرك بالأدلة السابقة، فإننا نقر بالعمل بالأدلة، إلا أننا نريد معرفة توجيه الدلالة على هذا النحو؛ حتى يزول الإشكال ويتم الجمع بين النصوص.

اعلم حفظك الله أن لفظ "الكفر" ولفظ "الشرك" يفترقان في المعنى اللغوي والحد الشرعي ويجتمعان في الحكم الشرعي والعلة المتسببة، وبيان ذلك من ثلاثة أوجه:

الوجه الأول: أن الأصل هو الكفر ومعناه في اللغة الستر وفي الشرع الجحود وغيره، والشرك معناه في اللغة الشراكة وفي الشرع التنديد والتسوية، وبهذا يكون التعامل مع اللفظين وفق المعاني اللغوية والحدود الشرعية هو التفريق بينهما لغة وشرعًا.

الوجه الثاني: بما أن الشرك حكمه الكفر، والكفر حكم لصور متعددة من الكفريات فإن الأصل هو عموم الكفر وخصوص الشرك، فدل على دخول الشرك في الكفر وعدم دخول الكفر في الشرك بهذا الاعتبار. فتم كسر التفريق بين اللفظين باعتبار دخول أحد اللفظين فقط.

الوجه الثالث: كسر التفريق بين اللفظين، فكما أدخلنا الشرك في الكفر باعتبار دخول الخصوص في العموم وباعتبار الكفر هو الحكم الشرعي للشرك، فإننا ندخل الكفر في الشرك باعتبار أن الكافر واقع في صورة خفية من صور الشرك، وهي عبادة الهوى.

كما في قوله تعالى: ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنْتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلًا﴾ [الفرقان: ٤٣] وقوله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ [الجاثية: ٢٣]

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: (تعس عبد الدينار والدرهم والقطيفة والخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط لم يرض).

وجاء خارج البخاري عند ابن ماجه والبيهقي والطبراني والبزار بزيادة: (تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "العبودية" (صـ/١٠٠) وهي في "مجموع الفتاوى" (١٠/١٩٦):

وكل من استكبر عن عبادة الله لا بد أن يعبد غيره، فإن الإنسان حساس يتحرك بالإرادة وقد ثبت في "الصحيح" عن النبي ﷺ أنه قال: (أصدق الأسماء حارث وهمام).

فالحارث الكاسب الفاعل، والهمام فعال من الهم، والهم أول الإرادة، فالإنسان له إرادة دائمًا وكل إرادة فلا بد لها من مراد تنتهي إليه، فلا بد لكل عبد من مراد محبوب هو منتهى حبه وإرادته، فمن لم يكن الله معبوده ومنتهى حبه وإرادته، بل استكبر عن ذلك فلا بد أن له مراد محبوب يستعبده غير الله، فيكون عبدًا لذلك المراد المحبوب، إما المال وإما الجاه وإما الصور وإما ما يتخذه إلهًا من دون الله كالشمس والقمر والكواكب والأوثان اهـ

وقال كما في "مجموع الفتاوى" (١٤/٢٨٢):

ولهذا كان كل من لم يعبد الله وحده، فلا بد أن يكون عابدًا لغيره. يعبد غيره فيكون مشركًا. وليس في بني آدم قسم ثالث. بل إما موحد، أو مشرك، أو من خلط هذا بهذا كالمبدلين من أهل الملل: النصارى ومن أشبههم من الضلال، المنتسبين إلى الإسلام اهـ

وقال كما في "مجموع الفتاوى" (١٤/٢٨٤):

فكل من لم يعبد الله مخلصًا له الدين، فلا بد أن يكون مشركًا عابدًا لغير الله. وهو في الحقيقة: عابد للشيطان. فكل واحد من بني آدم إما عابد للرحمن، وإما عابد للشيطان اهـ.

وقال كما في "مجموع الفتاوى" (٧/٢٩٥):

ومن أطاع الشيطان في دينه وعمله فقد عبد الشيطان ألا ترى أن الله قال للذين فرطوا: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠] وإنما كانت عبادتهم الشيطان أنهم أطاعوه في دينهم اهـ

وقال كما في "مجموع الفتاوى" (٦٧٢/١١):

فإن النفس لا بد لها من إله تعبده فمن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان.
فيقال: عبادة الشيطان جنس عام وهذا إذا أمره أن يشتغل بما هو مانع له من الإيمان والتوحيد يقال: عبده. كما أن من أطاع الشيطان فقد عبده ولكن عبادة دون عبادة اهـ

وقال العلامة سليمان بن عبدالله آل الشيخ" في "التوضيح عن توحيد الخلاق في جواب أهل العراق" (صـ/٣٠٦):

فمن لم يشهد الفرق الشرعي الإلهي كان مع الفرق الطبيعي النفساني أو فرق شيطاني، ومن لم يعبد الرحمن عبد الشيطان اهـ.

وقال العلامة المعلمي اليماني في "رفع الاشتباه عن معنى العبادة والإله" وهو ضمن "آثار المعلمي" (٦٠٣/٣):

﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾، فالمفهوم حينئذ: أنَّ مَن لم يفعل ما أُمر به فقد عبد غير الله تعالى، والمعنى أنه عبد الشيطان اهـ

وقال العلامة الشنقيطي في "أضواء البيان" (١٨٣/٧):

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾﴾، فصرح بتوليهم للشيطان، أي باتباع ما يزين لهم من الكفر والمعاصي مخالفًا لما جاءت به الرسل، ثم صرح بأن ذلك إشراك به في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ

مُشْرِكُونَ ﴿١٠٠﴾، وصرح أن الطاعة في ذلك الذي يشرعه الشيطان لهم ويزينه عبادةٌ للشيطان.

ومعلوم أن من عبد الشيطان فقد أشرك بالرحمن، قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾ وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا﴾ ويدخل فيهم متبعو نظام الشيطان دخولًا أوليًّا اهـ.

وقال العلامة الألوسي في "روح المعاني" (١٠٧/٨):

وكثيرًا ما يقال لمن يستولي عليه حب شيء فينقاد له عبد ذلك الشيء ومنه عبد الدينار والدرهم وعبد الخميصة وعبد بطنه، ومن هنا يقال لمن يتبع الشيطان عبد الشيطان اهـ

قلت: فهذه قاعدة سلفية متقررة في كتب السلف أن من لم يعبد الله عبد غيره، ونقلها الذهبي في "تاريخ الإسلام" (٢١١/٢٠) عن أبي حاتم العطار، وذكرها العلامة ابن عثيمين في "التفسير" (٨٣/١) وذكرها العلامة الفوزان كما في كتاب "خطب مختارة" (صـ/٥٧) وذكرها العلامة الهرري في تفسيره "حدائق الروح والروحان" (٧٩/٢٤)

وأصل هذه القاعدة في أكثر من آية في القرآن الكريم ومن ذلك قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٠]

وجاء في تفسير "بحر العلوم" للسمرقندي (١٢٩/٣) عن ابن عباس رضي الله تعالى أنه قال: من أطاع شيئًا فقد عبده.

وصرح بهذه العبارة الكثير من العلماء ومنهم: الثعلبي في "الكشف والبيان" (٢١٧/٦) والواحدي في "التفسير البسيط" (٤٨/١٤) وابن عثيمين في تفسير سورة الزخرف (صـ/١١٣)

وبهذا يزول الإشكال بإذن الله تعالى.

قال المؤلف:

الثالثة: أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ، وَوَحَّدَ اللهَ لا يَجُوزُ لَهُ مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وَلَوْ كَانَ أَقْرَبَ قَرِيبٍ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى:

﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

الشرح:

المراد من هذه المسألة أن من ادعى أنه قد تمسك بالكتاب والسنة قولًا وعملًا واعتقادًا، فإن هناك علامة تثبت حقيقة دعواه، وتبين هل هو من الصادقين أم من الكاذبين، وهي موقفه من عقيدة الولاء والبراء.

وهذه العقيدة هي من ضمن الموازين باعتبار القوالب دليل على ما في القلب. فهي دليل على حقيقة دعواك في محبة ربك، فإنه لا يمكن بحال أن تجمع بين الحق والمحال؛ فمن أحب الحق وأهله أبغض الباطل أهله.

فالموحد لا يحب المشرك، والسني لا يحب المبتدع، وذلك أن الحق والباطل نقيضان لا يجتمعان لا في الظاهر ولا في الباطن، فإن اجتمعا بالحس فهذا دليل على دسيسة بالمعنى.

والحديث عن عقيدة الولاء والبراء يحتاج لمؤلف كامل؛ لأهميته وخطورته، ولكن بالإمكان أن نلخص الحديث عنه ونستوفي أهم مسائله من خلال خمسة عناوين: التعريف، الأدلة، المفهوم، الحكم. الأمثلة.

العنوان الأول:

التعريف اللغوي والاصطلاحي للولاء والبراء

الولاء لغة: القرب

الولاء اصطلاحًا: الحب

البراء لغة: البعد

البراء اصطلاحًا: البغض

قال ابن أبي العز في "شرح الطحاوية" (صـ/٣٥٧):

الولي: من الولاية بفتح الواو التي هي ضـد العداوة وقد قرأ حمزة: "ما لكم من ولايتهم من شيء" [الأنفال: ٧٢] بكسر الواو، والباقون بفتحها، وقيل: هما لغتان. وقيل: بالفتح النصـرة، وبالكسـر الإمارة، قال الزجاج: وجاز الكسـر، لأن في تولي بعض القوم بعضًـا جنسًـا من الصـناعة والعمل، وكل ما كان كذلك مكسـور، مثل: الخياطة ونحوها اهـ.

وقال ابن الأعرابي كما في "لسان العرب" (١/ ٣٣):

برئ إِذا تَخَلَّصَ، وبَرِئَ إِذا تَنَزَّهَ وتباعَدَ، وبَرِئَ، إِذا أَعْذَرَ وأَنذَرَ؛ وَمِنْهُ قولهُ تَعَالَى: بَراءَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ، أَي إِعْذارٌ وإِنذارٌ اهـ

العنوان الثاني: أدلة عقيدة الولاء والبراء

ومن تتبع الأدلة الدالة على عقيدة الولاء والبراء وجدها على ثلاثة: أقسام يأمر بالولاء لأهل الإيمان، وقسم يأمر بالبراء من أهل الكفر والبهتان، وقسم جمع بين الأمرين، وهذه بعضها:

القسم الأول: أدلة الولاء:

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ ۝٥٥ وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ ۝٥٦﴾ [المائدة: ٥٥ - ٥٦]

وقال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [التوبة: ٧١].

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ ۝٢٦ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ۝٢٧ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ۝٢٨﴾ [الزخرف: ٢٦ - ٢٨]

وروى الإمام مسلم من حديث النعمان بن بشير أن النبي ﷺ قال: (مثَلُ المؤمنين في توادِّهم وتراحُمِهم وتعاطُفهم مَثَلُ الجسد، إذا اشتكى منه عضو، تَدَاعى له سائر الجسد بالسهر والحُمّى). والتواد هو الولاء.

وروى الإمام مسلم من حديث أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (**والذي نفسي بيده، لا تدخلون الجنّةَ حتى تؤمنوا، ولا تؤمنوا حتى تحابّوا، أولا أدلّكم على شيءٍ إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلامَ بينكم**). والتحاب هو الولاء.

القسم الثاني: أدلة البراء:

قال تعالى: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨].

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

وقال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

وقال تعالى: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ [الممتحنة: ٤]

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ ﴿١٣﴾﴾ [الممتحنة:١٣]

القسم الثالث: أدلة تجمع بين الولاء والبراء:

الدليل الأول: روى الإمام أحمد عن جرير بن عبد الله البجلي قال: قلت: يا رسول الله، اشترط علي. فقال ﷺ: (**تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتصلي الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتنصح للمسلم وتبرأ من الكافر**).

الدليل الثاني: روى الطيالسي وابن أبي شيبة من حديث البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: (**أوثق عرى الإيمان الحب في الله عز وجل والبغض في الله**). وعند أحمد بلفظ: (**إن أوثق عرى الإيمان أن تحب في الله وتبغض في الله**).

الدليل الثالث: روى الطبراني في "الكبير" والبيهقي في "الشعب" والبغوي في "شرح السنة" عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ لأبي ذر: أي عرى الأيمان أظنه قال أوثق؟ قال: الله ورسوله أعلم قال: (**الموالاة في الله والمعاداة في الله. والحب في الله والبغض في الله**).

الأول صححه محققو المسند، والثاني صححه العلامة الألباني وذكره شيخنا العلامة الحجوري في شرح "الأربعين النووية" والثالث صححه العلامة الألباني.

العنوان الثالث: مفهوم عقيدة الولاء والبراء

لايقتصــــر الولاء على الحب والبراء على البغض، بل لابد من إعمال لازم الحب وهو نصرة أهل الإيمان ومظاهرتهم، ولابد من إعمال لازم البغض وهو معاداة أهل الباطل واضعافهم.

قال تعالى: ﴿فَسَــوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [المائدة: ٥٤]

وقال تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُــــولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِــــدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]

وقد وصف الله تعالى أهل الإيمان أنهم في الولاء القائم بينهم يشكلون حزبًا عظيم القوى، وهو حزبه الذي لايقهر ولا يدحر، وكل ما يعتريهم من الضــــعف إنما هو بسبب ضعف ولائهم لله وولائهم لبعضهم بعضًا، وأن قوتهم الحقيقية إنما تكون بكونهم كالجسد الواحد حتى يصير الواحد منهم يحب لأخيه ما يحب لنفسه.

قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُــــولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

وقال تعالى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ

الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

فوصفهم بحزبه المفلح ولكن ذلك بشروط مشددة لا تكاد تجدها إلا في قلوب عامرة بالصدق والإخلاص، ونقطع أن هذا لم يتحقق في التاريخ إلا في قلوب أولئك الذين كسر الله بهم قصور الكياسرة، وقصر بهم تطاول القياصرة، وهم أصحاب ﷺ ثم من سار على طريقتهم حذو القذة بالقذة، وهم القلة القليلة من البشر، والنادرة الأندر من الكبريت الأمر، المعنيون بقوله تعالى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ﴾ [الواقعة: ١٤].

وخلاصة مفهوم عقيدة الولاء والبراء، أن يكون ولاؤك لله تعالى يدل عليه تمسكك بالتوحيد الخالص، الذي جاء به نبيه ﷺ، وأن تُثْبِتَهُ بالحقائق وتَثْبَتَ عليه في السعة والمضايق، وإثباته يكون بالحقائق التالية:

❁ أن تثبت حبك لله تعالى: ببغضك لأعدائه من أهل الكفر، وهم أهل الشرك والتنديد، وأهل الالحاد، وأهل النفاق، وهكذا سائر المعادين للإسلام سواء بالظاهر أو بالكيد والحيل، حتى وإن تظاهروا بغير ذلك.

❁ أن تثبت حبك لنبيه ﷺ: ببغضك لأعدائه من منكري سنته، والطاعنين في صحابته، والمتهمين لزوجته، وأن تعتقد كفرهم؛ فإن إنكار السنة كفر والطعن في نسائه كفر والطعن في جمهور صحابته كفر.

۞ وبما أن أوثق عرى الإيمان هو الحب في الله والبغض في الله، فإن من علامة ذلك أن نحب أمنا الحصان الرزان، السيدة عائشة الوقار والحميراء من غير احمرار، ونبغض أعداءها، ونعتقد كفر الطاعنين في عرضـــها، وكفر من لم يكفر الطاعنين فيها، وأن شرفها هو شرف هذه الأمة كلها.

۞ وأن نحب الفاروق الأكبر وقادســـيته الكبرى، وأن نبغض أعداءه ودولتهم، ونعتقد كفر أعداء القادســـية في كل زمان ومكان، ولايفرق منه إلا نجس رجس شيطان.

۞ وأن نحب أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ونبغض كل الخوارج والنواصب، فهو صاحب الراية في تلك المضايق لا يحبه إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق.

۞ وأن نحب الملك المبجل الموصى به بالحديث المنزل، فقد روى أبو بكرة بالتنازل له في تلك الفترة، فكان أول ملوك الإســـلام وبه تحققت الجماعة وعم السـلام. وهو الصحابي كاتب القرآن الداهية معاوية بن أبي سفيان، ونحب دولته الأموية وفتوحاته القوية، ونعتقد أن الخلاف بين علي ومعاوية خلاف بين أخوين لم يكفر أحدهما الآخر، وهكذا نحن من بعدهم.

۞ وأن تثبت حبك لأوليائه المؤمنين، بأن تكون منهم ومعهم في غربة الدين، والتواصي بالحق والتواصي بالصبر، وأن تقوم بولايتهم ومناصرتهم، والدعاء لهم، وأن تفرح لهم بما تفرح به لنفسك.

❁ وبما أن الاخوة الحقيقة إنما هي اخوة الدين، فإن أولياء الله تعالى يحافظون على هذا الدين، فينفون عنه انتحال المبطلين، وتأويل الجاهلين، وتحريف الغالين، ويظهرونه بوجهه الجميل، وأنه دين العدالة والإنسانية والسلام.

❁❁ ومن أعظم مفاهيم عقيدة الولاء والبراء أن نعتقد أن العروة الوثقى هي الإيمان، وأن أعلى شعبه الإيمان بالشهادتين، كما قال تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا﴾ [البقرة: ٢٥٦].

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى وَإِلَى اللَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ [لقمان: ٢٢].

والعروة الوثقى هي الكلمة الطيبة التي أصلها ثابت وفرعها في السماء، وهي: (شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله) و (الحب فيها والبغض فيها) فدل أن عقيدة الولاء والبراء مرتبطة بالشهادتين. فالشهادتان هي العروة الوثقى، والولاء والبراء هو أوثق عرى الإيمان بالشهادتين، ولهذا قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

فقوله: ﴿لَا تَجِدُ﴾ دليل أن الإيمان بالشهادتين لا يجتمع مع موالاة أعداء الإيمان بها، وبمعنى آخر فإنك إن وجدت ذلك فإن وجوده يعني أن الايمان دائر بين عدم وجود الأصل أو عدم وجود الكمال.

فحبنا لأهل الشهادتين من حبنا لها، وبغضنا للمنحرفين عن الشهادتين، من بغضنا لأعدائها، وأهل الانحراف عنها ثلاثة أقسام:

القسم (١): الكفار الذين لم يشهدوا بالشهادتين. كاليهود والنصارى والمجوس والهندوس والبوذ والملاحدة، وسائر الكفار الأصليون من المشركين والوثنيين ونحوهم.

القسم (٢): المرتدون عنها حتى وإن نطقوها في كل يوم، وهم الذين يقولونها بألسنتهم ويخالفونها بأفعالهم، كعباد القبور والمتوسلين والمستغيثين بالأموات، والمعتقدين أن الأولياء ينزلون المطر ويرزقون الولد. وأهل البدع الكبرى المخرجة من الملة.

وهذا القسم يجهله الكثير من الناس بحجة أنهم يصلون ويشهدون أن لا إله إلا الله، وسبب الجهل فيه هو الجهل بأن شهادة لا إله إلا الله لها شروط من ناقضها فليس من أهلها.

القسم (٣): وهم أهل الكبر الأصغر والظلم الأصغر، أي الظلم والكبر الذي لايخرج صاحبه من الملة ولكنه يجعلهم في عداد أهل الضلال والانحراف، كالمبتدعة والظلمة والمتكبرين والمفسدين.

فكل هؤلاء نبغضهم ونعاديهم في الله تعالى لا لهوى النفس ولا للأغراض الشخصية، بل نبغضهم في الله تعالى؛ لأن (**أوثق عرى الإيمان**) بلا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله ﷺ (**الموالاة في الله والمعاداة في الله والحب في الله والبغض في الله**).

ومن تتبع كلام السلف وجدهم في نفرة شديدة وبغض شديد لأهل الباطل سواء كان كافرًا أو مبتدعًا ضالًا. إلا أن بغض الكافر أشد من بغض الفاسد بلا خلاف بين علماء المسلمين.

العنوان الرابع:

حكم موالاة الكافرين ومعاداة المؤمنين

وقد دلت آية المجادلة بمنطوقها أن المؤمن الصـــادق لا يوالي أهل الباطل، فدلت بمفهومها أن المؤمن إن والى الكفار فإن إيمانه يدور بين نفي مطلق الإيمان أو نفي الإيمان المطلق، أي ان تلك الموالاة لا تخرج عن كونها إما مبطلة أو مضـــعفة للإيمان.

قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

فقوله: ﴿لَا تَجِدُ﴾ سبق أنه دليل أن الإيمان بالشهادتين لا يجتمع مع موالاة أعداء الإيمان بها، وبمعنى آخر فإنك إن وجدت ذلك فإن وجوده يعني أن الايمان دائر بين عدم وجود الأصل أو عدم وجود الكمال.

وهـل هـذا يعني تكفير من خـالف عقيـدة الولاء والبراء؟ والجواب: أن الانحراف في عقيدة الولاء على قســمين: كلي وجزئي، وكل واحد من القســمين له حكمه الخاص به.

حكم الولاء: موالاة المؤمنين واجبة، وموالاة الكافرين محرمة

حكم البراء: البراء من الكافرين واجب، والبراء من المؤمنين حرام

فـاجتمع الولاء للمؤمنين والبراء من الكـافرين في الحكم وهو الوجوب، واجتمع الولاء للكـافرين والبراء من المؤمنين في الحكم وهو الحرمـة، فلا فرق بين المسـلم الذي يوالي الكافرين والمسـلم الذي يعادي المؤمنين؛ إلا أن صـورة المسـألة صارت على أربعة صور:

الأولى: مســـلم يحب المؤمنين ويحب الكافرين: فحبه للمؤمنين طاعة وحبه للكافرين معصية. فهذا خلط بين الحق والباطل.

الثانية: مسلم يبغض المؤمنين ويبغض الكافرين: فبغضـه للمؤمنين معصية وبغضه للكافرين طاعة. وهذا خلط بين الحق والباطل.

الثالثة: مســـلم يحب الكافرين ويبغض المؤمنين: فحبه للكافرين معصـــية وبغضه للمؤمنين معصية. وهذا جمع بين شرين.

الرابعة: مســـلم يحب المؤمنين ويبغض الكـافرين: فحبه للمؤمنين طاعة وبغضه للكافرين طاعة. وهذا هو المتمسك بالعروة الوثقى.

فإذا عرفنا أن المخالف لعقيدة الولاء والبراء واقع في معصـــية، بقي أن نعرف متى تكون هذه المعصية مخرجة لصاحبها من الإسلام، ومتى تكون غير مخرجة له من الاسلام؟

والجواب: أن العلماء بأدلة الكتاب والسنة نظروا للألفاظ الشرعية فرأوها جاءت بلفظين: (الموالاة) و (التولي) ومن خلال اللفظين اتفقوا على تقسـيم موالاة الكفار إلى قسمين:

الأولى: المخرجة من الملـة: وهي الموالاة (الـدينيـة) وتســـمى الموالاة (الكبرى).

الثانية: غير مخرجة من الملة وهي الموالاة (الـدنيوية) وتســـمى الموالاة (الصغرى).

ثم اختلفوا في الألفاظ (الموالاة) و (التولي) وأي هذه الألفاظ تدل على الدينية المكفرة والدنيوية غير المكفرة، على ثلاثة أقوال:

القول الأول: التولي: هي الكبرى المخرجة من الملة والموالاة هي الصغرى غير المخرجة من الملة.

القول الثاني: الموالاة: على قســـمين: دينية مكفرة ودنيوية غير مكفرة. والتولي: على قســـمين: دينية مكفرة ودنيوية غير مكفرة. فجعلوا الموالاة والتولي بمعنى واحد ينقسم إلى قسمين: كبرى مخرجة من الملة. وصغرى غير مخرجة من الملة، وهذا ترجيح العلامة السعدي رحمه الله تعالى، وقد صرح به في موضعين من تفسيره

الموضـع الأول: في تفســيره لقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]

قال رحمه الله تعالى: (١/٢٥٣):

لأن التولي التام يوجب الانتقال إلى دينهم. والتولي القليل يدعو إلى الكثير، ثم يتدرج شيئًا فشيئًا، حتى يكون العبد منهم اهـ.

الموضـــع الثاني: في تفســـير قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]

قال رحمه الله تعالى (١/٨٥٦):

وذلك الظلم يكون بحســـب التولي، فإن كان توليًا تامًا، صـــار ذلك كفرًا مخرجًا عن دائرة الإســلام، وتحت ذلك من المراتب ما هو غليظ، وما هو دون ذلك اهـ.

القول الثالث: أن بينهما عموم وخصوص، فكل تولي موالاة وليست كل موالاة تولي، أي أن الموالاة درجات أعلاها تصـــل لدرجة التولي، وأما التولي فهو كفر؛ لأنه يدل على الشـــدة في الولاء، وهو درجات في الكفر كلما زاد توليًا زاد كفرًا. ولهـذا إنما يتحـدث العلماء في غـالـب أمرهم عن الموالاة ويجعلونها كبرى وصغرى، فدل أن الكبرى هي التي تصل لدرجة التولي واسمها موالاة.

قـال تعـالى عن تولي الكـافرين: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]

وقال تعالى عن تولي المؤمنين: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّ اللَّهَ وَرَسُـــولَهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا فَإِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [المائدة: ٥٦]

فـدل لفظ "التولي" في الآيـة الأولى على كفر أصــــحـابـه وعلى ظلمهم وضـلالهم، ودل في الآية الثانية على وصـف أصـحابه بالمتغلبين والمنتصـرين؛ لأنهم

صاروا من حزب الله رب العالمين. فدل ذلك أن لفظ "التولي" دليل على الشدة في الولاء وبلوغ التمام فيه.

وهذا القول هو الحق والصواب، والقول الأول داخل فيه وهو تفصيل له.

قال العلامة سليمان بن سحمان:

وأَصـــــلُ بَلاءِ القومِ حَيثُ تَورَّطُوا
هُوَ الجَهْلُ في حُكمِ المُوالاةِ عَنْ زَلَلْ
فمَـا فَرَّقُوا بَينَ التَّولِّي وحُكْمِـهِ
وَبينَ المُوالاةِ التي هي في العمـلْ
أَخَفُّ ومنهـا مـا يُكْفِّرُ فِعْلُـهُ
ومنها يكُونُ دُونَ ذلِكَ في الخَلَلْ

وهذا القول قاله القرطبي وابن حزم وعبد اللطيف آل الشـــيخ وهو قول الكثير من العلماء.

التفصيل بالأدلة الشرعية على تقسيم الموالاة إلى كفرية وغير كفرية، وبيان الضابط في ذلك:

القسم الأول: الموالاة الكبرى (الكفرية):

وهي التي تســـمى: "التولي" وضـــابطها أنها موالاة "دينية" بمعنى أن تكون موالاة الكفار بقصد نصرة دينهم وتسلطهم على دين الإسلام وأهله، ولا يقوم بهذا العمل إلا أحد ثلاثة: كافر أصـلي. أو منافق كان يتظاهر بالإسـلام. أو مسـلم ارتد عن الاسلام.

قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]

وقال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [التوبة: ٢٣]

وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة: ٩]

قال الإمام ابن جرير الطبري في "جامع البيان" (٦/٣١٣):

ومعنى ذلك: لا تتخذوا، أيها المؤمنون، الكفارَ ظهرًا وأنصارًا توالونهم على دينهم، وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلُّونهم على عوراتهم، فإنه مَنْ يفعل ذلك "فليس من الله في شيء"، يعني بذلك: فقد برئ من الله وبرئ الله منه، بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر اهـ.

قال العلامة القرطبي في "الجامع" (٦/٢١٧):

﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ﴾ أي يعضدهم على المسلمين ﴿فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ بين تعالى أن حكمه كحكمهم؛ وهو يمنع إثبات الميراث للمسلم من المرتد، وكان الذي تولاهم ابن أبي ثم هذا الحكم باق إلى يوم القيامة في قطع المولاة اهـ.

قال العلامة ابن حزم في "المحلى" (١٢/٣٣):

وصح أن قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ إنما هو على ظاهره بأنه كافر من جملة الكفار فقط، وهذا حق لا يختلف فيه اثنان من المسلمين اهـ

القسم الثاني: الموالاة الصغرى (غير المكفرة):

وهي التي تسمى: "الموالاة" وضابطها أنها موالاة "دنيوية" بمعنى أن تكون موالاة الكفار بقصد الدنيا، وهي على قسمين: لجلب مصلحة دنيوية، أو لدفع مفسدة دنيوية: وكلاهما ضلال، والصحيح أنه لا يصح القول بعدم كفر هذا القسم مطلقًا؛ بل لابد من التفصيل فنقول الموالاة الدنيوية على قسمين:

القسم (١): موالاة دنيوية مكفرة:

وصورتها أن يكون الإسلام هو المتضرر من تحقيق مصلحته الدنيوية وهو راض ومطمئن قلبه بذلك؛ لقوله تعالى: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لَا يُبْخَسُونَ ﴿١٥﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ لَيْسَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ إِلَّا النَّارُ وَحَبِطَ مَا صَنَعُوا فِيهَا وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾ [هود: ١٥، ١٦]

وروى البخاري عن أبي هريرة عن النبي ﷺ أنه قال: (**تعس عبد الدينار وعبد الدرهم وعبد الخميصة إن أعطي رضي وإن لم يعط سخط تعس وانتكس وإذا شيك فلا انتقش**).

وقد بوب المؤلف على هذه المسألة في رسالة "التوحيد" فقال: باب من الشرك: إرادة الإنسان بعمله الدنيا، ثم استدل بهذين الدليلين على شرك من قصد الدنيا بعمله.

القسم (٢): موالاة دنيوية غير مكفرة:

ودل على هذا القسم دليل من الكتاب ودليل من السنة:

الدليل الأول: قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَنْ تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِنْ كُنْتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنْتُمْ وَمَنْ يَفْعَلْهُ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴿١﴾ إِنْ يَثْقَفُوكُمْ يَكُونُوا لَكُمْ أَعْدَاءً وَيَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ وَأَلْسِنَتَهُمْ بِالسُّوءِ وَوَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ ﴿٢﴾ لَنْ تَنْفَعَكُمْ أَرْحَامُكُمْ وَلَا أَوْلَادُكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَفْصِلُ بَيْنَكُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣﴾ قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ إِلَّا قَوْلَ إِبْرَاهِيمَ لِأَبِيهِ لَأَسْتَغْفِرَنَّ لَكَ وَمَا أَمْلِكُ لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴿٤﴾﴾

[الممتحنة: ١ - ٤]

وهذه الآيات نزلت في حاطب بن أبي بلتعة، وقد استشهد بها العلماء على عدم كفر حاطب بمناداته باسم الإيمان بعد الفعل؛ بخلاف غيرها من الآيات فإنها تخاطب المؤمنين باسم الإيمان قبل الفعل، وهذا دليل قوي جدًا على عدم كفر حاطب وتعم من وقع بنحو ذلك، فدل أن قصته تحمل صورة مختلفة لها حكمها المختلف. والعلة هي عدم موالاتهم في دينهم وإنما بقصد الدنيا.

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٥٢/١٨):

وذُكر أن حاطبًا لما سمع ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ غشـــي عليه من الفرح بخطاب الإيمان اهـ.

الدليل الثاني: قصة حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في إعلام المشركين بسـر من أســرار الحرب التي جهزها لهم النبي ﷺ وفيه نزلت الآيات المذكورة في الدليل الأول

والقصة رواها البخاري ومسلم عَنْ عَلِيّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رضي الله عنه قَالَ: بَعَثَنِي رَسُــولُ اللهِ ﷺ أَنَا وَالزُّبَيْرَ وَالْمِقْدَادَ بْنَ الْأَسْـــوَدِ، فَقَالَ: انْطَلِقُوا حَتَّى تَأْتُوا رَوْضَةَ خَاخٍ فَإِنَّ فِيهَا امْرَأَةً مِنْ الْمُشْرِكِينَ مَعَهَا صَحِيفَةٌ مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى الْمُشْرِكِينَ، فَأْتُونِي بِهَا.

فَـانْطَلَقْنَـا تَعَـادَى بِنَـا خَيْلُنَـا حَتَّى انْتَهَيْنَـا إِلَى الْمَرْأَة، فَقُلْنَـا لَهَـا: أَخْرِجِي الْكِتَابَ، فَقَالَتْ: مَا مَعِي مِنْ كِتَابٍ، فَقُلْتُ: والذي يُحْلَفُ بِهِ، لَتُخْرِجِنَّ الْكِتَابَ أَوْ لَأُجَرِّدَنَّكِ قَالَ: فَلَمَّا رَأَتْ الْجِدَّ مِنِّي أَخْرَجَتْهُ مِنْ عِقَاصِهَا، فَأَتَيْنَا بِهِ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم فَإِذَا فِيهِ:

"مِنْ حَاطِبِ بْنِ أَبِي بَلْتَعَةَ إِلَى أُنَاسٍ مِنْ الْمُشْرِكِينَ مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ، يُخْبِرُهُمْ أَنَّ رَسُولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم أَرَادَ غَزْوَهُمْ "

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (مَا هَذَا يَا حَاطِبُ؟"، فَقَالَ: لَا تَعْجَلْ عَلَيَّ يَا رَسُولَ اللهِ، إِنِّي كُنْتُ امْرَأً مُلْصَــقًا فِي قُرَيْشٍ، وَلَمْ أَكُنْ مِنْ أَنْفُسِــهَا، وَكَانَ مَنْ مَعَكَ مِنْ الْمُهَاجِرِينَ لَهُمْ قَرَابَاتٌ بِمَكَّةَ، يَحْمُونَ بِهَا أَهْلِيهِمْ وَأَمْوَالَهُمْ، فَأَحْبَبْتُ إِذْ فَاتَنِي ذَلِكَ

مِنْ النَّسَبِ فِيهِمْ، أَنْ أَتَّخِذَ عِنْدَهُمْ يَدًا يَحْمُونَ بِهَا قَرَابَتِي، وَمَا فَعَلْتُ ذَلِكَ غِشًّا لِرَسُولِ اللهِ ﷺ وَلَا نِفَاقًا وَلَا ارْتِدَادًا، وَلَا رِضًا بِالْكُفْرِ بَعْدَ الْإِسْلَامِ. فَقَالَ رَسُولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: (لَقَدْ صَدَقَكُمْ، وَلَا تَقُولُوا لَهُ إِلَّا خَيْرًا).

فَقَالَ عُمَرُ رضي الله عنه: يَا رَسُولَ اللهِ، دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ؛ إِنَّهُ قَدْ خَانَ اللهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ.

فَقَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: (أَتَقْتُلُ رَجُلًا مِنْ أَهْلِ بَدْرٍ؟، مَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ اللَّهَ أَنْ يَكُونَ قَدِ اطَّلَعَ عَلَى أَهْلِ بَدْرٍ فَقَالَ: اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ فَقَدْ غَفَرْتُ لَكُمْ)، فَدَمَعَتْ عَيْنَا عُمَرَ، وَقَالَ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية في "الإيمان الأوسط" (صـ/٤٠٣):

وقد يحصل من الرجال نوع من موادتهم لرحم أو حاجة، فيكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي صلى الله عليه وسلم اهـ

قال العلامة القرطبي "الجامع لأحكام القرآن" (١٨/٥٢):

من كثر تطلعه على عورات المسلمين!! وينبه عليهم، ويعرف عدوهم بأخبارهم، لم يكن بذلك كافرًا إذا كان فعله لغرض دنيوي، واعتقاده على ذلك سليم؛ كما فعل حاطب رضي الله عنه حين قصد بذلك اتخاذ اليد ولم ينو الردة عن الدين اهـ.

قال أبو العباس:

فهذا هو ملخص تقسيم الموالاة إلى "كبرى" و "صغرى" وممن ذكر هذا التقسيم من العلماء:

قال الشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن بن حسن:

إن الموالاة تنقسم إلى قسمين:

أولًا: موالاة مطلقة عامة، وهذه كفر صريح، وهي بهذه الصفة مرادفة لمعنى التولي لأجل الدين، وعلى ذلك تُحمل الأدلة الواردة في النهي الشديد عن موالاة الكفار، وأن من والاهم فقد كفر.

ثانيًا: موالاة خاصة، وهي موالاة الكفار لغرض دنيوي مع سلامة الاعتقاد، وعدم إضمار نية الكفر والردة كما حصل من حاطب بن أبي بلتعة في إفشاء سر رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزو مكة كما هو مذكور في سبب نزول سورة الممتحنة اهـ.

ولم أقف على مصدر كلامه رحمه الله تعالى، إلا أن بعض المؤلفين تناقلوه وأحالوه لكتاب "الدرر السنية" (١/ ٢٣٥-٢٣٦).

ولكني رأيت له كلامًا يدل على هذا النص بتفصيل مختلف ويتضمن الرد على بعض الإشكالات والشبهات.

فقد قال رحمه الله تعالى في كتابه "عيون الرسائل والأجوبة على المسائل" (١/١٧٨):

وكان قد أعطي الكتاب ظعينة فجعلته في شعرها، فأرسل رسول الله ﷺ عليًا والزبير في طلب الظعينة، وأخبرهما أنهما يجدانها في "روضة خاخ" فكان ذلك؛ وتهدداها حتى أخرجت الكتاب من ضفائرها، فأتي به رسول الله، فدعا حاطب بن أبي بلتعة فقال له: (ما هذا) فقال: يا رسول الله، إني لم أكفر بعد إيماني، ولم أفعل هذا رغبة عن الإسلام، وإنما أردت أنه تكون لي عند القوم يدًا، أحمي بها أهلي ومالي. فقال: (صدقكم خلوا سبيله)، واستأذن عمر في قتله فقال: دعني أضرب عنق هذا المنافق، قال: (وما يدريك أن الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم، فقد غفرت لكم).

وأنزل الله في ذلك صدر سورة الممتحنة فقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ﴾.

فدخل حاطب في المخاطبة باسم الإيمان، ووصفه به، وتناوله النهي بعمومه، وله خصوصية السبب الدالة على إرادته، مع أنه في الآية الكريمة ما يشعر أن فعل حاطب نوع موالاة، وأنه أبلغ إليهم بالمودة، وأن فاعل ذلك قد ضل سواء السبيل. لكن قوله صلى الله عليه وسلم: (صدقكم خلوا سبيله) ظاهر في أنه لا يكفر بذلك، إذا كان مؤمناً بالله ورسوله، غير شاك ولا مرتاب، وإنما فعل ذلك لغرض دنيوي، ولو كفر لما قيل: (خلوا سبيله).

ولا يقال: قوله ﷺ لعمر: (ما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم). هو المانع من تكفيره؛ لأنا نقول: لو كفر لما بقي من حسناته ما يمنع من إلحاق الكفر وأحكامه، فإن الكفر يهدم ما قبله، لقوله

تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ﴾، وقوله: ﴿وَلَوْ أَشْرَكُوا لَحَبِطَ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾، والكفر محبط للحسنات والإيمان بالإجماع، (فلا يظن) هذا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ وقوله: ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ وقوله: ﴿يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُواً وَلَعِباً مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾، فقد فسرته السنة، وقيدته، وخصته بالموالاة المطلقة العامة اهـ.

وقال العلامة محمد بن عبد الله بن سليم القصيمي كما في "الدرر السنية" (٢٢/٤٨٠):

النوع الأول: أن يودهم ويود ما هم عليه من الكفر، ويطمئن إلى ذلك ويرضى به، فهذا كفر بلا ريب.

النوع الثاني: أن يودهم لغرض دنيوي، مع كراهته لما هم عليه، وتضليلهم، فهذا قد أتى كبيرة من كبائر الذنوب، متعرض للوعيد اهـ.

فصل في حكم الموالاة للخائف

قال تعال: ﴿لَا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾ [آل عمران: ٢٨]

فقوله تعالى: "إلا أن تتقوا منهم تقاة" أي إلا في حال أراد المسلم أن يتقي شرهم على نفسه من القتل أو التعذيب، وهذا راجع للمكان والزمان:

فمن كان في مكان أو زمان أعز الله في الإسلام، فالأصل أنه لا يحتاج للعمل بالرخصة لأنها لغيره ممن هم في مكان وزمان فيه ضعف للإسلام وأهله وليست له، ومع ذلك فإن قدر وحصلت الحاجة فالرخصة قائمة وباقية ما دعت الحاجة لها.

قال الإمام ابن جرير الطبري في "جامع البيان" (٦/٣١٣):

"إلا أن تتقوا منهم تقاة"، إلا أن تكونوا في سلطانهم فتخافوهم على أنفسكم، فتظهروا لهم الولاية بألسنتكم، وتضمروا لهم العداوة، ولا تشايعوهم على ما هم عليه من الكفر، ولا تعينوهم على مُسلم اهـ

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٠/١٨٢):

أجمع أهل العلم على أن من أكره على الكفر حتى خشي على نفسه القتل، أنه لا إثم عليه إن كفر وقلبه مطمئن بالإيمان، ولا تبين منه زوجته ولا يحكم عليه بحكم الكفر؛ هذا قول مالك والكوفيين والشافعي؛ غير محمد بن الحسن فإنه قال: إذا أظهر الشرك كان مرتدًا في الظاهر، وفيما بينه وبين الله تعالى على الإسلام، وتبين منه امرأته ولا يصلى عليه إن مات، ولا يرث أباه إن مات مسلمًا. وهذا قول يرده الكتاب والسنة.

قال الله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ أُكْرِهَ﴾ الآية. وقال: ﴿إِلاَّ أَنْ تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً﴾ [آل عمران: ٢٨] وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الأَرْضِ﴾ [النساء: ٩٧] الآية. وقال: ﴿إِلاَّ الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ﴾ [النساء: ٩٨] الآية.

فعذر الله المستضعفين الذين يمتنعون من ترك ما أمر الله به، والمكره لا يكون إلا مستضعفًا غير ممتنع من فعل ما أمر به؛ قاله البخاري اهـ.

قال أبو العباس:

وقد رأينا من بعض المنافقين في زماننا الاستدلال بقوله تعالى: ﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ ۝٨ إِنَّمَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ۝٩﴾ [الممتحنة: ٨ – ١٠]

على صـــحة موالاة الكفار والنهي عن بغضـــهم وعداوتهم!! ودعم هذه الحجة بحجة أخرى وهي أن الأصـــل هو الأخوة البشـــرية بين الناس جميعًا؛ والاستدلال على ذلك بقوله تعالى: ﴿۞وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا﴾ [الأعراف:٦٥].

فأما آية الممتحنة فهي في البر والإحســـان، وإظهار مكارم الأخلاق مع الكفار غير الحربيين، وليست من الموالاة في شيء.

وأما آية الأعراف فهي في الأخوة البدنية لا الدينية، وضـــابطها في القرآن أن تكون منســـوبة للنســـب أو الأرض لا للعمل، ولهذا قال تعالى عن شـــعيب عليه الســـلام: ﴿وَإِلَى مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُـعَيْبًا﴾ [الأعراف:٨٥] فذكر الأخوة مرتبطة بالبلد وفي عاد ذكر الأخوة مرتبطة بالنســـب، وعندما ذكر العمل الممنوع شـرعًا وهو الشـرك والكفر لم يذكر الأخوة فقال تعالى: ﴿كَذَّبَ أَصْحَابُ الْأَيْكَةِ الْمُرْسَلِينَ ۝١٧٦ إِذْ قَالَ لَهُمْ شُـعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ۝١٧٧﴾ [الشعراء: ١٧٦-١٧٧] والأيكة هي شـــجرة كانوا يعبدونها من دون الله تعالى، ولهذا عندما ذكرت قال تعالى: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ شُـعَيْبٌ﴾ ولم يقل: (أخاهم).

وهذا من ترســـيخ القرآن الكريم لمفهوم الأخوة وأنها جثمانية وربانية، فمن غلب الأخوة الجثمانية فليس ربانيًا، ومن غلب الأخوة الربانية كان من أهل الله ولا أهل له إلا في الله.

العنوان الخامس: صور وأمثلة لموالاة الكافرين

مع توسعنا بشرح هذه المسألة ضمن هذا المتن، إلا أن البعض قد لا يتقن تطبيق عقيدة الولاء والبراء على أرض الواقع؛ فتراه يقع في حب الكفار وهو يظن أنه يكرههم، وتراه يواليهم وهو يظن أنه يعاديهم، وبما أن الحكم على الشـــيء فرع عن تصـــوره، قصـــدت مناقشـــة بعض صـــور الموالاة باختصـــار حتى يتبين الحق من الباطل بأدلته، والعلم من الجهل بأمثلته، فأقول مستعينًا بالله تعالى:

& **الصورة الأولى: المحبة والمودة:**

فمن قصـــد تعلم عقيدة الولاء والبراء فإن عليه أن يتعرف على حكم محبة الكفار، وأنها على ثلاثة أقسام:

القسم (١): أن يحبهم لما هم عليه من المعتقد وهذا كفر مخرج من الملة، وردة ظاهرة دون خلاف، والدليل على كفره قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١]

أي فهو كافر مثلهم.

وقال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾ [المجادلة: ٢٢]

فقوله: ﴿لَا تَجِدُ﴾ دليل أن الإيمان لا يجتمع مع موالاة أعداء الإيمان، وبمعنى آخر فإنك إن وجدت ذلك فإن وجوده يعني أن الايمان دائر بين عدم وجود الأصل أو عدم وجود الكمال.

القسم (٢): أن يحبهم لأجل الدنيا ومصالحها مع بغضه لكفرهم ومعتقداتهم وماهم عليه من الضلال. كحال المشجعين لمن يسمونهم بالنجوم في المسلسلات أو المباريات وغير ذلك، وهذا ليس كفرًا ولكنه معصية يؤثم صاحبها؛ لأن الأصل في المؤمن هو بغضهم في كل حال؛ كما قال تعالى عن الخليل عليه الصلاة والسلام: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٨﴾﴾ [الزخرف:٢٦ - ٢٨]

فهي كلمة باقية نتوارثها عن أبي النبيين وخليل رب العالمين أن ملته التي أمرنا الله تعالى باتباعها تقتضي بغض الكفار حتى وإن كانوا من أقاربنا ولايرغب عن ملته إلا من سفه نفسه، فكيف تكون الحنفية هي ملة إبراهيم ثم ندعي أننا من أهلها ونحن مخالفون لها؟

ومن أدلة عدم كفر هذا الصنف ما سبق من قصة حاطب بن أبي بلتعة وسورة الممتحنة التي نزلت بسبب قصته.

القسم (٣): محبة الكفار الحب الطبيعي: كحب الأب والأم، أو الابن والأخ، أو الخال والعم، أو الجد والجدة، ونحوهم، فهذه المحبة جائزة لكونها فطرية لا

يســـتطيع أحد الخلاص منها، إلا أن جوازها محدود بعدم تجاوزها لحدود القرابة، وعلى قدر تجاوزها يكون الحكم.

ومن أدلة جوازها قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ لَا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ﴾ [القصص: ٥٦]

قيل: "أحببت" أي: أحببت له الهداية وهذا قول ضعيف، وقيل: "أحببت" أي أحببته لقرابته ونصـرته وهذا هو الصـواب فقد دلت عليه الســنة النبوية؛ فقد جاء في "الصـحيحين" عن عباس بن عبد المطلب قال: يا رسـول الله هل نفعت أبا طالب بشيء فإنه كان يحوطك ويغضب لك؟ قال: (نعم هو في ضحضاح من نار لولا أنا لكان في الدرك الأســفل من النار). فدل أن الحب كان له ولهذا حرص عليه بعد موته.

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٣/٢٩٩):

قال الزجاج: أجمع المســلمون على أنها نزلت في أبي طالب. قلت: والصواب أن يقال: أجمع جل المفسرين على أنها نزلت في شأن أبي طالب عم النبي ﷺ، وهو نص حديث البخاري ومسلم اهـ

& **الصورة الثانية: الثناء على الكفار:**

والثناء عليهم على ثلاثة أقسام:

القســم (١): الثناء عليهم لماهم عليه من الكفر والمعتقد، وهذا كفر أكبر مخرج من الملة؛ لأن الثناء على الكفر تكذيب للقرآن وهو من الموالاة الكبرى، ودليل الكفر في هذه الصورة هو دليل القسم الأول في الصورة الأولى.

القسم (٢): الثناء عليهم تملقًا وتزلفًا لغرض دنيوي، وهذا لا يصل لحد الكفر، ولكنه معصية يؤثم عليها، ودليل هذه الصورة هو نفس دليل القسم الثاني في الصورة الأولى.

القسم (٣): الثناء عليهم بما هم فيه، كأن يقول: "حاتم كريم" "عنتر شجاع" "الطبيب فلان الكافر طبيب ماهر ومتقن" والأصل هو عدم الثناء عليهم لغير مصلحة، فإن دعت المصلحة جاز الثناء عليهم.

وقد يكون حكم الثناء عليهم بحكم السبب:

- فإن كان بقصد التشجيع للمسلمين بأنهم صنعوا وفعلوا لشحذ الهمم فهذا جائز.
- وإن كان بقصد العتاب للمسلمين بأن الطائي كريم وفلان لا يكذب وأنت يافلان بخيل وأنت يا فلان تكذب، فهذا جائز.
- وإن كان بقصد الاستهزاء بالمسلمين بأنهم ليسوا بمستوى الكفار في الصناعة والحضارة والطب فهذا غير جائز.

فائدة حول مدح الكفار وتفضيلهم على المسلمين في بعض المعاملات:

سئل العلامة ابن عثيمين كما في "فتاوى نور على الدرب" (١٧/٢١) السؤال التالي:

إذا عن مودتهم أكثر من المسلمين أو عن مدحهم أو ربما يكون مدحهم بصفة عامة كمن يقول مثلاً إن المسيحيين يعني غير المسلمين قد يكونون أفضل من المسلمين في بعض المعاملات أو في شيء بصفة عامة؟

فأجاب: لاشـك أن الذي يوادهم أكثر من المسـلمين أن هذا فَعَل محرمًا عظيمًا فإنه يجب عليه أن يحب المؤمنين وأن يحب لهم ما يحب لنفسـه أما أن يواد أعداء الله أكثر من المسـلمين فهذا خطر عليه عظيم وحرام عليه، بل لا يجوز أن يودهم ولو أقل من المسلمين كما سمعت من الآية ﴿لا تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُـولَهُ﴾ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِمْ بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُمْ مِنْ الْحَقِّ﴾

وكذلك أيضًا من أثنى عليهم ومدحهم وفضلهم على المسلمين في العمل وغيره فإنه قد فعل إثمًا وأساء الظن بإخوانه المسلمين وأحسن الظن بمن ليس أهلاً لإحسان الظن.

والواجب على المؤمن أن يقدم المسلمين على غيرهم في جميع الشؤون: في الأعمال وفي غيرها، وإذا حصل من المسلمين تقصير، فالواجب عليه أن ينصحهم، وأن يحذرهم، وأن يبين لهم مغبة الظلم؛ لعل الله أنْ يهديهم على يده اهـ.

& **الصورة الثالثة: المخالطة والمعاشرة:**

وهناك فرق بين الخلطة والعشـرة وبين الهجرة إليهم؛ فالأول لايلزم منه الثاني، والثاني يتضـمن الأول، ولهذا سـنجمع بين المسـألتين، ونجعلها على ثلاثة أقسام:

القسم (١): مخالطتهم ومعاشرتهم لأجل ماهم عليه من الاعتقاد والرضى بماهم عليه من الكفر والانتحال واستبدال المسلمين بهم.

وهذا كفر أكبر مخرج من الملة، ودليله هو دليل القسم الأول من الصورتين السابقتين.

القسم (٢): مخالطتهم ومعاشرتهم لأجل المال، أو اغترارًا بماهم عليه من الدنيا وتطوراتها وحداثتها في بلدانهم، أو من أجل الانفتاح والوصول للسفور والفجور والخمور.

وهذا من الكبائر المفسقة، ولاتصل بصاحبها للكفر مالم يستحل. ودليل هذا القسم هو دليل القسم الثاني من الصورتين السابقتين.

القسم (٣): مخالطتهم ومعاشرتهم لأجل الدراسة أو الاحتياج لبعضهم للترجمة في المستشفيات والتجارة وغيرها.

وهذا القسم جائز بثلاثة شروط:

١- أن تكون مخالطتهم لحاجة غير متيسرة في بلاد المسلمين

٢- أن يكون عنده من العلم ما يدفع به الشبهات.

٣- أن يكون عنده من التقوى ما يدفع بها الشهوات.

الصورة الرابعة: النصرة والتأييد:

والصورة الرابعة تحتها العديد من الصور، وهي تعتبر من النوازل التي خص الله تعالى أهل العلم بالفتوى فيها، ولهذا أنبه أن ما يكتب في الأوراق قد يصلح للتنزيل على الواقع وقد لايصلح، وأن الأصل في التنزيل على الواقع هو الرجوع لأهل العلم.

۩ الصورة (١): مسلم يتعاون مع كافر ضد مسلم آخر فهذا لايجوز، وأجازه البعض عند الضرورة، كأن يتجبر المسلم على إخوانه المسلمين ويستضعفهم ويقهرهم!! فيضطرون لكسر شوكته والتخلص من شره بالاستعانة عليه بمن هو أقوى منه.

ومنع الإمام الشافعي رحمه الله تعالى الاستعانة بالكافر ضد المسلم وإن كان باغيًا؛ حتى لايتضرر المسلمون، ومن أجاز اشترط عدم لحوق الضرر بالمسلمين.

۩ الصورة (٢): مسلم يتعاون مع كافر لمواجهة كافر آخر وليس للمسلمين أي مصلحة في ذلك، وهذا لايصح إلا في حالة كان الكافر الأول ضعيفًا مظلومًا فإنه يجوز مناصرة المظلوم وإن كان كافرًا. وقد تدخل هذه الصورة في تأليفهم.

۩ الصورة (٣): مسلم يتعاون مع كافر لمواجهة كافر آخر مع تحقق مصلحة للمسلمين، كأن تكون الدولة المجاورة للمسلمين كافرة مسالمة فجاءت دولة كافرة أخرى للتسلط عليها وهذا قد يسبب ضررًا للدولة المسلمة بحكم الحدود والجوار واقتراب العدو من حدودها وجوارها، فإنه يصح لها أن تناصر الأولى.

قال الإمام الشافعي رحمه الله في "الأم" (٤/٢٣٢):

ولا يجوز لأهل العدل عندي أن يستعينوا على أهل البغي بأحد من المشركين ذمي ولا حربي ولو كان حكم المسلمين الظاهر، ولا أجعل لمن خالف دين الله عز وجل الذريعة إلى قتل أهل دين الله.

قال: ولا بأس إذا كان حكم الإسلام الظاهر أن يستعان بالمشركين على قتال المشركين، وذلك أنهم تحل دماؤهم مقبلين ومدبرين ونيامًا وكيفما قدر عليهم إذا بلغتهم الدعوة، وأهل البغي إنما يحل قتالهم دفعًا لهم عما أرادوا من قتال أو امتناع من الحكم، فإذا فارقوا تلك الحال حرمت دماؤهم.

قال ولا أحب أن يقاتلهم أيضًا بأحد يستحل قتلهم مدبرين وجرحى وأسرى من المسلمين فيسلط عليهم من يعلم أنه يعمل فيهم بخلاف الحق اهـ

قلت: وعلى كل فالعلماء يشترطون في حال الجواز شروطًا يجب مراعاتها، وهناك أوجه شبه بين مناصرتهم والاستعانة بهم، وكلام العلماء في هذه المسألة كثير، ومن تلك الشروط:

١- أن تدعوا الحاجة لذلك.

٢- أن يعرف الإمام حسن رأيهم في المسلمين.

٣- أن يأمن الإمام خيانتهم.

٤- وفهم من كلام الشافعي شرطًا رابعًا وهو أن يكون جيش الكفار تحت طاعة المسلمين

& **الصورة الخامسة**: **التشبه بالكفار**:

وملخص أقسام التشبه بالكفار أنه يكون إما بالظاهر وإما بالباطن وإما بالباطن والظاهر. والتشبه بهم محرم بدلالة الكتاب والسنة والإجماع.

الأول: دلالة القرآن:

قال تعالى: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللَّهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠]

وقال تعالى: ﴿قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِّ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [يونس: ٨٩]

وقال تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥]

الثاني: دلالة السنة:

روى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه: قال النبي ﷺ: (**إن اليهود والنصارى لا يصبغون فخالفوهم**).

وروى البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (**خالفوا المشركين أحفوا الشوارب وأوفوا اللحى**).

وروى أحمد والبيهقي في "الشعب" وابن حبان عن أبي هريرة، قال: قال رسول الله ﷺ: (**غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود ولا بالنصارى**) وجاء عن عائشة وابن عمر وجابر وعن أبي الزبير بألفاظ مختلفة: (**باليهود**) (**باليهود والنصارى**) (**بالمشركين**)

وروى أحمد وأبو داود عن ابن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: (**بعثت بالسيف بين يدي الساعة حتى يعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعلت الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**).

والحديث احتج به شـيخنا العلامة يحيى الحجوري في الكثير من كتبه: في كتابه "أحكام الجمعة" وفي كتابه "الأربعون الحسان في فضل الاجتماع على الطعام" وفي كتابه "الإفتاء" وفي كتابه "جلسة ساعة في الرد على المفتين في الإذاعة" وفي كتابه "حشد الأدلة على أن تجنيد النساء من الفتن المضلة"

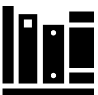
وقال شيخ الإسلام كما في "الفتاوى" (٢٨/ ٢٧٠):

رواه أحمد في المسند عن ابن عمر واستشهد به البخاري اهـ

وقال في "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/ ٨٢):

وأيضا مما هو صريح في الدلالة ما روى أبو داود في سننه حدثنا عثمان بن أبي شيبة حدثنا أبو النضر يعني هاشم بن القاسم حدثنا عبد الرحمن بن ثابت حدثنا حسان بن عطية عن أبي منيب الجرشي عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: (من تشبه بقوم فهو منهم) وهذا إسناد جيد؛ فإن ابن أبي شيبة وأبا النضر وحسان بن عطية ثقات مشاهير أجلاء من رجال الصحيحين، وهم أجل من أن يحتاجوا إلى أن يقال: هم من رجال الصحيحين وأما عبد الرحمن بن ثابت بن ثوبان فقال يحيى بن معين وأبو زرعة وأحمد بن عبد الله العجلي ليس به بأس وقال عبد الرحمن بن إبراهيم دحيم هو ثقة وقال أبو حاتم هو مستقيم الحديث، وأما أبو منيب الجرشي فقال فيه أحمد بن عبد الله العجلي هو ثقة وما علمت أحدا يذكره بسوء وقد سمع منه حسان بن عطية وقد احتج الإمام أحمد وغيره بهذا الحديث اهـ.

الثالث: دلالة الاجماع:



نقل الاجماع شيخ الإسلام فقال في كتابه "الاقتضاء" (١/١٣٨):

وليس الغرض هنا تقرير أعيان هذه المســائل ولا الكلام على ما قيل فيها بنفي ولا إثبات وإنما الغرض بيان ما اتفقت عليه العلماء من كراهة التشبه بغير أهل الإسلام اهـ

وقال في (١/١٤١):

وقد قدمنا في أثناء الأحاديث كلام بعضـــهم الذي يدل على كلام الباقين وبدون ما ذكرناه يعلم إجماع الأمة على كراهة التشـــبه بأهل الكتاب والأعاجم في الجملة وإن كانوا قد يختلفون في بعض الفروع إما لاعتقاد بعضهم أنه ليس من هدي الكفار أو لاعتقاد أن فيه دليلا راجحا أو لغير ذلك اهـ

قال أبو العباس:

والكراهة عند العلماء قد يراد بها التحريم؛ لقوله تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات: ٧]. وقد صرح شيخ الإسلام بذلك فقال كما في "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/٨٣): وهذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشـــبه بهم وإن كان ظاهره يقتضـــي كفر المتشـــبه بهم كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾ اهـ

وقال العلامة أحمد شاكر في "تحقيق المسند" (٦/٧٢):

وهذا الحديث يدل بالنص الصـــريح على حرمة التشـــبه بالكفار في اللبس وفي الهيئة والمظهر، كالحديث الآخر الصحيح: "ومن تشبه بقوم فهو منهم"، وقد مضى من مسند ابن عمر ولم يختلف أهل العلم منذ الصدر الأول في هذا، أعني في

تحريم التشبه بالكفار، حتى جئنا في هذه العصور المتأخرة، فنبتت في المسلمين نابتة ذليلة مستعبدة، هجيراها وديدنها التشبه بالكفار في كل شيء، والاستحذاء لهم والاستعباد. ثم وجدوا من الملتصقين بالعلم المنتسبين له، من يزين لهم أمرهم، ويهون عليهم أمر التشبه بالكفار اهـ

فصل في التحذير من الخوض في تكفير

درسنا مسألة الولاء والبراء على يد شيخنا داود الوصابي قبل تسعة عشر سنة، وفي حينها حذرنا من فهم هذه المسألة على غير مرادها، وأخبرنا أن البعض صار يكفر الناس بحجة أنهم يلبسون مثل الكفار، أو أنهم يتابعون مسلسلات ومباريات الكفار، ويحتجون على تكفير المسلمين بهذا الحديث، ثم لخص لنا مفهوم الحديث فقال:

- من تشبه بهم بالكفر فهو كافر
- ومن تشبه بهم بالفسق فهو فاسق
- ومن تشبه بهم بالظلم فهو ظالم

ثم أملا علينا بعضًا من كلام شيخ الإسلام الذي قاله في كتابه "اقتضاء الصراط المستقيم" (١/٨٤):

وهذا الحديث أقل أحواله أنه يقتضي تحريم التشبه بهم وإن كان ظاهره يقتضي كفر المتشبه بهم كما في قوله: ﴿وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ﴾، وهو نظير ما سنذكره عن عبد الله بن عمرو أنه قال: (من بنى بأرض المشركين وصنع نيروزهم ومهرجانهم وتشبه بهم حتى يموت حشر معهم يوم القيامة).

فقد يحمل هذا على التشبه المطلق فإنه يوجب الكفر ويقتضي تحريم أبعاض ذلك، وقد يحمل على أنه صار منهم في القدر المشترك الذي شابههم فيه فإن كان كفرًا أو معصية أو شعارًا للكفر أو للمعصية كان حكمه كذلك.

وبكل حال فهو يقتضي التشبه بهم بعلة كونه تشبها، والتشبه يعم من فعل الشيء لأجل أنهم فعلوه وهو نادر ومن تبع غيره في فعل لغرض له في ذلك إذا كان أصل الفعل مأخوذا عن ذلك الغير.

فأما من فعل الشـــيء واتفق أن الغير فعله أيضًـــا ولم يأخذه أحدهما عن صـــاحبه ففي كون هذا تشـــبها نظر لكن قد ينهى عن هذا لئلا يكون ذريعة إلى التشبه ولما فيه من المخالفة كما أمر بصبغ اللحى وإعفائها وإحفاء الشوارب مع أن قوله ﷺ: (غيروا الشيب ولا تشبهوا باليهود) دليل على أن التشبه بهم يحصل بغير قصـــد منا ولا فعل بل بمجرد ترك تغيير ما خلق فينا وهذا أبلغ من الموافقة الفعلية الاتفاقية اهـ

والحاصل أنه على طالب العلم تعلم مسائل التكفير بضوابطها وشروطها؛ لسببين مهمين:

الأول: كي يسلم من شبهات الخوارج وأضرابهم، وهذا فيه حماية لنفسه من الانحراف.

الثاني: كي ينشر العلم في المجتمع الذي هو فيه كي يسلموا من شبهات أهل الفتن والضلال، وهذا فيه حماية المجتمع من الانحراف.

قال شيخ الاسلام في "الكيلانية" (١/ ١٠٨):

التكفير له شـــروط وموانع قد تنتقي في حق المعين وأن تكفير المطلق لا يســتلزم تكفير المعين إلا إذا وجدت الشــروط وانتفت الموانع يبين هذا أن الإمام أحمد وعامة الأئمة: الذين أطلقوا هذه العمومات لم يكفروا أكثر من تكلم بهذا الكلام بعينه اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين "الفتاوى" (١٠/٧٤٤):

وكما لا يجوز أن نطلق الكفر على شـخص معين حتى يتبين شـروط التكفير في حقه يجب أن لاَ نجبُن عن تكفير من كفره الله ورســوله، ولكن يجب أن نفرق بين المُعَيّن وغير المُعَيَّن، فالمعين يحتاج الحكم بتكفيره إلى أمرين:

١- ثبوت أن هذه الخصلة التي قام بها مما يقتضي الكفر.

٢- انطباق شروط التكفير عليه.

وأهمها العلم بأن هذا مُكفِّر، فإن كان جاهلاً، فإنه لا يكفر، ولهذا ذكر العلماء أن من شروط إقامة الحد أن يكون عالماً بالتحريم، هذا وهو إقامة حد وليس بتكفير، والتحرز من التكفير أولى وأحرى اهـ.

قال أبو العباس:

والحاصل أن العلماء لا يحكمون على أحد بالكفر إلا بشرطين:

الأول: الثبوت بالدليل الشـــرعي أن هذا العمل حكمه هو الكفر، وبهذا الشرط يتنزل الحكم على العمل قبل العامل.

الثاني: فقه تنزيل الحكم بالكفر على العامل من خلال اكتمال الشــــروط الموجبة بكفره، وانتفاء الموانع التي ترفع عنه الحكم بالكفر، وهذه الشـــروط أربعة وأضدادها هي الموانع:

الشرط الأول: العلم: وضده الجهل وهو المانع:

والدليل على هذا قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُشَـاقِقِ الرَّسُـولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَـبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْـلِهِ جَهَنَّمَ وَسَـاءَتْ مَصِـيرًا﴾ [النساء:١١٥]

فتعليق اســـتحقاق العقوبة بمن تبين له الهدى وهو العلم دليل على عدم استحقاقها لمن لم يتبين له الهدى وهو الجهل.

الشرط الثاني: العمد: وضده الخطأ وهو المانع:

والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ وَلَكِنْ مَا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥]

أي أن من وقع في الكفر لا يكون كافرًا إلا إذا تعمد ذلك، وأما إن فعل ذلك عن طريق الخطأ فإنه يعذر فلا يؤزر. وفي هذا قال الصحابة: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾ [البقرة: ٢٨٦]

ويؤكد ذلك ما رواه الإمام مسـلم عن أنس بن مالك قال: قال رسـول الله ﷺ: (لله أشـــد فرحًا بتوبة عبده حين يتوب إليه من أحدكم كان على راحلته بأرض فلاة فانفلتت منه وعليها طعامه وشـــرابه فأيس منها فأتى شـــجرة فاضـــطجع في ظلها قد أيس من راحلته فبينا هو كذلك إذا هو بها قائمة عنده

فأخذ بخطامها ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبدي وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح).

الشرط الثالث: الاختيار: وضده الاكراه وهو المانع:

والدليل قوله تعالى: ﴿مَنْ كَفَرَ بِاللَّهِ مِنْ بَعْدِ إِيمَانِهِ إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ وَلَكِنْ مَنْ شَرَحَ بِالْكُفْرِ صَدْرًا فَعَلَيْهِمْ غَضَبٌ مِنَ اللَّهِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [النحل: ١٠٦]

وروى ابن ماجه عن ابن عباس عن النبي ﷺ قال: (إن الله وضع عن أمتي الخطأ والنسيان وما استكرهوا عليه).

الشرط الرابع: التأويل وضده الفهم وهو المانع:

والدليل قوله تعالى: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة: ٢٨٦] وقوله تعالى: ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾ [البقرة: ٢٨٦] فالمتأول بذل وسع نفسه وقال بما بلغه من الفهم والله لا يحمل الإنسان مالا طاقة له به.

قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٣/٢٨٣):

وإذا كان المسلم متأولًا في القتال أو التكفير لم يكفر بذلك اهـ

وقال في "منهاج السنة النبوية" (٥/١٦١):

المتأول الذي قصده متابعة الرسول لا يكفر بل ولا يفسق إذا اجتهد فأخطأ وهذا مشهور عند الناس في المسائل العملية وأما مسائل العقائد فكثير من الناس كفر المخطئين فيها وهذا القول لا يعرف عن أحد من الصحابة والتابعين لهم

بإحسان ولا عن أحد من أئمة المسلمين وإنما هو في الأصل من أقوال أهل البدع الذين يبتدعون بدعة ويكفرون من خالفهم كالخوارج والمعتزلة والجهمية.

ووقع ذلك في كثير من أتباع الأئمة كبعض أصحاب مالك والشافعي وأحمد وغيرهم وقد يسلكون في التكفير ذلك فمنهم من يكفر أهل البدع مطلقا ثم يجعل كل من خرج عما هو عليه من أهل البدع وهذا بعينه قول الخوارج والمعتزلة الجهمية وهذا القول أيضا يوجد في طائفة من أصحاب الأئمة الأربعة وليس هو قول الأئمة الأربعة ولا غيرهم وليس فيهم من كفر كل مبتدع بل المنقولات الصريحة عنهم تناقض ذلك ولكن قد ينقل عن أحدهم أنه كفر من قال بعض الأقوال ويكون مقصوده أن هذا القول كفر ليحذر ولا يلزم إذا كان القول كفرًا أن يكفر كل من قاله مع الجهل والتأويل اهـ

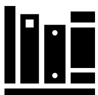
قال العلامة السعدي كما في "الفتاوى السعدية" (صـ/٥٧٨):

وعلى هذا عمل الصحابة والتابعين في البدع، فإن البدع التي ظهرت في زمانهم كبدعة الخوارج والمعتزلة والقدرية ونحوهم مشتملة على رد النصوص من الكتاب والسنة وتكذيبها وتحريفها، وذلك كفر، لكن امتنعوا من تكفيرهم بأعيانهم، لوجود التأويل اهـ

فصل: في تقسيم التأويل إلى قسمين:

الأول: التأويل السائغ:

والتأويل داخل في الاجتهاد في حق العالم، وداخل في الإعذار في حق الجاهل، وشرطه أن يظهر من صاحبه حسن القصد، وأن لايخالف معلومًا بالدين



من الضـــرورة، وأما اشــتراط موافقته لقواعد العلم واللغة فهذا قد ينطبق على العالم ويخرج منه الجاهل لعدم تمكنه.

الثاني: التأويل غير السائغ:

وهو الذي يعود على أصــل من أصــول الدين بالإبطال، ويصــادم المعلوم بالدين من الضرورة، فليس كل تأويل مأذون به، وليس الباب مفتوحًا على مصراعيه بل لكل إذن حدود وقيود.

قال العلامة ابن الوزير اليماني في "إيثار الحق على الخلق" (صـ/٣٧٧):

وكذلك لا خلاف في كفر من جحد ذلك المعلوم بالضرورة للجميع، وتستر باســـم التأويل فيما لا يمكن تأويله، كالملاحدة في تأويل جميع الأسماء الحســـنى، بل جميع القرآن والشرائع والمعاد الأخروي من البعث والقيامة والجنة والنار اهـ.

قال الإمام ابن حزم في "الدرة فيما يجب اعتقاده" (صـ/٤١٤):

ومن بلغه الأمر عن رســول الله ﷺ من طريق ثابتة، وهو مســلم، فتأول في خلافه إياه، أو ردّ ما بلغه بنص آخر، فما لم تقم عليه الحجة في خطئه في ترك ما ترك، وفي الأخذ بما أخذ، فهو مأجور معذور، لقصـــــده إلى الحق، وجهله به، وإن قامت عليه الحجة في ذلك فعاند، فلا تأويل بعد قيام الحجة اهـ.

قوله: (ولو كان أقرب قريب)

الشرح:

أي أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ واستجاب لدعوته إلى التوحيد فإن من علامة تحقيقه لذلك ترك مُوَالاةُ مَنْ حَادَّ اللهَ وَرَسُولَهُ، وليس هذا الحكم خاص بالأباعد بل يدخل فيه الأقارب بل أقرب الأقارب دون تفريق.

كما قرر المؤلف أن هذا الكلام ليس من عنده ليفرق بين الناس بغير برهان فاستدل على صحة كلامه بآية من القرآن فقال: وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ تَجِدُ قَوْماً يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُوْلَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ أُوْلَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلاَ إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

قال الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي رحمه الله تعالى في "حاشيته على الأصول الثلاثة" (صـ/٢٦):

والمحادة هي المجانبة والمخالفة والمغاضبة والمعاداة. ولها أيضًا عند أهل العلم معنيان:

القول الأول: أن الكفار كانوا في حد والمؤمنون في حد. المؤمنون في حد الله ورسوله وهو الإيمان. والمشركون في حد إبليس وجنوده وهو الكفر.

والقول الثاني: أنه ليس بين الكافرين والمسلمين إلا الحديد. يعني القتال بالحديد اهـ.

قال أبو العباس:

والمحادة هي شدة التعدي لحدود الله، وهي على قسمين: مكفرة وعلى رأسها الشرك، وغير مكفرة وعلى رأسها البدع ومحدثات الأمور.

والمؤمن لايتعامل بالود مع هؤلاء حتى لو كان المحاد من أقرب الأقارب وهم على قسمين:

القسم الأول: القرابة الحقيقية:

١- الأصول: الأب والأم والجد والجدة وهكذا للأعلى.

٢- الفروع: الابن والبنت والأحفاد والأسباط.

٣- الحواشي: الاخوة، والعشيرة من الأقارب لقوله تعالى: ﴿وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤].

القسم الثاني: القرابة الحكمية:

فكل من قربتهم منك وأدنيتهم منك فهم من قرابتك، وهم: كالزوجة، والأصدقاء، والمشايخ، وقد يدخل في ذلك المال ونحوه. ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ السَّحَرَةُ فِرْعَوْنَ قَالُوا إِنَّ لَنَا لَأَجْرًا إِنْ كُنَّا نَحْنُ الْغَالِبِينَ ﴿١١٣﴾ قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿١١٤﴾﴾ [الأعراف: ١١٣-١١٤]

قال الشيخ عبد الرحمن بن محمد بن قاسم الحنبلي النجدي رحمه الله تعالى في "حاشية الأصول الثلاثة" (صـ/ ٢٦)

أي ولو كان من حاد الله ورسوله ابنك أو أباك أو أخاك أو عشيرتك. فإن الله قطع التواصـــل والتوادد والتعاقل والتوارث. وغير ذلك من الأحكام والعلائق وقرب الإنسان بين المسلمين والكفار. فإن القرب إنما هو في الحقيقة قرب الدين لا قرب النســـب. فالمســـلم ولو كان بعيد الدار فهو أخوك في الله. والكافر ولو كان أخاك في النســـب فهو عدوك في الدين. وحرام عل كل مســـلم موالاتهم. بل يجب اتخاذهم أعداء وبغضاء اهـ.

قال المؤلف:

اعْلَمْ أَرْشَدَكَ اللهُ لِطَاعَتِهِ أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ، وَبِذَلِكَ أَمَرَ اللهُ جَمِيعَ النَّاسِ، وَخَلَقَهُمْ لَهَا؛ كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يُوَحِّدُونِ.

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّـرْكُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٥].

الشرح:

وهنا سنجعل كلام المؤلف في فقرات، ثم نتناوله بالشرح مرتبًا بحسب الفقرات:

الفقرة (١) قوله: "اعلم أرشدك اللّه لطاعته".

أولًا: تعريف الرشد:

الرشد اللغة: هو الاستقامة على الطريق. وهو ضد الغي.

وفي الشـرع: اختلف في تعريفه، وبتعريفه بالضـد يتضـح تعريفه بحسـب الموضع المراد بالتعريف.

۩ ففي قوله تعالى: ﴿فَإِنْ آنَسْـتُمْ مِنْهُمْ رُشْـدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ﴾ [النساء: ٦] وهنا فسر الكثير من العلماء الرشد أنه (الإصلاح في الأموال)

قال الكاساني الحنفي في بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" (٧/١٧٠):

وَالرُّشْدُ هُوَ الِاسْتِقَامَةُ وَالِاهْتِدَاءُ فِي حِفْظِ الْمَالِ وَإِصْلَاحِهِ اهـ

۩ وفي قوله تعالى: ﴿قَالَ لَهُ مُوسَـى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَنْ تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْـدًا﴾ [الكهف: ٦٦] الرشـد هنا بمعنى علمني علمًا يرشـدني وهو الدلالة والاهتداء للطريق المستقيم بالعلم النافع والعمل الصالح.

وهذا يؤيده قوله تعالى: ﴿وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِنْ يَرَوْا سَبِيلَ الْغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٦] وسبيل الرشد أي طريق الرشد،

۩ وفي قوله تعالى: ﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ﴾ [هود:٩٧] وهنا يفسر الرشد بما سبق أيضًا، ويؤكده قوله تعالى: قال تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَى وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ﴾ [غافر: ٢٩]

وعند التتبع للنصوص القرآنية التي ذكرت الرشد في مقابل الضد، نجدها في نص قابلت الرشد بالغي، وفي نص قابلت الرشد بالضرر، وفي نص قابلت الرشد بالشر.

الرشد ضد الشر: قال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَنْ فِي الْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾ [الجن: ١٠] فدل هنا أن الرشد هو الخير.

الرشد ضد الضر: قال تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَا أَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا رَشَدًا﴾ [الجن: ٢١] فدل هنا أن الرشد هو النفع

الرشد ضد الغي: قال تعالى: ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ﴾ [البقرة: ٢٥٦]. والغي هو الفساد فدل أن الرشد هو الصلاح.

وبمجموع ما سبق يتضح أن التعاريف كلها صحيحة، وخلاصتها أن الرشد هو الدليل للطريق الصالح والمستقيم، وهذا يتضمن النفع والخيرية المنقذة من الشر والضرر، كما قال تعالى: ﴿مَنْ يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ الْمُهْتَدِ وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَنْ تَجِدَ لَهُ وَلِيًّا مُرْشِدًا﴾ [الكهف: ١٧] فدلت الآية أن الرشد هو الهداية وهو المنقذ من الغي والغي هو الضلال، وأن من لم يهتد بالله فليس له هداية

قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٢/ ٣٩٨):

(رَشَـدَ) الرَّاءُ وَالشِّـينُ وَالدَّالُ أَصْـلٌ وَاحِدٌ يَدُلُّ عَلَى اسْـتِقَامَةِ الطَّرِيقِ. فَالْمَرَاشِدُ: مَقَاصِدُ الطُّرُقِ. وَالرُّشْدُ وَالرَّشَدُ: خِلَافُ الْغَيِّ. وَأَصَابَ فُلَانٌ مِنْ أَمْرِهِ رُشْدًا وَرَشَدًا وَرِشْدَةً. وَهُوَ لِرَشْدَةٍ خِلَافٌ لِغَيَّةٍ اهـ.

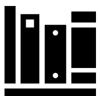
ثانياً: تعريف الطاعة:

تعريف الطاعة لغة: الاتباع والانقياد، **والتطوع**: هو إتْبَاع المأمور إيجابًا بالمأمور اسـتحبابًا، وهو التنفل وهو عمل الطاعات الخارجة من الوجوب والداخلة في الاسـتحباب. وقد رأيت فائدة حاصـلها أنك لا تقل: (أطعت أمر الله) بل قل: (أطعت الله) أو (أطعت الله في أمره) أو (امتثلت أمر الله) وذلك أن الأمر غير الآمر وأن الطاعة تكون للذات لا للصـفة، وهذه العلة صـحيحة، ولكن هل ما وقع التعليل لأجله صحيح؟

والجواب: أني بحثت عن صـحة ذلك فلم أجد إلا قول الله تعالى عن نبيه هارون عليه السـلام أنه قال: ﴿فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي﴾ [طه: ٩٠] وهذا دليل أن طاعة الأمر المراد بها طاعة الآمر.

ثم بحثت في كلام المتقدمين من العلماء عن اسـتخدام هذا اللفظ: (أطع. أطيعوا. أمر الله) فلم أجده مستخدمًا في كلامهم حسب بحثي المتعثر، ولكني رأيت استخدام الضد كقولهم: (خالفتم أمر ربكم) و (عصيتم أمر ربكم) ومع ذلك رأيته بشح شديد لندرة استخدامه.

تعريفها اصـطلاحًا: قال الكفوي: هي فعل المأمورات ولو ندبًا وترك المنهيات ولو كراهة.



الفرق بين الطاعة والعبادة:

قال العلامة الكفوي في "الكليات" (صـ/٩٢٠):

وَالطَّاعَة هِيَ الْمُوَافقَة لِلْأَمْرِ أَعم من الْعِبَادَة لِأَن الْعِبَادَة غلب اسْتِعْمَالهَا فِي تَعْظِيم الله غَايَة التَّعْظِيم. وَالطَّاعَة تسْتَعْمل لموافقة أَمر الله وَأمر غَيره وَالْعِبَادَة تَعْظِيم يقْصد بِهِ النَّفْع بعد الْمَوْت

والعبودية: إِظْهَار التذلل، وَالْعِبَادَة أبلغ مِنْهَا لِأَنَّهَا غَايَة التذلل. وَالطَّاعَة فعل المأمورات وَلَو ندبا، وَترك المنهيات وَلَو كَرَاهَة، فقضــــاء الدّين والإنفاق على الزَّوْجَة والمحارم وَنَحْو ذَلِك طَاعَة الله وَلَيْسَ بِعبَادة. وَتجوز الطَّاعَة لغير الله فِي غير الْمعْصِيَة، وَلَا تجوز الْعِبَادَة لغير الله تَعَالَى

والقربة: أخص من الطَّاعَة لاعْتِبَار معرفَة المتقرب إِلَيْهِ فِيهَا، وَالْعِبَادَة أخص مِنْهُمَا لِأَنَّهُ يعْتَبر فِيهَا النِّيَّة. وَالتَّاء فِي الطَّاعَة وَالْعِبَادَة لَيست للمرة بل للدلالة على الْكَثْرَة، أَو لنقل الصّفة إِلَى الاسمية اهـ

قال أبو العباس:

عرفنا الرشـــد وعرفنا الطاعة من خلال التعريف، وبذلك نعرف أن قول المؤلف: (اعلم أرشـــدك الله لطاعته) يحمل قصـــدًا عظيمًا وهو الدعاء لك بالهداية لمعرفة الحق الذي سيلقيه عليك في الفقرة التالية وقبوله وهو في الفقرة التالية.

الفقرة (٢) قوله:

"**أن الحنيفية ملة إبراهيم: أن تعبد اللّه وحده مخلصاً له الدين**".

أولًا: تعريف الحنيفية:

تعريف الحنيفية لغة: الحنيف المائل. حنف أي مال.

قال الجوهري في "الصحاح في اللغة" (١/١٥١):

الحنف: الاعوجاج في الرجل، وهو أن تقبل إحدى إبهامي رجليه على الأخرى. والرجل أحنف. وقال ابن الأعرابي: هو الذي يمشي على ظهر قدمه من شقها الذي يلي خنصرها. يقال: ضربت فلانًا على رجله فحنفتها.

والحنيف: المسلم؛ وقد سمي المستقيم بذلك كما سمي الغراب أعور. وتحنف الرجل، أي عمل عمل الحنيفية، ويقال: اختتن، ويقال: اعتزل الأصنام وتعبد قال جران العود:

وَلَمَّا رأَيْنَ الصُّبْحَ بادَرْنَ ضَوْءهُ
رَسيمَ قَطا البَطْحاءِ أو هُنَّ أَقطَفُ
وأدْرَكْنَ أَعْجازاً من الليلِ بعد ما
أقامَ الصلاة العابدُ المُتَحَنِّفُ

وقال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٢/١١٠):

(حنف) الحاء والنون والفاء أصل مستقيم، وهو الميل. يقال للذي يمشي على ظهور قدميه أحنف. وقال قوم- وأراه الأصح- إن الحنف اعوجاج في الرجل إلى داخل. ورجل أحنف، أي مائل الرجلين، وذلك يكون بأن تتدانى صدور قدميه ويتباعد عقباه.

والحنيف: المائل إلى الدين المستقيم. قال الله تعالى: ﴿وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا﴾ [آل عمران: ٦٧].

والأصل هذا، ثم يتسع في تفسيره فيقال الحنيف الناسك، ويقال هو المختون، ويقال هو المستقيم الطريقة. ويقال هو يتحنف، أي يتحرى أقوم الطريق اهـ

وتعريفها في الشرع: هي الفطرة التي فطر الله الناس عليها، لقوله تعالى: ﴿فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ [الروم: ٣٠] وهي ملة إبراهيم الخليل لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ [النحل: ١٢٣] وملة إبراهيم بينها المؤلف بقوله: (أن تعبد الله وحده مخلصًا له الدين) وهذا يتطابق مع قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة: ٥]

ويعرفها الكثير من العلماء بقولهم: الحنيف هو المائل عن الشرك إلى التوحيد والمقبل على الله والمعرض عما سواه.

ثانياً: تعريف الملة:

تعريف الملة لغة: قال الجوهري في "الصحاح" (١٨٢/٢): والملة بالكسر: الدين والشريعة اهـ.

تعريفها اصطلاحًا: قيل: الدين هو الملة والملة هي الدين، وقيل: هناك فرق؛ فإننا نقول: دين الله ولانقول: ملة الله، فدل على وجود الفرق، وقيل: كل ملة دين وليس كل دين ملة.

قال أبو هلال العسكري في "الفروق اللغوية" (صـ/٢٢٠):

الْفرق بَين الدّين وَالْملَّة، أَن الْملَّة اسْم لجملة الشَّرِيعَة، وَالدّين اسْم لما عَلَيْهِ كل وَاحِد من أَهلهَا؛ أَلا ترى أَنه يُقَال: فلَان حسن الدّين وَلَا يُقَال: حسن الْملَّة، وَإِنَّمَا يُقَال هُوَ من أهل الْملَّة.

وَيُقَال لخلاف الذِّمِّيّ الملي نسب إِلَى جملَة الشَّرِيعَة فَلَا يُقَال لَهُ: ديني وَتقول: ديني دين الْمَلَائِكَة وَلَا تَقول ملتي مِلَّة الْمَلَائِكَة؛ لِأَن الْملَّة اسْم للشرائع مَعَ الْإِقْرَار بِاللَّه وَالدّين مَا يذهب إِلَيْهِ الإنسان ويعتقد أَنه يقربهُ إِلَى الله وَإِن لم يكن فِيهِ شرائع مثل دين أهل الشّرك.

وكل مِلَّة دين وَلَيْسَ كل دين مِلَّة، واليهودية مِلَّة لِأَن فِيهَا شرائع وَلَيْسَ الشّرك مِلَّة اهـ

قلت: بل العرب تطلق الملة على غير الدين السماوي كما في حديث: (أترغب عن ملة عبد المطلب) ولهذا لم يمتنع بعض العلماء من وصف الشرك بالملة، وممن وقفت على كلامهم: ابن زمنين المالكي في "التفسير"، والقاسي في

"محاســـن التأويل" والفوزان في "إعانة المســـتفيد" وابن عثيمين في "شـــرح رياض الصالحين"

فائدة: قال الجرجاني في "التعريفات" (صـ/١٤١):

الدين والملة متحدان بالذات ومختلفان بالاعتبار؛ فإن الشـــريعة من حيث إنها تطاع تسـمى دينًا، ومن حيث إنها تجمع تسـمى ملة، ومن حيث إنها يرجع إليها تسمى مذهبًا.

وقيل: الفرق بين الدين والملة والمذهب أن الدين منســـوب إلى الله تعالى والملة منسوبة إلى الرسول والمذهب منسوب إلى المجتهد اهـ

قال أبو العباس:

والدين يطلق ويراد أكثر من معنى:

١- الشريعة: لقوله تعالى: ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة:٣] قال العلامة السعدي (صـــ/٢١٩): بتمام النصر، وتكميل الشرائع الظاهرة والباطنة، الأصـــول والفروع، ولهذا كان الكتاب والســـنة كافيين كل الكفاية، في أحكام الدين أصوله وفروعه اهـ.

٢- العمـل: لقولـه تعـالى: ﴿قُـلِ اللَّهَ أَعْبُـدُ مُخْلِصًـــا لَـهُ دِينِي﴾ [الزمر:١٤] الدين هنا هو العمل.

٣- الحســـاب: لقوله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] أي يوم الحساب.

بيان أن الحنيفية هي ملة إبراهيم أن تعبد اللّه وحده مخلصا له الدين

وبعد معرفة تعريف الحنيفية وتعريف الملة، نعرف أن قول المؤلف: (أَنَّ الْحَنِيفِيَّةَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ: أَنْ تَعْبُدَ اللهَ وَحْدَهُ، مُخْلِصًا لَهُ الدِّينَ). معناه أن ملة غير الأنبياء هي الشرك بالله وعدم الإخلاص له.

فكانت عبارة المؤلف دعوة للسير على طريق الأنبياء؛ لأن (حنف)، بمعنى: الميل من الضلال إلى الاستقامة. ويقابلها (جنف)، وهو: الميل من الاستقامة إلى الضلال. كما قال تعالى: ﴿غَيْرَ مُتَجَانِفٍ لِإِثْمٍ﴾ [المائدة: ٣]

والمخلص هو المتمسك بالملة الحنيفية أي بدين التوحيد، وترك الإشراك والتنديد. ومعنى إخلاص العبد لخالقه أن تكون عبادته نقية من كل شوائب الشرك؛ فدل أن العبادة الخالية من الإخلاص عبادة باطله، وعدم الإخلاص راجع لأمرين:

الأول: أنه قصد بعبادته الرياء والسمعة. الثاني: أنه صرف شيئًا منها لغير الله تعالى.

وقد بين العلماء أن الحنيف هو الذي لا يلوث إخلاصه بشيء من الشرك الأكبر أو الأصغر؛ لأن الحنيفية هي أن تقبل على التوحيد بشكل كلي وتعرض عن الشرك بشكل كلي، وإلا فلست على ملة إبراهيم.

الفقرة (٣) قوله:

وبذلك أمر الله جميع الناس وخلقهم لها

كما قال تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦].

وَمَعْنَى ﴿يَعْبُدُونِ﴾: يُوَحِّدُونِ.

شرحها المؤلف في القواعد الأربع فقال:

اعلم أرشدك الله لطاعته: أن الحنيفيّة ملّة إبراهيم: أن تعبد الله مخلصًا له الدين كما قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. فإذا عرفت أنّ الله خلقك لعبادته فاعلم: أنّ العبادة لا تسمّى عبادة إلا مع التوحيد، كما أنّ الصلاة لا تسمّى صلاة إلى مع الطهارة، فإذا دخل الشرك في العبادة فسدتْ كالحدَث إذا دخل في الطهارة.

فإذا عرفتَ أن الشرك إذا خالط العبادة أفسدها وأحبط العمل وصار صاحبه من الخالدين في النار عرفتَ أنّ أهمّ ما عليك: معرفة ذلك، لعلّ الله أن يخلّصك من هذه الشَّبَكة، وهي الشرك بالله الذي قال الله فيه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:١١٦]، وذلك بمعرفة أربع قواعد ذكرها الله تعالى في كتابه اهـ.

قوله: "وبذلك أمر الله جميع الناس"

الأمر ينقسم إلى قسمين:

الأول: **الأمر الكوني**: وهو الذي يدبر الله تعالى به أمر الكون، وهو حتمي الوقوع.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]
وقال تعالى: ﴿أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَنْ لَمْ تَغْنَ بِالْأَمْسِ﴾ [يونس: ٢٤] ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وقال تعالى: ﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَمْرُنَا وَفَارَ التَّنُّورُ﴾ [هود: ٤٠] وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا هُودًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ﴾ [هود: ٥٨] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦] وقال تعالى: ﴿وَمَا أَمْرُنَا إِلَّا وَاحِدَةٌ كَلَمْحٍ بِالْبَصَرِ﴾ [القمر: ٥٠]

والآيات في هذا كثيرة

الثاني: **الأمر الشرعي**: وهو الوحي المنزل على الأنبياء عليهم الصلاة والسلام، المتضمن على لأوامر والنواهي، وليس حتمي الوقوع؛ فهو متعلق بالتكاليف المتعلقة بالبشر فمن أطاع الأمر قام به ومن عصاه تخلف عنه.

قال تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء: ٧٣] وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا مَا كُنْتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلَا الْإِيمَانُ﴾ [الشورى: ٥٢] وقال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ﴾

[يوسف:٤٠] وقال تعالى: ﴿وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ﴾ [البقرة: ٢٧]

قال أبو العباس:

وفي تفسير ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ بعض المسائل المهمة وهي:

المسألة الأولى: إثبات صفة الخلق لله تعالى:

المسألة الثانية: لماذا قدم ذكر الجن على ذكر الإنس:

المسألة الثالثة: الفرق بين الإنس والناس:

المسألة الرابعة: هل الجن أبناء إبليس؟

المسألة الخامسة: لماذا لم يذكر الملائكة:

المسألة السادسة: معنى العبادة:

المسألة السابعة: اللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾:

المسألة الأولى: إثبات صفة الخلق لله تعالى:

أخبرنا الله تعالى في هذه الآية أنه خلق الجن والإنس، والمعنى أن الجن والإنس من مخلوقاته وليس كل مخلوقاته؛ فمخلوقاته كثيرة وعظيمة لم ندرك منها إلا ما شاء الله أن ندركه، قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ﴾ [الحجر:٨٦] والخلاق هو دائم الخلق والإيجاد.

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الزمر:٦٢] وشيء تشمل كل الأشياء المخلوقة ونحن لا نعلم الأشياء كلها، فدل أننا نجهل الكثير من مخلوقات الله، ولهذا نجعل علمنا بالمخلوقات على ثلاثة أقسام:

- **القسم الأول: مخلوقات لانعلمها من الأساس:**

كما قال تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾ [الشورى: ٢٩] فدلت الآية أن هناك دواب في السماوات ونحن بلاشك لانعلم منها إلا ما علمنا الله عنها كالملائكة والحور والولدان.

بل إن القرآن أشار للتفريق بين الملائكة والدواب، فقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [النحل:٤٩] فدل أن الدواب مخلوقات مكلفة وهي غير الملائكة، نحن لانعرفها فقد تكون مخلوقات تعيش في الكواكب المختلفة وقد تكون غير ذلك والله أعلم.

وقال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ﴾ [المدثر: ٣١] وقال تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل: ٨] وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ﴾ [المائدة: ١٨] فهناك مخلوقات في السماء ومخلوقات في الأرض نحن لانعلمها، وهناك في البقعة البينية بين السماوات والأرض فراغ نحن نسميه الفضاء، وهو ممتلئ بالمخلوقات بدلالة أن الله تعالى أخبرنا بذلك وهي ملك له سبحانه، ومع ذلك نحن لا نعلم عنها إلا ما تظهر أمام أعيننا كالشمس والقمر

والنجوم، وما فوق الأرض قليل جدًا بالنسبة لذلك الفضاء الواسع، لاتصل إليها القوى البشرية مهما كانت.

وفي الحديث الذي رواه مسلم عن عبدالله بن أبي أوفي وعن أبي سعيد الخدري قالا: كان رسول الله ﷺ إذا رفع رأسه من الركوع قال: (ربنا لك الحمد ملء السموات والأرض وملء ما بينهما وملء ما شئت من شيء بعد)

فقوله: (وملء ما بينهما):

قال العلامة ابن عثيمين كما في "مجموع الفتاوى والرسائل" (٨/ ٣٢٥):

يعني: بين السماء والأرض، والذي بينهما مخلوقات عظيمة استحقت أن تكون معادلة للسماوات والأرض، وهذه المخلوقات العظيمة منها ما هو معلوم لنا كالشمس والقمر والنجوم والسحاب، ومنها ما هو مجهول إلى الآن اهـ.

وقوله: (وملء ما شئت من شيء بعد):

نعرف أن الأماكن ثلاثة: السماوات والأرض وما بينهما، ولكن هذا الحديث دليل أن هناك بقعة رابعة لاعلاقة لها لا بالسموات ولا بالأرض ولا مابينهما وهي: (وملء ما شئت من شيء بعد) فهذا المكان الممتلئ نحن لانعرفه ولا نعرف أين هو ولا ماذا فيه.

- **القسم الثاني: مخلوقات نعلمها علماً قاصراً:**

۞ ومنها نحن البشر؛ فنحن لا نعرف الكثير عن أنفسنا ولايزال العلم يأتينا بالمفاجئات حولنا، كما قال تعالى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] فالإنسان في الحقيقة لايعرف نفسه حق المعرفة، ولكنه مطالب بالتفكر

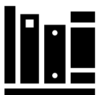
في نفسه، وأما علماء الطب فقد أتحفونا بما تيسر لهم من الاكتشافات عبر التشريح والدراسات بما يذهل العقول.

❁ وهكذا سائر الحيوانات والنباتات والجمادات؛ ففيها من الآيات والعبر والأسرار والعجائب ما تذهل العقول، فالحيوان يعيش فوق الأرض، والنبات نصفه فوق الأرض ونصفه تحت الأرض، والجماد بعضه فوق الأرض وبعضه تحت الأرض، وحيوان آخر يعيش تحت الأرض.

❁ وهكذا لو نظرنا للهواء من حولنا لعلمنا بكل قصور أن هناك هواء نستنشقه وهو الأكسجين وهواء نزفره وهو ثاني أكسيد الكربون، ولكن العلماء اكتشفوا غير ذلك!! حتى اندلعت الحروب بين بعض القوى العالمية للسيطرة على بعض بقاع في الأرض لما فيها من عناصر لاتراها العين البشرية، تساعدهم هذه العناصر على صنع الموصلات الالكترونية وعلى صنع المتفجرات وعلى صنع الكثير من الأشياء المذهلة والرهيبة.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ﴾ [الأنعام: ١٢٥] لو جمعنا هذه الآية بالآية التي أخبرتنا أن الجن يستطيعون الصعود للسماء لمحاولة استراق السمع، لعلمنا أن هذا دليل أن المرتفعات بنسبة معينة يتغير فيها الهواء فيصبح حياة للبعض وعلى العكس للبعض الآخر بخلاف من لا يؤمنون بوجود الجن فإنهم لايعلمون ذلك.

- **القسم الثالث: مخلوقات تدل على أسرار عظيمة:**



۞ ومنها جبريل المَلَك العظيم، فقد جاء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣] وقوله تعالى: ﴿لَقَدْ رَأَى مِنْ آيَاتِ رَبِّهِ الْكُبْرَى﴾ [النجم:١٨] أنها في رؤية نبينا ﷺ لجبريل ﷺ والعجيب هنا أن نبينا ﷺ قد رآه أكثر من مرة في الأرض؛ فقد كان ينزل إليه بالوحي وكان يدارسه القرآن!! فما هو المتغير والمتميز في هذه الرؤية هذه المرة؟

والجواب: أنه في هاتين الرؤيتين رآه فيهما على هيئته التي خلق عليها!! وهي هيئة عظيمة مهيبة، تدل على عظمة هذا المخلوق!! فكيف إذا علمت أنه واحد من عديد من المخلوقات التي خلقها الله ولا نعلمها.

جاء في الصحيحين من حديث عبد الله بن مسعود (أن النبي ﷺ رأى جبريل في صورته له ستمائة جناح) وروى أحمد عن ابن مسعود، أنه قال في هذه الآية: ﴿وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ [النجم: ١٣]، قال رسول الله ﷺ: (رأيت جبريل عند سدرة المنتهى، عليه ست مائة جناح، ينتثر من ريشه التهاويل: الدر والياقوت) وحسنه العلامة الألباني في "الإسراء والمعراج"

وفي لفظ لأحمد: سمعت ابن مسعود يقول: قال رسول الله ﷺ: (رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح) قال: سألت عاصمًا عن الأجنحة؟ فأبى أن يخبرني قال: فأخبرني بعض أصحابه: أن الجناح ما بين المشرق والمغرب. حسنه العلامة الألباني.

وفي لفظ لأحمد: (فسد الأفق) وحسنه العلامة الألباني

قال أبو العباس:

وفي هذا الحديث سؤال وجواب:

أما السؤال: لماذا عندما ينزل جبريل عليه السلام إلى الأرض لا ينزل بصورته التي خلقه الله عليها، (**له ستمائة جناح سد الأفق**)؟ كما جاء في مجموع الروايات.

وأما الجواب: لأن مابين لابتي الأرض لايتسع جبريل؛ فهو مخلوق عظيم يفوق ما بين المشرق والمغرب. وهذا الجواب يدل على جواب آخر وهو أن العالم الخارجي عن الأرض كبير جدًا، فمخلوق بهذا الحجم العظيم لاشك أنه لم يخلق لنزول الأرض فقط ومتشكلًا بغير هيئته الحقيقية، بل هذا دليل أن شكله المتشكل به ربما خاص بالأرض وأما هيئته الحقيقة فدليل أنه يجوب الفضاء الخارجي الواسع لوظيفة عظيمة لانعلمها، فحجمه دليل على أبعاد بعيدة يخوضها هذا المخلوق العظيم، ولاشك أن تلك الأبعاد فيها مخلوقات لم يبلغنا عن علمها.. والله أعلم.

۞ وجبريل هو ليس الوحيد بهذا الحجم العظيم، فقد أخبرتنا السنة النبوية عن حادثة أخرى تتضمن التفصيل المهيب والمذهل؛ فقد جاء عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**إن الله جل ذكره أذن لي أن أحدث عن ديك قد فرقت رجلاه الأرض السابعة وعنقه مثني تحت العرش وهو يقول: سبحانك ما أعظمك ربنا فيرد عليه ما علم ذلك من حلف بي كاذبًا**) رواه الطبراني بإسناد صحيح والحاكم وقال صحيح الإسناد.

وروى أبو داود عن جابر بن عبد الله عن النبي ﷺ قال: (أذن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة الله من حملة العرش إن ما بين شحمة أذنه إلى عاتقه مسيرة سبعمائة عام). وهو حديث صحيح ذكره شيخنا الإمام الوادعي في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين"

تعلمت من هذا الحديث حقارة الأرض التي نحن فيها، وحقارة الكائنات التي على ظاهرها وباطنها، وتعلمت منه معنى حديث: (لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى منها كافرًا شربة ماء) فالأرض كلاشيء أمام العالم الخارجي الواسع.

مخلوق يتجاوز طوله السماوات السبع والأرضين السبع، وهو مع ذلك عنقه ملتوية تحت العرش!! وفي بعض الروايات أن ما بين شحمتي أذنيه مسيرة كذا وكذا!! فهذا لايدل إلا على سعة الكون وأننا فيه كأذر من الذر، ولا أقول: إن الواحد منا بحجم الذر في نظر هذا المخلوق العظيم؛ فالظاهر أن عالمنا بأكمله بحجم الذر في نظره.

۞ وأختم بمثال لو تدبره الكثير من الناس لعلموا حقيقة ما سبق، وهو ما رواه الإمام مسلم عن أبي ذر عن النبي ﷺ أنه قال فيما يرويه عن ربه: (يا عبادي لو أن أولكم وآخركم وإنسكم وجنكم قاموا في صعيد واحد فسألوني فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر).

لنفترض أن المخيط أنقص من البحر قطرة واحدة فكانت هذه القطرة هي ملك ورزق جميع الجن والإنس الحاليين والماضين والآتين منذ أن عاش الجن قبلنا ثم جاء أبونا حتى تقوم الساعة علينا جميعًا، فهذا الذي ذهب فكم هو الذي بقي، على أن ملك الله لاينقص حقيقة لأن مالكه مملوك لله تعالى.

فدل هذا الحديث على أن الجن والإنس وعالمهم الفاني كلاشيء أما الأشياء التي لانعرفها من ملك الله الواسع.

ولعلي بالمثال أقرب لكم الحال فأقول: لو أني سألت الله بكل تواضع حسب ظني ووهمي وجهلي وقلت: اللهم ارزقني قطرة واحدة فقط من بحر ملك العظيم!! ألا ترون أني قد تعديت بالدعاء؟ وسألته تعالى أن يرزقني ملكًا يكفي لملايين السنين، وهذا من حيث الزمان، واما من حيث المكان فقطعًا تلك القطرة تفوق عالمنا مكانًا. ولهذا أجزم أن الجن والانس الذين خلقوا والذين لم يخلقوا بعد كلهم مجتمعون لم يرزقوا حتى قطرة واحدة من بحر ملكه لأنها تتجاوز حجمهم وحاجتهم، ولهذا قال في الحديث: (**فأعطيت كل إنسان مسألته ما نقص ذلك مما عندي إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل البحر**). فدل على أمور:

الأول: أن النقص مبني على لو أنه أعطاهم كلهم مسألتهم، وهذا يعني أنه لم يعطهم ذلك أصلًا.

الثاني: أنه لو أعطاهم ذلك لكان كقطرة من البحر، ولم يقل: جميع البحار، بل لم يقل: من بحر ملكه الواسع وإنما من بحر واحد من بحار الدنيا.

الثالث: أن النقص كما سبق ليس حقيقيًا لأنه جاء في معرض المثال، لأن ما أعطاه الخالق للمخلوقين فهو ملك له لا لهم.

❁ فهذه هي الدنيا وأما الآخرة فقد روى البخاري ومسلم من حديث أبي سعيد الخدري أن النبي ﷺ قال: (**إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها**).

تحتاج في الأرض كي تعبر تحت ظل شجرة لبضع خطوات قليلة، لدرجة أنك لانكاد تفرح بالظل حتى ينتهي قبل ابتداء فرحتك فضلًا عن انتهائها، لتعرف حقيقة الأرض التي تعيش فيها!! فما بالك بهذا الظل العظيم الذي قال الله تعالى عنه في كتابه الكريم: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة:٣٠] فدل أن تلك الشجرة التي في الجنة مع فارق حجم الراكب وحجم المركوب وفارق نظام السرعة قد تكون تلك الشجرة العظيمة وحدها أكبر من عالمنا كله.

فسبحان الخالق العظيم، ما قدرناه حق قدره ولا عرفناه حق معرفته ولا وقرناه حق توقيره، فما أعظمه من إله وما أسوأنا من عبيد، ربنا اغفر لنا وارحمنا وعافنا واعف عنا.

﴿أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٨١-٨٣]

المسألة الثانية: **لماذا قدم ذكر الجن على ذكر الانس؟**

هناك أقوال كثيرة:

١- قيل: لغير مناســبة بدلالة أنه قدم ذكر الإنس على الجن في آيات غيرها.

٢- وقيل: لأن الجن أفضـــل من الإنس وهذ قول ضـــعيف، فإن الأفضلية من حيث الجنس فهي للإنسان، ومن حيث التقوى فهي تختلف بحسب أحوال الأفراد.

٣- وقيل: بل لمناســـبة ذكر الخلق والجن خلقوا قبل الإنس فكان ذكرهم قبل الإنس هو المتناسب مع قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ﴾

قال أبو العباس:

ذكر الجن قبل الإنس يتناسب مع الآية من جهتين:

الجهة الأولى: أن الجن خلقوا قبل الإنس، وهذا ثابت بثلاثة أدلة في القرآن الكريم.

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِـدُ فِيهَا وَيَسْـفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٣٠] والشـاهد من الآية أنه ثبت في تفسـيرها أن الذين سفكوا الدماء وأفسدوا في الأرض هم الجن

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ [الكهف: ٥٠] والشاهد من الآية ثبوت الدلالة أن ابليس وجد قبل آدم وإبليس من الجن فدل أن الجن خلقوا قبل الإنس.

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِنْ حَمَإٍ مَسْنُونٍ ﴿٢٦﴾ وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِنْ نَارِ السَّمُومِ ﴿٢٧﴾﴾ [الحجر: ٢٦-٢٧] والشاهد من الآيتين أن الأولى بينت مادة خلق الإنسان وهي الصلصال، والثانية بينت أن الجان قد خلق قبل الإنسان من مادة مختلفة وهي النار.

الجهة الثانية: أن الجن كلفوا بالعبادة قبل الإنس. وهذا ثابت بثبوت الدلالة في الجهة الأولى.

المسألة الثالثة: **الفرق بين الإنس والناس**:

اختلف العلماء هل لفظ الناس خاص بالإنسان أم هو لفظ يشمل الإنسان والجان، وقبل التعرض للترجيح اعلم أن لفظ "الناس" تختلف عن لفظ "الإنس":

- فالإنس من "الأُنس" ضد الوحشة. وقيل: "إنس" و "إنسان" من النسيان.
- وأما "الناس" فهو من "النوس" ضد السكون، أي من الحركة وبهذا شملت الجن والإنس.

قال أبوبكر الأنباري في "الزاهر في معاني كلمات الناس" (١/٣٨٣):

قال الفراء: في الإنسان وجهان:

يجوز أن يكون: إفعلانًا، من: نسـي ينسـى، فيكون الأصـل فيه: إنسـيانًا. والدليل على هذا أنَّهم يقولون في تصغيره: أُنيسيان، وأُنيسين. فعلى هذا الوجه، إذا سِمّينا رجلاً بإنسان، لم نجره. أنشد الفراء:

وكانَ بنو إنسانَ قومي وناصري   فأضحى بنو إنسانَ قوماً أعادِيا

وأُنيسيان لا يُجرى، للألف والنون الزائدتين في آخره، وأُنيسين يُجرى. ويجوز أن يكون إنسان: فعلانًا، من الإنس اهـ

وأما عن الخلاف في المسألة:

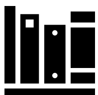
فقد ذهب شيخ الاسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم وغيرهم عليهم رحمة الله تعالى أن الناس لفظ خاص بالإنسـان لا يدخل فيه الجان واسـتدلا بقوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ٦] والشـاهد منها أنها غايرت بين الجنة والناس، فدلت أن كل واحد منهم غير الآخر.

وقد أنكر ابن القيم ادخال الجن في مسمى الناس إيما إنكار وناقش المسألة من وجوه متعددة في كتابه "بدائع الفوائد" (٢/٤٨٩).

وذهب غيرهم أن الناس لفظ يشـمل الجن والإنس، وهذا القول هو الذي مال القلب إليه للأسباب التالية:

الأول: لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾ [سبأ: ٢٨]

الثاني: لقوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨]



والشاهد من الآيتين دلالتهما أنه ﷺ أرسل لجميع الثقلين وعبر عنهما بلفظ جامع وهو "الناس" فدل بالصراحة اللغوية والشرعية أنه لفظ يشمل الجن والإنس.

الثالث: لقوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن: ٦]

فإذا جاز إطلاق الرجال على الجن جاز إطلاق الناس عليهم؛ فإن الرجال لا يكونون إلا ناسًا كما هو ضابط لفظ الناس.

قال ابن عادل في "اللباب" (١٩/٤١٧):

وقيل: لا يطلق لفظ الرجال على الجنّ، فالمعنى: وأنه كان رجالٌ من الإنس يعوذون من شرِّ الجن برجال من الإنس وكان الرجل من الإنس يقول مثلاً: أعوذ بحذيفة بن بدر من جنِّ هذا الوادي. قال القشيريُّ: وفي هذا تحكم إذ لا يبعد إطلاق الرِّجالِ على الجن اهـ.

الرابع: لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ [هود:١١٨]

أي لو شاء أن يجعلهم كلهم مسلمين لفعل، والسؤال: لماذا لم يقل: الإنس وقال: الناس؟ والجواب: لو قال: (لجعل الإنس) لخرج بذلك الجن فيكون المعنى إما أنهم مسلمون بالأصل أو أنه لو جعل البشر على الإسلام فإنه لم يجعل الجن كذلك، مع أن الجن والإنس كلهم داخلون في دعوة النبي ﷺ ومطالبون بالإسلام.

والحاصل أن الجن ناس ولكنهم ليسوا إنس فدخلوا في قوله: (لجعل الناس).

الخامس: أن القرآن يخاطب عموم المكلفين بقول: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ ولم يقل أحد من العلماء: إن الجن غير داخلين بلفظ الخطاب.

السادس: أن هذا القول قال به صحابي جليل من كبار العارفين بالقرآن الكريم، فقد جاء في صحيح البخاري (٤٤٣٧) عن ابن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال في تفسير قوله تعالى: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ يَدْعُونَ يَبْتَغُونَ إِلَى رَبِّهِمُ الْوَسِيلَةَ أَيُّهُمْ أَقْرَبُ﴾ [الإسراء: ٥٧]: كان ناس من الإنس يعبدون ناسًا من الجن فأسلم الجن وتمسك هؤلاء بدينهم اهـ فسمى الإنس والجن ناس.

السابع: أن هذا القول اختاره كبار علماء اللغة:

قال الجوهري في "الصحاح في اللغة" (٢/٢٣٨): والناس قد يكون من الإنس ومن الجن، وأصله أناس فخفف اهـ

وقال ابن منظور في "لسان العرب" (٦/٢٤٥): الناس قد يكون من الإنس ومن الجن، وأصله أناس فخفف، ولم يجعلوا الألف واللام فيه عوضًا من الهمزة المحذوفة؛ لأنه لو كان كذلك لما اجتمع مع المعوض منه في قول الشاعر:

إِنَّ المَنَايا يَطَّلِعْنَ   عَلَى الأُناسِ الآمِنينا

والنوس تذبذب الشيء، ناس الشيء ينوس نوسًا ونوسانا تحرك وتذبذب متدليًا، وقيل لبعض ملوك حمير: ذو نواس؛ لضفيرتين كانتا تنوسان على عاتقيه، وذو نواس ملك من أذواء اليمن سمي بذلك لذؤابتين كانتا تنوسان على ظهره، وناس نوسًا تدلى واضطرب اهـ

وقال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٥/٣٦٩):

(نوس) النون والواو والسين أصل يدل على اضطراب وتذبذب. وناس الشيء: تذبذب، ينوس. وسمي أبو نواس لذؤابتين له كانتا تنوسان اهـ

فدخل الجن في ذلك لكونهم من ناس ينوس أيضًا

وقال الشبلي في "آكام المرجان" للشبلي (صـ/٦٥): قال ابن عقيل: الجن داخلون في مسمى الناس لغة اهـ

وقال الراغب في "التفسير" (١/٩٣): الناس: جماعة حيوان ذي فكر وروية اهـ وشرحها الشبلي في "آكام المرجان" (صـ/٦٥) فقال: والجن لهم فكر وروية والناس من ناس ينوس إذا تحرك اهـ

قال أبو العباس:

وغيرهم كثير. وأما قوله تعالى: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ [الناس: ٦] ففيه احتمالان:

الأول: أن هذا من باب عطف العام على الخاص.

الثاني: أن المعنى يرجع لقوله تعالى: ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ﴾ [الناس: ٥] ثم قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ وفيها احتمالات في التفسير:

- التفسير الأول: أن المراد هو بيان من هو الوسواس وأنه ليس خاصًا بالجن بل هو وسواس إما من الجنة بشكل خاص أو من عموم الناس فيدخل فيه الجن والإنس. وبهذا زال الإشكال.

- التفسير الثاني: أن المراد هو بيان منهم الموسوس في صدورهم، وبيان أن الوسواس لايقع في صدور الإنس فقط بل إن الموسوس قد يوسوس في صدور الجن بشكل خاص، وقد يوسوس في صدور الناس كلهم الجن والإنس، وهذا مثل الأول في البيان.

فدل بالتفسيرين أن لفظ "الناس" من أول السورة إلى آخرها يدخل فيه الجن والإنس.

- التفسير الثالث: أن اللفظ "الناس" في أول السورة كله يدخل فيه الجن والإنس، وغلب على الإنس في آخر السورة من باب أن الجن خاص والناس عام فكان ظاهر الآية عطف العام "الناس" على الخاص (الجن).

وعلى كل فإدخال الجن والإنس في مسمى الناس هو تفسير يجمع بين الأدلة، وإخراج الجن من مسمى الناس يشكل مع الأدلة الكثيرة التي تخاطب الثقلين بمسمى الناس، ويلزم منه اخراج الجن من الخطاب.

قال العلامة القرطبي في "الجامع" (٢٠/٢٦٣):

وذهب قوم إلى أن الناس هنا يراد به الجن. سموا ناسًا كما سموا رجالا في قوله: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦]

وقومًا ونفرًا. فعلى هذا يكون "وَالنَّاسِ" عطفا على "الْجِنَّةِ"، ويكون التكرير لاختلاف اللفظين. وذكر عن بعض العرب أنه قال وهو يحدث: جاء قوم من الجن فوقفوا. فقيل: من أنتم؟ فقالوا: ناس من الجن. وهو معنى قول الفراء اهـ

المسألة الرابعة: هل الجن كلهم أبناء إبليس؟

في سـنة ألف وأربعمئة وثمانية وعشـرين بحثت عن جواب لهذه المسـألة في كتابي "سـياحة في عالم الجن والشـياطين" وكانت الخلاصـة التي توصـلت إليها هي موافقة من يقول: إن إبليس واحد من عموم الجن وليس هو أصـــلهم كما أن آدم أصل الإنس.

وفي سنة ألف وأربعمائة وست وثلاثين تناقشت مع أحد المشايخ، فدعاني ذلك لإعادة النظر في هذه المســـألة، فازددت فيها علمًا ويقينًا بناء على الأدلة الآتية:

الدليل الأول:

قوله تعـالى: ﴿أَفَتَتَّخِـذُونَـهُ وَذُرِّيَّتَـهُ أَوْلِيَـاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَـدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠]

ووجه الدلالة من الآية أن الله تعالى جعل كل ذريته أعداء لنا دون استثناء، مع أنه قد ثبت أن في الجن من هو مسلم صالح مؤمن تقي، ومن هذه النصوص:

- قوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَدًا ۝٢ وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلَا وَلَدًا ۝٣﴾ [الجن: ١-٣].
- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قِدَدًا﴾ [الجن:١١].
- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى آمَنَّا بِهِ فَمَنْ يُؤْمِنْ بِرَبِّهِ فَلَا يَخَافُ بَخْسًا وَلَا رَهَقًا﴾ [الجن:١٣].
- قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾ [الجن:١٤]

ووجه الدلالة من هذه الأدلة الأربعة أن هؤلاء الجن الذين وصفوا بالإيمان والهدى والرشد والصلاح ليسوا من ذرية إبليس؛ لأن ذرية إبليس كلهم كفار بدلالة الآية السابقة ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾.

الدليل الثاني:

قوله تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنِّ﴾ [الكهف:٥٠]

أي من جنس الجن وليس من الملائكة كما يظن البعض، ويستفاد من ذلك أنه منهم وليس أصلهم. وقد نادى الله تعالى الإنس في مواضع كثيرة في القرآن بقوله: ﴿يَابَنِي آدَمَ﴾ وليس في القرآن في موضع واحد مناداة الجن بقوله: (يابني إبليس).

الدليل الثالث:

روى الحاكم عن أبي ثعلبة الخشني رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (الجن ثلاثة أصناف: صنف لهم أجنحة يطيرون في الهواء وصنف حيات وكلاب وصنف يحلون ويظعنون) قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، وقال الذهبي قي التلخيص: صحيح.

والشاهد من الحديث أنه لم يأت دليل أن إبليس ينتمي للأصناف الثلاثة؛ فدل أنه واحد من الجن ينتمي لصنف من الأصناف الثلاثة.

النتيجة: أن ذرية إبليس كلهم كفار وأن الجن الذين ليسوا من ذرية ابليس فيهم المسلم وفيهم الكافر. وهذا هو أظهر أدلتنا أن إبليس واحد منهم وهو أصل لبعضهم وليس لجميعهم.

وهناك من يرجح القول الذي اخترناه إلا أنه يفصل فيقول: إن ذرية إبليس هي الباقية!! وأن بقية الجن انقرضوا!! وفي الأدلة التي ذكرتها بيان لبطلان هذا القول؛ لأن دعوى الانقراض باطلة.

المسألة الخامسة: لماذا لم يذكر الملائكة:

لفت قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ نظر بعض العلماء إذ ذكر الجن والإنس ولم يذكر الملائكة؛ مع أنهم أيضًا عليهم الصلاة والسلام خلقوا للعبادة.

والجواب: أن عدم ذكر الملائكة راجع لخمسة أوجه ذكر أربعة منها ابن عادل الدمشقي في "اللباب":

الوجه الأول: أن سباق الآية يتحدث عن أفعال الكفرة القبيحة وعزوفهم عن الغاية التي خلقوا لأجلها، وهذا غير منطبق على الملائكة فاقتضت عدم المناسبة عدم ذكرهم، فالملائكة كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ بَلْ عِبَادٌ مُكْرَمُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٦] وقال تعالى: ﴿لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ﴾ [الأنبياء: ١٩] وقال تعالى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

الوجه الثاني: أن عباد الأصنام كانوا يقولون: إن الله تعالى عظيم الشأن خلق الملائكة وجعلهم مقربين، فهم يعبدون الله وخلقهم لعبادته، ونحن لنزول درجتنا لا نصلح لعبادة الله فنعبد الملائكة وهم يعبدون الله كما قالوا: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى﴾ [الزمر: ٣] فقال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ولم يذكر الملائكة لأن الأمر فيهم كان مسلمًا من القوم، فذكر المتنازع فيه.

الوجه الثالث: أن لفظ الجن يدخل فيه الملائكة؛ لأن الجيم والنون أصل واحد، وهو الستر والتستر. ونحن لانرى الملائكة كما لانرى الجن فدل أن لفظ الجن يدخل فيه الملائكة من ناحية التستر

الوجه الرابع: وهو نفس الثالث إلا أنه لم يكتف بالاعتماد على الناحية اللغوية بل أكدها بالنص القرآني كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْجِنَّةِ نَسَبًا وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾ [الصافات: ١٥٨] قال القرطبي: أكثر أهل التفسير أن الجنة ها هنا الملائكة اهـ.

قلت: ومناســـبة ذلك أن الكفار ادعوا أن الملائكة بنات الله والعياذ بالله من هذا الكفر العظيم. ومع ذلك فقد أنكر بعض العلماء تفســـير الجن بالملائكة ومنهم العلامة ابن القيم والحافظ ابن كثير.

الوجه الخامس: أن الآية مسبوقة بالأمر للنبي ﷺ بتذكير أمته بالغاية التي خلقوا من أجلها فقال تعالى: ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَمَا أَنْتَ بِمَلُومٍ ۝٥٤ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ ۝٥٥﴾ [الذاريات: ٥٤-٥٥] ثم بين تعالى لنبيه ﷺ نوع الغاية التي أمره بتذكيرهم بها فقال: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فظهر الســـبب لعدم ذكر الملائكة من ناحيتين:

- الأولى: أن الملائكة غير محتاجين للتذكير.
- والثانية: أن النبي ﷺ غير مأمور بتذكير الملائكة لأنه مبعوث للجن والإنس فقط.

قال أبو العباس:

والوجه الأول والثاني فيهما قوة، وأما الثالث فمع قوته فهو غير منطبق، وأما الرابع فهو قول ضعيف، والقول الخامس هو أقوى الأقوال وأصحها وأرجحها والله تعالى أعلى وأعلم.

المسألة السادسة: **معنى العبادة**:

العبادة في اللغة: التذلل والخضــــوع، وهذه عبادة عامة يدخل فيها كل معبود، فمن صــرفها لغير الله فهو خاضــع متذلل له وهو مشــرك، ومن صــرفها لله تعالى فهو خاضع متذلل له وهو موحد.

العبادة في الشرع: تعرف بتعريفين:

الأول: باعتبار التعبد:

والعبادة باعتبار التعبد هي التذلل لله تعالى محبة وتعظيمًا بامتثال الأوامر واجتناب النواهي والزواجر.

الثاني: باعتبار المتعبد به: لها تعريفان:

١- تعريفها بالاسم الجامع:

والعبادة باعتبار المتعبد به عرفها شــيخ الإســلام ابن تيمية وهو من أجمل التعاريف لها، فقال في كتابه "العبودية" (صـ/٤٤):

العبادة هي اســـم جامع لكل ما يحبه الله ويرضـــاه من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة.

فالصلاة والزكاة والصيام والحج وصدق الحديث وأداء الأمانة وبرّ الوالدين وصـــلة الأرحام والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والجهاد للكفار والمنافقين والإحســان للجار واليتيم والمســكين وابن الســبيل والمملوك من الآدميين والبهائم والدعاء والذكر والقراءة وأمثال ذلك من العبادة.

وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له والصبر لحكمه والشكر لنعمه والرضا بقضائه والتوكل عليه والرجاء لرحمته والخوف من عذابه وأمثال ذلك هي من العبادة لله.

وذلك أن العبادة لله هي الغاية المحبوبة له والمرضية له التي خَلق الخلق لها كما قال الله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ اهـ.

٢- تعريفها بالتوحيد:

وتعرف العبادة شرعًا بالتوحيد؛ لأن التوحيد هو إفراد الله بالعبادة، ولهذا قال المؤلف في تفسير "ليعبدون": ومعنى "يعبدون" أي يوحدون. وجاء عن السلف أن كل أمر بالعبادة في القرآن فالمراد به التوحيد، لأن الله سبحانه تعالى إذا أمر بعبادته بالمراد عبادته وحده.

قال كبير العلماء العلامة عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى كما في "مجموع الفتاوى" (٢٨/١٣٥):

العبادة هي توحيد الله وطاعته، وهي التقوى والإيمان، وهي البر والهدى؛ كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ [النجم:٢٣]، وقال تعالى: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى﴾ [البقرة:١٨٩]، وقال: ﴿وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ الآية [البقرة:١٧٧].

فالواجب على جميع المكلفين من الجن والإنس، والعرب والعجم، والذكور والإناث، الواجب عليهم جميعًا أن يتقوا الله، وذلك بتوحيده والإخلاص له، واتباع رسوله عليه الصلاة والسلام، هذه العبادة التي خلقوا لها، وأصلها وأساسها: شهادة

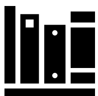
أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسـول الله، هذا أسـاس الدين وأصـله؛ الشـهادتان: شـهادة أن لا إله إلا الله، معناها: لا معبود حق إلا الله، يشـهد المؤمن والمؤمنة بأنه لا معبود حق إلا الله، ويشـهد أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب الهاشمي العربي، المكي ثم المدني هو رسـول الله، ﷺ حقا، وأن الواجب اتباعه والإيمان بما جاء به وتصديقه، واتباع شريعته، هذا هو الواجب على الجميع، قال تعالى: ﴿وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ﴾ [الإسراء:٢٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ [البينة:٥].

هذه العبادة التي خلقوا لها، أن يخصـوا الله بالعبادة: بدعائهم وخوفهم ورجائهم، وذبحهم واستغاثتهم وصلاتهم وغير هذا.

وعليهم مع هذا أن يشهدوا أن محمد بن عبدالله بن عبدالمطلب، هو رسول الله حقًا إلى جميع الثقلين، جنهم وإنسـهم، عربهم وعجمهم، ذكورهم وإناثهم، على جميع المكلفين أن يشـهدوا بذلك، يشـهدوا أنه لا إله إلا الله، أي لا معبود حق إلا الله، ويشـهدوا أن محمد بن عبدالله هو رسـول الله حقا إلى جميع الثقلين الجن والإنس، وأنه خاتم الأنبياء ليس بعده نبي اهـ

فائدة: أقسام العبادة: شرعية وكونية

أما الشـرعية فهي التي سـبق تعريفها ولايدخل فيها إلا أهل الإيمان، وأما الكونية فهي التي يشترك فيها الجن والإنس وأهل الإيمان وأهل الكفر؛ فكلهم عبيد لله تعالى رغم أنوفهم عبادة كونية وهم فيها مسيرون لا مخيرون، كما قال تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]



ومعنى الآية أن الكل منقاد لحكمه وقضـــائه وقدره ليس لهم من الملك ولا التصــرف ولا التدبير أي شــيء، فيقدر عليك المرض أو الفقر أو فراق الحبيب أو منع المطر وأنت ذليل غير قادر على فعل شـــيء لنفســـك إلا ما شـــاء الله وحده القادر والمقدر لا شريك له.

المسألة السابعة: اللام في قوله: ﴿لِيَعْبُدُونِ﴾:

ســـبعة وعشـــرون حرفًا في هذه الآية إلا أن هذا اللام له حظ وافر من الجدل؛ فلأهل الباطل خوض فاسـد في هذا اللام؛ ولكي نفرق بين لام أهل السـنة ولام المعتزلة والقدرية نبين أن في هذا اللام ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها لام الأمر:

أي لآمرهم بعبـادتي وهـذا منقول في الكثير من الكتـب عن أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ومجاهد وقاله الزجاج والحافظ ابن كثير والســـمرقندي والعلامة الشنقيطي والعلامة العباد وغيرهم

ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِـــينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] وكل أدلة الابتلاء بالتكاليف تشهد لقوة هذا القول.

قال العلامة الشنقيطي في "أضواء البيان" (٢١/٥٤):

وقـال بعض أهـل العلم: وهو مروي عن مجـاهـد أيضًـــا معنى قولـه: "إلا ليعبدون" أي إلا لآمرهم بعبادتي فيعبدني من وفقته منهم لعبادتي دون غيره، وعلى

هذا القول: فإرادة عبادتهم المدلول عليها باللام في قوله: "ليعبدون" إرادة دينية شرعية وهي الملازمة للأمر، وهي عامة لجميع من أمرتهم الرسل لطاعة الله لا إرادة كونية قدرية، لأنها لو كانت كذلك لعبده جميع الإنس والجن، والواقع خلاف ذلك بدليل قوله تعالى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢ وَلَا أَنْتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ ۝٣﴾ إلى آخر السورة.

قال مقيده عفا الله عنه وغفر له: التحقيق إن شاء الله في معنى هذه الآية الكريمة: "إلا ليعبدون"، أي إلا لآمرهم بعبادتي وأبتليهم أي أختبرهم بالتكاليف ثم أجازيهم على أعمالهم، إن خيرًا فخير وإن شرًا فشر، وإنما قلنا إن هذا هو التحقيق في معنى الآية، لأنه تدل عليه آيات محكمات من كتاب الله، فقد صرح تعالى في آيات من كتابه أنه خلقهم ليبتليهم أيهم أحسن عملا، وأنه خلقهم ليجزيهم بأعمالهم اهـ

القول الثاني: أنها لام الغاية:

أي أن الغاية والحكمة التي خلقوا من أجلها هي العبادة، وهذا القول اختاره شيخ الإسلام ابن تيمية، والعلامة المعلمي، والعلامة السعدي، والعلامة العثيمين، والعلامة الفوزان، وهو القول المشهور مع أن القائلين به ليسوا بتلك الكثرة مقارنة بالقول الأول.

قال العلامة المعلمي اليماني كما في "مجموع الآثار" (٤/٧):

حَصـرتْ هذه الآية خلقَ الجن والإنس في علّيّة العبادة، لأن الاسـتثناء من أعم العلل، أي: لا سببَ لخلْق الله تعالى لهم إلّا إرادتُه أن يعبدوه، وعليه فلا بدَّ من أن يكون خلْقُهم على هيئةٍ يكونون بها مسـتعدِّين لما لأجلِه خلقَهم، والأمر كذلك. قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۝٧ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۝٨ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ ۝٩﴾ [السجدة: ٧-٩] وقال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَا تَشْكُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٧٨] اهـ

وقال العلامة ابن عثيمين في "التفسير" (٣٩/٩):

واللام في قوله: "ليعبدون" للتعليل، لكن هذا التعليل تعليل شـــرعي، أي لأجل أن يعبدون، حيث آمرهم فيمتثلوا أمري، وليســـت اللام هنا تعليلاً قدرياً، لأنه لو كان تعليلاً قدرياً للزم أن يعبده جميع الجن والإنس، لكن اللام هنا لبيان الحكمة الشرعية في خلق الجن والإنس اهـ

وبهذا القول قال كبير العلماء العلامة الفوزان ولكنه فضـــل أن يقال: الحكمة بدلًا من الغاية.

قال أبو العباس:

وهذا هو أقوى الأقوال لكونه لايتنافى مع القول الذي قبله، فالغاية التي خلقهم من أجلها هي العبادة ولهذا خلقهم من أجلها وأمرهم بها.

والدليل أنه خلقنا لحكمة وغاية قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥] فنفي العبثية عن خلق المكلفين دليل أنه خلقهم لحكمة وغاية.

والدليل أنه أمرنا بالقيام بهذه الغاية قوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥]

فدل أنه خلقنا لغاية وهي العبادة وأنه أمرنا بها.

القول الثالث: أنها لازم الصيرورة:

لام الصيرورة ويقال لها: لام العاقبة، ومعناها أن الله إذا خلق العباد لشيء فلابد أن يتحقق هذا الشيء، وبتنزيلها مع آية الذاريات فإن الله خلق الجن والإنس لعبادته فهل صاروا كذلك ولابد؟.

وبسبب بعض الإشكالات الطارئة على هذا المذهب كثبوت عدم تحقق الصيرورة في العباد، فقد لزم العلم أن هذا القول ليس حقًا أو باطلًا من كل وجه، بل لابد أن نعرف قصد القائل به؛ فإن وافق الحق فهو حق وإن وافق الباطل فهو باطل، فإن القائلين بهذا القول على ثلاثة مذاهب:

✸**المذهب الأول**: **أنها عبادة خاصة شرعية**:

وهذا القول قاله بعض أهل السنة، ومرادهم أن الآية عامة ولكنها تعني خصوص المؤمنين من الجن والإنس، وذلك أن الله كما خلق خلقًا للجنة وهم

السعداء، خلق خلقًا للنار وهم الأشقياء، فصار كل واحد منهم لما خلق له ولابد، وقد استدلوا على ذلك بأدلة ومنها:

١ـ أن الآية في قراءة ابن مسعود وأبي بن كعب: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ مِنْ الْمُؤمنِيْن إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾.

٢ـ أن الله تعالى قد ذرأ للجنة خلقًا وهم من عبدوه وللنار خلقًا وهم من عصوه، فقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف:١٧٩].

٣ـ أن الله تعالى قد قسم نصيب الجنة والنار فقال: ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ ۞ وَأَمَّا الَّذِينَ سُعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود:١٠٥-١٠٨] فأهل السعادة هم من خلقهم لعبادته فأسعدهم بالجنة، وأهل الشقاوة هم من خلقهم لمعصيته فأشقاهم بالنار.

٤ـ أن في الجن والإنس من لم يكلف بالعبادة كالمجانين والصبيان فدل أنهم لم يخلقوا للعبادة، وبالتالي فهم لم يخلقوا للعبادة فاقتضى ذلك ثبوت التخصيص.

وهذا قول ضعيف فهم خلقوا للعبادة كغيرهم ولكن رفع عنهم التكليف للعلة المذكورة، لما ثبت عن عائشة رضي الله عنها عن عائشة أن رسول الله ﷺ قال:

(رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ. وعن الصغير حتى يكبر. وعن المجنون حتى يعقل) رواه النسائي وأبو داود وابن ماجه

فالرفع دليل على ثبوت التكليف.

قال القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٧/٥٥):

قيل: إن هذا خاص فيمن سبق في علم الله أنه يعبده، فجاء بلفظ العموم ومعناه الخصوص. والمعنى: وما خلقت أهل السعادة من الجن والإنس إلا ليوحدون. قال القشيري: والآية دخلها التخصيص على القطع، لأن المجانين والصبيان ما أمروا بالعبادة حتى يقال أراد منهم العبادة، وقد قال الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

ومن خلق لجهنم لا يكون ممن خلق للعبادة، فالآية محمولة على المؤمنين منهم، وهو كقوله تعالى: (قالت الأعراب آمنا) وإنما قال فريق منهم اهـ.

وقال زيد بن أسلم:

هو ما جبلوا عليه من الشقوة والسعادة، فخلق السعداء من الجن والإنس للعبادة، وخلق الأشقياء منهم للمعصية اهـ.

✷**المذهب الثاني**: **أنها عبادة قدرية**:

قال الإمام ابن جرير الطبري في "جامع البيان" (٢٢/٤٤٥):

فإن قال قائل: فكيف كفروا وقد خلقهم للتذلل لأمره؟ قيل: إنهم قد تذللوا لقضائه الذي قضاه عليهم، لأن قضاءه جار عليهم، لا يقدرون من الامتناع

منه إذا نزل بهم، وإنما خالفه من كفر به في العمل بما أمره به، فأما التذلل لقضــــائه فإنه غير ممتنع منه اهـ.

قلت: وهذا القول قال به بعض أهل السنة، والمراد منه، أنه إن قال قائل: إن قوله: ﴿إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ يلزم منه أن الله تعالى إذا خلق الخلق لشـــيء فلابد أن يحصــل هذا الشـــيء، ولايمكن لعبد أن يتخلف عن إرادة الله التي خلقه لها ويمتثل لضدها.

فاختار ابن جرير الطبري الإجابة على هذا الاشـــكال أن العبد إن تخلف عن نوع من العبادة فإنه خاضـــع لنوع آخر من العبادة، وبالتالي فهو محقق للغاية التي خلق من أجلها وهي العبادة وصائر إليها رغم أنفه.

ودليل صحة هذا المذهب قوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]

وســـبق أن معناها أن الكل منقاد له بالعبادة الكونية، عبر انقياده لحكمه وأمره وقضــائه وقدره، فمن خرج عن العبادة الشــرعية لم يخرج عن العبادة الكونية القدرية.

ومع صحة هذا المذهب إلا أن أصح منه أن يقال: **إن إرادة الله تعالى على قسمين**: **كونية وشرعية**:

أما الإرادة الشـــرعية: فهي غير لازمة الوقوع؛ لأن الله تعالى أمر بها العباد وجعلهم مخيرون فيها، فمن امتثل للعبادة التي خلق من أجلها أثابه الجنة ومن لم يمتثل للعبادة عاقبه بالنار

وأما الإرادة الكونية: فهي لازمة الوقوع؛ لأنها متعلقة بأمور القضاء والقدر، فلاراد لقضائه، ولا معقب لحكمه.

وخَلْقُ العباد للعبادة يدخل في الإرادة الشرعية التي جعل الله العباد مخيرون فيها ولهذا قال عن المستجيبين لها: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] وقال عن المتخلفين عنها: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠].

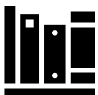
ولشيخ الإسلام إجابة مفصلة في هذا الصدد سننقلها في الرد على المذهب الثالث.

✸المذهب الثالث: أنها عبادة عامة شرعية:

وهذا مذهب بعض أهل الباطل من أهل الكلام والفلسفة، والفرق بين لامهم ولام أهل السنة كالفرق بين الحق والضلال، وبين النور والظلام.

وحاصل مذهبهم أن اللام لام الصيرورة!! أي أن الجن والإنس قد صاروا كذلك!! وتحقق منهم ذلك شرعًا وقدرًا، وبالتالي فالشرك منعدم وأن البشرية كلها متفقة على التوحيد، وبهذا جعلوا من وجود الجنة والنار وجودًا عبثيًا، وجعلوا من آيات الموحدين والمشركين خبرًا غير مصدق والعياذ بالله.

والرد عليهم أن الجن والإنس الذين أخبر الله تعالى أنه خلقهم للعبادة أخبرنا عنهم أن فريقًا منهم استجاب لأمر الله فهو في الجنة وفريقًا لم يستجب فهو في النار، فدل أن الأمر تكليف يثاب فاعله ويعاقب تاركه، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩]



فاللام في قوله: ﴿لِجَهَنَّمَ﴾ هنا هي لام العاقبة والصـــيرورة وهي عقاب لمخالفتهم للام الغاية والحكمة، فدل على بطلان جعل الناس كلهم سواء في العبادة الشرعية، وأنهم على فريقين: فريق في الجنة وفريق في السعير.

فصل في لام القدرية والمعتزلة في آية الذاريات

قال ابن عادل الدمشقي في "اللباب" (١٨/١٠٦):

استدل المعتزلة بقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ على أن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض وأجيبوا بوجوه تقدمت منها أن اللام قد تثبت لغير الغرض كقوله تعالى: ﴿أَقِمِ الصَّلَاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ﴾ [الإسراء:٧٨] وقوله: ﴿فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ﴾ [الطلاق:١]

ومعناه المقارنة فمعناه: قرنت الخلق بالعبادة؛ أي خلقتهم وفرضت عليهم العبادة اهـ.

قلت: ومراد المعتزلة من قولهم: (إن أفعال الله تعالى معللة بالأغراض) أي أن أفعال الله تعالى لاتقع إلا إذا وقع ذلك الغرض. وهذا الكلام مجمل والنظر فيه يقتضي قبوله من وجه ورده من وجه، وما كان كذلك فإن الأصل في التعامل معه يكون من أحد وجهين:

الأول: تركه؛ لأن الكلام المجمل يقتضي خلط الحق بالباطل فيصير محل استدلال للطرفين.

الثاني: تفصيله؛ فكما قيل: الكلام المجمل يحسن القبيح ويقبح الحسن فإذا فصل فيه ظهر إما لجانب الحسن أو لجانب القبح.

قال العلامة الطوفي رحمه الله تعالى في "درء القول القبيح بالتحسين والتقبيح" (صـ/٩٨):

إنّ قول القائل، "أفعال الله تعالى معلّلةٌ بالأغراض"

- إن أراد بذلك أغراضًا تفيده كمالًا ليس له كما في حقّنا، حيث يعمل أحدُنا سريرًا لينام عليه، أو يقاتل أعداءَه ليملك أرضَهم ويرأس عليهم، ونحو ذلك فهذا ممتنعٌ في حقّ الله. إذ كماله ذاتي أزليٌّ سرمديّ.

- وإن أراد أغراضًا هي حِكَمٌ الأفعالُ مقتضياتٌ وغاياتٌ لها، كتصرف الملوكِ في ممالكهم، فهذا لا وجه لمنعه؛ والقرآن مملوءٌ بالتصريح به، كقوله: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ﴾ [الإسراء:١٢]، إلى قوله: ﴿وَلِتَعْلَمُوا﴾، وقوله: ﴿جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لِتَسْكُنُوا﴾ [القصص:٧٣]، ﴿وَهُوَ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ﴾ [الفرقان:٤٨]، ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا﴾ [النبأ:٦]، ونحوه كثيرٌ.

وبالجملة، ما فَعَل اللهُ سبحانه ولا يَفعلُ فِعلًا إلاّ لحكمةٍ مِن مُقتض وغايةٍ، لقوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا﴾ [المؤمنون:١١٥]، إلى قوله: ﴿فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ﴾ [المؤمنون:١١٦]، أي عن العبث وما يُنسَب إليه من الشرك.

وممّا يُحقق أنّ أفعاله معلَّلةٌ بالتفسير المذكور أنها لو لم تكن كذلك، لزم منه إفحامُ الرسلِ؛ لأن يقال للرسول: "معجِزُك هذا الذي أُثبِتَّ به لم يخلقه اللهُ لأجل تصديقك، بل خَلَقه لا لعلّةٍ ولا لغرضٍ، وإنما ظهر على وَفق دعواك اتّفاقًا". فتعليل

الأفعالِ لازمٌ لصحّة الاحتجاج بالمعجِز. وإذا لزم خَلقُ المعجِزِ لأجل التصديق، جاز تعليلُ غيرِه من الأفعال؛ إذ لا قائل بالفرق اهـ

وقال الفخر الرازي في "مفاتيح الغيب" (٢١/ ٤٢٧):

اللام في قوله: لنبلوهم تدل ظاهرًا على أن أفعال الله معللة بالأغراض عند المعتزلة، وأصحابنا قالوا: هذا محال لأن التعليل بالغرض إنما يصح في حق من لا يمكنه تحصيل ذلك الغرض إلا بتلك الواسطة، وهذا يقتضي العجز وهو على الله محال اهـ

ولشيخ الإسلام جواب على هذه المسألة قرر فيه مذهب أهل السنة والجماعة والرد على القدرية وغيرهم جاء فيه.

قال شيخ الإسلام بن تيمية كما في "مجموع الفتاوى" (٨/١٨٦)

سئل شيخ الإسلام عن قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ فقال رحمه الله:

قال السائل قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ إن كانت هذه اللام للصيرورة في عاقبة الأمر فما صار ذلك، وإن كانت اللام للغرض لزم أن لايتخلف أحد من المخلوقين عن عبادته وليس الأمر كذلك فما التخلص من هذا المضيق؟

فيقال هذه اللام ليست هي اللام التي يسميها النحاة لام العاقبة والصيرورة ولم يقل ذلك أحد هنا كما ذكره السائل من أن ذلك لم يصر إلى على قول من يفسر يعبدون بمعنى يعرفون، يعني المعرفة التي أمر بها المؤمن والكافر لكن

هذا قول ضـــعيف، وإنما زعم بعض الناس ذلك في قوله ﴿وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود:١١٩] التي في آخر سورة هود؛ فإن بعض القدرية زعم أن تلك اللام لام العاقبة والصـــيرورة أي صـــارت عاقبتهم إلى الرحمة وإلى الاختلاف وإن لم يقصـــد ذلك الخالق!! وجعلوا ذلك كقوله: ﴿فَالْتَقَطَهُ آلُ فِرْعَوْنَ لِيَكُونَ لَهُمْ عَدُوًّا وَحَزَنًا﴾ [القصص: ٨]

وقول الشاعر ... لدوا للموت وابنوا للخراب ..

وهذا أيضًا ضعيف هنا؛ لأن لام العاقبة إنما تجيء في حق من لا يكون عالمًا بعواقب الأمور ومصـــايرها فيفعل الفعل الذي له عاقبة لا يعلمها كآل فرعون، فأما من يكون عالمًا بعواقب الأفعال ومصايرها فلا يتصور منه أن يفعل فعلا له عاقبة لا يعلم عاقبته، وإذا علم أن فعله له عاقبة فلا يقصـــد بفعله ما يعلم أنه لا يكون فإن ذلك تمن وليس بإرادة.

وأما اللام فهي اللام المعروفة وهي لام كي ولام التعليل التي إذا حذفت انتصب المصدر المجرور بها على المفعول له.

وتســـمى العلة الغائية وهي متقدمة في العلم والإرادة متأخرة في الوجود والحصول.

وهذه العلة هي المراد المطلوب المقصود من الفعل لكن ينبغي أن يعرف الإرادة في كتاب الله على نوعين:

١-أحدهما الإرادة الكونية: وهي الإرادة المســتلزمة لوقوع المراد التي يقال فيها ما شـاء الله كان وما لم يشـأ لم يكن، وهذه الإرادة في مثل قوله: ﴿فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ

أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا﴾ [الأنعام: ١٢٥] وقوله: ﴿وَلَا يَنْفَعُكُمْ نُصْحِي إِنْ أَرَدْتُ أَنْ أَنْصَحَ لَكُمْ إِنْ كَانَ اللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يُغْوِيَكُمْ﴾ [هود: ٣٤] وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ﴾ [البقرة: ٢٥٣] وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَاءَ اللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ﴾ [الكهف: ٣٩]

وأمثال ذلك وهذه الإرادة هي مدلول اللام في قوله: ﴿وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ (١١٨) إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ [هود: ١١٨-١١٩]

قال السلف: خلق فريقًا للاختلاف وفريقًا للرحمة ولما كانت الرحمة هنا الإرادة وهناك كونية وقع المراد بها فقوم اختلفوا وقوم رحموا.

٢-وأما النوع الثاني فهو الإرادة الدينية الشرعية: وهي محبة المراد ورضاه ومحبة أهله والرضا عنهم وجزاهم بالحسنى، كما قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ﴾ [البقرة: ١٨٥] وقوله تعالى: ﴿مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُمْ مِنْ حَرَجٍ وَلَكِنْ يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ﴾ [المائدة: ٦] وقوله: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [النساء:٢٦] ﴿وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مَيْلًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ٢٧] ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُخَفِّفَ عَنْكُمْ وَخُلِقَ الْإِنْسَانُ ضَعِيفًا﴾ [النساء: ٢٨]

فهذه الإرادة لا تستلزم وقوع المراد إلا أن يتعلق به النوع الأول من الإرادة ولهذا كانت الأقسام أربعة

أحدها: ما تعلقت به الإرادتان وهو ما وقع في الوجود من الأعمال الصالحة فإن الله أرادة إرادة دين وشرع فأمر به وأحبه ورضيه وأراده إرادة كون فوقع ولولا ذلك لما كان.

والثاني: ما تعلقت به الإرادة الدينية فقط وهو ما أمر الله به من الأعمال الصالحة فعصى ذلك الأمر الكفار والفجار فتلك كلها إرادة دين وهو يحبها ويرضاها لو وقعت ولو لم تقع.

والثالث: ما تعلقت به الإرادة الكونية فقط وهو ما قدره وشاءه من الحوادث التي لم يأمر بها كالمباحات، والمعاصي فإنه لم يأمر بها ولم يرضها ولم يحبها إذ هو لا يأمر بالفحشاء ولا يرضى لعباده الكفر ولولا مشيئته وقدرته وخلقه لها لما كانت ولما وجدت فإنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن.

والرابع: ما لم تتعلق به هذه الإرادة ولا هذه فهذا ما لم يكن من أنواع المباحات والمعاصي وإذا كان كذلك فمقتضى اللام في قوله: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ هذه الإرادة الدينية الشرعية وهذه قد يقع مرادها وقد لا يقع، فهو العمل الذي خلق العباد له أي هو الذي يحصل كمالهم وصلاحهم الذي به يكونون مرضيين محبوبين فمن لم تحصل منه هذه الغاية كان عادمًا لما يحب ويرضى ويراد له الإرادة الدينية التي فيها سعادته ونجاته وعادمًا لكماله وصلاحه العدم المستلزم فساده وعذابه.

وقول من قال: العبادة هي العزيمة أو الفطرية فقولان ضـــعيفان فاســـدان يظهر فسادهما من وجوه متعددة.. والله أعلم اهـ.

وأقول: قد شــرحت هذه الآية في كتاب مســتقل وأسميته "الكنز المدفون" بشرح أوسع من هذا وجعلته في خمسة أبواب:

الباب الأول: في ذكر عظمة الخالق وعجائب المخلوقات.

الباب الثاني: في ذكر العالم الجن وبعض أخبارهم.

الباب الثالث: في ذكر الإنس.

الباب الرابع: في سبب عدم ذكر الملائكة مع أنهم خلقوا لنفس الغاية.

الباب الخامس: في ذكر العبادة

ثم ختم المؤلف هذه الفقرة بقوله:

وَأَعْظَمُ مَا أَمَرَ اللهُ بِهِ التَّوْحِيدُ، وَهُوَ: إِفْرَادُ اللهِ بِالْعِبَادَةِ. وَأَعْظَمُ مَا نَهَى عَنْه الشِّــركُ، وَهُوَ: دَعْوَةُ غَيْرِهِ مَعَهُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاعْبُدُواْ اللّهَ وَلاَ تُشْــرِكُواْ بِهِ شَيْئاً﴾ [النساء: ٣٥].

قال أبو العباس:

وإنما كان أعظم ما أمر الله به هو التوحيد لأنه هو الأصــل وجمع الطاعات تابعة له، كما أن أعظم ما نهى عنه هو الشـرك وكل المعاصـي تابعة له، وهذه التبعية باعتبار التفرع لا باعتبار الحكم. فدخلت الطاعات في التوحيد ودخلت المعاصــي في الشرك بهذا الاعتبار؛ فإن الأعمال تتفرع عن أصولها.

وأعظم ما أمر الله به هو التوحيد: وهو افراد الله بخصائصه وهي: الربوبية والألوهية والأسماء والصـــفات، وهذه هي أقســـام التوحيد الثلاثة، وليس للتوحيد قسم ثالث.

وأعظم ما نهى عنه هو الشـــرك: وهو على قســـمين: الشـــرك الأكبر والشرك الأصغر. وليس للشرك قسم ثالث، فإن قلت: وماذا عن حديث: (الشرك الخفي) قلت: الشـــرك الخفي ينقســـم إلى قســـمين: قســـم يدخل في الشـــرك الأكبر وقسم يدخل في الشرك الأصغر.

القسم الثاني:

نص الأصول الثلاثة



قال المؤلف:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَا الأُصُولُ الثَّلاثَةُ التِي يَجِبُ عَلَى الإِنْسَانِ مَعْرِفَتُهَا؟ فَقُلْ: مَعْرِفَةُ الْعَبْدِ رَبَّهُ، وَدِينَهُ، وَنَبِيَّهُ مُحَمَّدًا ﷺ.

الشرح:

من هنا تبدأ رسالة الأصول الثلاثة للمؤلف وكل ما سبق عبارة عن مقدمة بين يدي هذه الأصول العظيمة والمهمة.

وقد سبق وشرحنا معنى الوجوب وبينا أن المراد به هنا هو الوجوب العيني، وهنا ننشغل بتعريف الأصول قبل الخوض في دراستها والتعليق عليها.

الأصول في اللغة:

جمع أصل، والأصل هو ما يبنى عليه غيره.

أي أن الأصل: هو أسفل الشيء وهو أساسه الذي يتم التفرع منه. كالوالد أصل للولد، والجذور أصل للغصون والأوراق.

وتعريف آخر: الأصل ما يتفرع عنه غيره، وهذا التعريف موافق لما سبق ولا تعارض بين التعريفين.

وفي الاصطلاح:

له أكثر من تعريف:

الأول: النصوص الشرعية التي يبنى عليها الأحكام.

فنقول: الأصـــل في تحريم البدع هو قوله تعالى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ﴾ [الحديد: ٢٧] وقول النبي ﷺ: (**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**) وقوله: (**كل بدعة ضلالة**)

الثاني: القاعدة الكلية التي يندرج تحتها العديد من الجزئيات.

كقول العلماء: "الأصل في العبادات الحظر والأصل في العادات الحل".

كقولهم: "الأصل بقاء ما كان على ما كان".

وقولهم: "الأصل في الماء الطهارة".

وقول بعضهم: "الأصل في الأرواث والميتات النجاسة والمستثنى رخصة".

وقولهم: "الأصل في الدماء العصمة إلا بيقين الإباحة".

وننبه أن القواعد الفقهية خاضـــعة للنص الشـــرعي، فكان التعريف الثاني خاضـــع للتعريف الأول، ولهذا يقول بعض العلماء: "القواعد يحتج لها لا بها" وهذا التعبير ليس دقيقًا والأصـــح منه أن نقول: "القواعد يحتج لها قبل أن يحتج بها" فإذا ثبت صحة القاعدة بالدليل صارت دليلًا قابلًا للاحتجاج به.

وهناك أكثر من تعريف للأصل اكتفينا بالتعريفين السابقين.

الأصل الأول:

قال المؤلف:

الأصل الأول:

معرفة العبد لربه سبحانه وتعالى:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟

فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة:٢] وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

الشرح:

بما أن مقاصد الرسالة تزداد أهمية من هنا، وبقصد تقريب الأصل الأول فإننا نتحدث عن معرفة الله تعالى من خلال أربعة مسائل مأخوذة من كلام المؤلف في هذه الفقرة:

المسألة (١): **في تعريف** (**الرب**):

أولًا: التعريف اللغوي

لفظ الرب يدل على: السيد، والمالك، والخالق، والصاحب، والمصلح، والمربي. وهذا الأخير هو الذي أشار له المؤلف.

قال الراغب في "المفردات في غريب القرآن" (صـ/٣٣٦):

الرَّبُّ في الأصل: التربية، وهو إنشاء الشيء حالًا فحالًا إلى حدّ التمام اهـ

قال البيضاوي في "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" (١/ ٢٨):

رَبِّ الْعالَمِينَ: الرب في الأصل مصدر بمعنى التربية: وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا.. إلى قوله: ثم سمى به المالك لأنه يحفظ ما يملكه ويربيه. ولا يطلق على غيره تعالى إلا مقيداً كقوله: ﴿ارْجِعْ إِلى رَبِّكَ﴾ اهـ

ثانيًا: التعريف الشرعي:

قال الإمام الطبري في "جامع البيان في تأويل القرآن" (١/١٤٢):

فربّنا جلّ ثناؤه: السيد الذي لا شِبْه لهُ، ولا مثل في سُؤدده، والمصلح أمر خلقه بما أسبغ عليهم من نعمه، والمالك الذي له الخلق والأمر اهـ.

وقال العلامة ابن القيم في "بدائع الفوائد" (٤/٩٤٣):

والرب هو السيد والمالك والمنعم والمربي والمصلح والله تعالى هو الرب بهذه الاعتبارات كلها فلا شيء أوجب في العقول والفطر من عبادة من هذا شأنه وحده لا شريك له اهـ.

وقال ابن الجوزي في "زاد المسير" (١/١٨):

فأما «الرب» فهو المالك، ولا يذكر هذا الاسم في حق المخلوق إلا بالإضافة، فيقال: هذا رب الدار، ورب العبد. وقيل: هو مأخوذ من التربية. قال شيخنا أبو منصور اللغوي: يقال: ربّ فلان صنيعته يربها رباً: إذا أتمها وأصلحها، فهو ربّ ورابٌّ. قال الشاعر:

يربّ الذي يأتي من الخير إنه ... إذا سئل المعروف زاد وتمّما

قال: والرب يقال على ثلاثة أوجه:

- أحدها: المالك. يقال: رب الدار.
- والثاني: المصلح، يقال: رب الشيء.
- والثالث: السيد المطاع. قال تعالى: ﴿فَيَسْقِي رَبَّهُ خَمْراً﴾ اهـ

وقال العلامة ابن عثيمين في "شرح الواسطية" (٢/٨٥):

معاني الربوبية كثيرة؛ لأن الرب هو الخالق المالك المدبر، وهذه تحمل معاني كثيرة جدًّا اهـ.

قال أبو العباس:

وهنا تنبيه مهم أعطاه العلماء كبير اهتمام حتى لا يختلط الحابل اللغوي بالنابل الشرعي، فيتحقق للشيطان من خلال ذلك الخلط الوقوع في الشرك والعياذ بالله تعالى.

وهذا التنبيه هو منع إطلاق اسم الرب لغير الله إلا بالإضافة وبغير التعريف، فتقول: رب الدار رب المزرعة رب الغلام رب الإبل، ونحو ذلك، وأما الرب بالتعريف وبغير الإضافة فلا يقال إلا لله عز وجل، فدل أن كلمة "رب" تقال للمخلوق ولكن بشرطين:

الأول: أنها لاتستخدم في حق المخلوق إلا مضافة، فيقال: رب الدار ورب المال، فينسب إلى شيء معين.

الثاني: أنها لاتســـتخدم في حق المخلوق معرفة بالألف واللام أبدًا، لأن التعريف يفيد العموم. ولم يجز العلماء التعريف إلا في كلمة واحدة وهي قول القائل: (رب الأرباب) لأن اللفظ جمع جميع الأرباب بمعنى مخلوقين والله تعالى هو خالقهم وربهم.

والإخلال بهذين الشـرطين يدخل في الشـرك، وهناك شـرط ثالث لم نذكره لأن الإخلال به لايدخل في الشرك، وهو اتفاق الاسم والمسمى بأن يكون المخلوق إما ملك كما قال تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِي ظَنَّ أَنَّهُ نَاجٍ مِنْهُمَا اذْكُرْنِي عِنْدَ رَبِّكَ فَأَنْسَاهُ الشَّيْطَانُ ذِكْرَ رَبِّهِ﴾ [يوسف:٤٢]

أو سـيد: كما في الحديث: (يوم تلد الأمة ربتها) وهكذا: (رب البيت) أي سيد البيت.

أو صـــاحب: كقول عبد المطلب: (أنا رب إبلي وللكعبة رب يحميها) وهكذا قولك: (رب الدار) أي صاحب الدار

مسألة (٢): في معرفة العبد لربه:

قال الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم" (١/١٨٩):

فمعرفة العبد لربه نوعان:

أحدهما المعرفة العامة: وهي معرفة الإقرار به والتصـــديق والإيمان وهو عامة للمؤمنين.

والثاني معرفة خاصـة: تقتضـي ميل القلب إلى الله بالكلية والانقطاع إليه والأنس به والطمأنينة بذكره والحياء منه والهيبة له، وهذه المعرفة الخاصـــة هي التي

يدور حولها العارفون كما قال بعضــهم: مســاكين أهل الدنيا خرجوا منها وما ذاقوا أطيب ما فيها!! قيل له: وما هو؟ قال: معرفة الله عز وجل اهـ

قال أبو العباس:

ومعرفة الرب تكون بمعرفة: أنه هو الخالق الخلاق العظيم، الرازق الرزاق الكريم، وهو وحده المدبر لكل شيء، والمتصرف بكل شيء، وأنه خالق كل شيء، والقادر على كل شــيء، والقاهر فوق كل شــيء، ولايؤوده شــيء، وأنه كل يوم في شأن ولايشغله شأن عن شأن.

قال أبو حامد الغزالي في "قواعد العقائد" (صـ/٥٦):

يعلم دَبِيب النملة السَّوْدَاء على الصَّخْرَة الصماء فِي اللَّيْلَة الظلماء وَيدْرك حَرَكَة الذَّر فِي جو الْهَوَاء وَيعلم السِّرّ وأخفى ويطلع على هواجس الضمائر وحركات الخواطر وخفيات الســرائر بِعلم قديم أزلي لم يزل مَوْصُــوفا بِهِ فِي أزل الآزال لَا بِعلم متجدد حَاصِل فِي ذَاته بالحلول والانتقال اهـ.

قال أبو العباس:

وخلاصة معرفة العبد لربه تكون بمعرفة عظمته وقوته وأنه لاحول لنا ولاقوة إلا به، وأن الرب هو الذي يستحق العبادة وحدة لاشريك له، فكما أنه ربنا وحده ولا رب سواه فهو معبودنا وحده ولا معبود بحق إلا إياه.

مسألة (٣): في تربية الرب لعباده:

وتربية الله لعبادة على نوعين:

النوع الأول: التربية العامة: (تربية البدن):

وهذه التربية يدخل فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر فكلهم مشـــتركون فيها، وهي داخلة في الرحمة العامة، ومن نماذجها: أنه خلقنا ورزقنا وشـــق سمعنا وأبصارنا، ويسر أقواتنا وأرزاقنا، وتسمى التربية بالنعم وتغذية الأبدان بها.

النوع الثاني: التربية الخاصة: (تربية الدين):

وهذه التربية لايدخل فيها إلا أهل الإيمان، فهم داخلون في التربية الأولى، ثم خصهم الله تعالى وزادهم هذه التربية الخاصة، وهي تربيتهم على التوحيد والعبادة والطاعة ومكارم الأخلاق وإكرامهم بالعلم النافع والتوفيق للعمل الصالح.

وقد تكلمنا في بداية الكتاب، عند قول المؤلف: (اعلم رحمك الله) عن تقسـيم الرحمة إلى رحمة ربوبية ورحمة ألوهية وهكذا العطاء، ونفس التقسـيم يدخل في التربية، فالتربية الخاصـة وإن كانت ترجع للربوبية إلا أن سـببها ألوهية، بسـبب توحيدهم وطاعتهم وحسن استقامتهم.

وقد قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١] وهذه الآية فيها تحقيق وتعليق، فالأمر بالعبادة يعني تحقيق الألوهية، وتعليق العبادة بالربوبية يعني أن الرب هو المستحق للعبادة، فدل أنه رب العامة ولكنه بالمعنى الشـرعي إله الخاصـة وإن كان بالمعنى الكوني إله العامة أيضًا.

بل كما أنه رب كل شيء فهو إله كل شيء أيضًا، ألم تر أنه مامن شيء إلا يسـبح بحمده، والتسـبيح يكون ألوهية، ولهذا عبر بعض السـلف بقولهم: (إله كل شيء)

ومن الأدلة التي تجمع الدلالة على القسمين معًا قوله تعالى: ﴿فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ ﴿٤٦﴾ قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٤٧﴾ رَبِّ مُوسَى وَهَارُونَ ﴿٤٨﴾﴾ [الشعراء:٤٦-٤٨] فقولهم: (برب العالمين) تربية عامة، وقولهم: (رب موسى وهارون) تربية خاصة.

وقوله: (فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ):

فيه لفتة طيبة ومهمة؛ وذلك أن تذكير الناس بالنعم فيه مدخل عظيم للدعوة إلى التوحيد؛ فإن المنعم على العباد هو الله تعالى وهو المستحق للعبادة، ونعم الخالق على الخلق على قسمين: نعم ربوبية يشترك فيها الجميع، ونعم ألوهية خصها الله تعالى لعباده المؤمنين.

قال العلامة ابن كثير في "التفسير" (٣٤٧/٦) عند قوله تعالى: ﴿وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾:

يقول تعالى منبها خلقه على نعمه عليهم في الدنيا والآخرة، بأنه سخر لهم ما في السماوات من نجوم يستضيئون بها في ليلهم ونهارهم، وما يخلق فيها من سحاب وأمطار وثلج وبرد، وجعله إياها لهم سقفا محفوظا، وما خلق لهم في الأرض من قرار وأنهار وأشجار وزروع وثمار. وأسبغ عليهم نعمه الظاهرة والباطنة من إرسال الرسل وإنزال الكتب، وإزاحة الشبَه والعلل، ثم مع هذا كله ما آمن الناس كلهم، بل منهم من يجادل في الله، أي: في توحيده وإرسال الرسل. ومجادلته في ذلك بغير علم، ولا مستند من حجة صحيحة، ولا كتاب مأثور صحيح؛ ولهذا قال

تعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلا هُدًى وَلا كِتَابٍ مُنِيرٍ﴾ أي: مبين مضيء اهـ.

النعمة لغةً:

قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٥/ ٤٤٦):

(نعم) النون والعين والميم فروعه كثيرة، وعندنا أنها على كثرتها راجعة إلى أصـــل واحد يدل على ترفُّه وطيب عيش وصـــلاح. منه النعمة: ما ينعم الله تعالى على عبده به من مال وعيش. يقال: لله تعالى عليه نعمة. والنعمة: المنة، وكذا النعماء. والنعمة: التنعم وطيب العيش. قال الله تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: ٢٧] اهـ

النعمة اصطلاحاً:

بما أن النعم تعد ولاتحصـــى فإن تعريفها بمعنى من معانيها فيه نقص، ولهذا كان التعريف اللغوي لها بطيب العيش هو ذاته التعريف الاصـــطلاحي؛ لأن طيب العيش فيه نوع استيعاب.

والنعم تتفاوت من فرد لفرد ومن قوم لقوم، فقد ينعم الله على البعض بالمال وعلى البعض بالقوة وعلى البعض بالذكاء وعلى البعض بالعلم وعلى البعض بالأمان وعلى البعض بالذرية وعلى البعض بالصبر وعلى البعض بالإيمان وغير ذلك مما لا يمكن حصرها، وقد ينعم على البعض بكل ما سبق أو بجلها، وجماع ذلك أن النعمة هي عطاء مخصوص من الخالق لمن شاء من خلقه، يدوم هذا العطاء بالشكر

ويزول بالكفر؛ كما قال تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ [الأنفال: ٥٣] وقال تعالى: ﴿وَنَعْمَةٍ كَانُوا فِيهَا فَاكِهِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [الدخان: ٢٧] أي لم يعودوا كما كانوا بسبب كفرهم لها.

وقال تعالى: ﴿نِعْمَةً مِنْ عِنْدِنَا كَذَلِكَ نَجْزِي مَنْ شَكَرَ﴾ [القمر: ٣٥]

فائدة في أقسام النعمة:

نعمة دنيوية ونعمة أخروية أما الدنيوية فهي خاصة وعامة، أما العامة فهي ما يشترك فيها الجميع من النعم كالمطر والثمر والعين والبصر ونحو ذلك، وأما الخاصة فهي نعمة الإيمان وما يلحق به، كقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾ [الضحى: ١١] وقال تعالى: ﴿وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي﴾ [المائدة:٣] ﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ﴾ [الفاتحة: ٧]

وأما الأخروية فهي الجنة ولهذا سماها الله تعالى بالنعيم المقيم فقال: ﴿وَجَنَّاتٍ لَهُمْ فِيهَا نَعِيمٌ مُقِيمٌ﴾ [التوبة: ٢١] وقال تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ [القلم: ٣٤] وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ﴾ [لقمان: ٨]

مسألة (٤): في معنى العالم والعوالم:

وقوله: (رب العالمين) تذكير للواحد بهذه العوالم العظيمة وأنه رب جميعها وربها بجميع الاعتبارات، فهو ربها أي خالقها، وهو ربها أي مالكها، وهو ربها الذي أصلح شؤونها، وهو ربها الذي يربيها بنعمة.

واختلف في تفسير "العالمين" على أقوال:

القول الأول: كل المخلوقات:

أي أن العالمين: جمع عالم، وهو كل موجود سـوى الله عز وجل، وهذا قاله قتادة. والعالم جمع لا واحد له من لفظه، والعوالم أصناف المخلوقات في السماوات والأرض في البر والبحر، في كل زمان ومكان.

قال ابن عباس: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ الحمد لله الذي له الخلق كله، السـماوات والأرضـون، ومن فيهن وما بينهن، مما نعلم، وما لا نعلم. وهذا ترجيح القرطبي وابن كثير وغيرهم.

القول الثاني: الجن والإنس:

وهذ أيضًـا جاء عن ابن عباس: رب الجن والإنس. وجاء عن سـعيد بن جبير، ومجاهد، وابن جريج، واحتج لهم القرطبي بقوله: ﴿لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١] أي للجن والإنس، وقال: ولم يكن نذيرًا للبهائم.

وهذا ليس مذهب القرطبي كما سيأتي.

القول الثالث: الجن والإنس والملائكة:

وقال الفراء وأبو عبيدة: العالم عبارة عما يعقل وهم الإنس والجن والملائكة والشياطين ولا يقال للبهائم: عالم.

القول الرابع: كل ذواتي الأرواح:

وعن زيد بن أسلم وأبي عمرو بن العلاء: كل ما له روح يرتزق. وهذا هو مذهب المؤلف بدلالة قوله: (الذي رباني وربى جميع العالمين بنعمة) وإن كان في نظري حتى التراب والشجر يتربى بنعمه.

القول الراجح:

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١/١٣٩):

والقول الأول أصح هذه الأقوال، لأنه شامل لكل مخلوق وموجود دليله قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ وَمَا رَبُّ الْعَالَمِينَ. قَالَ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ [الشعراء:٢٣]

ثم هو مأخوذ من العلم والعلامة؛ لأنه يدل على مُوجِدِهِ. كذا قال الزجاج قال: العالم كل ما خلقه الله في الدنيا والآخرة. وقال الخليل: العلم والعلامة والمعلم: ما دل على الشيء، فالعالم دال على أن له خالقًا ومدبرًا وهذا واضح.

وقد ذكر أن رجلًا قال بين يدي الجنيد: "الحمد لله" فقال له: أتمها كما قال الله قل: (رب العالمين) فقال الرجل: ومن العالمين حتى تذكر مع الحق؟ قال: قل يا أخي فإن المحدث إذا قرن مع القديم لا يبقى له أثر اهـ

قال العلامة البيضاوي في تفسيره "أنوار التنزيل وأسرار التأويل" (١/٢٨):

والعالم اسم لما يعلم به، كالخاتم والقالب، غلب فيما يعلم به الصانع تعالى، وهو كل ما سواه من الجواهر والأعراض، فإنها لإمكانها وافتقارها إلى مؤثر واجب لذاته تدل على وجوده، وإنما جمعه ليشمل ما تحته من الأجناس المختلفة، وغلب العقلاء منهم فجمعه بالياء والنون كسائر أوصافهم. وقيل: اسم وضع لذوي العلم

من الملائكة والثقلين، وتناوله لغيرهم على سبيل الاستتباع. وقيل: عني به الناس هاهنا فإن كل واحد منهم عالم من حيث إنه يشتمل على نظائر ما في العالم الكبير من الجواهر والأعراض يُعْلَمُ بها الصانع كما يعلم بما أبدعه في العالم الكبير اهـ

وقال العلامة الخازن في تفسيره "لباب التأويل في معاني التنزيل" (١/١٩):

والعالمين جمع عالم لا واحد له من لفظه، وهو اسم لكل موجود سوى الله تعالى فيدخل فيه جميع الخلق اهـ.

قال أبو العباس:

والراجح أن "العالمين" لفظ يدخل فيه سائر المخلوقات، وأن العوالم غير مخصوصة بمخلوق دون مخلوق؛ فكل المخلوقات تدخل في لفظ العالمين؛ لأنها علامة على خالقها، وقيل: (عالم) عامة. و (عالمين) خاصة. ولا دليل على ذلك، بل زيادة الياء والنون دلالة على الأوسع فعالم واحد وعالمين جمع عالم فدخل العالم في العالمين.

وهذا هو ترجيح المؤلف، ولهذا قال: "وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ". ومن أحسن ما قيل في ذلك قول ابن المعتز:

فواعجبًا كيف يعصى الإله
أم كيف يجحده الجاحد
وفي كل شيء له آية
تدل على أنه واحد

فالإنسان عالم، والجن عالم، والبقر عالم، والإبل عالم، والخيول عالم، والحمير عالم، والكلاب عالم.

والطيور جنس يدل على الكثير من العوالم، فالعصافير عالم، والغربان عالم، والصقور عالم، والنسور عالم، والهدهد عالم، والدجاج عالم، والبوم عالم، واللقالق عالم. الخ

وهكذا عالم الذر والنمل والذباب والنحل والدبابير والسرعوف وسائر الحشرات.

وهكذا عوالم الأشجار فكل صنف منها عالم، وعوالم الجبال فكل صنف منها عالم، كل هذه عوالم وأنا أو أنت مجرد واحد من أحد تلك العوالم الكثيرة التي نعلم بعضها ونجهل بعضها.

ومن أدلة ذلك وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

فجعل السماوات والأرض والعرش والليل والنهار والشمس والقمر والنجوم داخلة ضمن العالمين.

وهنا يتجلى لك مراد المؤلف من قوله:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: مَنْ رَبُّكَ؟ فَقُلْ: رَبِّيَ اللهُ الَّذِي رَبَّانِي، وَرَبَّى جَمِيعَ الْعَالَمِينَ بِنِعَمِهِ، وَهُوَ مَعْبُودِي لَيْسَ لِي مَعْبُودٌ سِـــوَاهُ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ وَكُلُّ مَنْ سِوَى اللهِ عَالَمٌ، وَأَنَا وَاحِدٌ مِنْ ذَلِكَ الْعَالَمِ.

فالمراد هو أن الرب هو المستحق للعبادة، فمن أراد عبادة غير الله فليثبت أنه خلقه وشق سمعه وبصره وخلق أرضه وسماه

قلت في التأمل:

تأمـل أيهـا المخلوق فيـك	وفي المخلوق أيضًـــا فلتأمل
فضاء مظلم في الكون يسري	وبالوهج المضـــيء به تجمل
أتعصـــي خالق الأشـــياء طُرًا	تأمل كي ترى ما كنت تجهل

قال المؤلف:

فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ:

وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ. وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا.

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثاً وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلاَ لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف:٥٤].

الشرح:

قال المؤلف: (بم عرفت ربك؟) ولم يقل: (بم علمت ربك) وقد ذكرنا في بداية الكتاب أن العلم يقوم مقام المعرفة، ولكننا لم نبين الفروق بينهما، فهما وإن كانا يقومان مقام بعضهما إلا أنهما يفترقان أيضًا. ولهذا صح القول: (بم عرفت ربك) ولم يصح القول: (بم علمت ربك).

ونحن دائمًا ما نتعرف على بعض المصطلحات بالبحث عن تعريفها اللغوي والاصطلاحي، والآن نجد أنفسنا بحاجة للبحث عن تعريف "المعرفة" نفسها، وليس بحثنا من باب توضيح الواضحات كما يقول البعض. ولهذا ستجد زيادة في العلم والمعرفة بعد معرفتك للتعريف.

تعريف المعرفة لغة:

العلم ضد الجهل. والمعرفة ضد النكرة. والمعروف ضد المنكر، فدل أن المعرفة تحمل معنًا زائدًا على العلم.

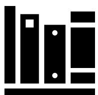
قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٤/٢٨١):

(عرف) العين والراء والفاء أصلان صحيحان، يدل أحدهما على تتابع الشيء متصلا بعضه ببعض، والآخر على السكون والطمأنينة

فالأول العرف: عرف الفرس. وسمي بذلك لتتابع الشعر عليه. ويقال: جاءت القطا عرفا عرفا، أي بعضها خلف بعض. ومن الباب: العرفة وجمعها عرف، وهي أرض منقادة مرتفعة بين سهلتين تنبت، كأنها عرف فرس. ومن الشعر في ذلك.

والأصل الآخر المعرفة والعرفان. تقول: عرف فلان فلانًا عرفانًا ومعرفة. وهذا أمر معروف. وهذا يدل على ما قلناه من سكونه إليه، لأن من أنكر شيئا توحش منه ونبا عنه اهـ

تعريفها اصطلاحاً:



ومن خلال التعريف اللغوي نعرف أن المعرفة هي إدراك الشيء مع الطمأنينة به والسكينة إليه.

قال الفيروز آباديّ في "بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز" (صـ/ ١١٠٨):

والمعرفة: إِدراك الشيء بتفكُّر وتدبّر لأَثره، وهو أَخَصّ من العلم، ويقال: فلان يعرف اللهَ، ولا يقال: يعلم الله متعدّيًا إِلى مفعول واحد، لمَّا كان معرفة البشر لله هي بتدبّر آثاره دون إِدراك ذاته اهـ

قلت: ويدل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَى الرَّسُولِ تَرَى أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾ [المائدة: ٨٣] وهذا التأثر دليل على أن المعرفة كانت بتفكر وتدبر.

قال تعالى: ﴿وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ﴾ [محمد: ٦] والجنة هي غاية أهل الإيمان وخواص الرحمن، والله تعالى هو الذي علم الإنسان مالم يعلم، ولكنه بخصوص الجنة علمهم خبرها في الدنيا حتى عرفوها، وعرفهم حقيقتها في الآخرة؛ فدل أن المعرفة هنا بمنزلة عين اليقين.

وقال الحافظ ابن كثير (٧/ ٣١٠):

أي: عرفهم بها وهداهم إليها. قال مجاهد: يهتدي أهلها إلى بيوتهم ومساكنهم، وحيث قسم الله لهم منها، لا يخطئون كأنهم ساكنوها منذ خلقوا، لا يستدلون عليها أحدا. وروى مالك عن ابن زيد بن أسلم نحو هذا. وقال محمد بن

كعب: يعرفون بيوتهم إذا دخلوا الجنة، كما تعرفون بيوتكم إذا انصـرفتم من الجمعة اهـ.

قلت: وهذا دليل على شـــدة الاهتداء وعدم دخول الظن في المعرفة فهي في مرحلة عليا من مراحل اليقين.

فصل في الفرق بين العلم والمعرفة

وقد ذكر الفيروز آبادي الفروق بين العلم والمعرفة فقال في الفرق الخامس من كتابه "بصائر ذوي التميز" (صـ/١١١١):

أَنَّ المعرفة علم بعين الشيء مفصَّلاً عمّا سواه، بخلاف العلم فإِنه قد يتعلَّق بالشيء مُجملاً، فلا يتصوّر أن يعرف الله البتَّة، ويستحيل هذا الباب بالكليّة؛ فإِن الله سبحانه لا يحاط به علمًا ولا معرفة ولا رؤية، فهو أَكبر من ذلك وأَعظم. قال تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ﴾.

والفرق بين العلم والمعرفة عند المحقِّقين أَنَّ المعرفة عندهم هي العلم الذي يقوم العالِم بموجَبه ومقتضاه، فلا يطلقون المعرفة على مدلول العلم وحده، بل لا يصفون بالمعرفة إِلاَّ من كان عالِمًا بالله وبالطَّريق الموصِّل إِليه وبآفاتها وقواطعها وله حال مع الله يشهد له بالمعرفة. فالعارف عندهم مَن عرف الله سبحانه بأَسمائه وصفاته وأَفعاله، ثمّ صَدَق الله في معاملاته، ثمّ أَخلص له في قصوده ونيَّاتِه، ثمّ انسلخ من أَخلاقه الرّديئة وآفاته، ثمّ تطهَّر من أَوساخه وأَدرانه ومخالفاته، ثم صبر على أَحكامه في نِعمه وبليّاته، ثمّ دعا إِلى الله على بصيرة بدينة وإِيمانه، ثم جرّد الدّعوة إِليه وحده بما جاءَ به رسوله صلَّى الله عليه وسلَّم ولم يَشُبْهَا بآراءِ الرِّجال وأَذواقهم ومواجيدهم ومقاييسهم ومعقولاتهم، ولم يزِنْ بها ما جاءَ به الرّسول صلَّى

الله عليه وسلَّم، فهذا الذي يستحقُّ اسم العارف على الحقيقة، وإِذا سمّى به غيره فعلى الدّعوى والاستعارة اهـ.

قال العلامة الخطابي في "بيان إعجاز القرآن" (صـ/٣٠):

في الكلام ألفاظًا متقاربة في المعاني يحسب أكثر الناس أنها متساوية في إفادة بيان مراد الخطاب؛ كالعلم والمعرفة، والحمد والشكر، والبخل والشح، وكالنعت والصفة، وكقولك: اقعد واجلس، وبَلَى ونعم، وذلك وذاك، ومن وعن، ونحوهما من الأسماء والأفعال والحروف والصفات مما سنذكر تفصيله فيما بعد.

والأمر فيها وفي ترتيبها عند علماء أهل اللغة بخلاف ذلك، لأن كل لفظة منها خاصية تتميز بها عن صاحبتها في بعض معانيها وإن كانا قد يشتركان في بعضها. تقول: عرفت. يقتضي مفعولاً واحدًا كقولك: عرفت زيدًا، وعلمت يقتضي مفعولين، كقولك: علمت زيدًا عاقلًا.

ولذلك صارت المعرفة تستعمل خصوصًا في توحيد الله تعالى وإثبات ذاته، فتقول عرفت الله، ولا تقول علمت الله، إلا أن تضيف إليه صفة من الصفات فتقول: علمت الله عدلاً، وعلمته قادرًا، ونحو ذلك من الصفات. وحقيقة البيان أن العلم ضده الجهل، والمعرفة ضدها النكرة اهـ

قال أبو العباس:

تختلف المعرفة والنكارة من سياق لآخر:

❁ ففي قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكِرُونَ﴾ [يوسف: ٥٨] وهي بمعنى فذكرهم لسابق علمه بهم، وأما هم فهم له منكرون مع سابق علمهم به فهي بمعنى جهلهم به أو نسيانهم له.

❁ ومثلها قوله تعالى عن نبيه الخليل ﷺ: ﴿قَالَ سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١] وقوله تعالى عن نبيه لوط ﷺ: ﴿قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الحجر: ٦٢] منكرون غير معروفين أي مجهول عين.

❁ ومثلها قوله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [آل عمران: ١١٠] ولا يمكن حصر المعنى أنه الأمر بالعلم والنهي عن الجهل، فالمعروف هو سائر الآداب والطاعات والمنكر هو سائر المعاصي والسيئات، والوقوع في المنكر قد يقع فيه البعض بعلم وقد يقع فيه البعض بجهل، ولهذا قال النبي ﷺ كما في صحيح مسلم من حديث أبي سعيد الخدري: (من رأى منكم منكرا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان) ولم يقل أحد: أن المعنى (من رأى منكم جهلًا فليغيره) لاسيما وأن الأمم التي أنزل الله تعالى عليها العقوبات كانوا يعلمون الحق من أنبيائهم، ولهذا قد يمارس العبد المنكر وهو عالم غير جاهل، وقد يتحلى بالطاعات والآداب ومكارم الأخلاق من هو جاهل، إما بداعي الفطرة أو بداعي العادة، ولهذا قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ﴾ [الأعراف: ١٥٧]

أي يأمرهم بالمعروف وهو الخير كله وينهاهم عن المنكر وهو الشـــر كله، والأصل في الخير والشر هو العلم عند الجميع، ولهذا قيل في تفسيرها: المعروف هو ما عرف في سائر الشرائع والمنكر هو ما أنكر في سائر الشرائع.

قال الإمام البقاعي في "نظم الدرر" (٣/ ١٢٩):

ولما دل سبحانه نبيه ﷺ بأوصـاوفه في نفسه وفي الكتب الإلهية، دل عليه بشـــريعته فقال: (يأمرهم بالمعروف) أي بكل ما يعرفونه من التوراة والإنجيل وما يعرفونه فيهما أنه ينســـخ شـــرعهم ويأتي من عند الله بهذا المذكور (وينهاهم عن المنكر) أي عن كل ما ينكرونه فيهما، فثبت بذلك رســـالته، فأنه لكونه أميًا لا يعرف المعروف والمنكر فيهما إلا وهو صادق عن علام الغيوب اهـ

وقال العلامة السعدي (صـ/٣٠١):

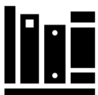
(يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ) وهو كل ما عرف حســـنه وصـــلاحه ونفعه. (وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ) وهو كل ما عرف قبحه في العقول والفطر اهـ.

قال شيخ الإسلام كما في "الفتاوى" (١٥/٣٤٨):

فاســـم (المنكر) يعم كل ما كرهه الله ونهي عنه وهو المبغض، واســـم (المعروف) يعم كل ما يحبه الله ويرضـاه ويأمر به، فحيث أفردا بالذكر فإنهما يعمان كل محبوب في الدين ومكروه اهـ

قال شيخ الإسلام كما في "الفتاوى" (١٧/١٧٨):

فأخبر أنه يأمر بما هو معروف وينهى عما هو منكر، ويحل ما هو طيب ويحرم ما هو خبيث. ولو كان المعروف لا معنى له إلا المأمور به، والمنكر لا معنى له



إلا ما حرم، لكان هذا كقول القائل: يأمرهم بما يأمرهم وينهاهم عما ينهاهم، ويحل لهم ما أحل لهم ويحرم عليهم ما حرم عليهم. وهذا كلام لا فائدة فيه، فضلًا عن أن يكون فيه تفضيل له على غيره. ومعلوم أن كل من أمر بأمر يوصف بذلك وكل نبي بعث فهذه حاله اهـ

قال أبو العباس:

والخلاصة أن المعروف هو المدرك والمنكر هو المجهول، والمعروف هو المطمئن والمنكر هو المخيف، وفي هذا قال الخليل: ﴿سَلَامٌ قَوْمٌ مُنْكَرُونَ﴾ [الذاريات:٢٥]

قال العلامة الماوردي في "النكت والعيون" (٥/٣٧٠):

وفيه وجهان: أحدهما: أي قوم لا يُعرفون. الثاني: أي قوم يُخافون، يقال أنكرته إذا خفته، قال الشاعر:

فأنكرتني وما كان الذي نكرت ... من الحوادث إلا الشيب والصلعا

فصل في الفرق بين الآيات والمخلوقات

قال المؤلف: فَإِذَا قِيلَ لَكَ: بِمَ عَرَفْتَ رَبَّكَ؟ فَقُلْ: بِآيَاتِهِ وَمَخْلُوقَاتِهِ: وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ. وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ وَمَنْ فِيهِنَّ، وَمَا بَيْنَهُمَا اهـ.

وهذا يسبب إشكالًا عند البعض؛ فإن الآيات التي ذكرها مخلوقات والمخلوقات التي ذكرها آيات، وإنما يزول هذا الإشكال بمعرفة الفرق بين الآيات والمخلوقات:

- أولًا: المخلوقات: وهي كل الكائنات العلوية والسفلية، الحيوانية والجمادية، فكل ما سوى الخالق مخلوق.
- ثانيًا: الآيات: وهي على قسمين:

القسم الأول: الآيات الكونية: وهي كل المخلوقات التي سبق ذكرها، والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ [الروم: ٢١] فالآيات هنا من المخلوقات.

القسم الثاني: الآيات الشرعية: وهي كلام الله تعالى، وكلامه تعالى غير مخلوق، ومنه المتلو وهو المنزل على سائر الأنبياء كصحف إبراهيم وموسى، والزبور المنزل على داود وآخره القرآن الكريم المنزل على نبينا ﷺ، ومنه غير المتلو وهو

كلام الله تعالى في الملأ الأعلى ومنه قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ [لقمان: ٢٧].

وهذا التفصيل حتى الآن يثبت أن كل المخلوقات آيات وليست كل الآيات مخلوقات، وسبق في تعريف "العالمين" أن العالم مأخوذ من العلامة؛ لأن سائر المخلوقات علامات على الخالق، وهكذا الآيات الكونية فهي بمعنى العلامات والدلائل والبينات على خالقها.

ومع ذلك فتفريق المؤلف بقوله: (وَمِنْ آيَاتِهِ: اللَّيْلُ، وَالنَّهَارُ، وَالشَّمْسُ، وَالْقَمَرُ. وَمِنْ مَخْلُوقَاتِهِ: السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرَضُونَ السَّبْعُ). مع أن الليل والنهار والشمس والقمر والسموات السبع والأرضون السبع كلها آيات كونية وكلها مخلوقة، هذا التفريق من المؤلف يرى بعض العلماء أنه لم يأت عن فراغ؛ فالآيات الكونية على قسمين:

الأول: الثابتة: كالسماوات والأرض، ولهذا ذكرها المؤلف في المخلوقات مع أنها آيات أيضًا؛ لأنها آيات كونية ثابتة.

الثاني: المتحركة: كالليل والنهار والشمس والقمر، وهذه ذكرها المؤلف في الآيات مع أنها مخلوقات أيضًا؛ لأن تقلب أحوال الليل والنهار والشمس والقمر فيه آية متجددة في كل يوم لتعريف الناس بخالقهم.

فهذا النوع من الآيات فيه تذكير للناس بعظمة الخالق الذي خلق هذه الأجرام العظيمة وموعظة لهم بترك عبادة المخلوقات مهما عظمة فإن عظمتها إنما هي محل دليل على عظمة خالقها لا على عبادتها.

وهذا استدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿وَمِنْ آيَاتِهِ اللَّيْلُ وَالنَّهَارُ وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ لاَ تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلاَ لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت:٣٧]

والذي يظهر لي أن الآيات الكونية الثابتة ثابتة باعتبار لا بكل اعتبار، لأن أحوالها متقلبة أيضًا:

فالسماء لها لون في الفجر ولها لون في الظهيرة ولها لون عند الغروب ثم في الليل تمتلئ بزينة الكواكب. ومن تقلباتها أن الناظر إليها تارة يبتهج لجمالها وينبهر من عظمتها وتارة يفر خوفًا من تحولها لظلمة في وسط النهار وعتمة بالغيوم السوداء تغشى بسببها الأبصار.

والأرض تتقلب أربع مرات في السنة، بتقلب الفصول الأربعة: فتراها حارة جافة في فصل الصيف، وباردة جافة في فصل الخريف، وباردة رطبة في فصل الشتاء، ومعتدلة الحرارة والرطوبة في فصل الربيع، ومابين الفصل والفصل توالج كتوالج الليل في النهار والنهار في الليل، وهذا من أعظم معجزات الخالق وهو من لطفه ورحمته بهم كي لاتتغير عليه الأجواء بشكل كلي فيتسبب لهم ذلك بالأمراض القوية.

فانظر بارك الله فيك في الصيف فهو حار جاف والشتاء بارد رطب!! فإذا جاء الشتاء بعد الصيف فقد حصل للأرض والإنسان انتقالان: من الحر للبرد ومن الجفاف للرطوبة وهذا منذر بأمراض قاتلة، ولكن الله تعالى جعل بين الصيف والشتاء فصل الخريف وهو فصل متدرج بين الفصلين ففيه جفاف يتفق مع الصيف المدبر وهو أقل من جفافه، وفيه برودة تتفق مع برودة الشتاء المقبل وهي أقل من برودته!!

فكان الانتقال من شديد لخفيف وهو الجفاف ومن خفيف لشديد وهو البرودة، وهذا هو السر في نجاة الخلق من خطر الانتقال من شدة الحر لشدة البرد ومن شدة الجفاف لشدة الرطوبة.

وكما هو حال الخريف كبينونة بين الصيف والشتاء، كذلك هو حال الربيع كبينونة بين الشتاء والصيف.

وبالتالي يحصل الانتقال بالتدرج؛ ففي الخريف نعيش الجفاف الذي عشناه في الصيف بشكل أخف من الصيف، ونعيش البرد الذي سنعيشه في الشتاء بشكل أشد من الخريف.

وهكذا في الربيع الذي يأتي بعد الشتاء نعيش فيه الرطوبة التي عشناها في الشتاء المدبر بشكل أخف، ونعيش الحر الذي سنعيشه في الصيف المقبل بشكل أخف

وأعجب من ذلك أن كل هذه التقلبات الأربعة ليست في كل مكان وزمان، بل تختلف باختلاف الجهات الأربعة: الشرق والغرب والشمال والجنوب،

ومابين الجهة والجهة جهة هي البقعة البينية بين الجهتين تحمل وصــفًا من الجهة عن يمينها ووصــفًا من الجهة عن شمالها، وبهذا لاتكون الفصــول الأربعة متأتية في كل العالم، بل هناك صيف وهناك خريف وهناك شتاء وهناك ربيع في نفس الزمان، وفي نفس ذلك الوقت يكون في أماكن في أوله وفي أماكن في آخره.

ناهيك عن ألوانها وخيراتها الرباعية فتارة خضــراء بالنبات ثم تهيج فتصــير صفراء ثم تتساقط فتصير الأشجار جرداء والأرض قحلاء، ففي كل فصل لها اسم ورسم في حياة أهلها.

وأحوال هذه الألوان من أحوال فصــولها؛ فإن العالم لايقحل كله في وقت واحد، بل البلدة التي فارقت موســم أمطارها وانتهت من موســم زراعتها وأكملت موســم حصــاد خيراتها، يكون كل ذلك لتوه بدأ في مكان آخر، وهكذا كما جعل الناس بعضــهم لبعضــهم ســخريا، كذلك جعل أرض قوم لأرض قوم آخرين. فهذه تزرع وتبيع لأرض كذا ثم تلك تزرع وهذه تشتري منها، فيدوم الخير وتستمر معايش البشر بقدر موزون.

فيا من تتوق وتروم التعرف على آيات الله الكونية في كل يوم ويوم فعليك بسورة الروم ففيها الآيات الباهرات والدلائل الســاطعات وفيها العلم المعلوم، فمن تخلف عنها فهو الملوم وهو الجاهل المحروم.

قال تعالى: ﴿يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴿١٩﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ إِذَا أَنْتُمْ بَشَــرٌ

تَنْتَشِــرُونَ ﴿٢٠﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِــكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْــكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافُ أَلْسِــنَتِكُمْ وَأَلْوَانِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْعَالِمِينَ ﴿٢٢﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْــلِهِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَسْــمَعُونَ ﴿٢٣﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّــمَاءِ مَاءً فَيُحْيِي بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٢٤﴾ وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالْأَرْضُ بِأَمْرِهِ ثُمَّ إِذَا دَعَاكُمْ دَعْوَةً مِنَ الْأَرْضِ إِذَا أَنْتُمْ تَخْرُجُونَ ﴿٢٥﴾ وَلَهُ مَنْ فِي السَّــمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلٌّ لَهُ قَانِتُونَ ﴿٢٦﴾ وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ وَلَهُ الْمَثَلُ الْأَعْلَى فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾ [الروم: ١٩-٢٤]

فصل في خلق السماوات والأرض في ستة أيام

استدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤].

وهذه الآية تتضمن الكثير من العلم والفقه، وقد ضل فيها الكثير من الناس وانحرفوا عن الحق المبين، ولهذا سنتناول الحديث عنها عبر بعض المسائل المهمة:

المسألة الأولى: متى كانت هذه الأيام الستة:

بيننا وبين هذه الأيام الستة زمن لا يعلمه إلا الله تعالى، فنحن لا نملك من علم ذلك إلا أنها كانت في الأزل البعيد، ولكنها ليست هي بداية كل المخلوقات فهناك مخلوقات خلقت قبل ذلك.

قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٣/٤٢٦):

يخبر تعالى بأنه خلق هذا العالم: سماواته وأرضه، وما بين ذلك في ستة أيام، كما أخبر بذلك في غير ما آية من القرآن، والستة الأيام هي: الأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، وفيه اجتمع الخلق كله، وفيه خلق آدم، عليه السلام اهـ

قلت: القول بخلق آدم في ذلك الحين يشـــكل عليه أن آدم عندما خلق كانت الملائكة قد وجدت قبله والأرض قد عمرت بغيره، فدل أن الجمعة التي خلق فيها آدم ليست هي الجمعة التي ضمن الأيام الستة.

المسألة الثانية: هل هناك مخلوقات قبل ذلك:

الجواب: ظاهر الأدلة أن العرش والماء كانا قد خلقا قبل خلق الســـماوات والأرض، كقوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِـــتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُـــهُ عَلَى الْمَاءِ﴾ [هود:٧] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ [الأعراف:٥٤]

فقوله: (وكان عرشــه على الماء) وقوله: (ثم اســتوى على العرش) يفهم من ذلك أن العرش كان موجودًا وكان على الماء وأنه استوى عليه بعد خلق السماوات والأرض في ســتة أيام، فإن صــح هذا الاســتدلال فلانعلم كم كان بين خلقهما وبين الأيام الستة.

فـإن قيـل: هـذه دلالـة محتملـة لأن البحر والعرش يـدخلان في خلق الســـماوات، فجوابه أنه جاء عند الإمام مســـلم عن عبد الله بن عمرو بن العاص قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (كتب الله مقادير الخلائق قبل أن يخلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة) قال: (وعرشه على الماء).

وهنا دلالتان:

الأولى: مأخوذة من هذه الأحاديث فهي تدل على وجود العرش والماء واللوح المحفوظ قبل خلق السماوات الأرض بخمسين ألف سنة. بل وثبت أن الكتابة كانت بالقلم فدل أنه أيضًا خلق قبل ذلك.

روى أحمد أبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب. قال رب وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)

مع التنبيه أن الخلاف قائم في وجود مخلوقات غير ذلك، بل قد قيل: إن الملائكة عليهم السلام كانت موجودة قبل خلق السماوات والأرض والله أعلم بصحة هذا القول.

الثانية: مأخوذة من اسم الله الخالق، فصفة الخلق أزلية ومن زعم أنه خالق من غير خلق فقد أعظم على الله الفرية، ومن زعم أن أول خلق له هي السماوات والأرض وما بينهما فقد أتى بفرية أعظم، وذلك أن خالق منذ كان وهو الأول وهو الآخر فمخلوقاته قديمة بقدم صفاته الفعلية سبحانه.

فهناك مخلوقات لانعلمها خلقت قبل خلق السماوات والأرض بأزمنة قديمة جدًا لايعلمها إلا الله

المسألة الثالثة: **هل الأيام الستة كأيام الدنيا؟**

اختلف العلماء في هذه المسألة على قولين:

القول الأول: أنها ستة أيام بأيامنا واستدلوا على ذلك بثلاثة أمور:

١- بأن الخطاب موجه لنا والله يخاطبنا بما نعرف ونحن لانعرف إلا أن اليوم هو المتضمن على طرفي الليل والنهار.

٢- أنه لم يكن اليوم حينها لأنه لم يكن حينها شمس

٣- بأنه قد ثبت جاء عند الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: أخذ رسول الله ﷺ بيدي فقال: خلق الله عز وجل التربة يوم السبت، وخلق فيها الجبال يوم الأحد، وخلق الشجر يوم الاثنين، وخلق المكروه يوم الثلاثاء، وخلق النور يوم الأربعاء، وبث فيها الدواب يوم الخميس، وخلق آدم عليه السلام بعد العصر من يوم الجمعة في آخر الخلق في آخر ساعة من ساعات الجمعة فيما بين العصر إلى الليل.

القول الثاني: أنها ستة آلاف سنة باعتبار أيامنا ولكنها ستة أيام باعتبار أيام الكون الخارجي عن عالمنا؛ واستدلوا على ذلك بقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧] وقوله تعالى: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ ثُمَّ يَعْرُجُ إِلَيْهِ فِي يَوْمٍ كَانَ مِقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [السجدة:٥]

ورد أصحاب هذا القول على الفريق الأول، فقالوا:

- قولهم: إننا لا نعرف من الخطاب إلا يومنا قول مردود لأننا نعرف من الخطاب ما عرَّفنا الله تعالى به والله عرَّفنا باليوم واليوم الآخر.

- قولهم: لم يكن يوم في ذلك الحين مردود بقوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾ [التوبة:٣٦] فسمى ذلك اليوم يومًا.
- قولهم: بما رواه مسلم أنه غلط وأنه من كلام كعب الأحبار وليس من كلام النبي ﷺ أي أن أبا هريرة يرويه عن كعب الأحبار وبالغلط نقل عنه عن النبي ﷺ ولهذا أنكر الحديث الإمام البخاري ويحيى بن معين وغيرهم وهكذا شيخ الإسلام وتلميذه ابن القيم. كما أن هذا الحديث يتعارض مع الآية فالآيات أثبتت خلق السماوات والأرض في ستة أيام وهذا الحديث أثبت أن الخلق في سبعة أيام، وقد وقفت على توجيه للعلامة الألباني لهذا الحديث لكني لم أقف على مصدره فأعرضت عن تصديره.

قال الإمام البخاري في "التاريخ الكبير" (١/٤١٤): وقال بعضهم عن أبي هريرة عن كعب وهو أصح اهـ.

وقال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (١/٢١٥):

وهذا الحديث من غرائب صحيح مسلم، وقد تكلم عليه علي بن المديني والبخاري وغير واحد من الحفاظ، وجعلوه من كلام كعب، وأن أبا هريرة إنما سمعه من كلام كعب الأحبار، وإنما اشتبه على بعض الرواة فجعلوه مرفوعًا، وقد حرر ذلك البيهقي اهـ

وقد حاول العلامة المعلمي اليماني في كتابه "الأنوار الكاشفة" (صـ/١٩٨) الدفاع عن هذا الحديث ببعض التوجيهات وأجاب على ما قيل فيه من الإشكالات، والظاهر أنها لا تصل لتقبلها لأسباب:

الأول: أن الحديث أعله الكبار في الشأن كالبخاري وابن معين والبيهقي، وهكذا شيخ الإسلام وابن القيم والحافظ ابن كثير.

الثاني: أن الحديث جعل أيام الخلق سبعة والقرآن جعلها ستة، ولايمكن التوفيق بين المتعارضين لاسيما والقرآن حق لاشك فيه وهذا الحديث قد أعل وضعف وإنما يوجه الصحيح.

الثالث: أن الحديث جعل أول أيام الكون هو السبت والمتقرر أنه الأحد وبه جاءت الكثير من الآثار عن السلف وهو المتفق مع الواقع فالأحد هو اليوم الأول والاثنين هو اليوم الثاني، ولايكون السبت، إلا اليوم السابع وهو الأخير والله تعالى إنما خلق السماوات والأرض في ستة أيام.

الرابع: أن الحديث جعل خلق الأرض وحدها في ستة أيام وهذا مخالف للنصوص القرآنية، وما قيل في ذلك من التوجيه فإنه يزيد الإشكال، فإن البعض إن بلغهم صحة الحديث لم يبلغهم إدراك صحة معناه بل لم يفهموا منه إلا أنه مخالف للقرآن العظيم.

الخامس: أن الحديث لم يذكر السماء وهذا ظاهر البطلان، وتوجيه العلامة المعلمي أن النور هو السماء يتعارض مع قوله في الحديث: (وبث فيها الدواب يوم

الخميس) فقوله: (فيها) عائد إلى الأرض ومعلوم أن الأرض ومافيها فرغ من كل ذلك قبل يوم الخميس بانقضاء الأربعة الأيام.

السـادس: أن الحديث ذكر أن خلق آدم كان يوم الجمعة، وفي الحديث دلالة على الترتيب أي أنه بعد أن خلق وبث الدواب في الأرض يوم الخميس، خلق آدم عليه السلام في اليوم الذي بعده وهو الجمعة، وهذا يتعارض من أمرين:

الأمر الأول: أن يوم الجمعة هو اليوم الثاني من يومي خلق السـماوات السـبع؛ فيقال: إن كان يوم الجمعة خص لخلق آدم فقط فإن السـماوات السـبع خلقت في يوم واحد وهو يوم الخميس وهذا يتعارض مع القرآن.

الأمر الثاني: أن ظاهر النصـوص تدل أن آدم لم يخلق في ذلك الحين وأن خلقه كان في زمن متأخر وقد كانت الأرض معمورة ومسـبوقة بالسـكان. فدل أنه خلق في يوم جمعة آخر لا علاقة له في الأيام الستة.

قال العلامة ابن كثير في "التفسير" (٣/٤٢٦):

واختلفوا في هذه الأيام: هل كل يوم منها كهذه الأيام كما هو المتبادر إلى الأذهان؟ أو كل يوم كألف سـنة، كما نص على ذلك مجاهد، والإمام أحمد بن حنبل، ويروى ذلك من رواية الضـحاك عن ابن عباس؟ فأما يوم السـبت فلم يقع فيه خلق؛ لأنه اليوم السابع، ومنه سمي السبت، وهو القطع اهـ.

قلت: فدل أن الخلاف قائم وسـواء كان الراجح ذاك أو ذاك فإن يقيننا لايعتريه مثقال ذرة من شك أن الله تعالى قادر على خلق السماوات والأرض ومثلها

معها وما لا يحصـــى من أمثال ذلك في لحظة واحدة ولكنه الفعال لما يريد وأفعاله لاتكون إلا لحكمة بالغة.

المسألة الرابعة: **ترتيب المخلوقات في ستة أيام**:

الحق أن الأرض خلقت قبل السـماء والدليل على ذلك قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾

قال العلامة ابن كثير في "التفسير" (١/٢١٥):

وهذه الآية دالة على أن الأرض خلقت قبل السـماء، كما قال في آية السـجدة: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ * وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ * ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ فَقَالَ لَهَا وَلِلأَرْضِ ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ * فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ [فصلت: ٩-١٢] فهذه وهذه دالتان على أن الأرض خلقت قبل السماء، وهذا ما لا أعلم فيه نزاعًا بين العلماء إلا ما نقله ابن جرير عن قتادة: أنه زعم أن السـماء خلقت قبل الأرض، وقد توقف في ذلك القرطبي في تفسـيره لقوله تعالى: ﴿أَأَنْتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ السَّمَاءُ بَنَاهَا * رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّاهَا * وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَاهَا * وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا﴾ [النازعات: ٢٧-٣١]

قالوا: فذكر خلق السـماء قبل الأرض. وفي صـحيح البخاري: أن ابن عباس سئل عن هذا بعينه، فأجاب بأن الأرض خلقت قبل السماء وأن الأرض إنما دحيت بعد خلق السـماء، وكذلك أجاب غير واحد من علماء التفسـير قديمًا وحديثًا، وقد قررنا ذلك في تفسير سورة النازعات، وحاصل ذلك أن الدحي مفسر بقوله: ﴿وَالأَرْضَ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاهَا * أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءَهَا وَمَرْعَاهَا * وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا﴾ [النازعات: ٣٠-٣٢] ففسـر الدحي بإخراج ما كان مودعًا فيها بالقوة إلى الفعل لما اكتملت صورة المخلوقات الأرضية ثم السماوية دحى بعد ذلك الأرض، فأخرجت ما كان مودعًا فيها من المياه، فنبتت النباتات على اختلاف أصـنافها وصـفاتها وألوانها وأشـكالها، وكذلك جرت هذه الأفلاك فدارت بما فيها من الكواكب الثوابت والسيارة، والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

المسألة الخامسة: في الرد على من جعلها ثمانية أيام:

اسـتدل بعضـهم أن الأيام ثمانية بقوله تعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ [فصلت: ١٠] ولا شـك أن هذا الاسـتدلال لا يتوافق مع الدليل؛ فالدليل أخبر عن أربعة أيام باعتبار مجموعها مع اليومين لا باعتبار اسـتقلالها عن اليومين، فالمراحل كالتالي:

الأولى: يومان لخلق الأرض: كما قال تعالى: ﴿۞ قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُ أَنْدَادًا ذَلِكَ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [فصلت: ٩] فهذه يومان

الثانية: يومان مع اليومين الأولين فكانت أربعة أيام لخلق الأرض مع جبالها وتسخير وتقدير أقواتها كما قال تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ مِنْ فَوْقِهَا وَبَارَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَا أَقْوَاتَهَا فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَاءً لِلسَّائِلِينَ﴾ [فصلت:١٠]

وفي هذه الآية التفصيل لكل شيء متعلق بها

١- فالرواسي: هي الجبال فوق الأرض المثبتة لها كي لا تميد بالمخلوقات التي على متنها؛ فالأرض كالسفينة في بحر من الهواء والفراغ.

٢- والبركة: هي الخصوبة المتكونة من عنصري الماء والتراب. فخلق البحار والأنهار وشق التراب وحرك الغبار وأنتج عن ذلك خروج الأشجار وأنواع الثمار.

٣- والتقدير: جعل لكل أرض نصيبها ولكل مخلوق نصيبه، فكان النصيب منه المشترك ومنه غير المشترك، فالأوادم والبهائم والسباع لكل منهم رزق معلوم.

قال الإمام البغوي في "معالم التنزيل" (٧/ ١٦٥):

﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ يريد خلق ما في الأرض، وقدر الأقوات في يومين يوم الثلاثاء والأربعاء فهما مع الأحد والاثنين أربعة أيام، رد الآخر على الأول في الذكر، كما تقول: تزوجت أمس امرأة واليوم ثنتين، وإحداهما هي التي تزوجتها بالأمس اهـ

وقال العلامة الشنقيطي في "أضواء البيان" (٧/ ١٢٥):

الظاهر أن معنى قوله هنا: (في أربعة أيام) أي في تتمة أربعة أيام وتتمة الأربعة حاصلة بيومين فقط؛ لأنه تعالى قال: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾ ثم قال: (في أربعة أيام) أي في تتمة أربعة أيام، ثم قال: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، فتضم اليومين إلى الأربعة السابقة، فيكون مجموع الأيام التي خلق فيها السماوات والأرض وما بينهما، ستة أيام.

وهذا التفسير الذي ذكرنا في الآية لا يصح غيره بحال؛ لأن الله تعالى صرح في آيات متعددة من كتابه بأنه خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كقوله في الفرقان: ﴿الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ الرَّحْمَنُ فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا﴾، وقوله تعالى في السجدة: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ مَا لَكُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا شَفِيعٍ﴾ الآية، وقوله تعالى في ق: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ﴾، وقوله تعالى في الأعراف: ﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ﴾ الآية. إلى غير ذلك من الآيات.

فلو لم يفسر قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ بأن معناه: في تتمة أربعة أيام، لكان المعنى أنه تعالى خلق السماوات والأرض وما بينهما في ثمانية أيام؛ لأن قوله تعالى: ﴿فِي أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ﴾ إذا فسر بأنها أربعة كاملة، ثم جمعت مع اليومين الذين خلقت فيهما الأرض المذكورين في قوله: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِالَّذِي خَلَقَ الْأَرْضَ فِي يَوْمَيْنِ﴾، واليومين الذين خلقت فيهما السماوات المذكورين في قوله تعالى:

﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ﴾، لكان المجموع ثمانية أيام. وذلك لم يقل به أحد من المسلمين.

والنصوص القرآنية مصرحة بأنها ستة أيام، فعلم بذلك صحة التفسير الذي ذكرنا، وصحة دلالة الآيات القرآنية عليه اهـ.

المسألة السادسة: لماذا خلق الله السماوات والأرض في ستة أيام؟

يحتمل ثلاثة أمور:

الأول: قيل: لتعليم العباد الصبر والأناة!! ولاشك أن هذا القول ضعيف فالعباد إن أريد بهم الجن والإنس فخلق السموات والأرض كان قبل خلقهم بزمن بعيد. وإن أريد بهم عباد قبلهم طولبوا بالدليل على هذا التعليل.

الثاني: قيل: لتعليم الملائكة وهذا أيضًا لا دليل عليه.

الثالث: لحكمة لانعلمها وهذا القول أسلم وأحكم؛ فنحن نؤمن أن الخالق العظيم قادر على خلق كل شيء في لحظة واحدة ولكنه المتصف بالعلم والقدرة والحكمة ولهذا يقدر الأعداد لحكمة بالغة تفوق عقولنا ومداركنا، ولهذا خلق الله تعالى آدم وأبنائه ويخلقهم حتى آخر واحد منهم في مدة كان مقدارها آلاف السنين وهم كلاشيء أمام الأشياء التي خلقها في الكون الواسع في ستة أيام، فدل أن له الحكمة البالغة، فكيف يخلق السماوات السبع والأرضين السبع في ستة أيام ويخلق الإنسان وهم أهون عليه في آلاف السنين؟

فدل كما أنه خلق البشر في آلاف السنين لحكمة أنه خلق السماوات والأرض في ستة أيام لحكمة!! وقد علمنا أن الله تعالى خلق البشر كلهم في لحظة

واحدة في عالم الذر وإنما أعاد خروجهم من جديد بطريقة السلالة في آلاف السنين أن ذلك راجع لحكمة. فدل ذلك أنه قادر على خلق السماوات والأرض في لحظة واحدة بقوله: (كن) ولكنه خلقهما في ستة أيام لحكمة عظيمة.

قال المؤلف:

وَالرَّبُّ هُوَ الْمَعْبُودُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

قَالَ ابْنُ كَثِيرٍ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: الخَالِقُ لِهَذِهِ الأَشْيَاءَ هُوَ الْمُسْتَحِقُّ لِلْعِبَادَةِ اهـ.

الشرح:

قوله: "والرب هو المعبود" يعني من حيث اللزوم أي أن الرب هو الذي يجب أن يعبد، وهو الذي يستحق العبادة. وهذا هو مراد المؤلف واحتجاجه بكلام ابن كثير يدل على هذا المعنى، إلا أن المؤلف لم يذكر كلام ابن كثير بالنص، بل نقله بالمعنى. وللحافظ ابن كثير كلام موافق لهذا المعنى في ثلاثة مواضع من تفسيره:

الموضع الأول: عند هذه الآيات من سورة البقرة وهو النص الذي نقله المؤلف بالمعنى ونصه كما قال (١/ ١٩٤):

ومضـــمونه: أنه الخالق الرازق مالك الدار، وســاكنيها، ورازقهم، فبهذا يستحق أن يعبد وحده ولا يُشْـرَك به غَيره؛ ولهذا قال: ﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ وفي الصـحيحين عن ابن مسـعود، قال: قلت: يا رسـول الله، أي الذنب أعظم؟ قال: "أن تجعل لله ندًا وهو خلقك" اهـ

الموضع الثاني: عند قوله تعالى: ﴿قَالُوا لَنْ نُؤْثِرَكَ عَلَى مَا جَاءَنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالَّذِي فَطَرَنَا﴾: قال رحمه الله (٥/٣٠٤):

يعنون: لانختارك على فاطرنا وخالقنا الذي أنشأنا من العدم، المبتدئ خلقنا من الطين، فهو المستحق للعبادة والخضوع لا أنت اهـ.

الموضع الثالث: عند قوله تعالى: ﴿وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ اللَّهَ رَبَّكُمْ وَرَبَّ آبَائِكُمُ الأَوَّلِينَ﴾ قال رحمه الله (٧/٣٧):

أي: هو المستحق للعبادة وحده لا شريك له اهـ.

وهنا مسائل:

المسألة الأولى: الربوبية تستلزم الألوهية:

ونريد بهذه المسألة أن قول المؤلف: (والرب هو المعبود) بمعنى هو المستحق للعبادة، وهذا من باب اللزوم وإلا فالرب بمعنى المربوب والإله بمعنى المألوه، قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ① مَلِكِ النَّاسِ ② إِلَهِ النَّاسِ ③﴾ [الناس:١-٣] فدلت الآيات الثلاث أن رب الناس هو ملكهم وهو وحده إلههم الذي يستحق عبادتهم.

وهكذا قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾، فهو من باب اللزوم؛ لأن الرب هو خالق الناس وسيد الناس ومالك الناس والمربي لجميع الناس، فلزمهم عبادته ولا يليق بهم عبادة غيره فهو وحده لاشريك له المستحق للعبادة.

ولهذا ذكرهم بنعمه التي لايمكن بحال من الأحوال أن يقدر عليها من عبدوهم من دونه، فهو من جعل لهم الأرض فراشًا وهو من جعل لهم السماء بناء، وهو من أنزل الماء من البناء على الفراش فامتلأت بالخيرات والبركات وأحيا الأرض بالماء بعد موتها بالجفاف؛ لأن حياتهم بحياتها فهم منها وإليها. وهم آخر نباتها

قال العلامة محمد الأمين الأرمي الهرري الشافعي في "حدائق الروح والريحان في روابي علوم القرآن" (١/ ٢٢٦):

أي: خالقكم الذي ابتدع خلقكم على غير مثال سابق؛ لأنّه الذي يستحقّ العبادة منكم دون غيره من الأصنام، والأحجار، لأنّ تعليق الحكم بمشتقّ يؤذن بعليّة ما منه الاشتقاق، فكأنّه قال: اعبدوه لخلقه إيّاكم، فإنّه هو الذي يعبد دون غيره.

وهذه الآية مسوقة لإثبات التوحيد، وتحقيق نبوة محمد صلى الله عليه وسلم اللذين هما أصل الإيمان. و "الناس" يصلح اسمًا للمؤمنين والكافرين والمنافقين. والنداء فائدته تنبيه الغافلين، أو إحضار الغائبين، وتحريك الساكنين؛ وتعريف الجاهلين، وتفريغ المشغولين، وتوجيه المعرضين، وتهييج المحبّين، وتشويق المريدين اهـ.

المسألة الثانية: الدعوة إلى توحيد الربوبية:

وذلك أن جميع الرســـل دعوا الخلق لعبادة الخالق واحتجوا عليهم بربوبيته عليهم، وهذا يتضمن على قضيتين:

الأولى: دلالة استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية.

الثانية: الرد على من يدندن بأن تعليم الناس توحيد الربوبية مضـــيعة للوقت؛ بحجة أن الربوبية محل اتفاق عند المســـلم والكافر وأن كلهم مؤمنون بالربوبية وإنما وقع الخلاف في توحيد الألوهية لا الربوبية.

والجواب على قولهم من ثلاثة أوجه:

الأول: أن هؤلاء التبست عليهم عبارات لبعض العلماء السلفيين فطبقوها على غير مرادهم؛ فهم إنما قصدوا إنكار حصر التوحيد بالربوبية ثم الانشغال به في إثبات وجود الخالق لا في معناه الأعم.

الثاني: أن القرآن الكريم أخبرنا عن إقرار المشـــركين بتوحيد الربوبية ومع ذلك فقد خاطبهم كثيرًا واحتج عليهم به؛ كدلالة على أن إيمانهم به واقرارهم به فيه خلل

الثالث: أن توحيد الربوبية يســـتلزم توحيد الألوهية، وهذا هو الخلل الذي وقع فيه مشركو العرب؛ فإن الإقرار بالله ربًا يستلزم أن لاتتخذ من دونه إلهًا، ولهذا دعاهم القرآن إلى توحيد الألوهية محتجًا عليهم بتوحيد الربوبية.

وهذه مســـألة مهمة جدًا، ولفهمها لابد من التعرف على قاعدة دلالة المطابقة والتضمن والالتزام، ومعرفة الفرق بين الدلالات وتطبيق مفهوميتها بالشكل العلمي الصحيح.

المسألة الثالثة: دلالات المطابقة والتضمن والالتزام:

أولا: شرح الدلالات الثلاث:

۩ دلالة المطابقة: دلالة اللفظ على جميع معناه. مثال: (البيت) لفظ يدل على جميع أجزاء معناه: الجدران والغرف والنوافذ والباب والسطح. فدلالته على كل ذلك تسمى دلالة مطابقة

۩ دلالة التضمن: دلالة اللفظ على بعض معناه: مثال: (البيت) لفظ يدل على تلك الأجزاء السابقة كل واحدة على حدة فهو يتضمن الجدار ويتضمن السطح ويتضمن الغرف ويتضمن النوافذ

۩ دلالة الالتزام: دلالة اللفظ على شيء خارج معناه. أي دلالة اللفظ على شيء آخر يلزم لوجوده وجود ذلك اللفظ الأول. مثال: (البيت) فإنه لفظ يدل على وجود بان بنى هذا البيت وأنه صاحب علم وخبرة بالبناء، ويدل على وجود مالك لهذا البيت.

فدلالة اللزوم هي دلالة يفهم منها أن الشيء قد يلزم منه أكثر من شيء، فالأعرابي قال: (البعرة تدل على البعير) وقال: (وأثر القدم يدل على المسير) وهذه دلالة التزام، فإنه يلزم من وجود البعرة أن البعير مر من هنا، ويلزم من أثر القدم وجود مارة مروا من هنا.

ثانيًا: تطبيق هذه الدلالات على أسماء اللّه تعالى.

قال العلامة ابن عثيمين في "التفسير" (٥/١٣١):

أنواع الدلالة ثلاثة: مطابقة، وتضمن، والتزام:

- فالمطابقة: دلالة اللفظ على جميع معناه.
- والتضمن: دلالته على بعض معناه.
- والالتزام: دلالته على لازم خارج.

مثل: «الخالق» من أسماء الله؛ دلالته على الذات، والخلق: مطابقة؛ ودلالته على الذات وحدها، أو على الخلق وحده: تضمن؛ ودلالته على العلم، والقدرة: التزام؛ فلا يمكن أن يكون خالقًا إلا أن يكون عالمًا قادرًا؛ لأنه لا يخلق من لا يقدر؛ ولا يخلق من لا يعلم؛ فلا بد أن يكون عالماً قادرًا؛ ولهذا قال تعالى: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق: ١٢]؛ فذكر العلم، والقدرة بعد أن ذكر أنه خلق؛ ولا يمكن أن يكون هناك خلق إلا أن يعلم كيف يخلق، ويقدر على ذلك اهـ.

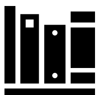
ثالثًا: تطبيق هذه الدلالات على أقسام التوحيد الثلاثة:

المتقرر عند علماء أهل السنة أن توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية، وتوحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية.

١- معنى دلالة التضمن:

هو دلالة الشيء على بعض أجزائه. فأقسام التوحيد ثلاثة، والتوحيد هو إفراد الله بالعبادة، والله هو المألوه فكان اسم الله الإله المأخوذ منه معنى توحيد الألوهية يتضمن توحيد الربوبية ويتضمن توحيد الأسماء والصفات.

قال العلامة عبدالعزيز الراجحي في "شرح كشف الشبهات" (صـ/٢):



وإذا وحَّد العبد الله في عبادته، ففي ضـــمن ذلك توحيده في ربوبيته وأسمائه وصـــفاته؛ لأنَّ من عَبَدَ الله، ففي ذلك اعترافه بأنه هو الرب النافع الضـــار الذي يقدر على إيصال النفع إليه، وهذا هو معنى قول العلماء: توحيد الألوهية متضمنٌ توحيد الربوبية، معنى متضمن: أي أنه داخل في ضمنه اهـ.

قال أبو العباس: وهذا كان الشرك في الألوهية يستلزم الشرك في الربوبية وفي الأسماء والصفات أيضًا.

٢- معنى دلالة الالتزام:

دلالة الشـــيء على خارج معناه. ولهذا نقول: الربوبية تســـتلزم الألوهية، والالتزام هنا يكون من حيث الوجوب لا من حيث الوقوع، فيتحقق الوقوع ممن التزم به ولايتحقق الوقوع ممن لم يلتزم به، ولهذا نخاصـــم الكفار بأن توحيد الربوبية يســـتلزم توحيد الألوهية أي كما آمنتم بالربوبية فإنه يلزمكم الإيمان بالألوهية. ويلزمكم بمعنى يجب عليكم.

قال العلامة عبدالعزيز الراجحي حفظه الله تعالى في "شـــرح كشـــف الشبهات" (صـ/٢):

بخلاف توحيد الربوبية فإنه يســـتلزم توحيد الألوهية، ومعنى يســـتلزم يعني: يستدعيه ويقتضيه ويوجبه. فمن اعترف أن الله هو الخالق الرازق المدبر المحيي، لزمه أن يعبد الله لكن ما كل أحد يلتزم بما لزمه، ولهذا فقد اعترف المشـــركون بتوحيد الربوبية، لكن ما التزموا بتوحيد العبادة وإن كان لازمًا لهم اهـ

٣- معنى دلالة المطابقة:

دلالة الشـــيء على جميع معناه. أو قل: على جميع أجزائه. جميع مفرداته. جميع متضمناته.

قال العلامة عبد العزيز الراجحي في "شرح الطحاوية" (صـ:١٦/):

فمثلا مَن عَبَد الله فإنه وحد الله في ربوبيته ووحد الله في ألوهيته، فتكون دلالة توحيد العبادة دلالة مطابقة، لأنه دل على جميع ما نهى؛ لأن توحيد العبادة يشـمل أمرين: يشـمل توحيد الربوبية، وتوحيد الألوهية، فدلالة العبادة على توحيد الربوبية، والألوهية دلالة مطابقة، ودلالة توحيد العبادة على توحيد الربوبية دلالة تضـــمن؛ لأنه يدل على جزء معناه، فتوحيد الربوبية جزء من معنى توحيد الألوهية، ودلالة العبادة والألوهية على الربوبية والألوهية دلالة مطابقة هي دلالة الشيء على جميع معناه اهـ.

المسألة الرابعة: **أدلة استلزام الربوبية للألوهية**:

الأدلة على أن توحيد الربوبية يستلزم توحيد الألوهية كثيرة، ونذكر هنا ما نهتدي إليه.

الدليل الأول: قال تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة: ٢١]

قوله: (اعبدوا) دعوة لتوحيد الألوهية. وقوله: (ربكم) دليل أن الرب هو المستحق للعبادة، وأن الربوبية تستلزم الألوهية.

ولهذا قال بعدها: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا وَالسَّمَاءَ بِنَاءً وَأَنْزَلَ مِنَ السَّـــمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَكُمْ فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾

[البقرة: ٢٢] وهنا احتج بالربوبية على لزوم الألوهية وجعلها دلالة على منع اتخاذ الأنداد في العبادة.

فذكرهم ببعض الأمور الكونية من إيجاد الأرض وتهيئتها كالفراش وخلق السماء وجعلها كالسقف، وما أودع وأبدع فيها من تلاقح السماء التي تمطر والأرض التي تثمر من خروج النعم بمختلف ألوانها واشكالها، كل هذه التدابير الربانية تدل أنه وحده من يستحق العبادة.

فالذي خلقك هو الله والذي رزقك هو الله والذي دبر جميع شؤونك هو الله، والله هو المألوه والمألوه هو المعبود، فكيف تعبد من لم يخلقك؟ وكيف تعبد من لم يرزقك؟ وكيف تعبد من لايملك من أمرك شيئًا؟

فدل على أن الشرك مناف للفطرة؛ فإن الفطرة السليمة تدعوك لعبادة خالقك لا لعبادة مخلوق مثلك!!

قال العلامة السعدي في "التفسير" (صـ/٤٤):

ثم استدل على وجوب عبادته وحده، بأنه ربكم الذي رباكم بأصناف النعم، فخلقكم بعد العدم، وخلق الذين من قبلكم، وأنعم عليكم بالنعم الظاهرة والباطنة، فجعل لكم الأرض فراشًا تستقرون عليها، وتنتفعون بالأبنية، والزراعة، والحراثة، والسلوك من محل إلى محل، وغير ذلك من أنواع الانتفاع بها، وجعل السماء بناء لمسكنكم، وأودع فيها من المنافع ما هو من ضروراتكم وحاجاتكم، كالشمس، والقمر، والنجوم.

﴿وَأَنزلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ والسماء: هو كل ما علا فوقك فهو سماء، ولهذا قال المفسرون: المراد بالسماء هاهنا: السحاب، فأنزل منه تعالى ماء، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ كالحبوب، والثمار، من نخيل، وفواكه، وزروع وغيرها ﴿رِزْقًا لَكُمْ﴾ به ترتزقون، وتقوتون وتعيشون وتفكهون.

﴿فَلا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا﴾ أي: نظراء وأشباها من المخلوقين، فتعبدونهم كما تعبدون الله، وتحبونهم كما تحبون الله، وهم مثلكم، مخلوقون، مرزوقون مدبرون، لا يملكون مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، ولا ينفعونكم ولا يضرون، ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ أن الله ليس له شريك، ولا نظير، لا في الخلق، والرزق، والتدبير، ولا في العبادة فكيف تعبدون معه آلهة أخرى مع علمكم بذلك؟ هذا من أعجب العجب، وأسفه السفه.

وهذه الآية جمعت بين الأمر بعبادة الله وحده، والنهي عن عبادة ما سواه، وبيان الدليل الباهر على وجوب عبادته، وبطلان عبادة من سواه، وهو ذكر توحيد الربوبية، المتضمن لانفراده بالخلق والرزق والتدبير، فإذا كان كل أحد مقرا بأنه ليس له شريك في ذلك، فكذلك فليكن إقراره بأن الله لا شريك له في العبادة، وهذا أوضح دليل عقلي على وحدانية الباري، وبطلان الشرك اهـ.

الدليل الثاني: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [العنكبوت: ٦١]

الدليل الثالث: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ مِنْ بَعْدِ مَوْتِهَا لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [العنكبوت: ٦٣]

الدليل الرابع: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [لقمان: ٢٥]

الدليل الخامس: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلْ أَفَرَأَيْتُمْ مَا تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ أَرَادَنِيَ اللَّهُ بِضُرٍّ هَلْ هُنَّ كَاشِفَاتُ ضُرِّهِ أَوْ أَرَادَنِي بِرَحْمَةٍ هَلْ هُنَّ مُمْسِكَاتُ رَحْمَتِهِ قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨]

الدليل السادس: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ خَلَقَهُنَّ الْعَزِيزُ الْعَلِيمُ ﴿٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَجَعَلَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠﴾﴾ [الزخرف: ٩، ١٠]

الدليل السابع: قوله تعالى: ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ فَأَنَّى يُؤْفَكُونَ﴾ [الزخرف: ٨٧]

الدليل الثامن: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ شُرَكَاءَكُمُ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَرُونِي مَاذَا خَلَقُوا مِنَ الْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي السَّمَاوَاتِ﴾ [فاطر: ٤٠]

وهكذا كان حوار الخليل مع النمرود وموسى مع الفرعون حوارًا في الربوبية ودعوة إلى الألوهية؛ فأعظم ما يخاصم به أهل الشرك في الألوهية هو إلزامهم بمقتضيات توحيد الربوبية؛ فإن توحيد الربوبية يكون في أفعال الخالق وتوحيد

الألوهية يكون في أفعال المخلوق، وإذا علم المخلوق عظمة أفعال خالقه من خلق وإيجاد وتدبير وتصـــريف وتأمل في ملكوت الســـماوات والأرض واتعظ بالآيات الكونية كان ذلك داعيًا لتوحيده لخالقه في العبادة وعدم صرف شيئًا من أفعاله فيها لغير الله.

والشـاهد من هذه الآيات كلها واحد، وهو أن توحيد الربوبية الذي أقر به مشـركو قريش يلزمهم الإقرار بتوحيد الألوهية وعدم صـرف العبادة لغير الله تعالى، لأن الرب هو المعبود.

وهنا قال العلامة السـعدي رحمه الله تعالى في كتابه " تيسـير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان" (صـ/٦٣٥):

هذا استدلال على المشركين المكذبين بتوحيد الإلهية والعبادة، وإلزام لهم بما أثبتوه من توحيد الربوبية، فأنت لو سألتهم من خلق السماوات والأرض، ومن نزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها، ومن بيده تدبير جميع الأشياء؟ {لَيَقُولُنَّ اللَّهُ} وحده، ولاعْتَرَفُوا بعجز الأوثان ومن عبدوه مع الله على شيء من ذلك.

فأعجب لإفكهم وكذبهم، وعدولهم إلى من أقروا بعجزه، وأنه لا يســـتحق أن يدبر شـيئا، وسَـجِّلْ عليهم بعدم العقل، وأنهم السـفهاء، ضـعفاء الأحلام، فهل تجد أضـعف عقلا وأقل بصـيرة، ممن أتى إلى حجر، أو قبر ونحوه، وهو يدري أنه لا ينفع ولا يضر، ولا يخلق ولا يرزق، ثم صرف له خالص الإخلاص، وصافي العبودية، وأشـــركه مع الرب، الخالق الرازق، النافع الضـــار. وقل: الحمد لله الذي بين الهدى من الضلال، وأوضح بطلان ما عليه المشركون، ليحذره الموفقون.

وقل: الحمد لله، الذي خلق العالم العلوي والسفلي، وقام بتدبيرهم ورزقهم، وبسط الرزق على من يشاء، وضيقه على من يشاء، حكمة منه، ولعلمه بما يصلح عباده وما ينبغي لهم اهـ.

قال أبو العباس: والخلاصة أن من آمن بالله ربًا لزمه أن يؤمن به إلهًا، وأن يخضع له بالتوحيد، وأن يخلص في توحيده من كل شائبة من شوائب الشرك والتنديد.

المسألة الخامسة: هل يقال: الرب هو المعبود؟

اعلم رعاك الله أن العبادة على نوعين:

الأول: عبادة ألوهية: (وتسمى العبادة الشرعية):

وهي من حيث الأمر تشمل الجن والإنس؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات:٥٦]. وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا﴾ [التوبة: ٣١] وقوله تعالى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ [البينة: ٥] فهذه الآيات تدل أن الجن والإنس كلهم يشملهم الأمر بالعبادة.

وأما من حيث الوقوع فإنها قد تقع وقد لاتقع، ولهذا كان ضابط العبادة الشرعية أنها محبوبة للخالق ومأمور بتحقيقها المخلوق، ولكنها غير واجبة الوقوع من الجميع؛ فإن المخلوق قد يمتثل وقد لا يمتثل، ولهذا انقسم الجن والإنس فيها إلى شقي وسعيد؛ ﴿يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴿١٠٥﴾ فَأَمَّا الَّذِينَ شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ ﴿١٠٦﴾ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَاوَاتُ

وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَــاءَ رَبُّك إِنَّ رَبَّكَ فَعَّالٌ لِمَا يُرِيدُ ﴿١٠٧﴾ * وَأَمَّا الَّذِينَ سُــعِدُوا فَفِي الْجَنَّةِ خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّـمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ إِلَّا مَا شَـاءَ رَبُّك عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ ﴿١٠٨﴾﴾ [هود: ١٠٥-١٠٨]

ومن أمثلة تحققها في المؤمنين قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوت أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٨﴾﴾ [الزمر:١٧-١٨] وقوله تعالى: ﴿وَعِبَادُ الرَّحْمَنِ الَّذِينَ يَمْشُـونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا﴾ [الفرقان: ٦٣] وقوله تعالى: ﴿قُلْ لِعِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا يُقِيمُوا الصَّلَاةَ﴾ [إبراهيم: ٣١]

ومن أمثلة عدم تحققها في الكافرين قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ﴾ [الأعراف: ١٧٩] وقولـه تعـالى: ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَيَقْتُلُونَ الَّذِينَ يَأْمُرُونَ بِالْقِسْـــطِ مِنَ النَّاسِ فَبَشِّـــرْهُمْ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢١﴾ أُولَئِكَ الَّذِينَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ ﴿٢٢﴾﴾ [آل عمران: ٢١-٢٢]

الثاني: عبادة ربوبية: (وتسمى العبادة الكونية):

وهذه العبادة متحققة في الثقلين كونًا لا شــرعًا لقوله تعالى: ﴿إِنْ كُلُّ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِلَّا آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا﴾ [مريم: ٩٣]

أي أن الجن والإنس والملائكة وأهل الإيمان وأهل الكفر كلهم عبيد لله تعالى رغم أنوفهم عبادة كونية وهم فيها مسيرون لا مخيرون، فمن رضي فله الرضا ومن سخط فعليه السخط.

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلَاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ﴾ [الفرقان: ١٧] فسماهم عبادًا له مع أنهم كفار لم يلتزموا بالعبادة الشرعية التي تجعلهم من أهل الإيمان. ولكن لكونهم عباده كونًا وقدرًا.

بل إن هذا القسم تدخل فيه الحيوانات والجمادات كما قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُمْ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾ [الرعد: ١٥]

وقال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٤٩﴾ يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ۩ ﴿٥٠﴾ ✱ وَقَالَ اللَّهُ لَا تَتَّخِذُوا إِلَهَيْنِ اثْنَيْنِ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ ﴿٥١﴾﴾ [النحل: ٤٩-٥١]

وهذا القسم يعني أن (الرب هو المعبود) وقوعًا لا لزومًا، وقولنا: إن كلام المؤلف كان من باب اللزوم قلناه لأنه كان في مقام الدعوة إلى الألوهية، بدلالة استدلاله بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾

فإذا قيل لك: هل الرب هو المعبود؟ فقل: الرب هو المعبود قدرًا من باب الوقوع لا من باب اللزوم، وهو الذي يستحق العبادة شرعًا من باب اللزوم لا من باب الوقوع.

فصل في معنى "جعل" في القرآن الكريم

استدل المؤلف على استلزام توحيد الربوبية لتوحيد الألوهية بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ ﴿٢١﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاء بِنَاءً وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقاً لَّكُمْ فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [البقرة: ٢١، ٢٢].

من المعروف أن أهل البدع القائلين بخلق القرآن، يستدلون بآيات الخلق المعبر عنها بالجعل؛ كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١] فقالوا: (جعل) بمعنى خلق. قالوا: وهكذا قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الزخرف: ٣] (جعلناه) بمعنى (خلقناه)

وفي قوله تعالى: ﴿فَلاَ تَجْعَلُواْ لِلّهِ أَندَاداً وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴿٢٢﴾﴾ رد على عليهم؛ لأن من قال: إن (جعل) هنا بمعنى خلق فقد كفر؛ فإن المخلوق لا يخلق!! وأعظم من ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ [النحل:٩١] فمن زعم أن كل لفظ (جعل) في القرآن تأتي بمعنى خلق فقد قال: إن المخلوق خلق الخالق والعياذ بالله.

قال الإمام أحمد في "الرد على الجهمية" (صـ/١٠١):

وزعم أن: جعل، بمعنى: خلق، فكل مجعول هو مخلوق، فادعى كلمة من الكلام المتشـــابه يحتج بها من أراد أن يلحد في تنزيله، ويبتغي الفتنة في تأويلها، وذلك أن: جعل، في القرآن من المخلوقين على وجهين على معنى التســمية، وعلى معنى فعل من أفعالهم.

وقوله: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا الْقُرْآنَ عِضِينَ﴾ [الحجر: ٩١].

قالوا: هو شعر وأنباء الأولين، وأضغاث أحلام، فهذا على معنى التسمية. قال: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩]. يعني أنهم سموهم إناثًا.

ثم ذكر: جعل، على غير معنى التســـمية فقال: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَـــابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩]. فهذا على معنى فعل من أفعالهم.

وقال: ﴿حَتَّى إِذَا جَعَلَهُ نَارًا﴾ [الكهف: ٩٦] هذا على معنى فعل، فهذا جعل المخلوقين، ثم جعل من أمر الله على معنى غير خلق، لا يكون إلا خلق، ولا يقوم إلا مقام خلق خلقًا لا يزول عنه المعنى، وإذا قال الله: جعل، على غير معنى خلق لا يكون خلق، ولا يقوم مقام الخلق، ولا يزول عنه المعنى.

فمما قال الله: جعل، على معنى: خلق، قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام:١]، يعني وخلق الظلمات والنور اهـ

وقال العلامة يحيى بن أبي الخير العمراني اليماني في "الانتصـــار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار" (٢/٥٧٩):

واســـتدلوا أيضـــاً بقوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ والجعل عبارة عن الخلق لقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً﴾.

والجواب: أن الجعل في القرآن يعبر به عن الخلق، ويعبر به عن التســـمية وهو المراد هاهنا قال الله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ إِنَاثاً﴾ أي سموهم، وذلك قوله تعالى: ﴿وَقَدْ جَعَلْتُمُ اللَّهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً﴾ وأراد به سموه كفيلاً.

وقد قال الله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ اللَّهُ مِنْ بَحِيرَةٍ وَلا سَـــائِبَةٍ﴾ ولم يرد ما خلقها، وإنما أراد ما سماها، فبطل أن يكون كل جعل في القرآن عبارة عن الخلق.

واستدلوا بقوله تعالى: ﴿خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ والقرآن شيء فوجب أن يكون مخلوقاً.

والجواب أن نقول: إن القرآن صـفة لله سبحانه، وقد سمى الله نفسه شيئاً بقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾، فلما لم تكن ذات الله سبحانه داخلة في جملة المخلوقات، لم يكن القرآن الذي هو صـــفة له داخلاً في المخلوقات اهـ.

وقد توسع العلامة العمراني بالرد على كل أو جل شبهات أهل البدع من الجهمية والمعتزلة والقدرية فهدم استدلالهم بألفاظ الذكر والأمر والمحدث والجعل والمنزل وفصل معاني تلك الألفاظ بالحق والبرهان وأسقط زورهم والجرم والبهتان، ولم يدع وجهًا للقائل بخلق القرآن.

والحاصل أن (جعل) في القرآن لها أكثر من معنى:

١: الجعل بمعنى الخلق: كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] أي: خلق الظلمات والنور.

٢: الجعل بمعنى التسمية: كقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ جَعَلُوا القرآن عضين﴾ أَيْ سَمَّوْهُ كَذِبًا وَقَوْلِهِ: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هم عباد الرحمن إناثا﴾ عَلَى قَوْلٍ وَيَشْهَدُ لَهُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ لَيُسَمُّونَ الْمَلَائِكَةَ تَسْمِيَةَ الأنثى﴾

٣: الجعل بمعنى التصيير: كقوله تعالى: ﴿الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ فِرَاشًا﴾ وقوله تعالى: ﴿أَجَعَلَ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا﴾ وقوله تعالى: ﴿وإنا لجاعلون ما عليها صعيدا جرزا﴾ وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً﴾

٤: الجعل بمعنى فعل المخلوق: كقوله تعالى: ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ﴾ [البقرة: ١٩]. فهذا على معنى فعل من أفعالهم. ومثله في القول؛ فالعرب تقول: فجعل يقول كذا وكذا

٥: الجعل بمعنى الاعتقاد: كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا لله شــركاء الجن﴾ ﴿وَيَجْعَلُون للهِ ما يَكْرَهُوْن﴾ ﴿وَجَعَلُوا الْمَلَائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عباد الرحمن إناثا﴾ أَي اعْتَقَدُوهُمْ إِنَاثًا

٦: الجعل بمعنى الحكم والإيجاب: كقوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنْتَ عَلَيْهَا﴾

٧: الجعل بمعنى الإلقاء: كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِــيَ﴾ أَيْ أَلْقَى بِدَلِيلِ قَوْلِهِ فِي الْآيَةِ الْأُخْرَى الَّتِي عَلَّلَ فِيهَا الْمُرَادَ بِخَلْقِ الْجِبَالِ وَأَبَانَ إِنْعَامَهُ فَقَالَ ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِيَ أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾ [النحل: ١٥]

وكل هذه الأقسام استخلصتها من كتاب "البرهان في علوم القرآن" للعلامة الزركشي، وزدت عليها وأنقصت منها.

قال العلامة الزركشي رحمه الله في "البرهان" (٤/١٢٩):

فَإِنْ قِيلَ: مَا الْفَرْقُ بَيْنَ الْجَعْلِ وَالْخَلْقِ؟

قِيلَ: إِنَّ الْخَلْقَ فِيهِ مَعْنَى التَّقْدِيرِ وَفِي الْجَعْلِ مَعْنَى التَّصْيِيرِ كَإِنْشَاءِ شَيْءٍ مِنْ شَيْءٍ أَوْ تَصْيِيرِ شَيْءٍ شَيْئًا أَوْ نَقْلِهِ مِنْ مَكَانٍ وَيَتَعَدَّى لِمَفْعُولٍ وَاحِدٍ لِأَنَّهُ لَا يَتَعَلَّقُ إِلَّا بِوَاحِدٍ وَهُوَ الْمَخْلُوقُ

وَأَيْضًا، فَالْخَلْقُ يَكُونُ عَنْ عَدَمٍ سَابِقٍ حَيْثُ لَا يتقدم مادة لا سَبَبٌ مَحْسُوسٌ وَالْجَعْلُ يَتَوَقَّفُ عَلَى مَوْجُودٍ مُغَايِرٍ لِلْمَجْعُولِ يَكُونُ مِنْهُ الْمَجْعُولُ أَوْ عَنْهُ كَالْمَادَّةِ

وَالسَّـــبَبِ وَلَا يَرِدُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ لَفْظُ جَعَلَ فِي الْأَكْثَرِ مُرَادًا بِهِ الْخَلْقُ إِلَّا حَيْثُ يَكُونُ قَبْلَهُ مَا يَكُونُ عَنْهُ أَوْ منه أو شـيئًا فيه محسـوسًـا عنه يكون ذَلِكَ الْمَخْلُوق الثَّانِيَ بِخِلَافِ خَلَقَ فَإِنَّ الْعِبَارَةَ تَقَعُ كَثِيرًا بِهِ عَمَّا لَمْ يَتَقَدَّمْ وُجُودَهُ وُجُودٌ مُغَايِرٌ يَكُونُ عَنْهُ هَذَا الثَّانِي قَالَ اللَّهُ تَعَالَى ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّـــمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام: ١] وَإِنَّمَا الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ عَنْ أَجْرَامٍ تُوجَدُ بِوُجُودِهَا وَتُعْدَمُ بِعَدَمِهَا اهـ

ضابط تفسير الجعل في القرآن:

قال العلامة ابن القيم في "شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل" (١/١٣٣):

وأما الجعل فقد أطلق على الله سبحانه بمعنيين:

أحدهما: الإيجاد والخلق والثاني: التصيير، فالأول: يتعدى إلى مفعول كقوله: ﴿وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾، والثاني: أكثر ما يتعدى إلى مفعولين كقوله ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾

وأطلق على العبد بالمعنى الثاني خاصة كقوله ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ مِمَّا ذَرَأَ مِنَ الْحَرْثِ وَالْأَنْعَامِ نَصِيبًا﴾ [الأنعام: ١٣٦]

وغالب ما يسـتعمل في حق العبد في "جعل" التسـمية والاعتقاد حيث لا يكون له صـنع في المجعول، كقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا الْمَلائِكَةَ الَّذِينَ هُمْ عِبَادُ الرَّحْمَنِ

إِنَاثًا﴾ [الزخرف:١٩]. وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَأَيْتُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ لَكُمْ مِنْ رِزْقٍ فَجَعَلْتُمْ مِنْهُ حَرَامًا وَحَلَالًا﴾ [يونس: ٥٩] وهذا يتعدى إلى واحد وهو جعل اعتقاد وتسمية اهـ

وقال العلامة صالح آل الشيخ في "شرح الطحاوية" (١/١١٥):

والجواب على كلامهم معروف وهو أنَّ الجعل في اللغة إذا تعدى إلى مفعول واحد صار بمعنى خلق، وإذا تعدى إلى مفعولين صار بمعنى صيّر ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً﴾ يعني صيّرناه قرآنًا عربيًا يعني غير خلقناه، والآيات على هذا كثيرة وهذا من أضعف حججهم لأنها منقوضة باللغة اهـ.

قال المؤلف:

وَأَنْوَاعُ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا مِثْلُ: الإِسْلامِ، وَالإِيمَانِ، وَالإِحْسَانِ.

وَمِنْهُ: الدُّعَاءُ، وَالْخَوْفُ، وَالرَّجَاءُ، وَالتَّوَكُّلُ، وَالرَّغْبَةُ، وَالرَّهْبَةُ، وَالْخُشُوعُ، وَالْخَشْيَةُ، وَالإِنَابَةُ، وَالاسْتِعَانَةُ، وَالاسْتِعَاذَةُ، وَالاسْتِغَاثَةُ، وَالذَّبْحُ، وَالنَّذْرُ. وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ أَنْوَاعِ الْعِبَادَةِ الَّتِي أَمَرَ اللهُ بِهَا. كُلُّهَا للهِ تَعَالَى.

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨].

الشرح:

سيأتي شرح الإسلام والإيمان والإحسان في موطن لاحق من هذه الرسالة إن شاء الله تعالى.

وأما العبادة فهي بالمفهوم الأساسي هي التوحيد، ثم يندرج تحتها سائر الطاعات، فمن أخل بالعبادة الأساسية لم تقبل منه سائر ما دونها؛ كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]

وكل العبادات التي ذكرها المؤلف يجب أن يصرفها العبد لله تعالى وحده لاشريك له، ومن صرفها لغير الله تعالى فقد أشرك.

| وإن قلت: إن في بعضها تفصيل!! قلت: صرف أي نوع منها لغير الله تعالى تعبدًا شرك بلا تفصيل، وفي بعضها تفصيل في حالات خالية من قصد التعبد.. فتنبه لهذا الضابط المهم والخطير. فهي على ثلاثة أقسام:

الأول: من صرف أي نوعٍ من هذه العبادات لغير الله تعالى تعبدًا فقد وقع في الشرك.

الثاني: بعض هذه الأنواع من العبادة قد يجوز صرفها لغير الله تعالى بغير قصد التعبد ولكن لهذا الجواز شروطه. كالاستعانة والاستعاذة والاستغاثة والرجاء والخوف والخشية والرغبة والرهبة.

الثالث: بعض هذه الأنواع من العبادة صرفها لغير الله تعالى شرك حتى وإن لم يقصد التعبد لكونها خالصة لله تعالى. كالتوكل والنذر والدعاء والإنابة والخشوع.

| وأما قوله تعالى: ﴿وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلَّهِ فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ [الجن: ١٨]. فقد استدل بها المؤلف في موطنين في هذه الرسالة:

- **الموطن الأول**: في معرض نفي الشرك في الفقرة الثانية من المسائل الثلاث حيث قال: الثانية: أَنَّ الله لا يَرْضَى أَنْ يُشْرَكَ مَعَهُ أَحَدُ فِي عِبَادَتِهِ، لا مَلَكٌ مُقَرَّبٌ، وَلا نَبِيٌّ مُرْسَلٌ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ثم ذكر الآية
- **الموطن الثاني**: هنا في معرض ذكره لبعض أنواع العبادة وإثبات توحيد الخالق بها.

وعليه فهذه الآية جمعت بين إثبات التوحيد ونفي الشـــرك، فقوله: ﴿وَأَنَّ الْمَسَـــاجِدَ لِلَّهِ﴾ إثبات للتوحيد الخالص، وقوله: ﴿فَلاَ تَدْعُوا مَعَ اللَّهِ أَحَداً﴾ نفي للشرك بجميع أنواعه.

والمســاجد: جمع مســجد من ســجد يســجد فدل على عدم حصــرها بالبيوت المعدة للصــلاة، بل هي عامة في كل مكان تســجد فيه أن تجعل ســجودك خالصًا لله تعالى سـواء كان سـجودك في بيت الله تعالى أو في أي مكان في أرض الله جل وعلا، ويشـــهد لهذا ما رواه البخاري ومســـلم من حديث جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ قال: (وجعلت لي الأرض طيبة طهورا ومســـجدًا فأيما رجل أدركته الصلاة صلى حيث كان).

والدعـــاء: هو العبادة بصريح الكتاب والسنة، ومنع الدعاء لغير الله تعالى يعني: منع دعاء الحال، ودعاء القال. وسـيأتي الحديث عن الدعاء في موطنه الخاص به إن شاء الله.

قال المؤلف:

فَمَنْ صَـرَفَ مِنْهَا شَـيْئًا لِغَيْرِ اللهِ؛ فَهُوَ مُشْـرِكٌ كَافِرٌ؛

وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٧].

وَفِي الْحَدِيثِ: (الدُّعَاءُ مخ الْعِبَادَةِ). وَالدَّلِيلُ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]

الشرح:

قد يقول قائل: لماذا لم يفصل المؤلف في هذه الأنواع وأطلق الكفر على من صرف أي شيء منها؟

والجواب: أن الأدلة التي ذكرها المؤلف تغني عن التفصيل؛ وذلك أنه يقصد القسم الأول من الأقسام الثلاثة التي سبق وذكرناها، وهو أن صرف أيٍ من هذه الأنواع بقصد العبادة فهو كفر، وأما بغير قصد العبادة فتفصيله في القسمين الثاني والثالث.

وقد استدل المؤلف بدليلين من القرآن:

الدليل الأول: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَن يَدْعُ مَعَ اللَّهِ الهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ فَإِنَّمَا حِسَابُهُ عِندَ رَبِّهِ إِنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ استدل به على كفر من صرف شيئًا من العبادة لغير الله تعالى، والآية صريحة في ذلك.

وفي الآية إشكال: وهو أن منطوق الآية أن من دعا غير الله بغير برهان فهو كافر، فهل دل مفهومها أن من دعا غير الله ببرهان فإنه ليس بكافر، فتعلق الحكم بالكفر وعدمه بالبرهان وجودًا وعدمًا.

والجواب: أن هذه الآية ليس لها مفهوم مخالفة، بل هي صفة كاشفة لحقيقة المشرك أنه لابرهان له. فقوله: (لا برهان له) أي ليس له برهان بمعنى لايمتلك برهانًا.

ومثلها قوله تعالى: ﴿وَلَا تُكْرِهُوا فَتَيَاتِكُمْ عَلَى الْبِغَاءِ إِنْ أَرَدْنَ تَحَصُّنًا﴾ [النور:٣٣] فمنطوقها النهي عن إكراه الفتيات على الزنا إن كن يردن التحصن، ومفهومها أنه لامانع على إكراههن على الزنا إن لم يكن يردن التحصن!! وهذا غير صحيح فهذه الآية لها منطوق وليس لها مفهوم مخالفة، أي أنها صفة كاشفة لحقيقة المكرهة أنها تريد التحصن بدلالة الاكراه، وكيف يقول قائل: إنه لامانع من إكراهها إن كانت لاتريد التحصن!! وقد علم بديهة أن من لم ترد التحصن لاتحتاج للإكراه أصلًا.

الدليل الثاني: قوله تَعَالَى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ استدل به على أن الدعاء هو

العبادة، وهذا الاستدلال ثابت في السنة؛ فقد ثبت عن النعمان بن بشير عن النبي ﷺ أنه قال: (إن الدعاء هو العبادة) ثم قرأ: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾.

رواه البخاري في الأدب المفرد وابن حبان في الصحيح وأحمد في المسند وأصحاب السنن الأربعة والحاكم والطبراني والبيهقي وغيرهم، وصححه الإمام الترمذي. وصححه العلامة الوادعي في "الصحيح المسند"

ثم احتج المؤلف بحديث: (الدعاء مخ العبادة). وهذا الحديث رواه الترمذي من حديث أنس وهو حديث ضعيف، وعلة ضعفه هو ابن لهيعة بسبب الاختلاط.

والحديث الصحيح هو ماسبق من حديث النعمان بن بشير ان النبي ﷺ قال: (الدعاء هو العبادة).

وهذا اللفظ أوضح وأصرح. ومعنى يدع مع الله أي يعبد مع الله، فكل آية نهت عن دعاء غير الله فمعناها النهي عن عبادة غير الله تعالى.

والشاهد من الآية أنه أمر بالدعاء في قوله: (ادعوني) وفسر ترك الدعاء بالاستكبار عن العبادة في قوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي﴾ فدل أن الدعاء هو العبادة.

ولايشكل عليك الدعاء الذي هو السؤال كقولك: اللهم اهدني اللهم ارزقني اللهم اشفني، فإن الدعاء على قسمين كلاهما عبادة، وسيأتي التفصيل عند ذكر عبادة الدعاء إن شاء الله.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الْخَوْفِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥].

الشرح:

أي ودليل أن الخوف عبادة هي هذه الآية، والخوف في القرآن جاء بصيغ مختلفة:

الخوف لغة:

تعريفه بالحقيقة هو الفزع، وتعريفه بالضد هو ضد الآمن.

واصطلاحًا:

قال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/٥١٢):

قال أبو القاسم الجنيد: الخوف توقع العقوبة على مجاري الانفاس وقيل: الخوف اضطراب القلب وحركته من تذكر المخوف وقيل: الخوف قوة العلم بمجاري الأحكام وهذا سبب الخوف لا أنه نفسه وقيل: الخوف هرب القلب من حلول المكروه عند استشعاره اهـ

مسألة: في بعض صيغ الخوف في القرآن:

- جاء بصيغة الإخبار عن الخائفين:

كقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ﴾ [الرعد: ٢١] وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالْأَبْصَارُ﴾ [النور: ٣٧] ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧]

- وجاء بصيغة الأمر به:

كقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] وقوله تعالى: ﴿وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ﴾ [القصص:٧] وجميع آيات الوعيد تعني الأمر بالخوف قبل حلول العقوبة

- وجاء بصيغة الاستنكار على من لايخافون ربهم:

كقوله تعالى: ﴿كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ﴾ [المدثر: ٥٣] وقوله تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٦٠]

- وجاء بصيغة النهي عنه:

كقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا تَتَنَزَّلُ عَلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةُ أَلَّا تَخَافُوا وَلَا تَحْزَنُوا﴾ [فصلت: ٣٠] وقوله تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى﴾ [طه: ٤٦]

مسألة: في أنواع الخوف:

اعلم أن الخوف قد يعبر عنه بالخشية أو الرعب أو الرهبة أو الذعر أو الوجل أو التوجس أو الهيبة أو الروع على أحد معانيه.

فكلها معان متقاربة تدخل في الخوف، إلا أن كل واحدة تعبر عن نوع من أنواعه بوصف خاص بها.

مسألة: في حكم الخوف:

لايمكن الحكم على الشـــيء المتفرع في حال كانت تلك الفروع لاتحمل حكمًا واحدًا، ولهذا نقول: لكل قسم حكمه:

القسم الأول: الخوف الواجب:

وهو الخوف من الله تعالى ودليل وجوبه قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]. وقوله تعالى: ﴿يَخَافُونَ رَبَّهُم مِّن فَوْقِهِمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [النحل: ٥٠]

القسم الثاني: الخوف المحرم:

وهو على فرعين:

١- **خوف شركي:**

وضـابطه خوف السـر وهو أن تخاف من مخلوق: في شـيء لايقدر عليه إلا الله سبحانه وتعالى، أو أن تخاف من مخلوق في شيء يقدر عليه المخلوق إلا أن هذا المخلوق الذي خفته غير قادر لكونه إما ميت أو عاجز أو غائب، لأن الخوف منه فيه اعتقاد فاسد متعلق بتعظيمه.

وهذا النوع من الخوف شرك أكبر والعياذ بالله.

٢- **خوف معصية:**

وهو الخوف المؤدي لترك الواجب خوفًا من أهل الباطل، وقد حرمه تعالى بقوله: ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَـــوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا

وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: ١٧٣] إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ذَلِكُمُ الشَّيْطَانُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَاءَهُ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٧٥]

وهذه الآية يدخل فيها الخوف الشركي وخوف المعصية؛ فبحسب نوع الخوف تتنزل عليه الآية. وبعض العلماء يرى أن هذا الخوف داخل في الشرك الأصغر

وفيها قال العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (٢/ ٤١):

ويفهم من الآية أن الخوف من الشيطان وأوليائه مناف للإيمان، فإن كان الخوف يؤدي إلى الشرك، فهو مناف لأصله، وإلا فهو مناف لكماله اهـ.

القسم الثالث: الخوف المباح:

وهو الخوف المنعقد الأسباب: كالخوف من السباع والثعابين، أو الخوف حين اندلاع النار، أو الخوف عند سماع صراخ الأم أو الزوجة أو الولد.

ومن أدلته خوف إبراهيم الخليل ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَى أَيْدِيَهُمْ لَا تَصِلُ إِلَيْهِ نَكِرَهُمْ وَأَوْجَسَ مِنْهُمْ خِيفَةً قَالُوا لَا تَخَفْ إِنَّا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمِ لُوطٍ﴾ [هود: ٧٠].

ومن أدلته خوف النبي لوط ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا أَنْ جَاءَتْ رُسُلُنَا لُوطًا سِيءَ بِهِمْ وَضَاقَ بِهِمْ ذَرْعًا وَقَالُوا لَا تَخَفْ وَلَا تَحْزَنْ إِنَّا مُنَجُّوكَ وَأَهْلَكَ إِلَّا امْرَأَتَكَ كَانَتْ مِنَ الْغَابِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٣].

ومن أدلته خوف الكليم موسى ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُوسَى ۝٦٧ قُلْنَا لَا تَخَفْ إِنَّكَ أَنْتَ الْأَعْلَى﴾ [طه: ٦٧-٦٨] وقوله تعالى: ﴿قَالَ

رَبِّ إِنِّي قَتَلْتُ مِنْهُمْ نَفْسًا فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [القصص: ٣٣]، وقوله عليه السلام: ﴿وَلَهُمْ عَلَيَّ ذَنْبٌ فَأَخَافُ أَنْ يَقْتُلُونِ﴾ [الشعراء: ١٤]. وقال تعالى: ﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ﴾ [القصص: ٢١].

وقال تعالى عنه وعن أخيه هارون عليهما السلام: ﴿قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَنْ يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَنْ يَطْغَى﴾ [طه:٤٥]

ومن أدلته خوف الشاكر الأواب داود ﷺ كما في قوله تعالى: ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَى دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لَا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَى بَعْضُنَا عَلَى بَعْضٍ فَاحْكُمْ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلَا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَى سَوَاءِ الصِّرَاطِ﴾ [ص: ٢١-٢٢]

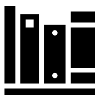
القسم الرابع: الخوف الوهمي:

وهو على قسمين:

١- **النابع عن الضعف:** وهو خوف الجبن ولا شك أنه مذموم ويدخل في المعصية، كمن يتوهم أن صاحب العمل سيفصله ويأتي بعامل غيره، ويخاف على فقدان راتبه.

٢- **النابع عن المرض:** وهذا مبتلى يعاني من نوع من الوسواس ويحتاج إلى العلاج، والكثير من الناس يسخرون من هذا الصنف ويخشى عليهم أن يعافيه الله ويبتليهم.

شبهة أو اشكال:



لعل البعض يسأل عن قوله تعالى: ﴿إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ [النمل:١٠] وما الجمع بينه وبين الآيات التي أخبرت عن وقوع بعض الأنبياء في الخوف، مع أن الخوف هنا وهناك هو من الخوف الطبيعي؟

والجواب من أربعة أوجه:

الأول: أن موسى عليه السلام كان في مقام عظيم وهو الكلام مع الرب سبحانه وتعالى، ولهذا قال له: ﴿لا يَخَافُ لَدَيَّ﴾ فنهاه عن الخوف في هذا الموطن وعندما خاف في موطن آخر طمأنه ربه وبشره بالأمان. ولهذا لم ينه الأنبياء الذين خافوا في بعض المواطن المخيفة لهذا الفارق.

الثاني: أن الآية في أولها: ﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ﴾ فألقاها عليه الصلاة والسلام فكانت المفاجئة ﴿فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ وعندما ولى مدبرًا قال له ربه: ﴿يَامُوسَى لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ أي لايخافون خوفًا يجعلهم يدبرون بل عليهم الإقبال، وهذا مؤيد ومؤكد بعدم نهي الأنبياء عن الخوف حين خافوا في مواطن المخاوف الطبيعية لعدم حصول العودة للوراء، ولهذا خاف موسى في موطن غير هذا فلم ينه بمثل هذا النهي.

الثالث: أن موسى عليه السلام ولى مبرًا ولم يعقب، ولو ولى مدبرًا ثم عقب لم ينه عن ذلك؛ لأن الخوف الطبيعي غريزة بشرية، ولهذا لم ينه غيره من الأنبياء كما نهي للفارق وهو علة عدم التعقب، والتعقب وهو العودة بعد الانصراف.

وقد أثبتت لنا النصوص القرآنية ما كان عليه موسى عليه السلام من الجمع بين القوة البدنية والشجاعة القلبية؛ ونكتفي بمثالين على ذلك:

المثال الأول: أنه واجه الفرعون وجهًا لوجه مع أنه في عداد المحكوم عليه بالقتل في النظام الفرعوني، وهذا أشـد خوفًا من تلك العصـى المتحولة، ومع ذلك واجهه في عاصمة قوته بالحجة والبيان وواجه سحرته بين الملأ بالآيات والفرقان ولم يكن في نفسـه إلا القوة بمعية الله تعالى، حتى أنه قال للفرعون: ﴿وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَا فِرْعَوْنُ مَثْبُورًا﴾ [الإسراء:١٠٢] وهذه عبارة لم يتجرأ أحد على قولها في وجه الفرعون، والمثبور هو الممقوت.

المثال الثاني: أنه واجه البحر العظيم كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي فَاضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِي الْبَحْرِ يَبَسًا لَا تَخَافُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَى﴾ [طه: ٧٧] ولا شـك أن مهابة البحر واقتحامه وكل فرق منه كالطود العظيم أشـد وأشـد، ومع ذلك لم يخف وإنما لم يخف الذين معه لعدم خوفه واقتحامه للبحر قبلهم.

الرابع: أن الآية (لا يخافون) أي إذا أمنتهم لا يخافون وليس على الاطلاق، وهذا ذكره البغوي والسمعاني.

وقال القشيري: أي لا ينبغي لهم أن يخافوا.

وقال الماوردي: قيل إنه أراد في الموضـع الذي يوحى فيه إليهم، ولا فالمرسلون من الله أخوف.

وقال ابن الجوزي: أي لا يخافون عندي.

وقيل: المراد في الموضع الذي يوحي إليهم فيه فكأنه نبهه على أن من آمنه الله بالنبوة من عذابه لا ينبغي أن يخاف من حية.

وقال الشوكاني: أي لا يخاف عندي من أرسلته برسالتي فلا تخف أنت قيل ونفي الخوف عن المرسلين ليس في جميع الأوقات بل في وقت الخطاب لهم لأنهم إذ ذاك مستغرقون.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الرَّجَاءِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحاً وَلاَ يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً﴾ [الكهف:١١٠].

الشرح:

والشاهد من الآية أن من أسباب تحقق المرجو هو اتصاف الراجي بالعمل الصالح، وأعظم الأعمال الصالحة هو التوحيد والبعد عن التنديد.

وهذا داخل في قانون العمل بالأسباب وأن لكل غاية أسبابها المتعلقة بتحقيقها أو خسارتها.

ولهذا قال ابن القيم: ولهذا أجمع العارفون على أنَّ الرجاء لا يصحُّ إلَّا مع العمل اهـ

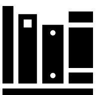
وقال أبو العتاهية:

لاتأمن الموت في طرف ولا نفس ... ولو تمنعت بالحجاب والحرس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة ... لكل مدرع منا ومترس
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها ... إن السفينة لا تجري على اليبس

الرجاء لغة:

هو الطمع والرغبة بنيل المحبوب

واصطلاحًا:



هو بذل السبب لنيل المطلوب وطمع القلب بوصوله وحصوله في الزمن القريب.

قال الإمام ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/ ٢٦٠):

الرجاءُ حادٍ يحدو القلوب إلى الله والدار الآخرة، ويطيب لها السَّير. وقيل: هو الاستبشار بوجود فضل الربِّ تعالى، والارتياح لمطالعة كرمه.

وقيل: هو الثقة بجود الربِّ.

والفرق بينه وبين التمنِّي: أن التمنِّي يكون مع الكسل، ولا يسلك بصاحبه طريق الجدِّ والاجتهاد، والرجاء يكون مع بذل الجهد وحسن التوكُّل. فالأوَّل كحال من يتمنَّى أن يكون له أرضٌ يَبْذُرها ويأخذ زرعها، والثاني كحال من يشقُّ أرضه ويَفْلَحها ويبذرها ويرجو طلوع الزرع.

ولهذا أجمع العارفون على أنَّ الرجاء لا يصحُّ إلَّا مع العمل. قال شاهُ الكرماني: علامة صحَّة الرجاء: حسن الطاعة.

والرجاء ثلاثة أنواع: نوعان محمودان، ونوعٌ غرور مذموم.

فالأوَّلان: رجاءُ رجلٍ عمل بطاعة الله على نورٍ من الله فهو راجٍ لثوابه، ورجلٍ أذنب ذنبًا ثمَّ تاب منه فهو راجٍ لمغفرته.

والثالث: رجلٌ مُتَمادٍ في التفريط والخطايا يرجو رحمة الله بلا عملٍ، فهذا هو الغرور والتمنِّي والرجاء الكاذب اهـ

قلت: وخلاصة تقسيم ابن القيم أن الرجاء ثلاثة أنواع:

- الأول: رجاء من عمل بالطاعة فهو يرجو الثواب على العمل وهو بعيد عن التقاعس والكسل
- الثاني: رجاء من أذنب وتاب من الذنب فهو يرجو المغفرة بتوبته والاقلاع عن معصيته.
- الثالث: رجاء من هو بعيد عن الطاعة ومتماد في المعصية ثم يرجو الثواب مع عدم العمل بالطاعة ويرجو المغفرة مع الدوام على المعصية، فهذا يسمى الغرور والرجاء الكاذب.

مسألة: هل الرجاء لايصرف لغير الله تعالى.

والجواب: رأيت بعض الشراح يقول: (والرجاء يتضمن التذلل والخضوع، فلا يكون إلا لله سبحانه وتعالى، وتعليق الرجاء بغير الله شرك) والصحيح هو التفصيل؛ فالرجاء على ثلاثة أقسام:

الرجاء الواجب: وهو الرجاء من الله تعالى سواء بشيء متعلق بدينك أو دنياك أو بدنك، ويجب أن يكون مع العمل بالأسباب المشروعة.

الرجاء الممنوع: وهو رجاء غير الله تعالى فيما لايقدر عليه إلا الله وحده لاشريك له فهذا شرك أكبر.

الرجاء الجائز: وهو رجاء المخلوق فيما يقدر عليه المخلوق وهذا جائز بثلاثة شروط:

- الحياة: فخرج الميت فلا يجوز أن ترجوه؛ فالموتى لايقدرون على شيء فمن اعتقد قدرتهم على شيء فقد أشرك

- الحضور: فخرج الغائب، فالغائب الذي لاتصل إليه ولا يصل إليك الأصل فيه هو العجز وعدم القدرة، كمن يقول: رجائي بك يافلان مع أنه غير موجود عن اعتقاد أنه يبلغه الرجاء فهذا شرك والعياذ بالله، وإنما أجاز العلماء بناء على التطور المعاصر أن يتصل به أو يراسله ويرجوه فيما يقدر عليه فهذا جائز.
- القدرة: فإذا كان حيًا حاضرًا فقد توفر فيه الشرط الأول والثاني وانتفى الشرط الثالث وهو القدرة فإن رجاء العاجز غير جائز، والعاجز على قسمين:

١- عجز ظاهر: كمن يرجو من عاثر رفع صخرة فهذا لايكون إلا عن اعتقاد فاسد.

٢- عجز خفي: كمن يرجو شيئًا من إنسان كان يظنه قادرًا فلما تبين له عدم قدرته ترك رجاءه، كمن يرجو من رجل شفاعة عن رجل ظنًا منه أن له كلمة عنده.

قال العلامة ابن باز كما في "فتاوى نور على الدرب" (٢/٩٨):

لا بأس أن تقول لأخيك: أرجو منك يا أخي أن تعطيني كذا، أو أرجو من والدي أن يعطيني كذا أو أرجو من والدتي أو أرجو من فلان صاحب له أن يعطيني أو أن يقرضني أو يعينني على كذا وكذا، لا بأس بهذا، لكن الشخص الذي لا يستطيع أو ليس من شأن الإنسان، لا يرجى منه، إنما هذا فيما يستطاع أرجو منه أن يقرضني كذا أرجو منه أن يعينني وهو يستطيع، أما أن تقول أرجو من الميت،

فلا. هذا شـرك أن رجوت أنه يعينك بكذا أو رجوت من الغائب الذي لا يسـمع كلامك، ولا تخاطبه، إنما تعتقد فيه أنه يسـاعدك، وهو ميت؛ إذا رجوته أو خفته هذا من الشـرك لا يجوز. أما إذا رجوته بمكاتبة وهو غائب، بالهاتف التليفون وهو غائب، أو خاطبته وهو حاضر، تقول: أرجو أن تقرضني كذا، أرجو أن تعينني على كذا وكذا؛ هذا لا حرج فيه، لأن دعاء الحاضر السامع فيما يقدر عليه، لا حرج فيه. كما قال الله سبحانه في قصة موسى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ﴾؛ لأن موسى قادر حاضر، فاستغاثه شخص من بني إسرائيل، على خصم له من القبط، فأغاثه موسى، فالمقصود أن الاستغاثة بالحي الحاضر، القادر مشافهة أو بالمكاتبة، لا حرج في ذلك إذا كان قادرا اهـ

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ التَّوَكُّلِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَعَلَى اللهِ فَتَوَكَّلُواْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٢٣]. وقوله: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣].

الشرح:

مسألة (١) في علاقة التوكل والإيمان:

والشاهد من الآية أن التوكل على الله تعالى شرط من شروط الإيمان، وبالتالي فعدم التوكل على الله دليل على عدم الإيمان والتوكل على غيره دليل على الكفر.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في "حاشية كتاب التوحيد" (صـ/٣٤):

أن التوكل فريضة يجب إخلاصه لله؛ فإن تقديم المعمول يفيد الحصر، أي ﴿وَعَلَى اللَّهِ فَتَوَكَّلُوا﴾ [المائدة: ٢٣] لا على غيره، فهو أجمع أنواع العبادة، وأعلى مقامات التوحيد، وأعظمها وأجلها؛ لما ينشأ عنه من الأعمال الصالحة، فإنه إذا اعتمد على الله في جميع أموره الدينية والدنيوية دون كل من سواه صح إخلاصه ومعاملته مع الله، ولذلك أمر الله به في غير آية من كتابه.

بل جعله شرطًا في الإيمان والإسلام، كما في الآية، وقوله: ﴿إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس: ٨٤] فدل على انتفاء الإيمان والإسلام بانتفائه اهـ

مسألة (٢) في تعريف التوكل:

تعريفه لغة: هو العجز والاعتماد على الغير.

واصطلاحًا: هو الحركة لتحقيق المطلوب ببذل السبب المشروع مع سكون القلب بتفويض الأمر لمن يدبر الأمر والخروج من الأمر حتى يقضى الأمر.

قال العلامة ابن عثيمين في "تفسير سورة الأحزاب" (صـ/٣٥٠):

«وقوله تعالى: ﴿وَدَعْ أَذَاهُمْ وَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ﴾ التَّوكُّل: ذَكَروا في حَدِّه أقوالًا مُتعَدِّدةً، ولكِنَّ أَقرَبَ ما يُقال فيه: إنه صِدْق الاعتِماد على اللَّه تعالى في جَلْب المَنافِعِ اهـ

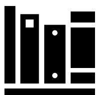
مسألة (٣) في حقيقة التوكل:

قال الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (صـ/٩١٥):

وحقيقة التوكّل: هو صدقُ اعتماد القلب على الله عز وجل في استجلاب المنافع ودفعِ المضارِّ من أمور الدنيا والآخرة كُلِّها، وكِلَةُ الأمور كلّها إليه، وتحقيق الإيمان بأنه لا يُعطي ولا يمنعُ ولا يَضرُّ ولا ينفع سواه اهـ.

قال العلامة السعدي في "القول السديد" (صـ/١٢٢):

وحقيقة التوكل على الله: أن يعلم العبد أن الأمر كله لله، وأنه ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، وأنه هو النافع الضار المعطي المانع، وأنه لا حول ولا قوة



إلا بالله، فبعد هذا العلم يعتمد بقلبه على ربه في جلب مصـــالح دينه ودنياه، وفي دفع المضـار، ويثق غاية الوثوق بربه في حصـول مطلوبه، وهو مع هذا باذل جهده في فعل الأسباب النافعة.

فمتى اســتدام العبد هذا العلم وهذا الاعتماد والثقة فهو المتوكل على الله حقيقة، وليبشـــر بكفاية الله له ووعده للمتوكلين، ومتى علق ذلك بغير الله فهو مشرك، ومن توكل على غير الله، وتعلق به، وكل إليه وخاب أمله اهـ

مسألة (٤) التوكل والأسباب:

قلت: وفي قوله ﷺ: (اعقلها وتوكل) إشـــارة لحقيقة التوكل أنه العمل بالأســباب الشــرعية ثم الثقة باختيار الله تعالى. وخلاصــة ذلك أن المتوكل يفوض الأمر لمن يدبر الأمر ويخرج من الأمر حتى يقضى الأمر.

قال شيخ الإسلام في "أمراض القلوب" (صـ/٥٣)

قال طائفة من العلماء: الالتفات إلى الأســباب شــرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا نقص في العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع وإنما التوكل المأمور به ما يجتمع فيه مقتضي التوحيد والعقل والشرع اهـ

وقال في "إقامة الدليل على ابطال التحليل" (٥/٤٩٢):

ولهذا قيل: الالتفات إلى الأســباب شــرك في التوحيد، ومحو الأســباب أن تكون أســبابا نقص في العقل، والإعراض عن الأســباب بالكلية قدح في الشــرع.

ولهذا قال الله تعالى: ﴿فَإِذَا فَرَغْتَ فَانْصَبْ ۝٧ وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ ۝٨﴾ [الشرح:٧-٨] اهـ

وقال في "بغية المرتاد" (صـ/٢٦٢) وفي "منهاج السنة النبوية" (٥/٢٥٥):

لهذا قال من نظر إلى هذين الانحرافين كأبي حامد وابي الفرج بن الجوزي وغيرهما في كتاب التوكل اعلم أن الالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد ومحو الأسباب أن تكون أسبابا تغيير في وجه العقل والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع اهـ

وقال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/١١٦):

وأجمع القوم على أن التوكل لا ينافي القيام بالأسباب فلا يصح التوكل إلا مع القيام بها وإلا فهو بطالة وتوكل فاسد اهـ

قال أبو العباس:

والخلاصة أن العمل بالأسباب لا ينافي التوكل بل هو منه، فدل أن ترك الأسباب ينافي التوكل، وهذا هو الفرق بين التوكل والتواكل، فالتوكل يكون مع القيام بالأسباب والتواكل يكون مع تركها.

مسألة (٥) التوكل والحسب:

عندما نقول: حسبنا الله ونعم الوكيل، فإننا نجمع بين الحسب والتوكل، والحسب في اللغة يأتي على أربعة أصول، والمراد به هنا: "الكفاية" أي: الله كافينا، ومنه قول تعالى عن الكفار: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا﴾ [المائدة: ١٠٤] أي: يكفيهم ما كان عليه آباؤهم

عما جاء به محمد ﷺ من عند الله تعالى. فدل أن من معاني الحسب بالمعنى اللغوي الكفاية.

وفي قول أهل الإيمان ﴿حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ [آل عمران:١٧٣] قضية كبيرة قد يغفل عنها الجاهل، وهي أنه كما أن التوكل لا يكون إلا على الله فإن الحسب لا يكون إلا الله كما قال تعالى: ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ [البقرة: ١٣٧] وعندما ألقي الخليل إبراهيم ﷺ في النار قال: "حسبني الله ونعم الوكيل" فدعا الله أن يكفيه شر تلك النار فجعلها الله تعالى عليه بردًا وسلامًا كما قال: ﴿قُلْنَا يَانَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَامًا عَلَى إِبْرَاهِيمَ﴾ [الأنبياء: ٦٩]

قال العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (٢/٥٩):

أن الله سبحانه حينما يذكر الحسب يخلصه لنفسه، قال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ رَضُوا مَا آتَاهُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ سَيُؤْتِينَا اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَرَسُولُهُ إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]، ففرق بين الحسب والإيتاء، وقال تعالى: ﴿قُلْ حَسْبِيَ اللَّهُ عَلَيْهِ يَتَوَكَّلُ الْمُتَوَكِّلُونَ﴾ [الزمر: ٣٨].

فكما أن التوكل على غير الله لا يجوز، فكذلك الحسب لا يمكن أن يكون غير الله حسبًا، فلو كان لجاز التوكل عليه، ولكن الحسب هو الله، وهو الذي عليه يتوكل المتوكلون اهـ.

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في "حاشيته على هذا المتن" (صـ/٦٠):

الحسب معناه الكافي. وهذه الآية دليل ثان ذكره المصنف رحمه الله على أن التوكل عبادة من أجل أنواع العبادة. فمعنى الآية ومن يتوكل على الله أي يعتمد عليه في أموره فهو كافيه. ومن كان الله كافيه فلا مطمع لأحد فيه. ولم يذكر تعالى للتوكل جزاء غير تولي كفايته العبد. فقال: ﴿فَهُوَ حَسْبُهُ﴾، ولم يأت في غيره من العبادات، فدل على عظم شأن التوكل وفضيلته، وأنه أجل أنواع العبادة. فصرفه لغير الله شرك أكبر اهـ

قلت: ومع ذلك فالمتوكل يكون الله حسبه كما قال تعالى: ﴿وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ فدل أن حسن التوكل على الله يتضمن الكفاية من الله ومن أخل بالاكتفاء بالله لم يكن من المتوكلين.

مسألة (٥) أقسام التوكل:

التوكل لا يكون إلا على الله تعالى وحده ولايجوز لأحد أن يتوكل على غير الله ولا يجوز لأحد أن يقول: توكلت على الله ثم على فلان؛ لأن التوكل شرط لصحة الإيمان فكان صرفه لغير الله تعالى من الشرك.

وعليه فهو على قسمين:

١- توكل مشروع: وهو التوكل على الله تعالى وحده لاشريك له، وحكمه واجب.

٢- توكل ممنوع: وهو التوكل على غير الله تعالى وهو محرم وداخل في الشرك ولا فرق بين التوكل على مخلوق مع الله أو من دون الله

فكله ممنوع، وإنما يقسمه العلماء لقسمين: قسم ممنوع وهو شرك أكبر وقسم ممنوع وهو شرك أصغر.

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في "حاشية كتاب التوحيد" (صـ/٣٤):

والتوكل قسمان:

- أحدهما: التوكل في الأمور التي لا يقدر عليها إلا الله، كالتوكل على الأموات والغائبين ونحوهم من الطواغيت، فهذا شرك أكبر.
- وأما التوكل على الأحياء الحاضرين والسلاطين ونحوهم فيما أقدرهم الله عليه، من رزق أو دفع أذى ونحو ذلك فهو نوع شرك أصغر اهـ

وقال العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (٢/٥٤):

والتوكل ينقسم إلى ثلاثة أقسام:

الأول: توكل عبادة وخضوع، وهو الاعتماد المطلق على من توكل عليه، بحيث يعتقد أن بيده جلب النفع ودفع الضر، فيعتمد عليه اعتماداً كاملاً مع شعوره بافتقاره إليه، فهذا يجب إخلاصه لله تعالى، ومن صرفه لغير الله فهو مشرك شركاً أكبر، كالذين يعتمدون على الصالحين من الأموات والغائبين، وهذا لا يكون إلا ممن يعتقد أن لهؤلاء تصرفاً خفياً في الكون، فيعتمد عليهم في جلب المنافع ودفع المضار.

الثاني: الاعتماد على شخص في رزقه ومعاشه وغير ذلك، وهذا من الشرك الأصغر، وقال بعضهم: من الشرك الخفي، مثل اعتماد كثير من الناس على

وظيفته في حصول رزقه، ولهذا تجد الإنسان يشعر من نفسه أنه معتمد على هذا اعتماد افتقار، فتجد في نفسه من المحاباة لمن يكون هذا الرزق عنده ما هو ظاهر، فهو لم يعتقد أنه مجرد سبب، بل جعله فوق السبب.

الثالث: أن يعتمد على شخص فيما فوض إليه التصرف فيه، كما لو وكلت شخصاً في بيع شيء أو شرائه، وهذا لا شيء فيه، لأنه أعتمد عليه وهو يشعر أن المنزلة العليا فوقه، لأنه جعله نائبًا عنه، وقد وكل النبي ﷺ على ابن أبي طالب أن يذبح ما بقي من هديه، ووكل أبا هريرة على الصدقة، ووكل عروة بن الجعد أن يشتري له شاة.

وهذا بخلاف القسم الثاني، لأنه يشعر بالحاجة إلى ذلك، ويرى اعتماده علي المتوكَّل عليه اعتماد افتقار.

ومما سبق يتبين أن التوكل من أعلى المقامات وأنه يجب على الإنسان أن يكون مصطحباً له في جميع شؤونه اهـ.

قلت: القسم الثالث داخل في الوكالة لا في التوكل كما سيأتي.

مسألة (٦) في الفرق بين التوكل والوكالة:

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في "حاشية كتاب التوحيد" (صـ/٣٤):

والمباح أن يوكل شخصا بالنيابة عنه في التصرف من أمور دنياه، فهذا جائز بالإجماع، لكن لا يقول: توكلت عليه، بل وكلته؛ فإنه ولو وكله فلا بد أن يتوكل في ذلك على الله اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (١١٨/١):

وهذا لا ينافي أن يوكل الإنسان إنساناً في شيء ويعتمد عليه، لأن هناك فرقاً بين التوكل على الإنسان الذي يفعل لك شيئًا بأمرك، وبين توكلك على الله، لأن توكلك على الله اعتقادك أن بيده النفع والضر، وأنك متذلل، معتمد عليه، مفتقر إليه، مفوض أمرك إليه اهـ.

مسألة (٧) في فضيلة التوكل:

قال الشيخ العلامة عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في "حاشية كتاب التوحيد" (ص/٣٤) عند قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ﴾ [الطلاق:٣]:

أي كافيه، وقد جعل الله سبحانه لكل عمل جزاء، وجعل جزاء التوكل عليه نفس كفايته، وإذا كان الله سبحانه نفسه كافيًا عبده المتوكل عليه وحسبه وواقيه فلا مطمع فيه لعدو، ولو توكل عليه حق توكله فكادته السماوات والأرض ومن فيهن لجعل له فرجًا ومخرجًا، ورزقه من حيث لا يحتسب.

وفيها دليل على فضل التوكل وأنه أعظم الأسباب في جلب المنافع ودفع المضار، والتنبيه بالقيام بالأسباب مع التوكل، فلا ينبغي للعبد أن يجعل توكله عجزًا، ولا عجزه توكلًا، بل يجعل توكله من جملة الأسباب التي لا يتم المقصود إلا بها اهـ.

مسألة (٨) في توكل المبتدعة:

قال العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (٥٥/٢):

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمة الله: "ولا يكون للمعطلة أن يتوكلوا على الله ولا للمعتزلة القدرية"، لأن المعطلة يعتقدون انتفاء الصـــفات عن الله تعالى، والإنســان لا يعتمد إلا على من كان كامل الصــفات المســتحقة لأنه يعتمد عليه، وكذلك القدرية؛ لأنهم يقولون: إن العبد مســـتقل بعمله، والله ليس له تصــرف في أعمال العباد ومن ثم نعرف أن طريق الســـلف هو خير الطرق، وبه تكمل جميع العبادات وتتم به جميع أحوال العابدين اهـ

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الرَّغْبَةِ، وَالرَّهْبَةِ، وَالْخُشُـــوعِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا يُسَـــارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً وَكَانُوا لَنَا خَاشِعِينَ﴾ [الأنبياء: ٩٠].

الشرح:

جمعت هذه الآية خمس عبادات عظيمة:

١- المسارعة في الخيرات.

٢- الدعاء.

٣- الرغبة.

٤- الرهبة.

٥- الخشوع.

وشـاهدنا من هذه الخمس ثلاث عبادات جمعت كوصـف لعبادة الدعاء: الرغبة والرهبة والخشـوع، أي: أن هؤلاء الأنبياء الذين ذكرهم الله تعالى في سـورة الأنبياء وهم: إبراهيم الخليل ولوط وإسحاق ويعقوب ونوح وداود وسليمان وأيوب وإسماعيل وإدريس وذا الكفل وذا النون وزكريا ويحيى كانوا يدعون الله تعالى دعاء يتضمن الرغبة بالحصول على المنافع والرهبة من وقوع المضار، وكانوا خاشعين في ذلك.

أولًا: عبادة الرغبة:

الرغبة لغة: لفظ يطلق على الشيء وضده، فالراغب في الشيء طامع فيه، والراغب عن الشيء زاهد فيه.

قال الراغب في "المفردات" (صـ/٣٥٨):

أصل الرَّغْبَةِ: السّعة في الشيء، يقال: رَغُبَ الشيء: اتّسع، وحوض رَغِيبٌ، وفلان رَغِيبُ الجوف، وفرس رَغِيبُ العَدْو. والرَّغْبَةُ والرَّغَبُ والرَّغْبَى: السّعة في الإرادة قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء:٩٠].

- فإذا قيل: رَغِبَ فيه وإليه يقتضي الحرص عليه، قال تعالى: ﴿إِنَّا إِلَى اللَّهِ رَاغِبُونَ﴾ [التوبة: ٥٩]
- وإذا قيل: رَغِبَ عنه اقتضى صرف الرّغبة عنه والزّهد فيه، نحو قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَرْغَبُ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ﴾ [البقرة: ١٣٠] ﴿أَرَاغِبٌ أَنْتَ عَنْ آلِهَتِي﴾ [مريم: ٤٦] اهـ

واصطلاحًا: الرغبة كما يقول بعض العلماء: نوع من الرجاء وهي أعلاه.

وهي بمعنى الطمع فيما عند الله وسؤال ذلك بالدعاء، لقوله تعالى: ﴿وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ﴾ [الشرح: ٨] أي اسأله مرغوباتك.

ثانيًا: عبادة الرهبة:

الرهبة لغة: يقول بعض العلماء: الرهبة نوع من الخوف وهو منتهاه.

وبعضهم يقول: إن خوف الرهبة فيه رقة، وهذا ثابت في اللغة؛ فإن نصل السهم

الرقيق يقال له: رهب. كما في "الصـــحاح" للجوهري (٢٧٢/١) وابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٤٤٧/٢)

قال الجوهري في "الصحاح في اللغة" (٢٧٢/١):

رهب بالكســـر، يرهب رهبة ورهبا بالضـــم، ورهبا بالتحريك، أي خاف. ورجل رهبوت. يقال: رَهَبُوتٌ خير من رَحَمُوتٌ. أي لأن تُرهب خير من أن تُرحم. وتقول: أرهبه واســترهبه، إذا أخافه. والراهب: واحد رهبان النصــارى، ومصــدره الرهبة والرهبانية. والترهب: التعبد اهـ.

وبين معنى ذلك الرازي في "مختار الصحاح" فقال (صـ/ ٢٦٧):

ورجل رَهَبُوتٌ بفتح الهاء أي مرهوب يقال: رهبوت خير من رحموت أي لأن تُرهب خير من أن تُرحم اهـ

وقال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٤٤٧/٢):

(رهب) الراء والهاء والباء أصــلان: أحدهما يدل على خوف، والآخر على دقة وخفة اهـ

واصــطلاحًا: الرهبة هي الخوف الحامل على الهرب من المفزعات والفرار من المكروهات، فإن كان الفرار إلى الله فهو توحيد، وإن كان إلى من ســـواه فهو الشرك والتنديد.

قال تعالى: ﴿وَإِيَّايَ فَارْهَبُونِ﴾ [البقرة:٤٠] أي: خافون. وتكون الرهبة مع رقة في القلب، والاقبال على العبادة؛ لأن الراهب هو العابد كما قال تعالى:

﴿ذَلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ [المائدة:٨٢] الرهبان هم العباد من النصارى، ولايقال للعابد المسلم: (إنه راهب) من أجل التميز وإلا فهو راهب من الحيثية اللغوية والشرعية دون مانع غير ما سبق.

ومن أدلة تعريف الرهب بالعبادة والراهب بالعابد قوله تعالى عن بعض النصارى: ﴿وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا﴾ [الحديد:٢٧] أي وعبادة ابتدعوها ﴿مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا﴾ [الحديد:٢٧] أي لم يكتبها الله عليهم وإنما ابتدعوها من عند أنفسهم بقصد ابتغاء رضوان الله وهذا من أوصف أهل الضلال أنهم يتعبدون بالبدع بقصد الطاعة ونيل الرضوان وإنما ينال الرضوان بالعبادة الشرعية لا البدعية.

وقال تعالى: ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ [التوبة:٣١] وقال تعالى: ﴿۞ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ كَثِيرًا مِنَ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ﴾ [التوبة:٣٤] أي علماءهم وعبادهم.

ولم يصب الشيخ علي الخضير بقوله: (متى تكون الرهبة شركاً؟ إذا طال خوفه من صاحب القبر مثلًا فهذا شرك أكبر) لأن من خاف من صاحب القبر فقد وقع في الشرك الأكبر طال خوفه أو قصر، ولهذا لم يكن هذا المثال موافق للصواب فلزم التنبيه.

الرغبة والرهبة
عبادتان متلازمتان وهما بمعنى
الخوف والرجاء

قيل: الرغبة رفع بطون الأكف إلى السماء، والرهبة رفع ظهورها إليها. ولم أقف على شاهد صحيح لصحة هذا المعنى.

قال العلامة القرطبي في "الجامع" (١١/ ٣٣٦):

أي يفزعون إلينا فيدعوننا في حال الرخاء وحال الشدة. وقيل: المعنى يدعون وقت تعبدهم وهم بحال رغبة ورجاء ورهبة وخوف، لأن الرغبة والرهبة متلازمان اهـ

وقال العلامة ابن القيم في "المدارج" (١/١٣٨):

وكذلك الرغبة والرهبة كل منهما ملتئم من الرجاء والخوف، والرجاء على الرغبة أغلب والخوف على الرهبة أغلب، وكل مقام من هذه المقامات فالسالكون بالنسبة إليه نوعان: أبرار ومقربون: فالأبرار في أذياله والمقربون في ذروة سنامه، وهكذا مراتب الإيمان جميعها وكل من النوعين لا يحصى تفاوتهم وتفاضل درجاتهم إلا الله اهـ

وقال في "المدارج" (١/٥١٢):

وأما الرهبة فهي الإمعان في الهرب من المكروه، وهي ضــد الرغبة التي هي سـفر القلب في طلب المرغوب فيه، وبين الرهب والهرب تناســب في اللفظ والمعنى يجمعهما الاشتقاق الأوسط الذي هو عقد تقاليب الكلمة على معنى جامع اهـ

وقال أبو عبدالرحمن السلمي في "آداب الصحبة" (صـ/٧٣):

سمعت أبا بكر محمد بن عبد الله يقول: سمعت الجريري يقول: «تعامل القرن الأول فيما بينهم بالدين زمانا طويلا حتى رق الدين، ثم تعامل القرن الثاني بالوفاء حتى ذهب الوفاء، ثم تعامل القرن الثالث بالمروءة حتى ذهبت المروءة، ثم تعامل القرن الرابع بالحياء حتى ذهب الحياء، ثم صـــار الناس يتعاملون بالرغبة والرهبة».

قال أبو عبد الرحمن: فكنت أستحســن هذه الحكاية لأبي محمد الجريري، فوجدت مثلها للشعبي فزادها حسنا اهـ

قال الغزالي في "إحياء علوم الدين" (٤/٨٤):

وقد روي ان وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شـــاب ليتكلم!! فقال عمر: الكبر الكبر!! فقال: يا أمير المؤمنين لو كان الأمر بالســـن لكان في المسـلمين من هو أسـكن منك. فقال: تكلم. فقال: لسـنا وفد الرغبة ولا وفد الرهبة؛ أما الرغبة فقد أوصـــلها إلينا فضـــلك، وأما الرهبة فقد آمننا منها عدلك، وإنما نحن وقد الشكر: جئناك نشكرك باللسان وننصرف فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته اهـ

وبعكس ابن القيم الذي يرى أن الرهبة ضـــد الرغبة، فإن الغزالي يرى أن الخوف ليس ضد الرجاء، بل هو صديق ملازم له. والذي يظهر أن كلاهما مصيب في قصـــده، وهذا مثل الدنيا والآخرة فهما في المعنى متضـــادان فتلك فانية وتلك باقية، ومع ذلك لايمكن نيل الأخرى إلا بالأولى.

قال الغزالي في "الإحياء" (٤/١٤٤):

والخوف ليس بضـد للرجاء بل هو رفيق له كما سـيأتي بيانه، بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة اهـ

قال أبو العباس:

قال تعالى: ﴿وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً﴾ [الأنبياء:٩٠]. أي يجمعون بين الخوف من العقاب والرجاء للثواب، وهذا هو طريق أهل الحق؛ فقد أمر الله عباده الصـــالحين بالجمع بين الأمرين فقـال: ﴿وَادْعُوهُ خَوْفًا وَطَمَعًا إِنَّ رَحْمَتَ اللَّهِ قَرِيبٌ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ٥٦] وقال تعالى: ﴿يَدْعُونَ رَبَّهُمْ خَوْفًا وَطَمَعًا وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [السجدة: ١٦] ففي الآية الأولى أمرهم بذلك وفي الثانية أخبر أنهم قاموا بذلك.

والخوف والطمع بمعنى الرغبة والرهبة: وفي الآية الأولى جعل الجمع بين الرغبة والرهبة داخل في الإحسـان الذي هو أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك. وفي الآية الثانية جعل النفقة ثمرة من ثمار تحقيق الرغبة والرهبة، وهذا كقوله تعالى: ﴿لِكَيْلَا تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلَا تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [الحديد: ٢٣] فالراغب بالآخرة لا يحزن على المفقود الدنيوي، والراهب

بالآخرة لا يفرح بالموجود الدنيوي، فالدنيا والآخرة لا تجتمعان ولكنهما متلازمتان فلا يمكن الفلاح بالآخرة إلا بالنجاح في الدنيا. وهناك من يربحهما معًا وهناك من يخسرهما معًا.

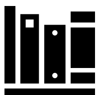
وقد بين النبي ﷺ الجمع بين العبادتين، فقد روى النسـائي والترمذي وابن ماجه من حديث أنس أن النبي ﷺ دخل على شـاب وهو في الموت فقال: (كيف تجدك) قال: أرجو الله وأخاف ذنوبي. فقال رسـول الله ﷺ: (لا يجتمعان في قلب عبد في مثل هذا الموطن إلا أعطاه الله ما يرجو وآمنه مما يخاف).

وقال العلامة ابن الأمير الصنعاني في "سـبل السـلام" (٢/٩٠): إسـناده جيد. وحسنه العلامة الألباني.

قال العلامة ابن عثيمين في "تفسير الصافات" (صـ/١٨٣):

فالإحسـان في عبادة الله لا نفسره بأحسـن من تفسـير رسول الله صلى الله عليه وسـلم حيث قال: "الإحسـان أن تعبد الله كأنَّك تراه، فإن لم تكن تراه فإنَّه يراك"

والعبادة في قوله: "أن تعبد الله كأنَّك تراه" عبادة طلب كأنَّك تراه، ومعلوم أن الله سبحانه وتعالى تشتاق إليه النفوس، فإذا كان يعبد الله كأنه يراه فسوف يلح في العبادة ليصـل إلى محبوبه وهو الله عز وجل، "فإن لم تكن تراه" يعني إن لم تصـل إلى هذه الدرجة وهي عبادة الرغبة والطلب، "فإنَّه يراك" فاعبده عبادة هرب وخوف منه، وهذا ليس كالأول؛ لأنَّ هذا يعبد الله خوفًا منه، والأول يعبده طمعًا، فالمرتبة الأولى أكمل من المرتبة الثَّانية اهـ



ثالثًا: عبادة الخشوع:

تعريفه لغة: الخشـــوع هو الخضـــوع والتطامن. والتخشـــع أي تكلف الخشـوع. كذا في "الصحاح" وفي "مختار الصحاح" والسكون ملازم للخشـوع؛ لأنه ضد الحركة والاضطراب.

وقال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٢/١٨٢):

(خشـــع) الخاء والشـــين والعين أصـــل واحد، يدل على التطامن. يقال: خشع، إذا تطامن وطأطأ رأسه، يخشع خشوعا. وهو قريب المعنى من الخضوع، إِلَّا أَنَّ الْخُضُوعَ فِي الْبَدَنِ وَالْإِقْرَارَ بِالِاسْتِخْذَاءِ، وَالْخُشُوعَ فِي الصَّوْتِ وَالْبَصَرِ. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣] اهـ

واصطلاحًا: هو الخضوع والتطامن بين يدي الله تعالى.

قال العلامة عبد الرحمن بن قاســم الحنبلي في "شـــرح الأصـــول الثلاثة" (صـ/٦٠):

وهو قريب من الخضـــوع إلا أن الخضـــوع في البدن والخشـــوع في القلب والبصر والصوت اهـ

مسألة: في محل الخشوع.

قال أبو العباس:

وقد اســتدل البعض بأن الخشـوع يكون في الجوارح وليس في القلب بقوله تعالى: ﴿خَاشِـعَةً أَبْصَــارُهُمْ﴾ [القلم: ٤٣] وقال: ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ ۝٨ أَبْصَــارُهَا خَاشِــعَةٌ﴾ [النازعات: ٨-٩] ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَاشِــعَةٌ﴾ [الغاشـية: ٢] وقال: ﴿وَخَشَــعَتِ

الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [طه:١٠٨] وقال: ﴿خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ﴾ [القمر:٧] وكل هذه الأدلة ليس فيها نفي خشوع القلب بل هي دلالة عليه؛ لأن خشوع الجوارح نابع عن خشوع القلب، وقد ثبت خشوع القلب في القرآن الكريم فبطل هذا الادعاء، فقال تعالى: ﴿أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ آمَنُوا أَنْ تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ اللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ الْحَقِّ﴾ [الحديد: ١٦] الذكر هو القرآن وخشوع القلوب أي تذل وتخضع وتلين للقرآن الكريم، فدل على احتمالين:

الأول: أن الخشوع على قسمين: ظاهر وباطن. أي في القلب وفي الجوارح.

الثاني: أن الخشوع يكون في القلب وتظهر ثمرته على الجوارح.

والذي يظهر أن الأول يدخل في الثاني والثاني يفسر الأول وأما من زعم أن الخشوع قد يكون في القلب دون الجوارح فإنه لم يضل لتفاوت الخشوع من إنسان لآخر، ولكن ذاك الذي زعم أن الخشوع قد يكون في الجوارح دون القلب فهذا قد أعظم الفرية؛ لأن كل ظاهر يخالف الباطن في العبادات فهو نفاق.

قال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/ ١٩٤):

وأجمع العارفون على أن الخشوع محله القلب، وثمرته على الجوارح، وهي تظهره اهـ

وقال الحافظ ابن رجب في "الخشوع في الصلاة" (صـ/١٢):

أصل الخشوع هو لين القلب ورقته أو سكونه وخضوعه وانكساره، فإذا خشع القلب تبعه خشوع جميع الجوارح والأعضاء، لأنها تابعة له كما قال ﷺ: (ألا

وإن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله ألا وهي القلب) [(٧)].

فإذا خشع القلب، خشع السمع والبصر والرأس، والوجه وسائر الأعضاء، وما ينشأ منها حتى الكلام، ولهذا كان النبي ﷺ يقول في ركوعه في الصلاة: (خشع لك سمعي وبصري ومخطي وعظمي) [(٨)] وفي رواية (وما استقلت به قدمي) [(٩)] اهـ

قال الراغب في "المفردات في غريب القرآن" (صـ/٢٨٣):

الخُشُـوع: الضّـراعة، وأكثر ما يسـتعمل الخشـوع فيما يوجد على الجوارح. والضّراعة أكثر ما تستعمل فيما يوجد في القلب اهـ

---

(٧) جزء من حديث متفق عليه عن النعمان بن بشير رضي الله عنه

(٨) رواه مسلم عن أمير المؤمنين علي بن ابي طالب رضي الله عنه برقم (١٨٤٨)

(٩) ابن حبان في "الصحيح" (١٩٠١) وابن خزيمة في "الصحيح" (٦٠١) وأحمد في "المسند" (٩٦٠) وصححه العلامة أحمد شاكر، والعلامة الألباني في "صفة الصلاة" (١/١٣٣)

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الْخَشْيَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾ [البقرة:١٥٠].

الشرح:

الخشية لغة: هي الخوف. ويقال للرجل: خشي أي خاف بمعنى خشيان. وللمرأة: خشيت أي خافت بمعنى خشياء. ويجمع للمذكر: خشينا. وللمؤنث: خشين. هذا موجز ما ذكره الجوهري في "الصحاح" والرازي في "مختار الصحاح"

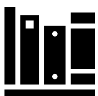
وتأتي الخشية بمعنى العلم كما سيأتي.

واصطلاحاً: خشيه أي خافه واتقاه، فهي بمعنى الخوف من الله خوفًا يقتضي الحيلولة بينه وبين معصيته. ويمكن تلخيص ذلك بقول: هي الخوف واتقاء المخوفات.

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي في "حاشيته على الأصول الثلاثة" (صـ/٦٢):

فعلة من خشيه خافه واتقاه، فهي بمعنى الخوف، لكنها أخص منه وهي من أجل أنواع العبادة وصرفها لغير الله شرك أكبراهـ

قال سَعِيد بْن جبير: إن الخشية أن تخشى الله حَتَّى تحول خشيتك بينك وبين معصيتك، فتلك الخشية. ذكر ذلك عنه أبو نعيم في "الحلية" (٤/٢٧٦)



والمزي في "تهذيب الكمال" (١٠/٣٦٥) والذهبي في "السير" (٤/٣٢٦) و (٥/١٨٩)

المسألة (١): هل الخشية لا تكون إلا مع العلم؟

اعلم بارك الله فيك أن العلماء في هذه المسألة على قسمين:

الأول: أن الخشية لا تكون إلا مع العلم.

دليلهم الأول: قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] والشاهد منها قوله: (إنما) الدالة على الحصر، فدل منطوق النص على اختصاص العلماء بالخشية، لأن العلم الذي اكتسبوه عرفهم معنى الربوبية ومن عرف الرب حق المعرفة خشاه حق الخشية. وبالتالي فإن دلالة المفهوم دلت أن الجاهل ليس من أهل الخشية.

قال القشري في "لطائف الإشارات" (٦/٣٣٩):

إنما. كلمة تحقيق تجري من وجهٍ مجرى التحديد أي التخصيص والقَصْر، فَمَنْ فَقَدَ العِلْمَ بالله فلا خشيةَ له من الله اهـ.

وقال العلامة البقاعي في "نظم الدرر في تناسب الآيات والسور" (٦/٢٢٢):

العلماء: أي لا سواهم وإن كانوا عباداً وإن بلغت عبادتهم ما عسى أن تبلغ، لأنه لا يخشى أحد أحداً إلا مع معرفته، ولا يعرفه جاهل، فصار المعنى كأنه قيل: إنما ينفع الإنذار أهل الخشية، وإنما يخشى العلماء، والعالم هو الفقيه العامل بعلمه، قال السهرودي في الباب الثالث من عوارفه: فينتفي العلم عمن لا يخشى

الله، كما إذا قال: إنما يدخل الدار بغدادي، فينتفي دخول غير البغدادي الدار هذا معنى القراءة المشهورة اهـ.

دليلهم الثاني: قوله تعالى: ﴿فَقُلْ هَل لَّكَ إِلَىٰ أَن تَزَكَّىٰ ۝١٨ وَأَهْدِيَكَ إِلَىٰ رَبِّكَ فَتَخْشَىٰ ۝١٩﴾ [النازعات: ١٨-١٩]

قال ابن عطية في "المحرر الوجيز" (٥/٤٠٥):

ثم أمر موسى أن يفسر له التزكي الذي دعاه اليه بقوله "وأهديك الى ربك فتخشى" والعلم تابع للهدى والخشية تابعة للعلم ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ اهـ

دليلهم الثالث: وقد أكد مذهبهم الحديث النبوي الذي رواه أحمد وعبد بن حميد من حديث عائشة أن ﷺ قال: (والله إني لأعلمكم بالله عز وجل، وأخشاكم له) فدل أن العلم يجلب الخشية وأنه كلما زاد العلم زادت الخشية وبالتالي نقصان العلم نقصان في الخشية فإذا وصل النقصان لمنزلة الجهل انتفت الخشية بانتفاء العلم.

دليلهم الرابع: روى مسلم عن سعد بن أبي وقاص قال: قال رسول الله ﷺ: (لا يزال أهل الغرب ظاهرين على الحق حتى تقوم الساعة). وأهل الغرب أي أهل الخشية والحق لا يكون إلا بالعلم، فأكد الحديث على قضية ارتباط الخشية بالعلم وعدم انفكاكها عنه.

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (٨/٢٩٧):

فمعنى (لا يزال أهل الغرب) أي لا يزال أهل فيض الدمع من خشـــية الله عن علم به وبأحكامه ظاهرين اهـ

دليلهم الخامس: قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [فاطر: ١٨] وقد جاء في القرآن الكريم ﴿الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ في ثلاث مواطن كلها تشـير لعلمهم

١- ﴿الَّذِينَ يَخْشَـــوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَهُمْ مِنَ السَّـــاعَةِ مُشْـــفِقُونَ﴾ [الأنبياء:٤٩] فإشـــفاقهم من الســـاعة دليل على علمهم بها وأهوالها وأحوالها.

٢- ﴿إِنَّمَا تُنْذِرُ الَّذِينَ يَخْشَـوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّـلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِـــهِ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِـــيرُ﴾ [فاطر:١٨] والخشـــية هنا متعلقة بالغيب وإقامة الصـــلاة والتزكي، وكل هذه غير متحققة بالجهل فمن حققها بالعلم خشي ومن لم يحققها بالعلم لم يخش.

٣- ﴿إِنَّ الَّـذِينَ يَخْشَـــوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْـبِ لَهُمْ مَغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ [الملك:١٢] أن الخشـــية بالغيب في حد ذاتها دليل على العلم لأن الخاشـــي بالغيب يعلم أن الله مطلع عليه ورقيب عليه وأنه لاتخفى عليه خافية.

قال العلامة الشـوكاني في كتابه "فتح القدير الجامع بين فني الرواية والدراية من علم التفسير" (٤/ ٤٩٤):

على معنى إنما يخشاه سبحانه بالغيب العالمون به وبما يليق به من صفاته الجليلة وأفعاله الجميلة وعلى كل تقدير فهو سبحانه قد عين في هذه الآية أهل خشيته وهم العلماء به وتعظيم قدرته اهـ

دليلهم السادس: وهو الدليل اللغوي لمعنى الخشية؛ فقد قال أهل اللغة بارتباط الخشية بالعلم.

قال ابن فارس "معجم مقاييس اللغة" (٢/١٨٤):

الْخَاءُ وَالشِّينُ وَالْحَرْفُ الْمُعْتَلُّ يَدُلُّ عَلَى خَوْفٍ وَذُعْرٍ، ثُمَّ يُحْمَلُ عَلَيْهِ الْمَجَازُ. فَالْخَشْيَةُ الْخَوْفُ. وَرَجُلٌ خَشْيَانُ. وَخَاشَانِي فُلَانٌ فَخَشَيْتُهُ، أَيْ كُنْتُ أَشَدَّ خَشْيَةً مِنْهُ. وَالْمَجَازُ قَوْلُهُمْ خَشِيتُ بِمَعْنَى عَلِمْتُ. قَالَ الشاعر:

وَلَقَدْ خَشِيتُ بِأَنَّ مَنْ تَبِعَ الْهُدَى ... سَكَنَ الْجِنَانَ مَعَ النَّبِيِّ مُحَمَّدِ

أَيْ عَلِمْتُ. وَيُقَالُ: هَذَا الْمَكَانُ أَخْشَى مِنْ ذَلِكَ، أَيْ أَشَدُّ خَوْفًا اهـ.

قلت: وقولهم: خشيت بمعنى علمت يؤكد أن الخشية لاتنفك عن العلم، وقد جاء هذا عن بعض العلماء في تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف: ٨٠]

قالوا: خشينا أي علمنا.

لكن قد اختلفوا في القائل هل هو الله تعالى أم الخضر عليه السلام، فعلى القول إنه الله تعالى فخشينا بمعنى علمنا، وعلى القول إنه الخضر عليه السلام فخشينا بمعنى خفنا عند البعض وعلمنا عند البعض.

قال العلامة القرطبي في "الجامع" (١١/٣٦):

قال الطبري: معناه فعلمنا؛ وكذا قال ابن عباس أي فعلمنا، وهذا كما كني عن العلم بالخوف في قوله ﴿إِلاَّ أَنْ يَخَافَا أَلاَّ يُقِيمَا حُدُودَ اللَّهِ﴾ وحكي أن أبيا قرأ "فعلم ربك" وقيل: الخشـــية بمعنى الكراهة؛ يقال: فرقت بينهما خشـــية أن يقتتلا؛ أي كراهة ذلك اهـ

الثاني: أن الخشية قد تكون بغير العلم.

ومراد هؤلاء أن الخشـــية قد تكون مع العلم وقد تكون بغير العلم، أي أن العلم ليس شرطًا في الخشية، ولهم أدلة على ذلك:

ومنها قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ جَاءَكَ يَسْـعَى ﴿٨﴾ وَهُوَ يَخْشَـــى ﴿٩﴾ فَأَنْتَ عَنْهُ تَلَهَّى ﴿١٠﴾﴾ [عبس: ٨-١٠] والشـــاهد من الآيات أن ابن أم مكتوب لم يكن مســـلمًا حينها فانتفى عنه العلم مع ثبوت الخشية فدل أن الخشية قد تكون بغير علم.

والجواب: أنه لم يأت إلى النبي ﷺ إلا بعد معرفته بدعوته وتصـــــديقه بها وحبه لها ولهذا جاء إلى النبي ﷺ بقصد الدخول في الإسلام.

ومنها: قوله تعالى: ﴿إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَخْشَـوْنَ النَّاسَ كَخَشْـيَةِ اللَّهِ أَوْ أَشَـدَّ خَشْـــيَةً﴾ [النســـاء: ٧٧] وقـال تعـالى: ﴿وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْـــيَةَ إِمْلَاقٍ﴾ [الإسراء:٣١] وقال تعالى: ﴿قُلْ لَوْ أَنْتُمْ تَمْلِكُونَ خَزَائِنَ رَحْمَةِ رَبِّي إِذًا لَأَمْسَكْتُمْ خَشْيَةَ الْإِنْفَاقِ﴾ [الإســراء:١٠٠] وقـال تعـالى: ﴿يَقُولُونَ نَخْشَـــى أَنْ تُصِـــيبَنَا دَائِرَةٌ﴾

[المائدة:٥٢] وغيرها من الآيات الدالة على ثبوت الخشـية في العصـاة الكفار وقد يقع فيها العصاة من المسلمين.

الراجح: لاشك أن القول الأول أقوى لخمسة أسباب:

الأول: لأن أدلته صـريحة في علاقة الخشـية بالعلم والعلم بالخشـية، والنص المبين مقدم على النص المبهم، والنص المبهم يحمل على النص المبين. كما أن المجمل يحمل على المفصل، والمتشابه يرجع إلى المحكم.

الثـاني: أن هـذه النصـــوص وغيرهـا لا تتعـارض مع القول الأول؛ لأن أصـــحاب القول الأول يقررون قاعدة انتفاء العلم عن العالم الذي لا يعمل بعلمه وهم مع ذلك يســمونه بعالم الســوء، فكان جهله من قبيل عدم المعرفة الحقيقية لا عدم مجرد المعرفة.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْـتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَرَوْا بِهِ أَنْفُسَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢].

فقال: (ولقد علموا) وقال: (لو كانوا يعلمون) فأثبت العلم ونفاه في أمر واحد وهو الشراء والمراد به تعاطي السحر، فدل أن العالم بالشيء قد يكون جاهل فيه. فهم يعلمون أن تعاطيهم للســحر خســارة لهم في الآخرة وهم مع ذلك يجهلون حقيقة تلك الخسارة.

وبتعبير آخر: فالعلم الذي أثبته الله لهم هو العلم الذي يرفع عنهم العذر بالجهل والذي تقوم به الحجة عليهم، والعلم الذي نفاه عنهم هو العلم الموجب

للخشــــية من الله تعالى، فدل أن العلم الموجب للخشــــية هو العلم الذي انتفع به صاحبه فاقترن بالعمل.

وهذا لخصـه العلامة ابن القيم فقال في "شـفاء العليل في مسـائل القضـاء والقدر والحكمة والتعليل" (٢/٦٢)

وهذا نكتة المسـألة وسـرّ الجواب، فما دخل النار إلا عالم، ولا دخلها إلا جاهل اهـ

الثالث: أن الخشية على قسمين:

١- الخشـية من الخالق: وأصـحابها هم العارفون بالله فهي خشـية تزيد بزيادة العلم وتنقص بنقصانه.

٢- الخشـية من المخلوق: وهذا القسـم لاعلاقة له بالعلم؛ لأنه بمعنى الخوف من شــــيء معين قد يكون عن علم وقد يكون عن جهل بحسب الخاشي والمخشي منه.

الرابع: أن الله تعالى وصـف الكفار بالجهل والجهالة وأثبت أن الحجة أقيمت عليهم ووصـــفهم بالعلم فقـال تعـالى: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْـدَادًا وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٢٢] وقال تعالى: ﴿وَلَا تَلْبِسُـــوا الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُوا الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:٤٢] وقـال تعـالى: ﴿لِتَـأْكُلُوا فَرِيقًـا مِنْ أَمْوَالِ النَّـاسِ بِالْإِثْمِ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة:١٨٨] وقال تعالى: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُـــونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٧١]

وحاصـــل ذلك أن هؤلاء الكفار بلغهم العلم ومع ذلك فهم جهال ليس لفقد العلم فما أقيمت عليهم الحجة إلا بالعلم، وإنما كان جهلهم لعدم عملهم بالعلم؛ فالعالم هو العامل بعلمه، وقد وصـــف الله تعالى من لم يعمل بعلمه بالحمار وهو وصف أشد من الجهل فالحمار جاهل وزيادة.

قال تعالى: ﴿مَثَلُ الَّذِينَ حُمِّلُوا التَّوْرَاةَ ثُمَّ لَمْ يَحْمِلُوهَا كَمَثَلِ الْحِمَارِ يَحْمِلُ أَسْـــفَارًا بِئْسَ مَثَلُ الْقَوْمِ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [الجمعة: ٥] والتكذيب بالآيات يعني أن الآيات بلغتهم وإنما كذبوا بها كبرًا واعراضًـــا عنها.

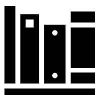
الخامس: أن قوله: (إنما يخشـــى) لاتفيد الحصـــر في كل حال وإنما بحســـب الحال.

قال ابن عطية الأندلســـي في المحرر الوجيز في تفســـير الكتاب العزيز (٤/٥٠٢):

وإنما في هذه الآية تخصـــيص "العلماء" لا للحصـــر، وهي لفظة تصـــلح للحصـــر وتأتي أيضًـــا دونه، وإنما يعلم ذلك بحســـب المعنى الذي جاءت فيه، فإذا قلت: إنما الشجاع عنترة. وإذا قلت: إنما الله إله واحد بان لك الفرق فتأمله اهـ

قلت: "إنما الشـجاع عنترة" أي من أشـجعهم. و "إنما الله إله واحد". تعني الحصر.

المسألة (٢) هل العلم دليل على الخشية أم الخشية دليل على العلم؟



القول الأول: العلم دليل على الخشية

قال ابن عطية الأندلسـي في المحرر الوجيز في تفسـير الكتاب العزيز (٤/٥٠٢):

قال القاضـي أبو محمد: وقال بعض المفسرين: "الخشـية رأس العلم" وهذه عبارة وعظية لا تثبت عند النقد بل الصحيح المطرد أن يقال: "العلم رأس الخشية" وسببها والذي ورد عن النبي ﷺ أنه قال: (خشـية الله رأس كل حكمة) (١٠) وقال ﷺ: (رأس الحكمة مخافة الله) (١١) فهذا هو الكلام المنير.

وقال ابن عباس في تفسـير هذه الآية: كفى بالزهد علمًا. وقال مسـروق: وكفى بالمرء علمًا أن يخشى الله.

وقال تعالى ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى﴾ [الأعلى:١٠] وقال النبي ﷺ: (أعلمكم بالله أشدكم له خشية) (١٢)

---

(١٠) قال العلامة الألباني في "الضعيفة" (٤/٨٦) (ح ١٥٨٣): ضعيف: أخرجه ابن أبي الدنيا في "الورع" (١/١٥٩) وأبو نعيم في "الحلية" (٢/٣٨٧) والقضاعي في "مسند الشهاب" (٥/٢) وابن الجوزي في " ذم الهو ى " (٥٩٥) اهـ

(١١) البيهقي في "شعب الإيمان" (٧٤٤) وضعفه العلامة الألباني في "ضعيف الجامع" (٣٠٦٦).

(١٢) لم أجده بهذا اللفظ ويغني عنه الحديث الذي سبق في أدلة المسألة الأولى

وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله فليس بعالم. ويقال: إن فاتحة الزبور رأس الحكمة خشية الله. وقال ابن مسعود: كفى بخشية الله علمًا وبالاغترار به جهلًا. وقال مجاهد والشعبي: إنما العالم من يخشى الله اهـ.

وقال الإمام السمعاني في "التفسير" (٤/ ٣٥٧)

ومن المعروف في الآثار: "رأس العلم خشية الله". إلى أن قال: ويقال: خف الله بقدر قدرته عليك، واستح من الله بقدر قربه منك اهـ

القول الثاني: الخشية دليل على العلم

وقد تعقب ابن عرفة على نقد ابن عطية ورد عليه بالدليل الذي استدل به، مرجحًا أن الخشية هي الدليل على العلم، وليس العلم هو الدليل على الخشية.

قال ابن عرفة كما في "التفسير" (٣/ ٣٣٤):

قال بعض: "الخشية رأس العلم"، والصحيح العكس انتهى. بل الصواب الأول للحديث الذي ذكره اهـ

وتبع ابن عرفه في رد انتقاد ابن عطية تلميذه البسيلي في تفسيره "نكت وتنبيهات" (٣/٤٣٧)

الراجح:

والظاهر الذي تشهد له الأدلة أن الخشية دليل على العلم؛ فليس كل عالم يخشى الله ولكن كل من يخشى الله فهو عالم. وبسبب تفاوت أهل الخشية بالعلم تتفاوت الخشية.

ومع ذلك فالعبارة المتنازع فيها هل "العلم رأس الخشية" أم "الخشية رأس العلم"؟ عند النظر بإمعان والفكر بإيعان نجد أن العبارتين قد تتوجهان لنفس المعنى!!

فقولهم: العلم رأس الخشية: يتوجه على أن الخشية المتحققة في الخاشي على رأسها العلم فهو الموصل لها.

وقولهم: الخشية رأس العلم: يتوجه على أنه لاينال الخشية إلا من بلغ من العلم رأسه، أي أنه ليس كل علم يسبب الخشية بل من علم العلم على حقيقته نال ذلك.

وأضرب مثالًا قد يوضح المسألة بجلاء فنجعل العلماء ثلاثة:

الأول: عالم بالفقه أفنى عمره بالتفنن في معرفة الفقه بأصوله وقواعده، وتفنن بأصول المذاهب وغيرها، ولكنه غير عالم بالعقيدة والتوحيد!! أو على أقل تقدير غير متوسع بعلم العقيدة والتوحيد. فهذا كثير المعرفة بشرع الله تعالى ولكنه قليل المعرفة بالله سبحانه. ولهذا قد يكون قليل الخشية.

الثاني: عالم متبحر بعلم العقيدة والتوحيد، متفنن بمعرفة الآيات الشرعية والكونية، ومتبحر في النظر في الحقائق الشرعية ودلالتها على الحقائق الكونية، متدبر بالنظر في مخلوقات الله تعالى من الشجر والمطر والمؤثر والأثر، والقضاء والقدر، وعالم بمعني الألوهية ومعاني الربوبية ومعاني الأسماء والصفات.

وهذا قد يكون قليل الحظ من علوم الفقه والاستنباطات الشرعية ولكنه بحظه الوافر من علوم العقيدة والتوحيد رزق المعرفة بالله تعالى ولهذا فهو كثير الخشية.

الثالث: عالم ومتبحر بالعلوم العلمية والعملية معًا، وهذا أجل من القسمين السابقين، كما أن هذا القسم متفاوت فقد يكون حظه من التوحيد أكثر وقد حظه من الفقه أكثر، والأصل أن من كان حظه من العقيدة والتوحيد أكثر كانت معرفته بالخالق أكثر وبالتالي كان بالله أخشى.

وخلاصة ذلك أن الخشية تكون بقدر المعرفة بالله تعالى لا المعرفة بشرعه دون المعرفة به.

والعبارة الأولى هي الأظهر بدون توجيه وعليها جرت عبارات أكثر العلماء.

قال العلامة ابن كثير في "التفسير" (١/١٦٥):

والخشية خلاصة الإيمان والعلم اهـ

وقال في "التفسير" (٦/٥٤٤):

كلما كانت المعرفة للعظيم القدير العليم الموصوف بصفات الكمال المنعوت بالأسماء الحسنى كلما كانت المعرفة به أتمّ والعلم به أكمل، كانت الخشية له أعظم وأكثر اهـ

ومما جاء في كتب التفسير:

- وقال الربيع بن أنس: من لم يخش الله تعالى فليس بعالم.
- وقال مجاهد: إنما العالم من خشي الله عز وجل.
- وعن ابن مسعود: كفى بخشية الله تعالى علمًا وبالاغترار جهلًا.
- وقيل لسعد بن إبراهيم: من أفقه أهل المدينة؟ قال: أتقاهم لربه عز وجل.
- وعن مجاهد قال: إنما الفقيه من يخاف الله عز وجل.

وروى المروزي في تعظيم قدر الصلاة بسنده عن الربيع بن أنس، عن بعض، أصحابه، قال (٧٤٤):

علامة حب الله كثرة ذكره، وعلامة الدين الإخلاص لله، وعلامة العلم الخشية لله، وعلامة الشكر الرضا بقضاء الله والتسليم لقدره اهـ

تحقيق العلامة ابن القيم لهذه المسألة والإجابة على بعض الشبهات

وقام العلامة ابن القيم بتحرير هذه المســـألة في كتابه "شـــفاء العليل" (١/١٧١):

قال قتادة: أجمع أصحاب رسول الله ﷺ على أن كل ما عصي الله به فهو جهالة عمدًا كان أو لم يكن، وكل من عصى الله فهو جاهل. وقال مجاهد من شيخ أو شاب فهو بجهالة.

وقال: من عصى ربه فهو جاهل حتى ينزع عن خطيئته. وقال هو وعطاء: الجهالة العمد. وقال مجاهد: من عمل سوأ خطأ أو عمدًا فهو جاهل حتى ينزع منه.

ذكر هذه الآثار ابن أبي حاتم، ثم قال: وروي عن قتادة وعمرو بن مرة والثوري نحو ذلك خطأ أو عمدًا. وروي عن مجاهد والضحاك: ليس من جهالته أن لا يعلم حلالًا ولا حرامًا ولكن من جهالته حين دخل فيه.

وقال عكرمة: الدماء كلها جهالة.

ومما يبين ذلك قوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ وكل من خشيه فأطاعه بفعل أوامره وترك نواهيه فهو عالم، كما قال تعالى ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاءَ

اللَّيْلِ سَاجِدًا وَقَائِمًا يَحْذَرُ الْآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [الزمر: ٩]

وقال رجل للشعبي: أيها العالم!! فقال: لسنا بعلماء، إنما العالم من يخشى الله.

وقال ابن مسعود: وكفى بخشية الله علمًا وبالإغترار بالله جهلًا.

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ يقتضي الحصر من الطرفين: أن لا يخشاه إلا العلماء. ولا يكون عالمًا إلا من يخشاه. فلا يخشاه إلا عالم وما من عالم إلا وهو يخشاه، فإذا انتفى العلم انتفت الخشية وإذا انتفت الخشية دلت على انتفاء العلم.

لكن وقع الغلط في مسمى العلم اللازم للخشية حيث يظن أنه يحصل بدونها، وهذا ممتنع؛ فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه، وأحسن أحواله أن يكون معه ظن لا يصل إلى رتبة العلم اليقيني.

فإن قيل: فهذا ينتقض عليكم بمعصية إبليس فإنها كانت عن علم لا عن جهل، وبقوله: ﴿وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى﴾ [فصلت:١٧] وقال: ﴿وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ٥٩] وقال عن قوم فرعون: ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا﴾ [النمل: ١٤] وقال: ﴿وَعَادًا وَثَمُودَ وَقَدْ تَبَيَّنَ

لَكُمْ مِنْ مَسَاكِنِهِمْ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ وَكَانُوا مُسْتَبْصِرِينَ﴾ [العنكبوت: ٣٨] وقال موسى لفرعون: ﴿لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ بَصَائِرَ﴾ [الإسراء:١٠٢] وقال: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِلَّ قَوْمًا بَعْدَ إِذْ هَدَاهُمْ حَتَّى يُبَيِّنَ لَهُمْ مَا يَتَّقُونَ﴾ [التوبة: ١١٥] وقال: ﴿الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمُ﴾ [الأنعام:٢٠] يعني القرآن أو محمدًا ﷺ وقال: ﴿يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَلْبِسُونَ الْحَقَّ بِالْبَاطِلِ وَتَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧١] وقال: ﴿فَإِنَّهُمْ لَا يُكَذِّبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بِآيَاتِ اللَّهِ يَجْحَدُونَ﴾ [الأنعام: ٣٣] والجحود إنكار الحق بعد معرفته وهذا كثير في القرآن.

قيل: حجج الله لا تتناقض، بل كلها حق يصدّق بعضها بعضًا، فإذا كان سبحانه قد أثبت الجهالة لمن عمل السوء وقد أقرّ به وبرسالته، وبأنه حرّم ذلك، وتوعّد عليه بالعقاب، ومع ذلك فَحَكَم عليه بالجهالة التي لأجلها عمل السوء، فكيف بمن أشرك به وكفر بآياته وعادى رسله، أليس ذلك أجهل الجاهلين؟!

وقد سمّى تعالى أعداءه جاهلين بعد إقامة الحجة عليهم، فقال: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ [الأعراف: ١٩٩]، فأمره بالإعراض عنهم بعد أن أقام عليهم الحجة، وعلموا أنه صادق.

وقال تعالى: ﴿خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا ﴿٦٣﴾﴾ [الفرقان: ٦٣]، فالجاهلون هنا الكفار الذين علموا أنه رسول الله.

فهذا العلم لا ينافي الحكم على صـاحبه بالجهل، بل يُثبِت له العلم، ويَنفي عنه في موضـع واحد، كما قال تعالى عن السـحرة من اليهود: ﴿وَلَقَدْ عَلِمُوا لَمَنِ اشْـتَرَاهُ مَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ خَلَاقٍ وَلَبِئْسَ مَا شَـرَوْا بِهِ أَنْفُسَـهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ١٠٢]، فأثبت لهم العلم الذي تقوم به عليهم الحجة، ونفى عنهم العلم النافع الموجِب لترك المضار.

وهذا نكتة المسـألة وسـرّ الجواب، فما دخل النار إلا عالم، ولا دخلها إلا جاهل.

وهذا العلم يجتمع مع الجهل في الرجل الواحد، يوضـحه: أن الهوى والغفلة والإعراض تصـدّ عن كماله واسـتحضـاره ومعرفة موجبه على التفصـيل، وتقيم لصاحبه شبهًا وتأويلات تعارضه، فلا يزال المقتضي يضعف والمعارض يعمل عمله حتى كأنه لم يكن، ويصير صاحبه بمنزلة الجاهل من كل وجه.

- فلو علم إبليس أنّ تركه السـجود لآدم يبلغ به ما بلغ، وأنه يوجب له أعظم العقوبة، وتيقن ذلك؛ لم يتركه، ولكن حال الله بينه وبين هذا العلم ليقضي أمره، وينفذ قضاءه وقدره.
- ولو ظنَّ آدم وحواء أنهما إذا أكلا من الشـجرة خرجا من الجنة، وجرى عليهما ما جرى؛ ما قرباها.
- ولو علم أعداء الرسـل تفاصـيل ما جرى عليهم، وما يصـيبهم يوم القيامة وجزموا بذلك؛ لما عادوهم.

قال تعالى عن قوم لوط: ﴿وَلَقَدْ أَنْذَرَهُمْ بَطْشَتَنَا فَتَمَارَوْا بِالنُّذُرِ﴾ [القمر:٣٦]. وقال تعالى: ﴿وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ [سبأ: ٥٤]. وقال عن المنافقين وقد شاهدوا آيات الرسول وبراهين صدقه عيانًا: ﴿وَارْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ﴾ [التوبة:٤٥]، وقال: ﴿وَلَكِنَّكُمْ فَتَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَتَرَبَّصْتُمْ وَارْتَبْتُمْ وَغَرَّتْكُمُ الْأَمَانِيُّ﴾ [الحديد: ١٤]، وقال: ﴿فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ﴾ [البقرة: ١٠]، وهو مرض الشك.

ولو كان هذا لعدم العلم الذي تقوم به الحجة عليهم لما كانوا في الدرك الأسفل من النار، بل هذا بعد قيام الحجة عليهم وعلمهم الذي لم ينفعهم، فالعلم يضعف قطعًا بالغفلة والإعراض واتباع الهوى وإيثار الشهوات، وهذه الأمور توجب شبهات وتأويلات تضاده.

فتأمل هذا الموضع حق التأمل، فإنه من أسرار القدر والشرع والعدل والحكمة.

فالعلم يُراد به العلم التام المستلزم لأثره، ويراد به المقتضي، وإن لم يتم بوجود شروطه وانتفاء موانعه، فالثاني يجامع الجهل دون الأول، فتبين أن أصل السيئات الجهل وعدم العلم.

وإذا كان كذلك، فعدم العلم ليس أمرًا وجوديًا، بل هو كعدم السمع والبصر والقدرة والإرادة، والعدم ليس شيئًا حتى يستدعي فاعلًا مؤثرًا فيه، بل يكفي فيه عدم مشيئة ضده، وعدم السبب الموجِب لضده. والعدم المحض لا يضاف إلى الله؛ فإنه شر، والشر ليس إليه.

فإذا انتفى هذا العلم الجازم عن العبد، ونفســـه بطبعها متحركة مريدة، وذلك من لوازم نشـأتها تحركت بمقتضـى الطبع والشـهوة، وغلب ذلك فيها على داعي العلم والمعرفة، فوقعت في أسباب الشر ولا بدّ اهـ

فصل

في معنى "إنما" وتحقيقها للمتصل ومحقها للمنفصل وفارق المعنى عند تقديم وتأخير الفاعل

قال أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله بن أحمد السهيلي في "الفكر في النحو" (صـ/١٣٥):

"إنما" نقول: إنما يأكل زيد الخبز، فحققت ما يتصل ومحقت ما ينفصل وهذه عبارة أهل سمرقند في " إنما " يقولون: إنها وضعت لتحقيق (المتصل وتمحيق المنفصل) وتلخيص هذا الكلام أنها نفي وإثبات، فأثبت لزيد أكل الخبز المتصل به في الذكر، ونفيت ما عداه، فمعناه: ما يأكل زيد إلا الخبز.

فإن قدمت المفعول ههنا فقلت: إنما يأكل الخبز زيد، اختلف المعنى وانعكس مقصد الكلام، فكأنك قلت: ما يأكل الخبز إلا زيد.

فهذه المسألة تخالف الأربعة الأقسام التي ذكرها النحويون، لأن المعنى في جميع تلك الأقسام قدمت أو أخرت واحد والمعنى في هذه المسألة مختلف، ألا ترى أن معنى قوله تعالى: (إنما يخشى الله من عباده العلماء) ليس كقولك: إنما يخشى العلماء الله، لأنك إذا أخرت نفيت الخشية من غير العلماء، وإذا قدمت الفاعل نفيت الخشية أن تتعلق بغير الله سبحانه وتعالى.

وهذا واضح لا خفاء به عند التأمل. والله الموفق. ومما يوضح لك ما ذكروا من النفي والإثبات في " إنما " قول همام:

أدافع عن أعراض قومي وإنما
يدافع عن أعراضهم أنا أو مثلي

فجعل الضمير المنفصل وهو أنا فاعلاً، وهو متصل في اللفظ بالفعل، وما ذاك إلا أن بينه وبين الفعل حاجزاً في المعنى، وهو " إلا " فكأنه قال: ما يدافع عن أعراضهم إلا أنا أو مثلي، فقد وضح لك النفي والإثبات المذكوران في " إنما " اهـ

وقال الجرجاني في "دلائل الإعجاز" (١/ ٣٣٨):

وإذْ قد عرفْتَ ذلكَ فاعتبرْ بِهِ الآيةَ، وإذا اعتبرْتَهَا بِهِ علمتَ أنَّ تقديمَ اسمِ الله تعالى إنما كانَ لأجْلِ أنَّ الغرضَ أن يبيَّن الخاشونَ مَنْ هُمْ، ويُخْبَرَ بأنهم العلماءُ خاصَّةً دونَ غيرهم.

ولو أُخِّر ذكْرُ اسمِ الله وقدَّم "العلماءُ" فقيلَ: ﴿إنَّما يخشَى العلماءُ اللهَ﴾، لصارَ المعنى على ضدِّ ما هو عليه الآن، ولصارَ الغرَضُ بيانَ المَخْشيِّ مَنْ هو، والإخبارُ بأنه اللهُ تعالى دونَ غيرِه، ولم يَجِبْ حينئذٍ أن تكونَ الخَشْيَةُ مِنَ الله تعالى مقصورةً على العلماءِ، وأن يكونوا مَخْصوصين بها كما هو الغرضُ في الآية، بل كان يكونُ المعنى أنَّ غيرَ العلماء يَخشَوْن اللهَ تعالى أيضاً، إلاّ أَنَّهم مع خَشْيتهم اللهَ تعالى يَخشَوْنَ معه غيرَه، والعلماءُ لا يَخْشَونَ غيرَ الله تعالى اهـ

وقال العلامة القرافي في "نفائس الأصول في شرح المحصول" (١٠٣٥/٣):

ومن هـذا البـاب قولـه تعـالى: (إنمـا يخشـــى الله من عبـاده العلمـاء) [فاطر:٢٨]، حصـر الله تعالى الخوف منه في العلم والعلماء، فلا يخشـاه إلا عالم به علي قدر علمه به، قل أو كثر، فأقل الناس علما أقلهم خشـــية، ويطرد ذلك في العامة والخاصـة، فإن الجاهل بالشـيء لا يخافه، هذا إذا قدم المنصـوب، فلو أخر وقيل: إنما يخشـى العلماء الله انحصـر العلماء في الخشـية له تعالى فلا يخشـون غيره، ويجوز أن يخشـــاه تعالى غيرهم، وعلى الأول لا يخشـــاه غيرهم، ويجوز من جهة هذا اللفظ أن يخشوا غيره سبحانه وتعالى اهـ

وانظر له "شرح تنقيح الفصول" (صـ/٦١)

المسألة (٣) الفرق بين الخوف والخشية:

الفرق بين الخوف والخشية يتخلص في ثلاثة أمور:

١- أن الخشية أعلى مقامًا من الخوف.

٢- أن كل خشية تدخل في الخوف وليس كل خوف يدخل في الخشية.

٣- أن الخشــية المشــروعة لا تكون إلا عن علم بالمخوف، وهذا غير مشروط في الخوف.

المسألة (٤): في حكم الخشية من المخلوق؟

رأيت بعض العلماء يقرر أن صــرف الخشــية لغير الله تعالى من الشــرك الأكبر، وهذا يعني أن الخشية لاتكون إلا من الله تعالى وحده، وأن صرفها لغير الله تعالى لايكون إلا شركًا.

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي (صـ/٦٢) في شرح قوله تعالى:

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي﴾:

أي لا تخشــوا الناس فإني وليكم واخشــوني وحدي، فإنه تعالى هو أهل أن يخشى وحده، فأمر تعالى بخشيته وحده، ونهى عن خشية غيره، كما في الآية الثانية: ﴿فَلَا تَخْشَــوُا النَّاسَ﴾ [المائدة:٤٤] أي لا تخافوا منهم ﴿وَاخْشَــوْنِ﴾، أي خافوا مني. "الآية" أي إلى آخر الآية، أو اقرأ الآية.

فدلت الآيتان وما في معناهما على أن الخشــية عبادة من أجل العبادات، فصرفها لغير الله شرك أكبر اهـ.

قلت: والصحيح هو التفصيل فليست كل خشية مشروعة وليست كل خشية ممنوعة، بل القول في حكم الخشية يدخل في التفصيل الذي ذكرناه في حكم الخوف فبعضه واجب وبعضه شرك وبعضه جائز، ونفصله على الأقسام التالية:

الأول: الخشية الواجبة:

وهي الخشية من الخالق سبحانه، لقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [الأحزاب:٣٩] وقوله تعالى: ﴿فَلَا تَخْشَوُا النَّاسَ وَاخْشَوْنِ﴾ [المائدة: ٤٤] وغيرها من الآيات.

الثاني: الخشية الكفرية:

وهي الخشية من المخلوق خشية لا تليق إلا بالله، كما قال تعالى: ﴿أَلَا تُقَاتِلُونَ قَوْمًا نَكَثُوا أَيْمَانَهُمْ وَهَمُّوا بِإِخْرَاجِ الرَّسُولِ وَهُمْ بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ أَتَخْشَوْنَهُمْ فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَوْهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة: ١٣]

وضابط الخشية الكفرية أنها خوف يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه، وهذا هو خوف التأله والتعبد حتى وإن ادعى أنه لم يقصد التعبد. ومن أمثلته أن يعتقد أن فلانًا الحي أو الميت يقدر على قطع رزقه ونسله فيخشاه لذلك.

الثالث: الخشية المستحبة:

وهي أن تخشى على الناس من الضلال والانحراف والوقوع في المعاصي؛ فإن الله تعالى لم يوجب عليك هدايتهم ولكنه أمرك بدعوتهم ونصحهم، فإذا كان

وقوعهم بذلك لايضـرك فهو يدل أن الخشـية عليهم مسـتحبة لا واجبة، كما قال تعـالى: ﴿وَأَمَّا الْغُلَامُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾ [الكهف:٨٠] والصحيح في الآية أن القائل هو الخضر عليه السلام فهو المتفق مع السياق. وعلى القول: إن القائل هو الله تعالى فإن الخشية هنا بمعنى العلم كما سبق.

الرابع: الخشية الطبيعية:

ويدخل في ذلك الخشية من العدو والخشية من السباع والعمل بالحذر والتقوى

قال العلامة ابن القيم في كتابه "شفاء العليل" (١/ ١٧١):

فإنه ليس في الطبيعة أن لا يخشى النار والأسد والعدو من هو عالم بها مواجه لها وأنه لا يخشى الموت من ألقى نفسه من شاهق ونحو ذلك فأمنه في هذه المواطن دليل عدم علمه اهـ

الخامس: الخشية الفطرية:

وهي الخشية بمعنى الاستحياء أو الخوف على العرض من التهمة وارجاف الأعداء، كما قال تعالى: ﴿وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا﴾ [الأحزاب:٣٧] وهذه الآية دليل ظاهر أن الخشية من الناس في بعض المواطن قد تكون فطرية لاتصل للشرك بل ولاتصل لحد المعصية حتى

والصحيح في تفسير الآية أن النبي ﷺ قال: لزيد عندما استشاره بتطليق زوجته: أمسك عليك زوجك واخفى في نفسه أنه سيطلقها وأنه سوف يتزوجها،

وإنما خشـــي النبي ﷺ إرجاف المنافقين كيف يأمره بطلاقها ثم يتزوجها هو. وهذا التفسير هو الذي أشاد به العلماء ومنهم العلامة القرطبي وتناقل العلماء قوله.

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٤/١٩٠):

قال علماؤنا رحمة الله عليهم: وهذا القول أحســـن ما قيل في تأويل هذه الآية، وهو الذي عليه أهل التحقيق من المفسـرين، والعلماء الراسـخين، كالزهري، والقاضي بكر بن العلاء القشيري، والقاضي أبي بكر بن العربي، وغيرهم.

والمراد بقوله تعالى: (وتخشـى الناس): إنما هو إرجاف المنافقين بأنه نهى عن تزويج نساء الأبناء وتزوَّجَ بزوجة ابنه اهـ

السادس: الخشية الوهمية:

وهي منقطعة الأســباب وعدها العلماء دليل على الجبن وهي كذلك، وزدت أن بعضـــها تدل على الجبن وبعضـــها تدخل في المرض النفســي كالرهاب والوسواس وتعالج بالأدوية

وقد فصـل هذه المسـألة بخير ما يكون العلامة السـعدي رحمه الله تعالى فكان تفصـيله بمثابة الركن الشـديد الذي نؤوي إليه ونتكئ عليه، فمن أسند أمن السقطات.

قال العلامة الســعدي في "القول الســـديد شـــرح كتاب التوحيد" (صـ/١١٧):

هذا الباب عقده المصنف رحمه الله لوجوب تعلق الخوف والخشية بالله وحده، والنهي عن تعلقه بالمخلوقين، وبيان أنه لا يتم التوحيد إلا بذلك. ولا بد في هذا الموضع من تفصيل يتضح به الأمر ويزول الاشتباه.

اعلم أن الخوف والخشية تارة يقع عبادة، وتارة يقع طبيعة وعادة وذلك بحسب أسبابه ومتعلقاته:

- فإن كان الخوف والخشية خوف تأله وتعبد، وتقرب بذلك الخوف إلى من يخافه، وكان يدعو إلى طاعة باطنة وخوف سري يزجر عن معصية من يخافه، كان تعلقه بالله من أعظم واجبات الإيمان، وتعلقه بغير الله من الشرك الأكبر الذي لا يغفره الله؛ لأنه أشرك في هذه العبادة التي هي من أعظم واجبات القلب غير الله مع الله، وربما زاد خوفه من غير الله على خوفه من الله. وأيضًا فمن خشي الله وحده على هذا الوجه فهو مخلص موحد، ومن خشي غيره فقد جعل لله ندًا في الخشية، كمن جعل لله ندًا في المحبة. وذلك كمن يخشى من صاحب القبر أن يوقع به مكروهًا، أو يغضب عليه فيسلبه نعمة أو نحو ذلك، مما هو واقع من عباد القبور.
- وإن كان الخوف طبيعيا كمن يخشى من عدو أو سبع أو حية أو نحو ذلك مما يخشى ضرره الظاهري، فهذا النوع ليس عبادة، وقد يوجد من كثير من المؤمنين ولا ينافي الإيمان. وهذا إذا كان خوفًا محققًا قد انعقدت أسباب الخوف فليس بمذموم.

- وإن كان هذا خوفًا وهميًا كالخوف الذي ليس له سبب أصلًا، أو له سبب ضعيف فهذا مذموم يدخل صاحبه في وصف الجبناء، وقد تعوذ صلى الله عليه وسلم من الجبن فهو من الأخلاق الرذيلة، ولهذا كان الإيمان التام والتوكل والشجاعة تدفع هذا النوع، حتى إن خواص المؤمنين وأقوياءهم تنقلب المخاوف في حقهم أمنا، وطمأنينة لقوة إيمانهم وشجاعتهم الشجاعة القلبية، وكمال توكلهم، ولهذا أتبعه بهذا الباب اهـ

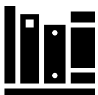
المسألة (٥): قراءة الآية بالرفع:

قال الزمخشري في "الكشاف" (٣/ ٦١١):

فإن قلت: فما وجه قراءة من قرأ (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ) وهو عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبي حنيفة؟ قلت: الخشية في هذه القراءة استعارة، والمعنى: إنما يجلهم ويعظمهم، كما يجل المهيب المخشى من الرجال بين الناس من بين جميع عباده إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ تعليل لوجوب الخشية، لدلالته على عقوبة العصاة وقهرهم وإثابة أهل الطاعة والعفو عنهم، والمعاقب المثيب: حقه أن يخشى اهـ

قلت: والمراد بقول الزمخشري: هو أن عمر بن عبد العزيز ويحكى عن أبي حنيفة أيضًا أنهما قرأا الآية: (إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهُ) بالرفع (مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءَ) ثم قام الزمخشري بتوجيه فعلهم على الاستعارة وأن المعنى: إنما يجلهم ويعظمهم كما يجل المهيب المخشي من الرجال بين الناس من بين جميع عباده.

والجواب على دعواه من وجهين:



الأول: أن هذا تأويل وتوجيه سامج فإن الخالق لايخشى المخلوق والاجلال من لوازم الخشـــية وليس من معانيها وهذا متحقق بخشـــية المخلوق أنه يجل الخالق وأما الخالق فإنه لا يخشى المخلوق أصلًا.

الثاني: أن هذا لم يثبت عن أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز ولا عن غيره ومن ثبتت عنه فهو خطأ منه لايحتاج إلى توجيه. وأما قول الشاعر:

أهابك إجلالا وما بك قدرة   علي ولكن ملء عين حبيبها

فليس فيها ما يصح نسبته للخالق

قال ابن الجزري في "النشر في القراءات العشر" (١/ ١٦):

وَكَالْقِرَاءَةِ الْمَنْسُــوبَةِ إِلَى الْإِمَامِ أَبِي حَنِيفَةَ رحمه الله الَّتِي جَمَعَهَا أَبُو الْفَضْــلِ مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ الْخُزَاعِيُّ وَنَقَلَهَا عَنْهُ أَبُو الْقَاسِمِ الْهُذَلِيُّ وَغَيْرُهُ، فَإِنَّهَا لَا أَصْلَ لَهَا، قَالَ أَبُو الْعَلَاءِ الْوَاسِطِيُّ: إِنَّ الْخُزَاعِيَّ وَضَعَ كِتَابًا فِي الْحُرُوفِ نَسَبَهُ إِلَى أَبِي حَنِيفَةَ فَأَخَذْتُ خَطَّ الدَّارَقُطْنِيّ وَجَمَاعَةٍ أَنَّ الْكِتَابَ مَوْضُوعٌ لَا أَصْلَ لَهُ.

(قُلْتُ): وَقَدْ رُوِّيتُ الْكِتَابَ الْمَذْكُورَ وَمِنْهُ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ بِرَفْعِ الْهَاءِ وَنَصْبِ الْهَمْزَةِ، وَقَدْ رَاجَ ذَلِكَ عَلَى أَكْثَرِ الْمُفَسِّرِينَ وَنَسَبَهَا إِلَيْهِ وَتَكَلَّفَ تَوْجِيهَهَا، وَإِنَّ أَبَا حَنِيفَةَ لَبَرِيءٌ مِنْهَا اهـ

وقال أبو حيان الأندلسي في "البحر المحيط في التفسير" (٩/ ٣١):

ولعل ذلك لا يصح عنهما. وقد رأينا كتبا في الشواذ، ولم يذكروا هذه القراءة، وإنما ذكرها الزمخشري، وذكرها عن أبي حيوة أبو القاسم يوسف بن جبارة في كتابه الكامل اهـ

المسألة (٦) الفرق بين الخوف والخشية والهيبة.

قال القشيري في "لطائف الإشارات" (٦/٣٣٩):

والفرق بين الخشية والرهبة أنَّ الرهبةَ خوفٌ يوجِبُ هَرَبَ صاحبه فيجري في هربه، والخشية إذا حصلت كَبَحَت جماحَ صاحبها فيبقى مع الله، فقدمت الخشية على الرهبة في الجملة.

والخوف قضية الإيمان، قال تعالى: ﴿وَخَافُونِ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران:١٧٥] فالخشية قضية العلم، والهيبة توجب المعرفة اهـ.

قلت: ومن الفوارق التي ذكرها العلماء:

- أن الخوف هو الفزع.
- وأن الرهبة هي خوف بلغ منتهاه ويكون مع رقة.
- وأن الخشية هي أعلى مقامات الخوف وتكون مع العلم.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الإِنَابَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأَنِيبُوا إِلَى رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ﴾ [الزمر: ٥٤].

الشرح:

الإنابة لغة: الرجوع:

واصطلاحاً: الرجوع إلى الله تعالى بالإقلاع عن السيئات والإقبال على الحسنات.

مسألة (١) في الفرق بين الإنابة والتوبة

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٦١):

وهي التوبة بل أعلى من مقام التوبة فإن التوبة الإقلاع عن الذنب، والندم على ما فات، والعزم على أن لا يعود إليه والإنابة تدل على ذلك، وتدل على الإقبال على الله بالعبادات، والإقبال على الله رجوع عما لا ينبغي بالكلية وقصد إلى ما ينبغي من رضاه اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٣٩):

وهي قريبة من معنى التوبة إلا أنها أرق منها لما تشعر به من الاعتماد على الله واللجوء إليه ولا تكون إلا لله تعالى اهـ

قلت: الإنابة مزيج من التوبة والخشــية والخضــوع، ولهذا كانت أعلى من منزلة التوبة. (وإليه أنيب)، أي أرجع إليه في السراء شكرًا على الخيرات وفي الضراء صبرًا ودعاء برفع النوائب والكربات.

والإنابة تكون بالقلب واللسان:

- والدليل على القلب قوله تعالى: ﴿مَنْ خَشِــيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق: ٣٣]
- والدليل على اللسان قوله تعالى: ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [هود: ٨٨] وقوله تعالى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى: ١٠]

وأدلة اللســان تتضــمن القلب أيضًــا، فهي بمعنى وإليه أرجع بقلبي وتنطق لساني.

وقد كان من دعاء النبي ﷺ كما في الصــحيحين من حديث ابن عباس أنه قال: (اللهم لك أسلمت وبك آمنت وعليك توكلت وإليك أنبت).

مسألة (٢) في الفرق بين المنيب والأواب:

والفرق بين المنيب والأواب أن الأواب والمنيب يجتمعان في معنى الرجوع والتوبة، ويفترقان في الإقبال لأنه يدخل في المنيب ولايدخل في الأواب.

وقيل: هي درجات: أولها: التوبة إلى الله. وأوســطها: الإنابة. وآخرها: الأوبة.

قال العلامة ابن علان الشافعي في "دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين" (١/ ٩٠):

فمن رجع عن المخالفات خوفًا من عذاب الله فهو تائب، ومن رجع حياء فهو منيب، ومن رجع تعظيماً لجلال الله سبحانه فهو أوّاب اهـ

قلت: ومن نظر في تعريف الإنابة وجدها متقاربة مع تعريف الحنيفية التي هي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام، وقد وصفه ربه بالمنيب فقال: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّاهٌ مُنِيبٌ﴾ [هود: ٧٥]

قال العلامة السعدي في "تيسير الكريم الرحمن" (صـ/٣٨٦):

أي: رجَّاع إلى الله بمعرفته ومحبته، والإقبال عليه، والإعراض عمن سواه، فلذلك كان يجادل عمن حتَّم الله بهلاكهم اهـ.

مسألة (٣): العلاقة بين التوكل والإنابة:

رأينا في الحديث السابق أن النبي ﷺ توكل أولًا ثم أناب ثانيًا، وهذا ليس محض ترتيب غير مقصود، بل هو ترتيب القرآن كما سبق. فالقائل في سورة الشورى: ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هو محمد ﷺ والقائل في سورة هود ﴿إِنْ أُرِيدُ إِلَّا الْإِصْلَاحَ مَا اسْتَطَعْتُ وَمَا تَوْفِيقِي إِلَّا بِاللَّهِ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ هو شعيب عليه السلام. والسر في ذلك كما بين العلماء أن الإنابة داخلة في قوله تعالى: (إياك نعبد) والتوكل داخل في قوله تعالى: (وإياك نستعين).

قال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (٢/ ١١٢):

التوكل نصف الدين والنصف الثاني الإنابة فإن الدين استعانة وعبادة فالتوكل هو الاستعانة والإنابة هي العبادة اهـ

مسألة (٤): في حكم الإنابة:

وقال العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٦١):

وأمره تعالى عباده بالإنابة ظاهر في أنها عبادة، وأنه يحبها شرعًا ودينًا، فصرفها لغير الله شرك أكبر اهـ.

قلت: والإنابة لايمكن أن تكون إلا عبادة فكونها عبادة فصرفها لغير الله تعالى شرك، ولهذا جاءت الأدلة ببيان خصوصيتها بالله تعالى وعدم صرفها لغيره سبحانه، ومنها:

قال تعالى: ﴿ ✱ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ﴾ [الروم:٣١] ﴿ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ﴾ [الشورى:١٠]

ومن هنا قرر العلماء أن الإنابة لايمكن بحال من الأحوال أن تصرف لغير الخالق؛ فهي توبة القلب بل هي أعلى مقامات التوبة، فمن صرفها لغير الله تعالى وقع في الشرك.

مسألة (٥): الإنابة والبشارة:

قابل الله تعالى بين الشرك والإنابة في قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اجْتَنَبُوا الطَّاغُوتَ أَنْ يَعْبُدُوهَا وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ لَهُمُ الْبُشْرَى فَبَشِّرْ عِبَادِ﴾ [الزمر:١٧] فجعل

الإنابة مقابل الشـرك فدل أن الإنابة هنا يراد بها الإقلاع عن الشـرك والرجوع إلى التوحيد، وهذه هي أعظم إنابة على الإطلاق، وعليه فالإنابة ثلاثة أقسام:

١- إنابة المشرك:

وهي رجوعه من الشـرك إلى التوحيد، وهي أعظم إنابة في حياته؛ فهي إنابة نقلته من الظلمات على النور. قال تعالى: ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَاعْتَصَمُوا بِاللَّهِ وَأَخْلَصُوا دِينَهُمْ لِلَّهِ فَأُولَئِكَ مَعَ الْمُؤْمِنِينَ وَسَوْفَ يُؤْتِ اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [النساء: ١٤٦]

٢- إنابة الموحد:

وهي تمسكه بالتوحيد والرجوع إليه عند الفتن كعاصم له من السقوط، قال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَاعْتَصَمُوا بِهِ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِي رَحْمَةٍ مِنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَاطًا مُسْتَقِيمًا﴾ [النساء: ١٧٥]

٣- إنابة العصاة:

وهي عموم الإنابة التي تقتضـي الإقلاع عن السـيئات والاقبال على الحسنات والأعمال الصالحات.

قال العلامة السعدي في "تيسير الكريم الرحمن" (صـ/٧٢١):

﴿وَأَنَابُوا إِلَى اللَّهِ﴾ بعبادته وإخلاص الدين له، فانصـرفت دواعيهم من عبادة الأصـنام إلى عبادة الملك العلام، ومن الشـرك والمعاصـي إلى التوحيد والطاعات اهـ

ولهذا قال بعدها: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ والبشرى هي الجنة وهي بشارة متعلقة بعموم الاستماع وخصوص الاتباع.

والأمر باتباع الأحسن في كتاب الله على قسمين:

القسم الأول: عموم القائل: كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾ فالنص يقتضي أن يكون الاستماع يقع على كل قول من أي قائل بصورة عامة، سواء التي قد سمعوها في الماضي أو قد يستمعونها في الحاضر أو في المستقبل، ولكن الاتباع يكون للأحسن بصورة خاصة والأحسن هو كلام الله تعالى كما قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلَّا جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [الفرقان:٣٣] فقولهم مسموع وقول الله تعالى هو المتبوع. لأن قول الله هو القول الأحسن، وعلى هذا الكثير من الآيات في القرآن الكريم،

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾ [الزمر:٢٣] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾ على قول في التفسير، [البقرة: ١٣٨] وقال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ [المائدة: ٥٠] وقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٣٧] وقال تعالى: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ﴾ [يوسف: ٣]

القسم الثاني: خصوص القائل: أي أن القائل هو الله تعالى ووقوع التخيير على العمل بأحسنه أي على أحسن القولين من كلامه سبحانه، وهذا هو الذي وقع عليه الاشكال عند الكثير، كما في قوله تعالى لنبيه موسى عليه السلام: ﴿وَكَتَبْنَا لَهُ فِي الْأَلْوَاحِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ مَوْعِظَةً وَتَفْصِيلًا لِكُلِّ شَيْءٍ فَخُذْهَا بِقُوَّةٍ وَأْمُرْ

قَوْمَكَ يَأْخُذُوا بِأَحْسَنِهَا سَأُرِيكُمْ دَارَ الْفَاسِقِينَ﴾ [الأعراف:١٤٥] وقوله تعالى لنبيه محمد ﷺ وأمته: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر:٥٥]

وللعلماء قولان في هذه الآيات:

الأول: جعلوا ما نزله الله تعالى على حسن وأحسن وأمرهم باختيار الأحسن.

الثاني: جعلوا ما نزله الله تعالى على حسن وقبيح وأنه أمرهم بالعمل بالأحسن لا بالقبيح.

وفي القولين عقدة مشكلة وهذه العقدة حلها العلماء الذين يعلمون مراد الله تعالى من كلامه، ولايحق لأحد أن يأخذ بقول غيرهم، والجواب بالتالي.

أما القول الأول: تقديم الأحسن على الحسن:

قال العلامة البغوي في "معالم التنزيل" (٧/١١٣):

قال السدي: أحسن ما يؤمرون فيعملون به. وقيل: هو أن الله تعالى ذكر في القرآن الانتصار من الظالم وذكر العفو والعفو أحسن الأمرين. وقيل: ذكر العزائم والرخص فيتبعون الأحسن وهو العزائم. وقيل: يستمعون القرآن وغير القرآن فيتبعون القرآن اهـ.

وقال الإمام السمعاني في "التفسير" (٤/٤٦٤):

في الآية أقاويل:

أحدها: يستمعون القول أي: القرآن، فيتبعون أحسنه، والأحسن هو العفو، والانتصار على الظالم مذكور في القرآن، والعفو مذكور، والعفو أحسن الأمرين.

والقول الثاني: يستمعون القول أي: يستمعون القرآن وغير القرآن.

وقوله: (فيتبعون أحسنه) أي: القرآن.

والقول الثالث: وقال بعضهم: يستمعون الرخص والعزائم، فيتبعون أحسنها أي: العزائم.

والقول الرابع: يستمعون القول أي: الكلام، فيتبعون أحسنه أي: قول لا إله إلا الله اهـ

أما القول الثاني: العمل بالأحسن وترك القبيح:

فقد بين العلماء تأويل ذلك أن الله تعالى أنزل في القرآن ماذا فعل الموحدون وهو الأحسن، وماذا فعل المشركون وهو القبيح، فمن تشبه بالموحدين فقد اتبع الأحسن ومن تشبه بالمشركين فقد اتبع الأقبح. فالقبيح هو العمل بالمنهي عنه، فالنهي حسن واقترافه قبيح.

قال الإمام الطبري في "جامع البيان في تأويل القرآن" (٢١/٣١٣):

وقوله: ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ [الزمر: ٥٥] يقول تعالى ذكره: واتبعوا أيها الناس ما أمركم به ربكم في تنزيله، واجتنبوا ما نهاكم فيه عنه، وذلك هو أحسن ما أنزل إلينا من ربنا.

فإن قال قائل: ومن القرآن شيء وهو أحسن من شيء؟ قيل له: القرآن كله حسن، وليس معنى ذلك ما توهمت، وإنما معناه: واتبعوا مما أنزل إليكم ربكم من الأمر والنهي والخبر، والمثل، والقصص، والجدل، والوعد، والوعيد أحسنه أن تأتمروا لأمره، وتنتهوا عما نهى عنه، لأن النهي مما أنزل في الكتاب، فلو عملوا بما نهوا عنه كانوا عاملين بأقبحه، فذلك وجهه اهـ.

مسألة (٦): أنواع الإنابة:

قال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/٤٣٤):

والإنابة إنابتان:

- إنابة لربوبيته:

وهي إنابة المخلوقات كلها يشترك فيها المؤمن والكافر والبر والفاجر قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا مَسَّ النَّاسَ ضُرٌّ دَعَوْا رَبَّهُمْ مُنِيبِينَ إِلَيْهِ﴾ [الروم: ٣٣] فهذا عام في حق كل داع أصابه ضر كما هو الواقع، وهذه الإنابة لا تستلزم الإسلام بل تجامع الشرك والكفر، كما قال تعالى في حق هؤلاء: ﴿ثُمَّ إِذَا أَذَاقَهُمْ مِنْهُ رَحْمَةً إِذَا فَرِيقٌ مِنْهُمْ بِرَبِّهِمْ يُشْرِكُونَ ۝٣٣ لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ﴾ [الروم: ٣٣-٣٤] فهذا حالهم بعد إنابتهم.

- والإنابة الثانية:

إنابة أوليائه وهي إنابة لإلهيته إنابة عبودية ومحبة وهي تتضمن أربعة أمور: محبته، والخضوع له، والإقبال عليه، والإعراض عما سواه، فلا يستحق اسم المنيب

إلا من اجتمعت فيه هذه الأربعة، وتفسير السلف لهذه اللفظة يدور على ذلك وفي اللفظة معنى الإسراع والرجوع والتقدم، والمنيب إلى الله: المسرع إلى مرضاته الراجع إليه كل وقت المتقدم إلى محابه اهـ

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الاسْتِعَانَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفتحة:٥]. وَفِي الْحَدِيثِ: (وإِذَا اسْتَعَنْتَ فَاسْتَعِنْ بِاللهِ).

الشرح:

الاستعانة لغة: طلب العون.

وفي الاصطلاح: هي طلب العون من الخالق في الحصول على المرغوب والخلاص من المرهوب.

مسألة (١): ضابط الاستعانة الخاصة بالله تعالى:

وقال العلامة ابن عثيمين في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٤٠):

وهي الاستعانة المتضمنة لكمال الذل من العبد لربه، وتفويض الأمر إليه، واعتقاد كفايته وهذه لا تكون إلا لله تعالى ودليلها قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة: ٥] ووجه الاختصاص أن الله تعالى قدم المعمول ﴿إِيَّاكَ﴾ وقاعدة اللغة التي نزل بها القرآن أن تقديم ما حقه التأخير يفيد الحصر والاختصاص، وعلى هذا يكون صرف هذا النوع لغير الله تعالى شركاً مخرجاً عن الملة اهـ.

وقال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/٧٥):

والاستعانة تجمع أصلين: الثقة بالله، والاعتماد عليه؛ فإن العبد قد يثق بالواحد من الناس، ولا يعتمد عليه في أموره، مع ثقته به؛ لاستغنائه عنه، وقد يعتمد عليه مع عدم ثقته به؛ لحاجته إليه، ولعدم من يقوم مقامه، فيحتاج إلى اعتماده عليه، مع أنه غير واثق به اهـ.

قلت: وقد بين العلماء أن الاستعانة بالله تعالى هي التي تتضمن ثلاثة أشياء:

- الأول: الخضوع والتذلل له.
- الثاني: الثقة التامة به.
- الثالث: الاعتماد الكلي عليه.

مسألة (٢): في أقسام الاستعانة:

وقد تفنن الكثير من الشراح بذكر أنواعها بأساليب مختلفة، تتباين في الأسلوب وتتضامن في المطلوب، وقد جعلتها على ثلاثة أقسام:

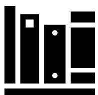
القسم الأول: الاستعانة بالخالق:

وهي على ثلاثة أقسام:

١- **الاستعانة به على معصيته وموجبات غضبه:**

كمن يسأل الله أن يمكنه من الزنا بفلانة أو على أخذ مال فلان، وهذا كفر بالله تعالى، ولايصدر إلا من مستهزئ أو مستخف أو مجنون، فإن فعله عاقل فهو كافر.

٢- **الاستعانة به على طاعته ومرضاته:**



وهي عبادة عظيمة وتدل على تواضع العبد واعترافه بأنه لولا توفيق الله له وهدايته له ماقدر على طاعته، كما قال تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ والمقصود إياك نعبد وإياك نستعين على عبادتك.

ويؤيد ويؤكد ذلك ما رواه البخاري في الأدب المفرد وأحمد في المسند وأبو داود في السنن من حديث معاذ بن جبل أن النبي ﷺ قال: (أوصيك يا معاذ لا تدعن في دبر كل صلاة تقول اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك).

قال العلامة ابن القيم في "مدرج السالكين" (١/٥٤):

وكثيرًا ما كنت أسمع شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه يقول ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ تدفع الرياء ﴿وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ تدفع الكبرياء اهـ.

وقال في "المدارج" (١/٧٨): وقال شيخ الإسلام ابن تيمية قدس الله روحه تأملت أنفع الدعاء فإذا هو سؤال العون على مرضاته ثم رأيته في الفاتحة في ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ اهـ

٣- الاستعانة به على المباحات:

وهذه لا تقل قيمة عن القسم السابق؛ فإن الأصل هو الاستعانة بالخالق في كل الأمور الواجبة والمستحبة والمباحة، ومنها الاستعانة في مواجهة العدو، كما في البخاري من حديث ابن مسعود أن قريشًا أبطأوا عن الإسلام فدعا عليهم النبي ﷺ فقال: (اللهم أعني عليهم بسبع كسبع يوسف) وروى أحمد وأصحاب السنن من حديث ابن عباس أن النبي ﷺ كان يقول: (رب أعني ولا تعن علي).

القسم الثاني: الاستعانة بالمخلوق:

ولأن الاستعانة تختلف بحسب المستعان به والمستعان لأجله، فيشترط في جواز الاستعانة بالمخلوق أن تتوفر فيه شروط الاستعانة وهي: أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا، ومن ثم فهي على أقسام:

١- الاستعانة بالمخلوق على أمر من أمور البر:

فهذه استعانة يشترط لها أن يكون المستعان به قادر على ذلك، وهي تدور بين الوجوب والاستحباب؛ لعموم قوله تعالى: لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ [المائدة:٢] وأمور البر قد تكون دينية وقد تكون دنيوية.

٢- الاستعانة بالمخلوق في معصية الخالق:

وهي استعانة محرمة، ويقع الإثم على المعين والمستعين؛ لعموم قوله تعالى: ﴿وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ [المائدة:٢]

٣- الاستعانة بالمخلوق العاجز:

وهو الذي توفرت فيه بعض شروط الجواز: الحي الحاضر، ولم يتوفر فيه شرط القدرة، فهو عاجز: فإن اعتقد فيه القدرة الخفية فهو اعتقاد فاسد وإلا كانت من اللغو الذي لا طائل تحته، كأن يستعين بشخص ضعيف على حمل شيء ثقيل.

وسبق التفصيل في العاجز عند ذكر عبادة الرجاء فقلت:

- عجز ظاهر: كمن يستعين بعاثر على رفع صخرة فهذا لا يكون إلا عن اعتقاد فاسد.

۩ **عجز خفي**: كمن يستعين بشفاعة إنسان عند آخر ظنًا منه أن له كلمة عنده، فلما تبين له عدم قدرته ترك الاستعانة به.

٤- **الاستعانة بالمخلوق الغائب:**

وهو الذي توفرت فيه بعض شروط الجواز: الحي والقدرة، ولم يتوفر فيه شرط الحضور فالغائب الذي لاتصل إليه ولا يصل إليك الأصل فيه هو العجز وعدم القدرة، كمن يقول: أعني يافلان مع أنه غير موجود عن اعتقاد أنه يبلغه الاستعانة فهذا شرك والعياذ بالله، وإنما أجاز العلماء بناء على التطور المعاصر أن يتصل به أو يراسله ويستعين به فيما يقدر عليه فهذا جائز.

٥- **الاستعانة بالأموات:**

فهذا شرك؛ لأنه لا يقع إلا من شخص يعتقد أن لهؤلاء تصرفًا خفيا في الكون. ولاتفصيل في الحكم على الفعل فالفاعل واقع في الشرك لا محالة.

٦- **الاستعانة بالأعمال الصالحة:**

لقوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣] ويدخل في ذلك الاستعانة بالاستغفار والتسبيح وغير ذلك من الأذكار كالاستعانة بقول: (لاحول ولا قوة إلا بالله) على التقوي في العمل. والاستعانة بقول: (سبحان الله وبحمده) على التخلص من الضيق، والاستعانة بالاستغفار للحصول على الرزق.

٧- **الاستعانة بالكفار:**

وسبق الحديث عنها في فصل الولاء والبراء من هذه الرسالة.

٨- **الاستعانة بالجن:**

وقد ناقشت هذه المسألة في رسالة "النقاش والتبيين في حكم الاستعانة بالجن والشياطين" وبينت فيها أن الراجح هو عدم جواز الاستعانة بالجن المسلمين، وأما الشياطين فعدم الجواز أظهر من أن يحتاج إلى ترجيح.

المسألة (٣): أنواع الاستعانة:

النوع الأول: الاستعانة بلسان القال: وهي التي تطلب باللسان، كقول النبي ﷺ: (**اللهم أعني ولاتعن علي**) وحديث: (**اللهم أعني عليهم بسنين كسنين يوسف**) وحديث: (**اللهم أعني على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك**) وسبق تخريج هذه الأحاديث الثلاثة.

النوع الثاني: الاستعانة بلسان الحال: كقوله تعالى: ﴿اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ﴾ [البقرة: ١٥٣]

والاستعانة باللسانين تكون في الأمور كلها وللأمور كلها، وصلاة الحاجة تجمع بين لسان الحال والقال وهي خاصة بما صليت لأجله.

المسألة (٤): شروط الاستعانة بالمخلوق:

وهي:

١- أن يكون حيًا

٢- أن يكون قادرًا

٣- أن يكون حاضرًا

٤- أن يستعين به بغير محرم

٥- أن تكون الاستعانة خالية من ثلاثة أشياء لأنها خاصة بالله تعالى وحده.

- الأول: الخضوع والتذلل له.

- الثاني: الثقة التامة به.

- الثالث: الاعتماد الكلي عليه.

المسألة (٥): أهل البدع لا استعانة لهم بالله.

قال العلامة ابن القيم في "مدارج السالكين" (١/ ٨٠):

فصل القسم الثالث من له نوع عبادة بلا استعانة وهؤلاء نوعان

أحدهما: القدرية القائلون بأنه قد فعل بالعبد جميع مقدوره من الألطاف، وأنه لم يبق في مقدوره إعانة له على الفعل!! فإنه قد أعانه بخلق الآلات وسلامتها وتعريف الطريق وإرسال الرسل وتمكينه من الفعل، فلم يبق بعد هذا إعانة مقدورة يسأله إياها!! بل قد ساوى بين أوليائه وأعدائه في الإعانة فأعان هؤلاء كما أعان هؤلاء ولكن أولياءه اختاروا لنفوسهم الإيمان وأعداءه اختاروا لنفوسهم الكفر من غير أن يكون الله سبحانه وفق هؤلاء بتوفيق زائد أوجب لهم الإيمان وخذل هؤلاء بأمر آخر أوجب لهم الكفر.

فهؤلاء لهم نصيب منقوص من العبادة لا استعانة معه فهم موكولون إلى أنفسهم مسدود عليهم طريق الاستعانة والتوحيد.

قال ابن عباس رضـــي الله عنهما: الإيمان بالقدر نظام التوحيد فمن آمن بالله وكذب بقدره نقض تكذيبه توحيده (١٣).

النوع الثـاني: من لهم عبـادات وأوراد ولكن حظهم ناقص من التوكـل والاستعانة، لم تتسع قلوبهم لارتباط الأسباب بالقدر وتلاشيها في ضمنه وقيامها به، وأنها بدون القدر كالموات الذي لا تأثير له، بل كالعدم الذي لا وجود له، وأن القدر كالروح المحرك لها والمعول على المحرك الأول.

فلم تنفذ قوى بصائرهم من المتحرك إلى المحرك، ومن السبب إلى المسبب، ومن الآلة إلى الفاعل، فضعفت عزائمهم وقصرت هممهم فقل نصيبهم من ﴿وَإِيَّاكَ نَسْـــتَعِينُ﴾ ولم يجدوا ذوق التعبد بالتوكل والاســـتعانة وإن وجدوا ذوقه بالأوراد والوظائف.

فهؤلاء لهم نصيب من التوفيق والنفوذ والتأثير بحسب استعانتهم وتوكلهم، ولهم من الخذلان والضعف والمهانة والعجز بحسب قلة استعانتهم وتوكلهم.

ولو توكل العبد على الله حق توكله في إزالة جبل عن مكانه وكان مأمورًا بإزالته لأزاله اهـ.

---

(١٣) رواه عبدالله بن أحمد في السنة (٩٢٥) وفيه مجهول، والفريابي في القدر (٢٠٥) وفيه الوليد بن مسلم وهو مدلس. ورواه غيرهم بأسانيد أخرى الله أعلم بصحتها. وجاء مرفوعًا ولكنه لم يصح.

واحتج به شـــيخ الإســـلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم في الكثير من المواضـــع في كتبهما.

وصححه العلامة أحمد شاكر في تحقيقه على الطحاوية

قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي في "الحاشية" (صـ/٦٢):

الدين كله يرجع إلى هذين المعنيين، وسر الخلق والكتب والشرائع والثواب والعقاب يرجع إلى هاتين الكلمتين، وعليهما مدار العبودية والتوحيد

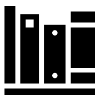
والأول: تبرؤ من الشـــرك، والثاني: تبرؤ من الحول والقوة، وهذا المعنى في غير آية من كتاب الله، وتقديم المعمول على العامل يفيد الحصـــر أي نســـتعين بك وحدك دون كل من ســـواك، فهذا النوع أجل أنواع العبادة فصـــرفه لغير الله شـــرك أكبر، وكذا قوله: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ﴾ أي لا نعبد أحدا ســـواك، فالعبادة لله وحده والاستعانة به وحده جل وعلا وتقدس اهـ.

حديث: (وإذا استعنت فاستعن بالله)

وهو جزء من حديث طويل رواه أحمد والنسائي والترمذي، قال ابن عباس كنت رديف النبي ﷺ فقال لي: (**يا غلام، إني معلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، وإذا سألت فلتسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعوا على أن ينفعوك لم ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، ولو اجتمعوا على أن يضيروك لم يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**).

والشاهد: (**إذا استعنت فاستعن بالله**) وهو دليل أن أصل الاستعانة تكون بالله تعالى وحده لاشريك له، وحتى الاستعانة الجائزة بالمخلوق تحتاج لاستعانة بالله تعالى فهو المعين وحده لاشريك له، ومن استعنت به من المخلوقين يلزمك اعتقاد أمرين:

- **الأول**: أنه عبد عاجز يحتاج لعون من الله تعالى لإعانتك وقضاء حاجتك. فهو يستعين بالله لعون الآخرين؛ كما قال النبي ﷺ: (**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**) رواه مسلم عن أبي هريرة.
- **الثاني**: أنه عبارة عن مجرد سبب والله وحده هو مسخر الأسباب ونتائجها، والمقدمات ونهاياتها. كما قال تعالى: ﴿أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا ﴿٢٥﴾ ثُمَّ شَقَقْنَا الْأَرْضَ شَقًّا ﴿٢٦﴾ فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبًّا﴾ [عبس: ٢٥-٢٧] فانصباب الماء في الأرض



كانصـــباب الماء في الرحم وخروج النبات كخروج الأولاد والبنات. والله تعالى قادر على اخراج النبات في قلب الصحراء بغير مطر، وهو قادر على خلق الأبناء بغير آباء كما خلق آدم من غير أب وأم وخلق عيســى من أم بغير أب. وهكذا قادر على إعانتك بغير عملك بالأســباب ولكنها عادة الله في خلقه وسنته في عباده

وكما قال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] فأثبت للعباد مشيئة لكنها تحت مشيئته غير خارجة عنها، فكذلك أثبت لعباده القدرة على إعانة بعضــهم لكنها تحت معونته غير خارجة عنها، غير أن المشــيئة يدخل فيها الخير والشــر، والمعونة يدخل فيها الخير فقط؛ فالله لايعين على الشــر ولكنه لايقع بغير إرادته ومشيئته، ومن اعتقد أن العبد قادر على فعل شيء استقلالًا فقد كفر.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الاسْتِعَاذَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الفلق: ١]. و ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ [الناس: ١]

الشرح:

الاستعاذة لغة: هي من طلب العوذ وهو الالتجاء والاعتصام، أعوذ: أي التجئ وأعتصم.

وفي الاصطلاح: هي التعبد لله تعالى بطلب الالتجاء إليه والاعتصام به من شر كل ذي شر من الإنسان أو الشيطان أو الحيوان.

فقولك: أعوذ بالله: أي: أستجير بجناب الله القادر على عياذي العالم بمستعاذي من شر تسلطه علي في ديني أو في دنياي أو في بدني.

والفرق بين العياذ واللياذ: أن العياذ لدفع المكروه واللياذ لطلب المحبوب، كما قال الشاعر:

يا من ألوذ به فيما أؤمله
ومن أعوذ به فيما أحاذره
لا يجبر الناس عظمًا أنت كاسره
ولا يهيضون عظما أنت جابره

مسألة (١): حقيقة الاستعاذة:

واعلم أن الاستعاذة هي لجوء القلب قبل اللسان، فإذا استعذت بالله تعالى فاعلم أن الاستعاذة هي لجوء إلى خالقك العظيم، فإذا لم تلجأ إليه بقلبك فاعلم أن استعاذة لسانك من اللغو الذي لا أثر له.

وبالنظر لأدلة الاستعاذة نجد أن المستعاذ به وهو الله سبحانه وتعالى جاء ذكره في اللفظ في وسط الكلمة بين المستعيذ والمستعاذ منه فدل أنه لا يحول بين الإنسان وبين الشيطان وغيره إلا هو وحده لاشريك له.

مسألة (٢): أركان الاستعاذة:

١- المتعوذ أو المستعيذ وهو طالب العوذ (الانسان)

٢- المستعاذ به وهو مجير المستعيذ (الله سبحانه تعالى)

٣- المستعاذ منه وهو (صاحب الشر)

مسألة (٣): في الاستعاذة بالأسماء والصفات:

أولا: الاستعاذة بأسماء الله تعالى: كقوله تعالى: ﴿وَإِمَّا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [الأعراف: ٢٠٠] وقوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ﴾ [النحل: ٩٨] وقوله تعالى: ﴿قَالَ أَعُوذُ بِاللَّهِ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ [البقرة: ٦٧] وقال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي أَعُوذُ بِكَ أَنْ أَسْأَلَكَ مَا لَيْسَ لِي بِهِ عِلْمٌ﴾ [هود: ٤٧] وقال تعالى: ﴿قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ١٨] وقوله تعالى: ﴿وَقُلْ رَبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ الشَّيَاطِينِ﴾ [المؤمنون: ٩٧]

ثانيًا: الاستعاذة بصفات الله تعالى: كقول النبي ﷺ: (**أعوذ بعزة الله وقدرته من شر ما أجد وأحاذر**) وحديث: (**أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق**) وحديث: (**أعوذ برضاك من سخطك**) وحديث: (**أعوذ بوجهك**).

مسألة (٤): **في الاستعاذة بالمخلوق**:

نقول: ثبت في الصحيحين من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أنه قال: قال رسول الله ﷺ: (**ستكون فتن القاعد فيها خير من القائم والقائم فيها خير من الماشي والماشي فيها خير من الساعي ومن يشرف لها تستشرفه ومن وجد ملجأ أو معاذا فليعذ به**).

وفي لفظ لمسلم: (**فليستعذ**) فدل الحديث على جواز الاستعاذة بالمخلوق بالمعنى اللغوي.

وتوجيه الحديث وهو يتحدث عن فتن آخر الزمان والمقصود بهذه الاستعاذة هو الهروب من الفتن ويفسر ذلك الرواية الأخرى لمسلم: (**إنها ستكون فتن ألا ثم تكون فتنة القاعد فيها خير من الماشي فيها والماشي فيها خير من الساعي إليها ألا فإذا نزلت أو وقعت فمن كان له إبل فليلحق بإبله ومن كانت له غنم فليلحق بغنمه ومن كانت له أرض فليلحق بأرضه**).

والحاصل: أن الاستعاذة بهذا الحديث هي بالمعنى اللغوي لها وهو اللجوء والهروب

قال الشيخ العلامة ابن عثيمين في "القول المفيد" (١/ ١٨٤):

أما الاستعاذة بمخلوق فيما يقدر عليه فهي جائزة، وقد أشار إلى ذلك الشارح الشيخ سليمان في "تيسير العزيز الحميد"، وهو مقتضى الأحاديث الواردة في "صحيح مسلم" لما ذكر النبي ﷺ الفتن، قال: "**فمن وجد من ذلك ملجأ، فليعذ به**" وكذلك قصة المرأة التي عاذت بأم سلمة، والغلام الذي عاذ بالنبي ﷺ، وكذلك في قصة الذين يستعيذون بالحرم والكعبة، وما أشبه ذلك، وهذا هو مقتضى النظر، فإذا اعترضني قطاع طريق فعذت بإنسان يستطيع أن يخلصني منهم فلا شيء فيه.

لكن تعليق القلب بالمخلوق لا شك أنه في الشرك، فإذا علقت قلبك ورجاءك وخوفك وجميع أمورك بشخص معين، وجعلته ملجأ، فهذا شرك؛ لأن هذا لا يكون إلا الله.

وعلى هذا فكلام الشيخ رحمه الله تعالى في قوله: (**إن الأئمة لا يجوزون الاستعاذة بمخلوق**) مقيد بما لا يقدر عليه إلا الله، ولولا أن النصوص وردت بالتفصيل لأخذنا الكلام على إطلاقه، وقلنا: لا يجوز الاستعاذة بغير الله مطلقًا اهـ

مسألة (٥): في الاستعاذة بالجن:

لا يصح الاستعاذة بالجن استدلالاً بالحديث السابق في المسألة السابقة (**فمن وجد ملجئًا أو معاذًا فليعذ به**) لأمرين اثنين:

- **الأول**: أن الحديث فسر المقصود بالرواية الأخرى التي سقناها من رواية مسلم بالفرار من الفتن، والتعوذ بالجن من الاقتراب من الفتن وليس من البعد عنها، بل هو ذريعة للفتنة الكبرى وهي الشرك بالله تعالى.

- **الثاني**: أنه قد جاء في القرآن الكريم منع خصوص الاستعاذة بالجن في قوله تعالى: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِنَ الْإِنْسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾ [الجن:٦]

مسألة (٦): في تفسير المعوذتين:

قال تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢ وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ ۝٣ وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ ۝٤ وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ ۝٥﴾ [الفلق: ١-٥]

الفلق هو الصبح والغسق هو الليل، وفي الليل تنتشر الأرواح الخبيثة والهوام المؤذية، والاستعاذة جاءت من ثلاثة أمور:

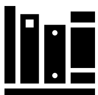
الأول: من شر ما خلق أي من شر كل ما فيه شر.

الثاني: برب الصبح من شر ما يجري في الليل إشارة لقدرة الله تعالى على تغيير أحوالك من الظلام إلى النور ومن الهلاك إلى النجاة.

الثالث: من شر السحر والساحر والحسد والحاسد

قال العلماء: إن هذه السورة تضمنت الاستعاذة من جميع أنواع الشرور، عمومًا وخصوصًا.

وقوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ ۝١ مَلِكِ النَّاسِ ۝٢ إِلَهِ النَّاسِ ۝٣ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ ۝٤ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝٥ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ ۝٦﴾ [الناس: ١-٦]



قال العلامة السعدي في "تيسير الكريم الرحمن" (صـ/٩٣٧):

وهذه السورة مشتملة على الاستعاذة برب الناس ومالكهم وإلههم، من الشيطان الذي هو أصل الشرور كلها ومادتها، الذي من فتنته وشره، أنه يوسوس في صدور الناس، فيحسن لهم الشر، ويريهم إياه في صورة حسنة، وينشط إرادتهم لفعله، ويقبح لهم الخير ويثبطهم عنه، ويريهم إياه في صورة غير صورته، وهو دائمًا بهذه الحال يوسوس ويخنس أي: يتأخر إذا ذكر العبد ربه واستعان على دفعه.

فينبغي له أن يستعين ويستعيذ ويعتصم بربوبية الله للناس كلهم. وأن الخلق كلهم، داخلون تحت الربوبية والملك، فكل دابة هو آخذ بناصيتها. وبألوهيته التي خلقهم لأجلها، فلا تتم لهم إلا بدفع شر عدوهم، الذي يريد أن يقتطعهم عنها ويحول بينهم وبينها، ويريد أن يجعلهم من حزبه ليكونوا من أصحاب السعير، والوسواس كما يكون من الجن يكون من الإنس، ولهذا قال: ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ اهـ.

مسألة (٧): في موانع الاستعاذة:

قد يقول قائل: كلما أستعيذ من الشيطان لا أجد أثرًا لاستعاذتي منه، والجواب: كما بين العلماء أن الاستعاذة كساعد السياف فإن كان ساعده قويًا كانت ضربته بالسيف قوية وإن كان ساعده ضعيفًا كانت ضربته بالسيف ضعيفة، وهكذا هي الاستعاذة فهي بحسب إيمان المستعيذ فإن كان إيمانه قويًا كانت استعاذته قوية وإلا فالعكس.

وقد روى البخاري عن أبي هريرة قال: قال رســـول الله ﷺ: (إن الله قال: من عادى لي وليا فقد آذنته بالحرب وما تقرب إلي عبدي بشـيء أحب إلي مما افترضــت عليه وما يزال عبدي يتقرب إلي بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت سمعه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ويده التي يبطش بها ورجله التي يمشي بها وإن سألني لأعطينه ولئن استعاذني لأعيذنه).

فدل الحديث أنه ليس من اســتعاذ أعيذ وأنه بحســب المســتعيذ تتفاوت درجات التعويذ.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الاسْــتِغَاثَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِذْ تَسْــتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال:٩].

الشرح:

الاستغاثة لغـة: هي طلب النصرة وإزالة الشدة والكرب.

ودليل ذلك قوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيهِ﴾ [القصص: ١٥] ودليل أنها بمعنى طلب النصرة أنه قال في الآية التي بعدها: ﴿فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ﴾ [القصص:١٨] فسمى الاستغاثة بطلب النصرة.

وفي الاصطلاح: هي بمعنى الاستعانة، غير أن الاستغاثة خاصة بالشدائد، وهي في اللغة والاصطلاح سواء، غير أن التعريف اللغوي عام والتعريف الاصطلاحي خاص، فهي في الاصطلاح الاستغاثة بالله تعالى وحده لاشريك له.

مسألة (١) في اسم الله المغيث:

قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (١/١١١):

من أسمائه تعالى المغيث والغياث وجاء ذكر المغيث في حديث أبي هريرة قالوا: واجتمعت الأمة على ذلك.

وقال أبو عبد الله الحليمي: الغياث هو المغيث وأكثر ما يقال غياث المستغيثين ومعناه المدرك عباده في الشدائد إذا دعوه ومجيبهم ومخلصهم، وفي خبر الاستسقاء في الصحيحين: (اللهم أغثنا اللهم أغثنا) يقال: أغاثه إغاثة وغياثا وغوثا.

وهذا الاسم في معنى المجيب والمستجيب قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ إلا أن الإغاثة أحق بالأفعال والاستجابة أحق بالأقوال وقد يقع كل منهما موقع الآخر اهـ

مسألة (٢): في أركان الاستغاثة:

وعندنا في الاستغاثة:

١- مستغيث: وهو المتكلم والمنادي الذي طَلَبَ الإغاثة والإنقاذ، وقيل: لا تكون الاستغاثة إلا بياء النداء دون غيرها، والظاهر أن هذا في الاستغاثة اللغوية بالمخلوق، وأما الاستغاثة بالخالق فتكون بياء النداء: يا مغيث. وتكون حتى بصيغة الدعاء: اللهم أغثني. أغثني يا الله. وتكون بالواو: واغوثاه بالله.

٢- ومستغاث به: وهو المنادى الذي طُلِبَ منه الإغاثة والانقاذ. والمغيث هو الله تعالى دائمًا وأبدًا، وإنما جازت الاستغاثة بغيره في حال اعتقد المستغيث أنه مجرد سبب أقدره الله على ذلك، وإنما جازت كذلك بشروط وضوابط.

٣- ومستغاث له: وهو الواقع في شدة وطلب تخليصه منها. فقد يطلبها المستغيث لنفسه وقد يطلبها لغيره.

٤- ومستغاث منه: وهي الخطر الذي نزل بالمستغيث، كهجوم العدو تسلط الظالم ووثوب السبع ونحو ذلك.

مسألة (٣): أمثلة للاستغاثة:

قال شيخ الإسلام في "الرد على البكري" (١/١٩٦):

والاستغاثة طلب الإغاثة والتخليص من الكربة والشدة، وأنواع الكرب في الشدائد كثيرة لكثرة أسبابها:

كالأمراض والحاجات والأعداء فإن الأمراض فيها من الشدة التي تلحق المريض وأهله وأصدقاءه ما الله به عليم والحاجة إلى الرزق لنفسه وعياله وما ينال الإنسان بسبب الديون عليه كذلك وما يناله إذا قل رزقه من أنواع الشدائد وكذلك حال العدو الظالم من الكفار والفجار في عدوانهم على الناس من الكرب والشدائد ما لا يقدر قدره إلا الله اهـ

مسألة (٤): في الاستغاثة بالمخلوق:

لا يفهم من قوله تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ الآية [الأنفال:٩]. أن الاستغاثة بالمخلوق تدخل في الشرك في كل حال، بل فقه الآية أن الاستغاثة حقيقة تكون بالله تعالى وحده لاشريك له، وأن الاستغاثة بغيره تكون بشروط: أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا وأن يعتقد أنه مجرد سبب وأن المغيث حقيقة هو الله تعالى الذي سخر ويسر للمستغيث من يغيثه.

قال العلامة ابن عثيمين في "شرح ألفية ابن مالك" (٥٦/٤):

ومن الناحية الشـــرعية هي جائزة بغير الله تعالى فيما يقدر عليه، وفيما لا يقدر عليه لا تجوز اهـ.

وقال شيخ الإسلام في "الرد على البكري" (٩٦/١):

ومن هو دون الرسول من عموم المؤمنين يستغاث به ويطلب منه في حياته الإغاثة على دفع هذه الشدائد كلها بحسب قدرته وذلك إما واجب و إما مستحب ومعلوم أن طلب المؤمنين ذلك من رسول الله في حال حياته أعظم من طلبهم له من كل خليفة و عالم وشـــيخ وملك وهو أقوم بذلك من هؤلاء وأقدر على إزالة ذلك منهم فكانوا عند الجدب يفزعون إليه حتى يســتســقي الله لهم وعند الحرب يفزعون إليه طلبا لأمره ودعائه بل قد روى البراء عن علي أنه قال كنا إذا احمر البأس ولقي القوم اتقينا برسول الله ﷺ فلم يكن أحد أقرب إلى العدو منه

وفي الصحيح أن أهل المدينة فزعوا فركب رسول الله ﷺ فرسًا لأبي طلحة عري فكشـــف لهم ثم رجع فقال: (لن تراعوا وإن وجدناه لبحرا) وعند قلة الطعام والماء فإليه يفزعون فيدعو لهم فيكثر الطعام كما فعل ذلك غير مرة في عام الخندق وفي السفر وغير ذلك اهـ

قلت: وقد اســتدل العلماء على جواز الاســتغاثة بالمخلوق بالشـــروط السابقة بقوله تعالى: ﴿فَاسْتَغَاثَهُ الَّذِي مِنْ شِيعَتِهِ عَلَى الَّذِي مِنْ عَدُوِّهِ فَوَكَزَهُ مُوسَى فَقَضَى عَلَيْهِ﴾ [القصص: ١٥]

قال العلامة القرطبي في "الجامع لأحكام القرآن" (١٣/ ٢٦٠):

وإنما أغاثه لأن نصر المظلوم دين في الملل كلها على الأمم، وفرض في جميع الشرائع اهـ.

قلت: وكل من أنكر الاستغاثة بالمخلوق نجيبهم أن كل أدلة نصرة المظلوم هي بمعنى اغاثتهم.

مسألة (٥): في أقسام الاستغاثة:

هي على ثلاثة أقسام:

الأول: الاستغاثة الواجبة:

وهي الاستغاثة بالله تعالى فهو وحده من يستغاث به في جميع الشدائد، ومنها الاستغاثة بطلب نزول المطر، والاستغاثة برقع القحط والجدب، والاستغاثة بهداية الابن

فهذه الاستغاثة ونحوها لا تكون إلا بالله تعالى وصرفها لغيره شرك أكبر كما قال تعالى: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ وقال تعالى: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِنْ قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ﴾ [الأحقاف: ١٧]

الثاني: الاستغاثة المباحة:

وهي الاستغاثة بالحي القادر على الإغاثة فهذه جائزة وهي كالاستعانة بهم، وسبق التفصيل فيها في مسألة الاستعانة بالمخلوق وأنها بمعنى النصرة للمظلوم.

وشروط جوازها كما سبق: أن يكون حيًا حاضرًا قادرًا وأن يعتقد أنه مجرد سبب وأن المغيث حقيقة هو الله تعالى الذي سخر ويسر للمستغيث من يغيثه.

الثالث: الاستغاثة المحرمة:

وهي الاستغاثة بالمخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الخالق العظيم سبحانه وتعالى، وهي أنواع:

١- الاستغاثة بالأولياء والصالحين:

كما يفعل الصوفية مع شيوخهم حتى قال الصوفي المنحرف علي الجفري: إن البدوي يستطيع أن يخلق الأطفال في أرحام الأمهات بغير آباء.

وشيوخ الصوفية في الحقيقة الأصل في الكثير منهم أنهم ليسوا من الصالحين أساسًا.

٢- الاستعانة بالعاجزين:

قال العلامة ابن عثيمين كما في "مجموع الفتاوى" (٧/٢٩):

الاستغاثة بحي غير قادر من غير أن يعتقد أن له قوة خفية مثل أن يستغيث بمشلول على دفع عدو صائل. فهذا لغو وسخرية بالمستغاث به فيمنع لهذه العلة ولعلة أخرى، وهي أنه ربما اغتر بذلك غيره فتوهَّم أن لهذا المستغاث به وهو عاجز أن له قوة خفية ينقذ بها من الشدة اهـ.

٣- الاستغاثة بالقبور والأموات: ولأهل كل بلد العجب العجاب مع أمواتهم.

قال العلامة الأمير الصنعاني في "تطهير الاعتقاد" (صـ/٦٢):

وكذلك تسمِيةُ القبرِ مَشهداً، ومَن يعتقدون فيه وليًّا، لا تخرجه عن اسم الصَّنم والوثن؛ إذ هم مُعاملون لها معاملة المشركين للأصنام، ويطوفون بهم طواف الحجاج ببيت الله الحرام، ويَستلمونهم استلامَهم لأركان البيت، ويُخاطبون الميت بالكلمات الكفرية، مِن قولهم: على الله وعليك، ويَهتفون بأسمائِهم عند الشدائد ونحوها. وكلُّ قوم لهم رَجل ينادونه.

- فأهلُ العراق والهند يَدعون عبد القادر الجيلي.
- وأهل التهائم لهم في كلِّ بلد ميتٌ يهتفون باسمه، يقولون: يا زيلعي! يا ابن العجيل!

وأهلُ مكة وأهل الطائف: يا ابن العباس!

وأهل مصر: يا رفاعي! يا بدوي! والسادة البكرية!

وأهلُ الجبال: يا أبا طير!

وأهل اليمن: يا ابن علوان! اهـ

فصل في أقوال بعض العلماء الربانيين وبيان أن الاستغاثة بالأموات عمل من أعمال المشركين

قال شيخ الإسلام في "الاستغاثة في الرد على البكري" (صـ/١١٢):

ومن ذهب إلى الاستغاثة بالموتى فقد شرع له دينًا لم يؤذن له به اهـ

وقال العلامة ابن الأمير الصنعاني في "الإنصاف في حقيقة الأولياء وماهم من الكرامات والألطاف" (صـ/٩٢):

فهذه البدعة وهي الاستغاثة بالأموات وإنزال الحاجات بهم والتوسل إنَّما هو بقية من عبادة الأصنام؛ فإنَّ الجاهلية كانوا يستغيثون بهم ويطلبون الحاجات منهم، وكلُّ بدعة ضلالة، كما ثبت في الأحاديث، وأيُّ ضلالةٍ أعظم من عبدٍ يُنزل حاجاته بالأموات ويعرض عن باري البريات اهـ

وقال العلامة أبا بطين في "دحض شبهات على التوحيد" (صـ/٤٥):

ومن ادعى أن الاستغاثة بالأموات والغائبين مستحب أو مباح فقد مرق من الإسلام اهـ

وقال العلامة الشوكاني كما في "الفتح الرباني" (١/٦٣٣):

وبالجملة فالوارد عن الشارع من الأدلة الدالة على قطع ذرائع الشرك، وهدم كل شيء يوصل إليه في غاية الكثرة، ولو رمت حصر ذلك على التمام لجاء

في مؤلف بسيط، فلنقتصر على هذا المقدار، ونتكلم على حكم ما يفعله القبوريون من الاستغاثة بالأموات، ومناداتهم لقضاء الحاجات، وتشريكهم مع الله في بعض الحالات، وإفرادهم بذلك في بعضها اهـ.

وقال العلامة حمد بن ناصر النجدي كما في "مجموعة الرسائل والمسائل والفتاوى" (صـ/١٢):

ونحن نعلم بالضرورة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يشرع لأمته أن يدعوا أحداً من الأموات ولا الأنبياء ولا الصالحين ولا غيرهم، لا بلفظ الاستغاثة ولا بغيرها، بل نعلم أنه نهى عن كل هذه الأمور، وأن ذلك من الشرك الأكبر الذي حرمه الله ورسوله اهـ.

وقال في جوابه على شبهة قياس التوسل بالاستغاثة (صـ/١٥٦):

والتوسل غير الاستغاثة فإنه لم يقل أحد: أن من قال: اللهم إني أسألك بحق فلان أنه استغاث به بل إنما استغاث بمن دعاه بل العامة الذين يتوسلون في أدعيتهم بأمور كقول أحدهم: أتوسل إليك بحق الشيخ فلان أو بحرمته أو نحو ذلك مما يقولونه في أدعيتهم يعلمون أنهم لا يستغيثون بهذه الأمور، فإن المستغيث بالشيء طالب منه سائل له والمتوسل به لا يدعي، ولا يسأل ولا يطلب منه، وإنما يطلب به، وكل أحد يفرق بين المدعو والمدعو به، والاستغاثة هي طلب الغوث، وهو إزالة الشدة كالاستنصار طلب النصر، والاستعانة طلب العون، فكل أحد يفرق بين المسؤول والمسئول به اهـ.

وقال (صـ/٢٠٣):

قد عرفت من أن الاستغاثة بالأموات والاستشفاع بهم في أمر هو في يد الله ممتنع حصـــوله، لكونه تألها وعبادة، وقد أبطله القرآن، فهذا المعترض الجاهل يدور على منازعة الله في حقه، وملكه وشمول علمه، والله يجزيه بعمله اهـ.

وقال الإمام العلامة الأمير الصنعاني في "تطهير الاعتقاد" (صـ/٦٣):

أعـادوا بهـا معنى ســـواع ومثلـه   يغوث وود، بئس ذلـك من وُدّ
وقد هتفوا عند الشـــدائد باسمها   كما يهتف المضطر بالصَّمد الفرد
وكم نحروا في ســـوحها من نحيرة   أهلَّـت لغير الله جهرًا على عمـد
وكم طـائف حول القبور مقبِّلاً   ويســـتلم الأركـان منهنَّ باليـد

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الذَّبْحِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لاَ شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ الآية [الأنعام: ١٦٢-١٦٣]

وَمِنَ السُنَّةِ: (لعَنَ اللهُ مَنْ ذَبَحَ لِغَيْرِ اللهِ).

الشرح:

الذبح لغة: هو إراقة الدم بواسطة شق أو قطع العنق، فإن قطع فقد أتم وإن شق فلابد من شق القصبة وقطع الأوداج.

واصطلاحاً: هو ذبح مخصوص لحيوان مخصوص بطريقة مخصوصة لقصد مخصوص كالهدي والعقيقة والوليمة وغيرها.

مسالة (١) في أنواع الذبح وأحكامه:

قال العلامة ابن عثيمين في "شرح الأصول الثلاثة" كما في "مجموع الفتاوى" (٦/٦٢):

الذبح إزهاق الروح بإراقة الدم على وجه مخصوص ويقع على وجوه:

الأول: أن يقع عبادة، بأن يقصد به تعظيم المذبوح له والتذلل له والتقرب إليه، فهذا لا يكون إلا لله تعالى على الوجه الذي شرعه الله تعالى، وصرفه لغير الله

شــرك أكبر ودليله ما ذكره الشــيخ رحمه الله وهو قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ﴾.

الثاني: أن يقع إكرامًا لضـيف أو وليمة لعرس أو نحو ذلك، فهذا مأمور به إما وجوبًا أو اسـتحبابًا لقوله صـلى الله عليه وسـلم: (**من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه**) (١٤) وقوله صلى الله عليه وسلم لعبد الرحمن بن عوف (**أو لم ولو بشاة**) (١٥).

الثالث: أن يقع على وجه التمتع بالأكل أو الإتجار به ونحو ذلك فهذا من قسـم المباح، فالأصـل فيه الإباحة لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُم مِّمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا فَهُمْ لَهَا مَالِكُونَ ﴿٧١﴾ وَذَلَّلْنَاهَا لَهُمْ فَمِنْهَا رَكُوبُهُمْ وَمِنْهَا يَأْكُلُونَ﴾ [يس: ٧١-٧٢]

وقد يكون مطلوبًا أو منهيًا عنه حسبما يكون وسيلة له اهـ.

مسألة (٢): في الفرق بين الذبح والنحر والنسك:

- **أولًا الذبح:**

هو الشــق والقطع بآلة خاصــة لذلك. ومحله أعلى العنق ويشـمل القصـبة والأوداج. ويدخل في ذلك جميع بهائم الأنعام: البقر، والضـأن والماعز. وغيرها من

---

(١٤) البخاري (٥٦٧٢) ومسلم (٥٧) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

(١٥) البخاري (١٩٤٤) ومسلم (٣٥٥٦) عن أنس بن مالك رضي الله عنه.

المذبوحات كالخيل والحمر الوحشية والغزلان والطيور والأرانب، فكلها ذكاتها الذبح.

- **ثانيًا: النحر:**

هو طعن بالسكين أو الرمح ومحله في أسفل العنق في التجويف نهاية الصدر وبداية العنق، ويسمى هذا المكان: (الوهدة) أو (اللبة). ومنه قوله تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر:٢] والنحر خاص بالإبل ويجوز ذبحها، ويجوز ذبح ما ينحر ونحر ما يذبح والتخصيص جاء لبيان للأفضل.

قال الإمام الشافعي في "الأم" (٢/٢٦٢):

والذكاة في جميع ما ينحر ويذبح ما بين اللبة والحلق فأين ذبح من ذلك أجزأه فيه ما يجزيه إذا وضع الذبح في موضعه وإن نحر ما يذبح أو ذبح ما ينحر كرهته له ولم أحرمه عليه وذلك أن النحر والذبح ذكاة كله غير أني أحب أن يضع كل شيء من ذلك موضعه لا يعدوه إلى غيره اهـ.

قال أبو بكر بن مسعود الكاساني في "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" (٥/ ٤١):

والأسهل في الإبل النحر لخلو لبتها عن اللحم واجتماع اللحم فيما سواه من خلفها، والبقر والغنم جميع حلقها لا يختلف اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين في "شرح الزاد" (١/٤١١٢):

والذبح يكون في أعلى الرقبة لا في أسفلها، والنحر يكون في أسفلها، ولهذا تموت الإبل أسرع من موت الضأن والماعز والبقر؛ وذلك لأن النحر قريب من

القلب فيتفجر الدم من القلب بسـرعة، ولو أنها ذبحت الإبل من عند الرأس لكان يعني تتألم من الذبح؛ لأن الدم سيكون مجراه ما بين القلب إلى محل الذبح سيكون بعيدا، فيتأخر موتها، فكان من الحكمة أن تنحر، ويخرج الدم بسرعة، ثم تموت بسرعة، أما غيرها فإنها تذبح من عند الرأس اهـ.

وقال في "شرح الرياض" (٣/٥٩٤):

ولابد في الذبح والنحر من قطع الودجين، وهما العرقان الغليظان اللذان يجري منهما الدم ويتوزع اهـ.

وسمعت للعلامة ابن عثيمين في "شـرح البخاري" "كتاب الأطعمة" وهو يقول:

النحر في الإبل والذبح فيما سواه فيشمل البقر والغنم والظباء وغير ذلك كل ما سوى الإبل فإنه يذبح ولو أنه ذبح ما ينحر أو نحر ما يذبح فلا بأس ولا حرج لأنه يحصل به المقصود والنحر يكون في أسفل الرقبة والذبح يكون في أعلى الرقبة هذا الفرق بينهما اهـ

- **ثالثًا: النسك:**

النسك يطلق على عبادة النحر والذبح، ويطلق على غير ذلك من العبادات، ولهذا نقول: "مناسك الحج والعمرة" أي عبادة، ويطلق على العابد: أنه ناسك، قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقال تعالى: ﴿فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] ففي الآية الأولى قرن بين الصلاة والنسك وفي الآية الثانية قرن بين الصلاة والنحر، فدل أن النسك هو النحر.



فيأتي النســـك ويراد به الذبائح كما في قوله تعالى: ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَــكًا لِيَذْكُرُوا اسْـــمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ﴾ [الحج:٣٤] فدل أن النسك هو الذبائح كم بهيمة الأنعام.

وفي الصــحيحين من حديث البراء بن عازب رضـــي الله عنهما قال: قال النبي ﷺ: (إن أول ما نبدأ به في يومنا هذا نصلى ثم نرجع فننحر فمن فعل ذلك فقد أصاب سنتنا ومن ذبح فإنما هو لحم قدمه لأهله ليس من النسك في شيء)

ويأتي النسك ويراد به العبادة كما في قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا هُمْ نَاسِـــكُوهُ﴾ [الحج:٦٧] أي عبادة هم يتعبدون بها تختلف عن عبادة غيرهم من الأمم.

مسألة (٣): جميع الذبائح المباحة صرفها لغير الله شرك وصرفها لله تعالى عبادة:

قسم العلماء الذبح إلى أقسام: واجبة ومستحبة ومباحة ومحرمة، ولكن قد تصـير الذبيحة المباحة إلى شـرك إذا صـرفت لغير الله تعالى، ولهذا قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَـــلَاتِي وَنُسُـــكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأنعام: ١٦٢] وقوله تعالى: ﴿فَصَـــلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ﴾ [الكوثر: ٢] فجعل الذبح بمنزلة الصــلاة فمن صــلى لغير الله أشرك ومن ذبح لغيره أشرك، وكما أن الصلاة لاتكون إلا لله تعالى وحده لا شريك له، فكذلك النسك لايكون لغيره أبدًا.

وبالمقابل فإن الذبيحة المباحة التي أراد صــاحبها أن يأكل منها ويتلذذ هو وزوجته وأبناءه بها فإنه يؤجر عليها، فإن ذبحها لله تعالى وأكلها كانت عبادة وأعظم أجرًا وثوابًا.

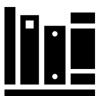
ولهذا اســتدل المؤلف بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ والشــاهد قوله: ﴿لَا شَرِيكَ لَهُ﴾ فكما أنه لا شـريط له في عبادة الصــلاة فكذلك لاشـريك له في عبادة الذبح، فمن فعل ذلك كان وعيده في الحديث الذي استدل به المؤلف الذي رواه مسـلم من حديث علي بن أبي طـالـب أن النبي ﷺ قـال: (لعن الله من ذبح لغير الله) واللعن هو الطرد والإبعاد.

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم النجدي في "الحاشية" (صـ/٧٢):

ودل الحديث على أن الذبح عبادة، لأن الله لعن من صـرفه لغيره، والعبادة كلها مختصـة بالله، فإذا صـرفها أحد لغير الله، بأن ذبح للأصـنام أو للقبور المعبودة من دون الله التماسًـا لشـفاعة أربابها أو للزيران أو للزهرة أو لقدوم سـلطان أو نحو ذلك مشرك كافر اهـ.

مسألة (٤) الذبح في مكان أو زمان معين:

تخصــيص النحر في مكان أو زمان معين مخالف للســنة، فإن كان ذلك المكان أو الزمان تقام به من طقوس الشـــرك منع الذبح فيه، ومن تعمد ذلك وقع في الشرك



روى ابن ماجه عن ميمونة بنت كردم اليسارية أن أباها لقي النبي ﷺ وهي رديفة له، فقال: إني نذرت أن أنحر ببوانة. فقال رسول الله ﷺ: (**هل بها وثن؟**) قال: لا: قال (**أوف بنذرك**)

وفي رواية له عن ابن عباس أن رجلا جاء إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني نذرت أن أنحر ببوانة. فقال: (**في نفسك شيء من أمر الجاهلية؟**) قال: لا. قال (**أوف بنذرك**)

وفي رواية عند أبي داود من حديث ثابت بن الضحاك قال: نذر رجل على عهد رسول الله ﷺ أن ينحر إبلا ببوانة فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة. فقال النبي ﷺ: (**هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد**). قالوا: لا. قال: (**هل كان فيها عيد من أعيادهم**). قالوا: لا. قال رسول الله ﷺ: (**أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم**).

وهنا اتفق العلماء أن من ذبح لغير الله تعالى فقد أشرك شركًا أكبر، ثم اختلفوا فيمن ذبح لله تعالى ولكنه ذبحها عند قبر بقصد التبرك به، وكان خلافهم على قولين:

الأول: أنه وقع في الشرك الأصغر بناء على الضابط الذي يرونه وهو أن كل وسيلة للشرك الأكبر فهو شرك أصغر.

وهذا قرره العلامة الفوزان أن من ذبح عند قبر إن كان الذبح للقبر فهو شرك أكبر وإن كان الذبح لله ولكنه ظن أن هذا المكان له فضيلة فهو شرك أصغر؛ لأنه وسيلة من وسائل الشرك الأكبر.

الثاني: أنه ليس كل وسيلة للشرك الأكبر يعتبر شركًا أصغر، أي أن بعضه قد يكون من الشرك الأصغر وبعضه قد يكون من البدع، ومنهم العلامة ابن باز والعلامة عبد الرزاق عفيفي والعلامة الغديان، كما في الفتوى التالية لهم ضمن فتاوى اللجنة الدائمة.

وقالت اللجنة الدائمة "المجموعة الأولى" (٢٣/ ٢٢٩):

الذبح عند القبور بدعة، ووسيلة من وسائل الشرك الأكبر، فلا يجوز لمن نذر أن يذبح عند قبر أن يفي بنذره؛ لأن نذره نذر معصية، ونذر المعصية لا يجوز الوفاء به اهـ

قلت: والذي يظهر والله أعلم أن الأصل في البدع غير المكفرة أنها داخلة في الشرك الأصغر؛ لعموم قوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فإن كبرت دخلت في الشرك الأكبر. وهو ظاهر كلام شيخ الإسلام ابن تيمية والله أعلم.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ الآية [الإنسان:٧]

الشرح:

النذر لغة: نذر بمعنى أوجب. نذر بمعنى التزم بعمل شـــيء أو تركه. انظر "التعاريف" للمناوي (١/٦٩٥) و"معجم مقاييس اللغة" لابن فارس (٥/٤١٤).

وقـد يأتي النـذر والنحـب بنفس المعنى. انظر "تاج العروس" للزبيـدي (١/٩٥٩). و "معجم مقاييس اللغة" (٥/٤٠٤).

واصطلاحاً: إلزام الإنسان نفسه بقربة غير ملزمة بالشرع، ويعقد باللسان لا بالنية.

مسألة (١) حكم النذر:

يختلف حكم النذر عن حكم الوفاء به:

- فالأصل في حكم النذر هو الكراهة؛ لما جاء في الصحيحين عن سعيد بن الحارث أنه سمع ابن عمر رضـــي الله عنهما يقول: أو لم ينهوا عن النذر إن النبي ﷺ قال: (إن النذر لا يقدم شـيئا ولا يؤخر وإنما يسـتخرج بالنذر من البخيل). وإنما كان كذلك؛ لأن البخيل لايخرج شـــيئًا إلا بمقابل، وهذا لا يليق أن يتعامل به العبد مع ربه سبحانه وتعالى.

- والأصـــل في الوفاء به هو الوجوب؛ لقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] ولما جاء في الصحيحين عن ابن عمر أن عمر قال: يا رســـول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال ﷺ: (أوف بنذرك)

ويشـترط للوفاء بالنذر أن يكون نذر طاعة لا نذر معصـية؛ لما رواه مسـلم عائشـة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه)

ولما رواه أبو داود من حديث ثابت بن الضـــحاك قال: نذر رجل على عهد رســـول الله ﷺ أن ينحر إبلا ببوانة فأتى النبي ﷺ فقال: إني نذرت أن أنحر إبلا ببوانة. فقال النبي ﷺ: (هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد). قالوا: لا. قال: (هل كان فيها عيد من أعيادهم). قالوا: لا. قال رســول الله ﷺ: (أوف بنذرك فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم).

وللعلامة القرطبي تفصـــيل في الحكم متى يكون على التحريم ومتى يكون على الكراهة، انظره في المسألة الثالثة.

مسألة (٢): النذر متعلق بالخوف:

الأصـــل في النذر هو الخوف من وقوع شـــيء فيقوم الناذر بالتقرب إلى الله بقربة بقصد أن يدفع عنه ذلك الشيء الذي يخاف وقوعه.

قال ابن فارس في "معجم مقاييس اللغة" (٥/٤١٤):

النُّونُ وَالـذَّالُ وَالرَّاءُ كَلِمَـةٌ تَـدُلُّ عَلَى تَخْوِيفٍ أَوْ تَخَوُّفٍ. مِنْـهُ الْإِنْـذَارُ: الْإِبْلَاغُ؛ وَلَا يَكَادُ يَكُونُ إِلَّا فِي التَّخْوِيفِ. وَتَنَاذَرُوا: خَوَّفَ بَعْضُـهُمْ بَعْضًـا. وَمِنْهُ النَّذْرُ، وَهُوَ أَنَّهُ يَخَافُ إِذَا أَخْلَفَ. قَالَ ثَعْلَبٌ: نَذِرْتُ بِهِمْ فَاسْـتَعْدَدْتُ لَهُمْ وَحَذِرْتُ مِنْهُمْ. وَالنَّذِيرُ: الْمُنْذِرُ، وَالْجَمْعُ النُّذُرُ. وَالنَّذْرُ أَيْضًـا: مَا يَجِبُ، كَأَنَّهُ نُذِرَ، أَيْ أُوجِبُ. وَنَذْرُ الْمُوضِحَةِ فِي الْحَدِيثِ مِنْهُ اهـ.

ويؤيد هذا رواية (لا يرد) رواها ابن حبان عن ابن عمر وأبو عوانة عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (إن النذر لا يرد شيئًا ولكن يستخرج من البخيل).

وقوله: (لا يرد) في الحديثين يدل على دلالتين:

الأولى: أن النذر يكون في دفع ما يخاف منه. ولكن قد جاءت رواية تدل أنه قد يكون في طلب مرغوب. فقد روى أحمد عن أبي هريرة: أن النبي ﷺ نهى عن النذر، وقال: (إنه لا يقدم شيئًا، ولكنه يستخرج من البخيل).

الثانية: أن النذر لايرد القدر، كما سنبينه في المسألة التالية.

مسألة (٣): بيان أن النذر لا يرد القدر:

المتقرر عند أهل العلم بناء على الأدلة أن النذر لا يوجب حصول الغرض المطلوب، أو أن الله يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر، لما رواه مسلم عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (لا تنذروا فإن النذر لا يغنى من القدر شيئا وإنما يستخرج به من البخيل).

قال العلامة القرطبي في "المفهم" (٤/٦٠٦):

وقوله ﷺ: (**لا تنذروا! فإن النَّذر لا يردّ من قدر الله شـــيئًا**) هذا النذر محله أن يقول: إن شفى الله مريضي، أو قدم غائبي فعليَّ عتق رقبة، أو صدقة كذا، أو صوم كذا.

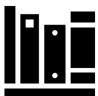
ووجه هذا النهي هو: أنه لما وقف فعل هذه القربة على حصـــول غرض عاجل ظهر أنه لم يتمحض له نيَّة التقرب إلى الله تعالى بما صدر منه، بل سلك فيها مسلك المعاوضة. ألا ترى: أنَّه لو لم يحصل غرضه لم يفعل؟! وهذه حال البخيل؛ فإنَّه لا يخرج من ماله شـــيئًا إلا بعوض عاجل يربي على ما أخرج. وهذا المعنى هو الذي أشار إليه بقوله صلى الله عليه وسلم: (**وإنما يستخرج به من البخيل ما لم يكن البخيل يخرجه**)

ثم ينضـــاف إلى هذا اعتقاد جاهل يظن: أن النذر يوجب حصـــول ذلك الغرض، أو: أن الله تعالى يفعل معه ذلك الغرض لأجل ذلك النذر. وإليهما الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم: (**فإن النَّذر لا يردُّ من قدر الله شيئًا**). وهاتان جهالتان: فالأولى تُقارب الكفر. والثانية خطأ صراح

وإذا تقرر هذا، فهل هذا النهي محمول على التحريم، أو على الكراهة؟ المعروف من مذاهب العلماء الكراهة.

قلت: والذي يظهر لي: حمله على التحريم في حق من يخاف عليه ذلك الاعتقاد الفاســـد. فيكون إقدامه على ذلك محرمًا. والكراهة في حق من لم يعتقد ذلك. والله تعالى أعلم اهـ.

مسألة (٤): أقسام النذر:



- **واجب**: وهو نذر طاعة: كمن نذر أن يتصدق أو أن يصوم، ودليل الوجوب قوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْمًا كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيرًا﴾ [الإنسان: ٧] ولما جاء في الصحيحين عن ابن عمر أن عمر قال: يا رسول الله، إني نذرت في الجاهلية أن أعتكف ليلة في المسجد الحرام، قال: (أوف بنذرك).
- **محرم**: وهو نذر المعصية: وهو ثلاثة أقسام:

١- شرك: إن نذر أن يذبح لصاحب قبر فهو شرك أكبر، وإن نذر أن يذبح لله تعالى ولكن بجوار قبر تقام فيه الطقوس الشركية تبركًا فهو شرك أصغر.

٢- بدعة: نذر أن يصوم الدهر أو أن يتبتل عن النساء أو يقوم الليل فلا ينام الليل ابدًا فهو نذر بدعة. والبدعة تدخل في الشرك على القول الصحيح

٣- معصية: ومن نذر أن يشرب الخمر أو يقطع الرحم فهو نذر معصية حكمها الفسق.

والدليل على تحريم هذه النذور كلها ما رواه مسلم عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ قال: (من نذر أن يطيع الله فليطعه ومن نذر أن يعصيه فلا يعصه). وسبق حديث: (فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله)

- **مبـــاح**: وهو النذر الذي لا يتضـمن القيام بطاعة بل بأمر مباح، كمن نذر أن يشرب عصير التوت، أو يمشي إلى المسجد راجلًا أي لا يركب السيارة، فهذا نذر مباح وهو بالخيار بين الوفاء والكفارة.
- **مكروه**: كمن نـذر ترك نافلـة أو عـدم إماطـة الأذى من الطريق!! وهـذا النذر فيه عدوان؛ لأن النذر قربة وكيف يتقرب الانســان لربه بترك طاعته، فمن هذه الناحية أخشى أنه يلحق في الحكم بالنذر المحرم لسببين:

الأول: ســـدًا لـذريعـة التهـاون بالطـاعـات والتقليـل من قيمتهـا. فالنذر إنما هو للتقرب لا للابتعاد.

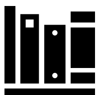
الثـاني: أن يصــــاحب ذلك اعتقـاد التقرب إلى الله تعالى بترك الطاعة المستحبة.

مسألة (٥): علاقة النذر بالتوحيد

كانت العرب في الجاهلية يقومون بالكثير من العبادات الشــــركية، ومنها النذر لألهتهم الباطلة، فجاء النبي ﷺ بالإســـلام وحارب ودعا الناس إلى التوحيد وحارب كل أنوع وأصناف وألوان الشرك والتنديد، ومن ضمن ذلك النذر لغير الله تعالى. ولهذا عندما أخبر الرجل أنه نذر أن ينحر ببوانة ســـأله ﷺ هل كان هناك أعياد أو أوثان خشية الشرك.

ولهذا قال المؤلف: وَدَلِيلُ النَّذْرِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ الآية [الإنسان:٧]

ومراده من ذلك تقرير المقدمة وبيان النتيجة.



١- **المقدمة**: وهي إثبات أن النذر عبادة لله تعالى بدلالة الآية والنذر بالمعنى العام يأتي بمعنى العبادة العامة التي فرضها الله وإن لم ينذر الإنسان بها لقوله تعالى: ﴿وَلْيُوفُوا نُذُورَهُمْ﴾ [الحج:٢٩] أي عبادة الحج، ويأتي بالمعنى الخاص ويراد به ما نذر به الإنسان وأوجبه على نفسه لقوله تعالى: ﴿يُوفُونَ بِالنَّذْرِ﴾ فدل بالمعنيين أن النذر عبادة.

٢- **النتيجة**: وهي الأخذ من ثبوت أن النذر عبادة اقتضاء أن صرفه لغير الله تعالى شرك به ومن يشرك بالله فقد اقترف ذنبًا عظيمًا والعياذ بالله.

الأصل الثاني:

قال المؤلف:

الأصـــل الثـاني: معرفة دين الإســلام بالأدلة:
وَهُوَ: الاسْـــتِسْـــلامُ للهِ بِالتَّوْحِيدِ، وَالانْقِيَادُ لَهُ بِالطَّاعَةِ، وَالْبَرَاءَةُ مِنَ الشِّرْكِ وَأَهْلِهِ،

الشرح:

انتهينا من الأصل الأول من الأصول الثلاثة، وهو متعلق بمعرفة العبد لربه العظيم وخالقه الكريم، وفيه تعرفنا على الكثير من العبادات العظيمة: القلبية والعملية التي يتقرب بها المخلوق لخالقه ويوحده بها دون سواه.

وهنا ننتقل للأصل الثاني وهو متعلق بمعرفة دين الإسلام فهو الدين الذي لا يقبل الله تعالى من الجن والإنس ســـواه، ومن دان بغيره من الجن أو الإنس فقد كفر.

قال كبير العلماء الشـــيخ عبد العزيز بن باز في كلمة له في التعريف بدين الإسلام كما "مجوع الفتاوى" (٢٨/٧٦):

فإن الله بعث نبيه محمدًا ﷺ بالهدى ودين الحق وهو الإســـلام الذي بعث الله به الرسل جميعًا حيث قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩]، وقال

سبحانه: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [آل عمران: ٨٥]

فالإسلام هو: دين الله الذي بعث به جميع المرسلين من أولهم نوح إلى آخرهم وخاتمهم نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وهو الذي كان عليه أبونا آدم، فإن الله بعثه لنفسه وذريته نبيًّا على شريعة علمه إياها وشرعها له فاستقام عليها وذريته حتى بعث الله نوحا عليه الصلاة والسلام.

فالإسلام هو استسلام لله وانقياد بطاعة أوامره وترك نواهيه هذا هو الإسلام.

وأصل دين الإسلام وأساسه هو توحيد الله، وإخلاص العبادة له وحده، هذا هو أصل دين الإسلام: أن تكون العبادة لله وحده من دعاء وخوف ورجاء وصلاة وصوم وذبح ونذر وغير ذلك يكون لله وحده، وبهذا بعث الله الرسل جميعًا، كما قال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦] ومعنى ﴿اعْبُدُوا اللَّهَ﴾ يعني وحدوا الله خصوه بالعبادة، ﴿وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾

يعني اتركوا عبادة ما سوى الله، والطاغوت كل ما عبد من دون الله من شجر أو حجر أو صنم أو كوكب أو غير ذلك، كله طاغوت. لكن إذا كان المعبود لا يرضى بذلك: كالأنبياء والملائكة والصالحين، فالطاغوت هو الشيطان الذي دعا إلى عبادتهم وزينها للناس وهم براء من ذلك.

فأصل دين الإسلام هو هذا: إخلاص العبادة لله وحده دون كل ما سواه والكفر بعبادة غيره، يعني إنكار عبادة غيره واعتقاد بطلانها وأنها شرك بالله هكذا بعث الله جميع الرسل، من أولهم نوح إلى آخرهم وخاتمهم محمد عليه الصلاة والسلام، وهكذا علم الله آدم وشرع له، فعبد الله وحده، وهكذا ذريته على دينه عليه الصلاة والسلام، حتى وقع الشرك في بني آدم في عهد نوح عليه الصلاة والسلام.

وكل رسول بلغ أمته أنه مبعوث لهم ليأمرهم بتوحيد الله والإخلاص له اهـ.

انتهى من كلمة طويلة ومفيدة ننصح بالرجوع لها والاستفادة منها من مصدرها في مجموع الفتاوى

وحاصل كلام المؤلف أن المسلم لا يسمى مسلماً حتى يحقق ثلاثة أشياء هي أساس الإسلام ومن لم يحققها فليس مسلماً وهي:

الأول: الاستسلام لله بالتوحيد:

فالتوحيد هو دين الأنبياء وهو الإسلام الذي رضي الله تعالى لهم، ومن نقض توحيده فقد نقض إسلامه وكان من الكافرين، كما قال تعالى: ﴿ذَلِكُمْ بِأَنَّهُ إِذَا دُعِيَ اللَّهُ وَحْدَهُ كَفَرْتُمْ وَإِنْ يُشْرَكْ بِهِ تُؤْمِنُوا﴾ [غافر:١٢] فدلت الآية أن من لم يقر بالتوحيد فقد كفر. وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [الزمر:٤٥] وفيها دلالة أن من اشمأز قلبه من دعوة التوحيد أن ذلك علامة على عدم إيمانه.

وقال تعالى مبينًا رفض الكفار لعقيدة التوحيد: ﴿قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾ [الأعراف:٧٠] وقال تعالى: ﴿وَإِذَا ذَكَرْتَ رَبَّكَ فِي الْقُرْآنِ وَحْدَهُ وَلَّوْا عَلَى أَدْبَارِهِمْ نُفُورًا﴾ [الإسراء:٤٦]

وإنما بعث الله تعالى كل الأنبياء والرسل بهذا الأصل العظيم وهو دعوة الناس للاستسلام لله بالوحدانية، فقال تعالى عن نبيه إبراهيم عليه السلام: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقال يوسف عليه السلام: ﴿يَاصَاحِبَيِ السِّجْنِ أَأَرْبَابٌ مُتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ اللَّهُ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]

الثاني: الانقياد لله بالطاعة:

فالأصل في العبد هو طاعة المعبود بكل حب وذل وتواضع، فالطاعة من البر وتركها من العقوق، وإذا كان عقوق الوالدين من موجبات النار فكيف بعقوق رب العالمين؟ فدل أن أشد العقوق هو عقوق العبد لخالقه ومولاه، وقد روى مسلم في صحيحه عن جرير عن النبي ﷺ أنه قال: (أيما عبد أبق من مواليه فقد كفر حتى يرجع إليهم) ورواه أحمد بلفظ: (أيما عبد أبق فقد برئت منه الذمة) فإذا كان هذا حكم العبد إذا هرب عن سيده فكيف بالعبد الذي فر عن طاعة ربه وخالقه.

قال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢] وقال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١] فدلت الآيتان على خطورة من خرج عن طاعة الله تعالى، الأولى بثبوت الكفر عليه والثانية بنفي الإيمان عنه.

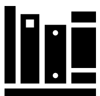
الثالث: البراءة من الشرك وأهله:

إذا كان الصادق يكره الكذب، والكريم يكره البخل، والأمين يكره الخيانة، فكيف يدعي أحدنا التوحيد وهو لا يكره الشرك ولا يتبرأ منه ومن أهله؟ وبهذا يتقرر أن البراءة من الشرك وأهله هي علامة من علامات الموحدين؛ وعلى هذا سار الأنبياء عليهم السلام:

قال تعالى عن الخليل ﷺ: ﴿قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَدًا حَتَّى تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَحْدَهُ﴾ [الممتحنة:٤].

وفيها إخبار وأمر، فأما الإخبار فهو بيان موقف الخليل عليه السلام من الكفار وهو البراءة منهم حتى يستسلموا لله بالتوحيد، وأما الأمر وهو الاقتداء به واتخاذه أسوة حسنة، فدل أن عقيدة الولاء والبراء ميراث يتوارثه الأنبياء ويدعون أقوامهم للتمسك به، فلا وحدة مع من لا توحيد له.

وقال عنه: ﴿فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَاقَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:٧٨]



وقال عن نبينا محمد ﷺ: ﴿قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [الأنعام:١٩]

وقال عن نبيه هود ﷺ: ﴿قَالَ إِنِّي أُشْهِدُ اللَّهَ وَاشْهَدُوا أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ﴾ [هود:٥٤]

وما من نبي إلا فعل ذلك؛ فكلهم بعثهم الله بالتحذير من الشرك والدعوة إلى التوحيد كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ فَمِنْهُمْ مَنْ هَدَى اللَّهُ وَمِنْهُمْ مَنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ الضَّلَالَةُ﴾ [النحل:٣٦]

قال العلامة الفوزان في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/١٥٩):

ولا تعد مسلمًا حتى تتصف بهذه الصفات:

أولًا: الاستسلام لله بالتوحيد.

ثانيًا: الانقياد له بالطاعة.

ثالثًا: البراءة مما يضاد التوحيد ويضاد الطاعة وهو الشرك.

رابعًا: البراءة من أهل الشرك.

بتحقيق هذه الصفات تكون مسلمًا، أما إذا نقصت صفة واحدة منها فإنك لا تكون مسلمًا، فبهذه الكلمات الثلاث لخص الشيخ تعريف الإسلام، وكم من إنسان لا يعرف معنى الإسلام؛ لأنه لم يتعلم هذا الشيء، ولو قيل له: ما هو الإسلام؟ لم يجب جوابًا صحيحًا اهـ.

قال المؤلف:

وَهُوَ ثَلاثُ مَرَاتِبَ: الإِسْلامُ، وَالإِيمَانُ، وَالإِحْسَانُ. وَكُلُّ مَرْتَبَةٍ لَهَا أَرْكَانٌ.

الشرح:

المراتب في اللغة: الترتيب في اللغة جعل كل شيء في مرتبة. ومراتب جمع مرتبة وتستخدم في الصعود والنزول ولهذا سميت الدرج مراتب، وتستخدم في الصفوف، ويقال للمراتب: المراهص، وقولك: مرهصة ومراهص، كقولك مرتبة ومراتب.

والمرتبة والمرهصة بمعنى المنزلة والمكانة. ويقال: كيف مرهصة فلان عند الملك، أي منزلته. قال الشاعر:

رمى بك في أخراهم تركك العلى

وفضل أقوام عليك مراهصا

انظر "التعاريف" للمناوي (١/١٦٩) و "تاج العروس" للزبيدي (١/٦٦٨٩) و "لسان العرب" لابن منظور (٩/١٩٤) و "معجم مقاييس اللغة" (٢/٤٤٩)

وفي الاصــطلاح: المراتب هي المنازل والمرتبة والرتبة هي المنزلة والمكانة العالية، وإذا ذكرت المراتب كان بعضها أعلى من بعض كل واحد في مرتبته ومنزلته. وهذا الترتيب أخذه العلماء من حديث جبريل الطويل.

قال العلامة حافظ الحكمي رحمه الله تعالى:

كَفَاكَ مَا قَدْ قَالَهُ الرَّسُـــولُ
إِذْ جَـاءَهُ يَسْـــأَلُـهُ جِبْرِيـلُ
عَلَى مَرَاتِبٍ ثَلَاثٍ فَصَّـــلَهْ
جَاءَتْ عَلَى جَمِيعِهِ مُشْـتَمِلَهْ
الِاسْلَامِ وَالْإِيمَانِ وَالْإِحْسَانِ
وَالْكُـلُّ مَبْنِيٌّ عَلَى أَرْكَـانِ

قال العلامة الفوزان في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/١٥٩):

معنى المراتب: الدرجات؛ لأننا قلنا: إن الدين ثلاث درجات بعضـها أعلى من بعض، أول مرتبة من مراتب الدين هي الإســـلام، ثم بعدها الإيمان، ثم بعدها الإحسـان، فالإسـلام أوسـع، والإيمان أضـيق من الإسـلام، والإحسـان أضـيق من الإيمان.

فدائرة الإســلام واســعة، المنافقون يدخلون فيها إذا انقادوا إلى الإســلام وأظهروه والتزموا به ظاهرا، إذا صلوا مع المسلمين وزكوا وعملوا الأعمال الظاهرة، يســمون مســلمين، وتطبق عليهم أحكام المسـلمين في الدنيا، فلهم ما للمســلمين

وعليهم ما على المسلمين، لكنهم في الآخرة في الدرك الأسفل من النار؛ لأنهم ليس عندهم إيمان وإنما عندهم إسلام ظاهري فقط.

الإيمان: هذه هي المرتبة الثانية، والمؤمنون يتفاوتون؛ منهم المقربون، ومنهم الأبرار، والمقربون هم أصحاب أعلى الدرجات، والأبرار دونهم، ومنهم الظالم لنفسه وهو المرتكب للكبائر التي هي دون الشـرك، فهو مؤمن فاسـق، أو مؤمن ناقص الإيمان، قال تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ [فاطر: ٣٢].

الإحسان: هذه هي المرتبة الثالثة هي الإحسان، وهي أن يحسن العبد فيما بينه وبين الله، في عبادة الله عز وجل، وذكر النبي ﷺ الإحسان فقال: (الإحسان أن تعبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراه فإنه يراك) أي: يكون عندك علمًا يقينيًّا أن الله يراك أينما كنت اهـ.

فصل

في تعريف الإسلام والإيمان والإحسان

وبيان الفرق بين الإسلام والإيمان

فرق العلماء بين الإسلام والإيمان والإحسان من ناحيتين:

الأولى: من خلال التفريق بين التعريف اللغوي والاصطلاحي لكل واحد منهما، فكل واحد له معناه الخاص به.

الثاني: من خلال تفريق الشريعة بين أركان كل واحد منهما، فإن الأركان الراجعة لشيء واحد تكون واحدة، واختلاف أركان الإسلام وأركان الإيمان والإحسان دليل أن كل واحد منهما يختلف عن الآخر.

&فإن قلت: ولِمَ لم يفرق بعض العلماء بينهم؟ قلت: لوجود التداخل بين العموم والخصوص والتوافق في القواسم المشتركة جعلها البعض شيئًا واحدًا باعتبار لا بكل اعتبار. وسيأتي التفصيل بين التفريق والتوفيق:

المرتبة الأولى: الإسلام:

الإسلام لغة: الاستسلام والانقياد:

الإسلام شرعًا: الاستسلام لله تعالى: والاستسلام هو الانقياد لله بالطاعة.

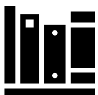
والإسـلام باعتبار أركانه: هو قول باللسـان وعمل بالأركان. فإن أول ركن من أركانه هو نطق الشهادتين باللسان، وبقية أركانه كلها عمل بالأركان، ولهذا كان الإسلام أوسع من الإيمان والإحسان؛ فيدخل فيه كل من عمل بالأركان بالظاهرة حتى وإن كان من المنافقين، مالم يصـرح عما في قلبه من النفاق، أو يقع بناقض ينقض إسلامه.

والإسـلام باعتبار الحقيقة هو دين جميع الأنبياء والرسـل، ومن هنا نقول: إن الإسلام يطلق ويراد به المعنى العام أو المعنى الخاص:

١- **الإسلام بالمعنى العام**:

وهو التعبد لله بما شـرع منذ أن أرسـل الله الرسـل إلى قيام السـاعة؛ وهذا يعني أن جميع الأنبياء والرسل وأتباعهم يدينون لله بدين الإسلام، وهذا عليه الكثير من الأدلة: لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] ولقوله تعالى: ﴿هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَذَا﴾ [الحج:٧٨]

وقال سـبحانه عن نوح عليه السـلام: ﴿وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٧٢]



وقال عن إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾ [البقرة:١٢٨]

وقال عن إبراهيم ويعقوب عليهما السلام: ﴿وَوَصَّى بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَابَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٢]

وقال بعدها عن وصية يعقوب لأبنائه قبل موته: ﴿أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ﴾ [البقرة:١٣٣]

وقالت الملائكة عن قوم لوط عليه السلام: ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ [الذاريات:٣٦]

وقال سبحانه عن موسى عليه السلام: ﴿وَقَالَ مُوسَى يَاقَوْمِ إِنْ كُنْتُمْ آمَنْتُمْ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ﴾ [يونس:٨٤]

وقال سبحانه عن سحرة فرعون: ﴿وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ [الأعراف:١٢٦]

وقال سبحانه عن سليمان عليه السلام: ﴿قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٤٢]

وقال عنه أيضًا: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْ قِيلَ أَهَكَذَا عَرْشُكِ قَالَتْ كَأَنَّهُ هُوَ وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِنْ قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ﴾ [النمل:٣٨]

وقال تعالى عن بلقيس ملكة سبأ الحميرية التبعية: ﴿قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [النمل:٤٤]

وقال سبحانه عن الحواريين: ﴿فَلَمَّا أَحَسَّ عِيسَى مِنْهُمُ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَاشْهَدْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ٥٢]

وقال عنهم: ﴿وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ﴾ [المائدة: ١١١]

٢- **الإسلام بالمعنى الخاص:**

هو التعبد بدين محمد ﷺ خاصة؛ لأنه ببعثته نسخت سائر الديانات أو لنقل: سائر الرسالات، فصار من اتبعه هو المسلم ومن خالفه فهو كافر وإن ادعى التمسك بكتاب آخر والاتباع لنبي لآخر.

قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ [المائدة: ٣]

وقال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ يَابَنِي إِسْرَائِيلَ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَمُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِي مِنْ بَعْدِي اسْمُهُ أَحْمَدُ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا هَذَا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴿٦﴾ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُوَ يُدْعَى إِلَى الْإِسْلَامِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿٧﴾ يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ ﴿٨﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾ [الصف: ٦، ٩]

وهذه الآيات من أظهر الأدلة على أن دين محمد ﷺ هو الدين الذي لا يقبل غيره، وهكذا سائر الأدلة التي دلت أنه بعث للناس أجمعين والتي دعتهم للإيمان به.

وروى مسلم من حديث أبي هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: (والذي نفس محمد بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار).

والإسلام بالاعتبارين السابقين ينقسم إلى قسمين: إسلام كوني وإسلام شرعي:

قال العلامة ابن عثيمين في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٦٢):

الإسلام لله تعالى نوعان:

الأول: إسلام كوني وهو الاستسلام لحكمه الكوني وهذا عام لكل من في السماوات والأرض من مؤمن وكافر، وبر وفاجر لا يمكن لأحد أن يستكبر عنه ودليله قوله تعالى: ﴿وَلَهُۥٓ أَسۡلَمَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا وَإِلَيۡهِ يُرۡجَعُونَ ٨٣﴾ [آل عمران: ٨٣].

الثاني: إسلام شرعي وهو الاستسلام لحكمه الشرعي وهذا خاص بمن قام بطاعته من الرسل وإتباعهم بإحسان، ودليله في القرآن كثير ومنه هذه الآية التي ذكرها المؤلف رحمه الله اهـ.

المرتبة الثانية: الإيمان:

الإيمان لغة: هو التصـــديق. لقوله تعالى: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:١٧] أي وما أنت بمصدق لنا.

وقد أنكر بعض العلماء تعريف الإيمان بالتصـــديق بحجة أن هذا التعريف يســـتلزم خروج العمل، وهذا مذهب المرجئة، والظاهر -والله أعلم- أن تعريف الإيمان بالتصديق لايستلزم خروج العمل لأربعة أمور:

الأول: أن الكثير من العلماء فسـروا الإيمان بالتصـديق، ومنهم: السـدي وابن أبي زمنين والزجاج والسمعاني والماوردي والخازن والبيضاوي والنسفي والبقاعي والبغوي والقرطبي. ولم ينكر عليهم أحد من العلماء، بـل لم يقل أحـد: إن قولهم وافق قول المرجئة.

ومن المعاصرين العلامة ابن عثيمين في "شرح لمعة الاعتقاد" (صـ/٢٧) بل إنه رحمه الله تعالى عرف الإيمان بالاعتراف المســتلزم للقبول والإذعان كما في كتابه "شرح حديث جبريل" (صـ/٤) وهو ضمن "مجموع الفتاوى والرسائل" (١٤٧/٣).

والعلامة صـالح آل الشـيخ في "شـرح الواسـطية" (٣٠/١) والعلامة صـالح الفوزان في "شرح الواسطية" (صـ/٦) و (صـ/٧) و (صـ/١٣٥).

وهكذا كبير العلماء العلامة ابن باز رحمه الله تعالى فقد قال كما في "الفتاوى" (١٨/١٣): والإيمان هو التصديق بالأمور الباطنة، والظاهرة مما جاء في الشرع المطهر اهـ

وقال في كتابه "أصول الإيمان" (صـ/٥٤): والإيمان هو التصديق بالأمور الباطنة اهـ

وقال في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٦٤):

الإيمان: هو ما يتعلق بالقلوب، من التصديق بالله، وأنه رب العالمين، وأنه هو المستحق للعبادة والتصديق بالملائكة وبالكتب وبالرسل وبالبعث بعد الموت والجنة والنار وبالقدر خيره وشره. كل هذا يتعلق بالقلوب. فهو أصل من الأصول التي لا بد منها اهـ

أما العلامة الفوزان فقد رأيت له مقطعًا وهو ينكر تعريف الإيمان بالتصديق، وهذا يعتبر تراجعًا منه عن ذلك.

وأما العلامة العثيمين فقد قال في "شرح الواسطية" (١/٥٤):

الإيمان في اللغة: يقول كثير من الناس: إنه التصديق، فصدقت وآمنت معناهما لغة واحد، وقد سبق لنا في التفسير أن هذا القول لا يصح بل الإيمان في اللغة: الإقرار بالشيء عن تصديق به، بدليل أنك تقول: آمنت بكذا وأقررت بكذا وصدقت فلانا ولا تقول: آمنت فلاناً.

إذا فالإيمان يتضمن معنى زائداً على مجرد التصديق، وهو الإقرار والاعتراف المستلزم للقبول للأخبار والإذعان للأحكام، هذا الإيمان، أما مجرد أن تؤمن بأن الله

موجود، فهذا ليس بإيمان، حتى يكون هذا الإيمان مســـتلزما للقبول في الأخبار والإذعان في الأحكام، وإلا، فليس إيماناً اهـ.

وقال في تفســـير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

وقد فسر كثير من الناس الإيمان في اللغة "بالتصديق"؛ وهذا التفسير ليس بدقيق؛ لكنه تفســير بما يقارب؛ كتفســيرهم "الريب" بالشــك؛ وتفســيرهم "الرهن" بالحبس؛ وتفســير قوله تعالى: ﴿أن تبســل نفس﴾ أي تحبس؛ وما أشــبه ذلك مما يفسرونه بالمعنى المقارِب الذي يَقرُب للفهم؛ وإلا فإن بين الإيمان، والتصديق فرقاً؛ وقد سبق بيان ذلك اهـ.

قلت: والحاصل أن ما أنكروه كانوا يقولوه، فكما لايلزم أنهم كانوا يقولون بقول المرجئة كذلك لايلزم من لم يتراجع أنه يقول بقولهم.

الثاني: أن التصـــديق يقتضـــي العمل؛ فالقرآن فيه الأوامر والنواهي، والتصـديق به يقتضـي العمل بما فيه. ومثال ذلك قوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الرُّسُلُ كُلُوا مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ﴾ [المؤمنون:٥١] فالإيمان بهذه الآية يقتضـي العمل، وقال تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾ [البقرة:٤٣] والإيمان بهذه الآية يقتضي العمل وهو إقامة الصلاة وإخراج الزكاة. فدل أن الإيمان هو التصـديق وأن التصـديق يقتضـي الامتثال وهو العمل بما أنت مؤمن

به، ســـواء كان عمل اللســـان وهو القول أو عمل الجوارح وهي الأداء أو عمل القلب وهو الاعتقاد.

ومن أشـد من أنكر تعريف الإيمان بالتصـديق هو شـيخ الإسـلام رحمه الله تعالى ومع ذلك فقد اسـتحسـن قول عبد الله بن خَفِيف: "الْإِيمَان تَصْـدِيق الْقُلُوب بِمَا أعلمه الْحق من الغيوب" فذكره في كتابه "الاســـتقامة" (١٦٨/١) وقال: وَهَذَا الْمَذْكُور عَن الْجُنَيْد وَابْن خَفِيف حســـن وصـــواب لَكِن لم يدل على أَن أَعمال الْقُلُوب لَيست من الْإِيمَان اهـ

وقال العلامة ابن باز كما في "الفتاوى" (٢٣/٥):

ويسـمى إيمانا لما يشـتمل عليه قلب المؤمن من التصـديق المتضـمن الانقياد للعمل الصالح والقول السديد اهـ.

قلت: ففسر الإيمان بالتصـديق وبين أن التصـديق يقتضـي العمل، فلا يلزم من تعريف الإيمان بالتصديق اخراج العمل من الإيمان. وهكذا كل من عرف الإيمان بالتصديق من أهل السنة لم يخرجوا القول ولا العمل من الإيمان.

الثالث: أن السـلف قالوا: إن العلم يقتضـي العمل، وهذا يحمل معنى أن الإيمان يقتضـي العمل، ولهذا ألف الخطيب البغدادي كتاب "اقتضـاء العلم العمل" فالعلم يقتضـي العمل، والإيمان هو العلم فقد فسـر الكثير من العلماء ومنهم شـيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالعلم كما في تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَالْعَصْرِ ۞ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ ۞ إِلَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ

﴿وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ ۝٣﴾ فالعمل قرن بالإيمان في الكثير من الآيات وقد بين العلماء أن العمل لايكون بغير العلم ومن هنا فسروا الإيمان بالعلم.

الرابع: أن التعريف الشرعي أوسع من التعريف اللغوي وفيه تبيين دخول العمل في الإيمان، وبهذا زالت المشكلة.

الإيمان شرعًا: قول باللسان واعتقاد بالجنان وعمل بالأركان. يزيد بالطاعات وينقص بالعصيان.

إذا فالإيمان في عقيدة أهل السنة والجماعة هو قول وعمل واعتقاد: وقد يقولون: قول وعمل. فالقول يكون باللسان والعمل يدخل فيه عمل القلب وعمل الجوارح.

ولأهل السنة لكل فقرة من هذه الثلاث أدلة شرعية تدل على صواب قولهم، وهي:

أولا: القول باللسان: ودليله قوله تعالى: ﴿قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ﴾ [البقرة:١٣٦]. وقوله تعالى: ﴿وَقُولُوا آمَنَّا بِالَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَأُنْزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَهُنَا وَإِلَهُكُمْ وَاحِدٌ﴾ [العنكبوت:٤٦].

وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة وذكر منها: (أفضلها قول لا إله الله) ففي كل هذه الأدلة أدخل القول في مسمى الإيمان.

ثانيًا: العمل بالأركان: ودليله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣]. والإيمان في هذه الآية هو الصلاة.

وروى مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ: (**الإيمان بضع وسبعون شعبة**) وذكر منها: (**وأدناها إماطة الأذى عن الطريق**) وفي هذه الأدلة أدخل العمل في مسمى الإيمان.

ثالثًا: الاعتقاد بالجنان: ودليله قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ وَلَمْ تُؤْمِنْ قُلُوبُهُمْ﴾ [المائدة:٤١] وقال تعالى: ﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤]

وروى البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: (**الإيمان بضع وستون شعبة والحياء شعبة من الإيمان**) والحياء يكون في القلب.

وروى أحمد وأبو داود عن أبي برزة الأسلمي قال: قال رسول الله ﷺ: (**يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه**)

كلام نفيس وجميل
للإمام المروزي في تفسير الإيمان بالتصديق
وأن العمل يدخل في التصديق:

قال رحمه الله بعد كلام طويل وحوار متين مع المرجئة في كتابه "تعظيم قدر الصلاة" (٢/٧٥٩):

فإن هم سألونا، فقالوا: ما تقولون أنتم في ذلك قيل لهم: إن الإيمان ليس هو عندنا المعرفة وحدها، ولا القول وحده لأنا قد وجدنا المنافقين يقرون بألسنتهم وهم كافرون، ووجدنا اليهود قد عرفوا الله ورسوله بقلوبهم، وهم كافرون فلما كانت المعرفة في عينها إذا انفردت لا إيمان، وكان القول إذا انفرد لا إيمان فإذا ضما لم يكونا إيمانا إلا بشريطة نيته لأنه ليس من شيئين ينفردان خارجين من بعض الأجناس ثم يجتمعان فيدخلان في غير جنسهما إلا أن يزيد فيهما معنى وهو أن يجوز معرفة ليست بمعرفة تسبق على كتاب سمع كمعرفة اليهود لا معرفة بيان أوجبها الاضطرار فإبليس عاين ما لم يجد للشك فيه مساغا يعرف ثم أبى السجود، وإنما المعرفة التي هي إيمان هي معرفة تعظيم الله وجلاله وهيبته، فتعظم المعرفة تعظم القدر معرفة فوق معرفة الإقرار فإذا كان كذلك فهو المصدق الذي لا يجد محيصا عن الإجلال والخضوع لله بالربوبية ولا تطاوعه نفسه ولا يصفو لنفسه ريبة الكفر لأن النية في

الكفر استهانة بالرب والاستهانة ضد التعظيم والإجلال والهيبة فإذا عظمت معرفته تعظيم قدره لم تبح نفسه بنية الكفر ولو قطع أعضاؤه فمن ثم كان هذا المؤمن لما نوى الكفر لأنه لم ينو الكفر ويعتقده لدينا، وغير ذلك من تدين حتى صغر قدر الرب عنده فاستهان به، وليس هذا بمصدق ولا مؤمن لأن التعظيم لا يقارن الاستهانة والتصديق لا يقارن نية التكذيب وكيف يفترقان وهما ضدان وكذلك الكافر لو كان بعثه على نية الإيمان معرفته لله بتحقيقه على ما وصفنا ما أخر ذلك طرفة عين ففي تأخيره ذلك أمن من الله فاستهان به فهو كافر لا محالة وكلاهما كافران بغير الجواب الذي أجبتم. فبذلك ثبت أن الإيمان يوجب الإجلال لله والتعظيم له، والخوف منه والتسارع إليه بالطاعة على قدر ما وجب في القلب في عظيم المعرفة وقدر المعروف اهـ

ثم قال: وإن زعمتم أنها معنى ثالث على أحد معنيين أحدهما تصديق بالقلب، والآخر تحقيق لما في قلبه. قيل لكم: تحقيق يدل على أنه قد آمن أو الإيمان قائم في اللسان؟ فإن قالوا: قائم في اللسان فقد فرغنا من ذلك. وإن قالوا: تحقيق له، ولا بد لهم من ذلك وإلا عاندوا اللغة وخالفوا الفرقان لأن الله يقول: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] فأخبر أنه في القلب وأخبر أن قولهم ليس بإيمان إذ قال: لم تؤمنوا. فقد دل أن قول الإنسان ليس بإيمان في عينه حتى يكون عبارة عما في القلب. وأما اللغة فقد أجمع أهلها أن قول القائل صدقت في أن لك علي حق أنه إقرار بلسانه ولا يخلو من أحد معنيين إما أن يكون أقر له

لرهبة أو لغير ذلك وهو منكر لحقه فذلك منه كذب لأنه غير مؤمن بما يقول أو يكون عارفا بذلك بقلبه مصدقا له.

ثم قال: وقد يسمى فعل الجوارح أيضا تصديقا، لو قال قائل لرجل: إن فلانا قتل ولدك فشد على قاتله من غير أن يقول للمخبر له صدقت لشهدت القلوب أنه قد صدقه بفعله ومع شهادتهما فهي عالمة أن ذلك الفعل تحقيق لتصديق قلبه لا أنه في نفسه إيمان بالقلب ومن ذلك تصديقا منهم تحقيقا لما في قلوبهم من تعظيم الله وطاعته، ولم يخبرنا أنهم قالوا: صدقت هو علينا ثم سجدوا، وأبى إبليس أن يسجد ولم يقل إنك لم تأمرني بالسجود فكان إباؤه كفرا لا أنه جحد بلسانه فكان سجودهم إيمانا كما كان إباؤه كفرا فكذلك المؤمن إذا أقر شهدت القلوب أنه مصدق للظاهر، وإن لم يقطعوا بالغيب وهم عارفون أن قول اللسان ليس هو الإيمان بالقلب وإنما هو عبارة عما في القلب، ولن تجدوا بين ذلك فرقانا إلا بالمكابرة اهـ

ثم قال: وقد قال النبي ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة أعلاها لا إله إلا الله) فسمى الشهادة إيمانا فمتى ما وجدت الشهادة من قلب مخلص مصدق فهي إيمان، وقائلها مزداد إيمانا إلى إيمانه اهـ

كلام مهم
للإمام ابن كثير في تفسير الإيمان بالتصديق
والتفصيل في ذلك

قال رحمه الله تعالى (١/١٦٤):

قال أبو جعفر الرازي، عن العلاء بن المسيب بن رافع، عن أبي إسحاق، عن أبي الأحوص، عن عبد الله، قال: الإيمان التصديق. وقال علي بن أبي طلحة وغيره، عن ابن عباس، ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يصدقون.

وقال مَعْمَر عن الزهري: الإيمان العمل.

وقال أبو جعفر الرازي، عن الربيع بن أنس: ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يخشون.

قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقادًا وعملا قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو قال ابن جرير وغيره: والأولى أن يكونوا موصوفين بالإيمان بالغيب قولا واعتقادًا وعملا قال: وقد تدخل الخشية لله في معنى الإيمان، الذي هو تصديق القول بالعمل، والإيمان كلمة جامعةٌ للإقرار بالله وكتبه ورسله، وتصديق الإقرار بالفعل.

قلت: أما الإيمان في اللغة فيطلق على التصديق المحض، وقد يستعمل في القرآن، والمراد به ذلك، كما قال تعالى: ﴿يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [التوبة:٦١]،

وكما قال إخوة يوسف لأبيهم: ﴿وَمَا أَنْتَ بِمُؤْمِنٍ لَنَا وَلَوْ كُنَّا صَادِقِينَ﴾ [يوسف:١٧]، وكذلك إذا استعمل مقرونا مع الأعمال؛ كقوله: ﴿إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ﴾،

فأما إذا استعمل مطلقًا فالإيمان الشرعي المطلوب لا يكون إلا اعتقادًا وقولا وعملا.

هكذا ذهب إليه أكثر الأئمة، بل قد حكاه الشافعي وأحمد بن حنبل وأبو عُبَيد وغير واحد إجماعًا: أن الإيمان قول وعمل يزيد وينقص. وقد ورد فيه آثار كثيرة وأحاديث أوردنا الكلام فيها في أول شرح البخاري، ولله الحمد والمنة.

ومنهم من فسره بالخشية، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ بِالْغَيْبِ﴾ [الملك:١٢]، وقوله: ﴿مَنْ خَشِيَ الرَّحْمَنَ بِالْغَيْبِ وَجَاءَ بِقَلْبٍ مُنِيبٍ﴾ [ق:٣٣]، والخشية خلاصة الإيمان والعلم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر:٢٨] اهـ.

تعريف الإيمان باليقين

قال الإمام السمعاني في "التفسير" (١/١٦٥):

وَقَوله: ﴿لِقَومٍ يُوقِنُون﴾ قَالَ ابْن مَسْعُود: الْإِيمَان هُوَ الْيَقِين كُله اهـ.

قلت: كلام ابن مسعود رواه البخاري

وقال المازري في "المعلم بفوائد مسلم" (١/٣١٣):

أما قوله: "ذلك محض الإِيمان" فلا يصح أن يراد به أن الوسوسة هي الإِيمان لأن الإِيمان هو اليقين اهـ.

وقال ابن القيم كما "رسالته لبعض اخوانه" (صـ/١٩):

وجمع بينهما النبي ﷺ في حديث عمر في قوله: (الإيمان أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر) فهذه الأصول الخمس من لم يؤمن بها فليس بمؤمن واليقين أن يقوم الإيمان بها حتى تصير كأنها معاينة للقلب مشاهدة له نسبتها إلى البصيرة كنسبة الشمس والقمر إلى البصر ولهذا قال من قال من السلف: اليقين الإيمان كله اهـ

وقال العلامة ابن عثيمين في "الشرح الممتع" (٥/٣٢٣):

والوارد (اللهم من أحييته منّا فأحيه على الإسلام، ومن توفيته منا فتوفه على الإيمان) فالوارد عن النبي ﷺ أولى أن من أحياه الله يحييه على الإسلام والانقياد التام، ومن أماته فليتوفه على الإيمان. والحكمة من ذلك: أن الاستسلام

الظاهر حين الوفاة قد لا يتمكن الإنســـان منه؛ لأنه منهك وفي آخر قواه، فكان الدعاء له بالإيمان في هذه الحال أبلغ؛ ولأن الإيمان هو اليقين، ووفاة الإنسـان على اليقين أبلغ اهـ.

وقال العلامة محمد الأمين الهرري في "حدائق الروح والريحان" (٢٦/٤١٨):

واليقين علم فوق المعرفة والدراية، ونحوهما، وبينه وبين الإيمان فروق كثيرة، وحقيقة الإيمان هو اليقين اهـ

وجاء ابن مسـعود وعن الشـعبي: الشـكر نصـف الإيمان، والصـبر نصـف الإيمان، واليقين الإيمان كله اهـ.

انظر سنن سعيد بن منصور، وعبدالله بن أحمد في السنة، وتفسير الطبري، والسنة للخلال، والحكيم الترمذي في "نوادر الأصول" وابن أبي حاتم في "التفسير" والماوردي في "النكت والعيون"

وفي قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ الْمَوْتَى قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ قَالَ بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠] قـال بعض العلمـاء ﴿قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِنْ﴾ أي: ألم توقن.

والحاصل: أن للعلماء أقوال في تعريف الإيمان

- منهم من عرفه بالتصديق.
- ومنهم من عرفه بالإقرار.
- ومنهم من عرفه بالخشية.
- ومنهم من عرفه بالعلم.
- ومنهم من عرفه باليقين.
- ومنهم من عرفه بالاعتراف المستلزم للقبول والإذعان

قال العلامة ابن الملقن في "التوضيح" (٢/٤٤٥):

وقوله: (الْيَقِينُ الإِيمَانُ كُلُّهُ)، قال أهل اللغة: اليقين: هو العلم وزوال الشك، يقال: منه يقنت الأمر -بالكسر- يقنًا، وأيقنت واستيقنت وتيقنت كله بمعنى، وأنا على يقين منه، وذلك عبارة عن التصديق وهو أصل الإيمان فعبر بالأصل عن الجميع اهـ.

وقال الحافظ ابن رجب في "جامع العلوم والحكم" (ص/٨٩):

فاسمُ الإسلامِ إذا أُطلِقَ أو اقترنَ به المدحُ، دخل فيه الإيمانُ كلُّه مِنَ التَّصديقِ وغيره اهـ

قلت: فمرجع التعاريف كلها للتصديق.

أدلة زيادة الإيمان ونقصانه

اتفق أهل السنة على زيادة الإيمان واختلفوا في نقصانه.

أدلة الزيـــادة:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ﴾ [الأنفال: ٢] وقال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾ [الفتح: ٤]

وأدلة النقصان:

ولم أقف على اســـتدلال بنص عن الســـلف في اثبات النقصـــان غير الاستدلال بأدلة الزيادة نفسها، وأن ثبوت الزيادة بالطاعة دليل على ثبوت النقص بالمعصية. وقد بين السلف أن كل قابل للزيادة قابل للنقصان.

ولكني رأيت للعلامة عبدالمحسن العباد حفظه الله تعالى كلامًا حول نقصان الإيمان ثم اســـتدل على ذلك بحديث: (من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان)

وأما اختلافهم في النقصـــان فلم يقل أحد بعدم النقص وإنما أثبته البعض وتوقف البعض والتوقف ليس من النفي.

قال شيخ الإسلام كما في "مجموع الفتاوى" (٥٠٦/٧):

وكان بعض الفقهاء من أتباع التابعين لم يوافقوا في إطلاق النقصان عليه؛ لأنهم وجدوا ذكر الزيادة في القرآن ولم يجدوا ذكر النقص، وهذا إحدى الروايتين عن مالك. والرواية الأخرى عنه، وهو المشهور عند أصحابه كقول سائرهم: إنه يزيد وينقص.

وبعضهم عدل عن لفظ الزيادة والنقصان إلى لفظ التفاضل، فقال: أقول: الإيمان يتفاضل ويتفاوت، ويروى هذا عن ابن المبارك، وكان مقصوده الإعراض عن لفظ وقع فيه النزاع إلى معنى لا ريب في ثبوته اهـ

قلت: وأما القائلون بعدم النقصان من غير أهل السنة فإنهم أولوا أدلة الزيادة وأنكروا النقصان، فكأنهم جعلوا الزيادة بالأعمال لاتنقص بالمعصية لأن المعصية تزيد في ذنوبهم ولكنها لا تنقص من حسناتهم؛ فالحسنات والسيئات مكتوبات لهم وعليهم وعليها يكون الميزان يوم القيامة.

فإن كان هذا مرادهم فهو ضعيف؛ لأنهم نظروا في الموجب، فالحسنات التي هي موجب الزيادة والسيئات التي هي موجب النقصان، فظنوا أن نقص الإيمان يعني نقصان حسناتهم وهذا لم يقله أهل السنة؛ لأن النقصان لايعني حبوط العمل إنما يحبط الأعمال الشرك، وعليه فنقصان الإيمان لايلزم منه نقصان موجبه الذي هو الحسنات؛ فالحسنة محفوظة للعبد وإنما نقص إيمانه بسبب السيئات لا بسبب ذهاب تلك الحسنات التي زاد بها.

قال الحافظ ابن حجر في "الفتح" (١/٤٦):

وقد نقل محمد بن نصر المروزي في كتابه "تعظيم قدر الصلاة" عن جماعة من الأئمة نحو ذلك وما نقل عن السلف صرح به عبد الرزاق في مصنفه عن سفيان الثوري ومالك بن أنس والأوزاعي وبن جريج ومعمر وغيرهم وهؤلاء فقهاء الأمصار في عصرهم وكذا نقله أبو القاسم اللالكائي في كتاب السنة عن الشافعي وأحمد بن حنبل وإسحاق بن راهويه وأبي عبيد وغيرهم من الأئمة وروى بسنده الصحيح عن البخاري قال لقيت أكثر من ألف رجل من العلماء بالأمصار فما رأيت أحدا منهم يختلف في أن الإيمان قول وعمل ويزيد وينقص وأطنب ابن أبي حاتم واللالكائي في نقل ذلك بالأسانيد عن جمع كثير من الصحابة والتابعين وكل من يدور عليه الإجماع من الصحابة والتابعين.

إلى أن قال: وبثبوتها (الزيادة) يثبت المقابل فإن كل قابل للزيادة قابل للنقصان ضرورة اهـ

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٢٣٩/٤):

وهذه الآية من أكبر الدلائل على أن الإيمان يزيد وينقص، كما هو مذهب أكثر السلف والخلف من أئمة العلماء، بل قد حكى الإجماع على ذلك غير واحد اهـ

قال الامام البيهقي في "مناقب الإمام الشافعي" (٣٩٣/١):

قال الشافعي: ولو كان هذا الإيمان كله واحدًا لا نقصان فيه ولا زيادة لم يكن لأحد فيه فضل، واستوى الناس، وبطل التفضيل. ولكن بتمام الإيمان دَخل

المؤمنون الجنة، وبالزيادة في الإيمان تفاضـــل المؤمنون بالدرجات عند الله في الجنة، وبالنقصان من الإيمان دخل المُفَرِّطون النار.

قال الشـافعي: إن الله، عز وجل، سَـابَق بين عباده كما سُـوبِقَ بين الخليل يوم الرهان. ثم إنهم على درجاتهم من سبق عليه، فجعل كل أمْرِئ على درجة سَبْقِه، لا ينقصــه فيها حقَّه، ولا يُقدَّم مَسْـبُوقٌ على سـابِق، ولا مَفْضُـولٌ على فاضــل. وبذلك فضّـل أول هذه الأمة على آخرها. ولو لم يكن لمن سـبق إلى الإيمان فضـل على من أبطأ عنه للحق آخر هذه الأمة بأوّلها.

قال أحمد: قد رأيت هذا الجواب عن الإيمان «لأبي عُبَيْد» أبسط من هذا، فإن صـحّت الحكايتان فيحتمل أن يكون «أبو عُبَيْدٍ» أخذه عن الشـافعي، ثم زاد في البيان. ويحتمل أن يوافق قولٌ قولاً. والله أعلم اهـ.

المرتبة الثالثة: الإحسان:

الإحسان لغة:

الاتقان. وأحسن: أي أحكم وأتقن. لقوله تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ﴾ [السجدة:٧] أي أحكم وأتقن

وشرعًا:

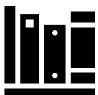
عرفه النبي ﷺ بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك). ومعنى الحديث أن الاحسان هو أن تتقن العبادة لله تعالى حق الاتقان، وهذا يشير لجعل الإحسان يجمع بين المعرفة والإخلاص والمراقبة؛ فإنه لم يتقن العبد عبادة ربه مالم يجمع بين ذلك كله.

قال شيخ الإسلام في "الإيمان الأوسط" (صـ/٥٧٨):

قد قيل: إن الإحسان هو الإخلاص. والتحقيق: أن الإحسان يتناول الإخلاص وغيره، والإحسان يجمع كمال الإخلاص لله، ويجمع الإتيان بالفعل الحسن الذي يحبه الله تعالى اهـ

وقال الحافظ ابن رجب رحمه الله في "الفتح" (١/ ٢١١):

وأما الإحسان: ففسره بنفوذ. البصائر في الملكوت حتى يصير الخبر للبصيرة كالعيان، فهذه أعلى درجات الإيمان ومراتبه. ويتفاوت المؤمنون والمحسنون في تحقيق هذا المقام تفاوتا كثيرا بحسب تفاوتهم في قوة الإيمان والإحسان، وقد أشار



النبي ﷺ إلى ذلك هاهنا بقوله: (أن تعبد الله كأنك تراه؛ فإن لم تكن تراه فإنه يراك). قيل: المراد: أن نهاية مقام الإحسان: أن يعبد المؤمن ربه كأنه يراه بقلبه فيكون مستحضرًا ببصيرته وفكرته لهذا المقام فإن عجز عنه وشق عليه انتقل إلى مقام آخر وهو أن يعبد الله على أن الله يراه ويطلع على سره وعلانيته ولا يخفى عليه شيء من أمره اهـ.

وقال الحافظ ابن حجر رحمه الله في "الفتح" (١/١٢٠):

الإحسان هو مصدر تقول أحسن يحسن إحسانا ويتعدى بنفسه وبغيره تقول أحسنت كذا إذا اتقنته واحسنت إلى فلان إذا اوصلت إليه النفع والأول هو المراد لأن المقصود إتقان العبادة وقد يلحظ الثاني بأن المخلص مثلا محسن بإخلاصه إلى نفسه وإحسان العبادة الإخلاص فيها والخشوع وفراغ البال حال التلبس بها ومراقبة المعبود وأشار في الجواب إلى حالتين أرفعهما أن يغلب عليه مشاهدة الحق بقلبه حتى كأنه يراه بعينه وهو قوله كأنك تراه أي وهو يراك والثانية أن يستحضر أن الحق مطلع عليه يرى كل ما يعمل وهو قوله فإنه يراك وهاتان الحالتان يثمرهما معرفة الله وخشيته وقد عبر في رواية عمارة بن القعقاع بقوله أن تخشى الله كأنك تراه وكذا في حديث أنس اهـ.

وقال الإمام النووي كما في "الفتح" (١/١٢٠):

معناه إنك إنما تراعي الآداب المذكورة إذا كنت تراه ويراك لكونه يراك لا لكونك تراه فهو دائمًا يراك فأحسن عبادته وإن لم تره فتقدير الحديث فإن لم تكن تراه فاستمر على إحسان العبادة فإنه يراك قال وهذا القدر من الحديث أصل

عظيم من أصول الدين وقاعدة مهمة من قواعد المسلمين وهو عمدة الصديقين وبغية السالكين وكنز العارفين ودأب الصالحين اهـ.

وقال الإمام ابن الملقن في "التوضيح لشرح الجامع الصحيح" (١٧٧/٣):

وحاصله الحث على كمال الإخلاص في العبادة ومراقبة الله تعالى في جميع أنواعها مع قيام الخشوع والخضوع والحضور. فحال من غلب عليه مشاهدة الحق كأنه يراه.

ولعل هذِه الحالة هي المشار إليها بقوله ﷺ: (**وجعلت قرة عيني في الصلاة**).

والثاني: حال من يغلب عليه اطلاع الحق عليه، وإليه الإشارة بقوله تعالى: ﴿الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ﴾ [الشعراء:٢١٨] اهـ.

وقال الراغب في "المفردات" (٢٣٦/١):

والإحسان يقال على وجهين:

أحدهما: الإنعام على الغير، يقال: أحسن إلى فلان.

والثاني: إحسان في فعله، وذلك إذا علم علمًا حسنًا، أو عمل عملًا حسنًا، وعلى هذا قول أمير المؤمنين: (الناس أبناء ما يحسنون) أي: منسوبون إلى ما يعلمون وما يعملونه من الأفعال الحسنة اهـ.

قال أبو العباس:

وضـد الإحسـان الإسـاءة، ولايزال المسـلم فيه إسـاءة مع خالقه سـبحانه وتعالى حتى يرتقي لمرتبة الإيمان، وإذا ارتقى لمرتبة الإيمان كان في خير عظيم لم يكن عليه في المرتبة الأولى ولكنه لايزال فيه نوع إســـاءة مع ربه وخالقه ولكنها أدنى مما سـبق حتى يرتقي لمرتبة الإحسـان، فالإحسـان هو المراقبة، والمراقبة تكون بالفعل والترك:

أما بالفعل: فتكون بفعلك للخيرات كأن الله تعالى يراك حال فعلها، فكما يفعل المرائي حين يحسـن العمل كي يراه الناس، فكن أنت مرائيًا مع الله تعالى وحده لاشـريك له، فأحسـن العمل كأنك تراه ينظر إليك، فإن لم تكن تراه فلا تقل: كأنه يراك فهذا منكر عظيم، بل فإنه يراك حقيقة.

وأما بالترك: فتكون بتركك للمنكرات؛ لأن فعل المنكرات إسـاءة للخالق العظيم، وهو دال على أحد أمرين: إما عن اعتقاد أن الله تعالى لايراك وهذا كفر والعياذ بالله. وإما عن تهاون بنظر الله تعالى إليك وهذا إسـاءة وقلة أدب مع الخالق سبحانه وتعالى.

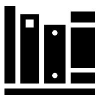
الفرق بين الإسلام والإيمان

بالنظر لأركان الإســلام والإيمان فإن النص النبوي جعل الإســلام هو الأعمال الظاهرة أي عمل الجوارح والإيمان هو الأعمال الباطنة أي اعتقاد القلب؛ فأركان الإسـلام كلها أعمال ظاهرة وهي: الشـهادتان وإقام الصـلاة وإيتاء الزكاة وصـوم رمضـان وحج البيت. وأركان الإيمان كلها أعمال باطنة وهي: الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر والقدر خيره وشره.

ولكن عند الاطلاق فالإسـلام هو الأسـاس؛ لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْـلَامُ﴾ [آل عمران:١٩] فدل أن الإســلام هو الدين الذي جاء به الرسـل والإيمان هو التصديق بكل ما جاء به الإسلام من الأعمال الباطنة والظاهرة، ولهذا كان الكفر ضـد الإسـلام سـواء كفر الكافر بالأركان الظاهرة أو بالأركان الباطنة، فدل بالدليل أن الإيمان يدخل في مسمى الإسلام وأنه شرط في صحة الإسلام.

قال تعالى: ﴿وَرَضِـيتُ لَكُمُ الْإِسْـلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣] فالدين هو الإسـلام والإسلام أمر بالإيمان ونهى عن الكفر فمن آمن فهو مسلم ومن لم يؤمن فهو كافر.

فإن قلت: إن قوله تعالى: ﴿۞ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْـلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [الحجرات:١٤] يدل على خروج الإيمان من مسمى الإسلام؛ إذ جعل الإسلام ليس إيمانًا.



والجواب من أوجه:

الأول: أن تخصيص الأعراب بذلك يدل على عدم تعميم منطوق الآية وعليه فلايصح أن نثبت لغيرهم الإسلام بدون إيمان.

الثاني: أن المراد بالآية أن ظاهرهم الإسلام وباطنهم يتنافى مع الإيمان وهذا وصف للنفاق فدل أنهم مسلمون في الظاهر لا في الحقيقة. فدل أن الأمر بقولهم: (أسلمنا) معناه استسلمنا.

الثالث: أن تتمة الآية ﴿وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحجرات:١٤-١٥]

فدلت الآيات أنهم لم يطيعوا الله ورسوله، وبينت من خلال ذكر ضابط الإيمان وهو خلوه من الريبة أنهم لو كانوا مؤمنين بصدق لآمنوا بالله ورسوله وختم الآية ببيان ماهية الإيمان الصادق كدلالة على نفي صدق إيمانهم فدل أنهم ليسوا مسلمين وإنما متظاهرين بالإسلام. وبالتالي فنفي الايمان عنهم تضمن نفي الإسلام أيضًا.

وقد اختلف العلماء في تفسير الآية باعتبار سبب نزولها فمنهم من جعل دخولهم في الإسلام لحماية أنفسهم وعصمة دمائهم بنطق الشهادتين. ومنهم من جعل عدم إيمانهم؛ لأنهم اقتصروا على القول ولم يمتثلوا للعمل. ومنهم من جعل ذلك بسبب جهلهم ثم حسن حالهم بعد ذلك.

وقد ثبت بغيرها من الآيات دخول الايمان في مسمى الإسلام كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً﴾ [البقرة: ٢٠٨] ففرق بين الدخول في الإسلام وبين الدخول في الإسلام كافة وأمر المؤمن أن يكون مسلمًا بتمسكه بكل الإسلام لا ببعضه.

قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (١/٥٦٥):

يقول تعالى آمرًا عباده المؤمنين به المصدّقين برسوله: أنْ يأخذوا بجميع عُرَى الإسلام وشرائعه، والعمل بجميع أوامره، وترك جميع زواجره ما استطاعوا من ذلك اهـ.

قال أبو العباس:

ففسر الإيمان بالتصديق وبين أن المؤمن هو المسلم، وهذا كقوله تعالى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:١٠٢] فأمر المؤمن أن يموت على الإسلام فدل أن الإيمان يدخل في مسمى الإسلام؛ لأن الإيمان تصديق وإقرار والإسلام عمل وامتثال؛ فمن صدق ايمانه تحركت جوارحه وحواسه بالعمل بمقتضى ذلك الإيمان وإلا لم يكن مؤمنًا وبالتالي ليس مسلمًا

وكما دخل الإيمان في الإسلام فكذلك يدخل الإسلام في الإيمان، ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ﴾ [البقرة:١٤٣] والإيمان هنا هو الصلاة فجعل ركنًا من أركان الإسلام إيمانًا، بل قد ثبت أن أركان الإسلام هي الإيمان فقد روى البخاري ومسلم من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي

ﷺ قال لوفد عبد القيس: (وهل تدرون ما الإيمان بالله؟ شهادة أن لا إله إلا الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة وتعطوا من المغنم الخمس). فأدخل ثلاثة من أركان الإسلام في الإيمان وأدخل إخراج الخمس من المغانم في الإيمان وهو من الأعمال الظاهرة.

والقاعدة عند اهل السنة أن الإسلام والإيمان إذا اجتمعا تفرقا وإذا تفرقا اجتمعا؛ فإذا ذكر الإسلام وحده دخل فيه الإيمان وإذا ذكر الإيمان وحده دخل فيه الإسلام، وأما إذا ذكرا معًا فإن كل واحد منهما يدل على معناه الخاص به وفق تعريفه وأركانه.

قال كبير العلماء العلامة ابن باز كما في "الفتاوى" (٤/١٧٦):

الإيمان هو الإسلام، والإسلام هو الإيمان عند الإطلاق؛ لأن الإيمان تصديق القلوب وكل ما يتعلق بالإسلام من قول أو عمل، والإسلام كذلك هو الانقياد لله والخضوع له بتوحيده والإخلاص له وطاعة أوامره وترك نواهيه؛ فإذا أطلق أحدهما شمل الآخر، كما قال: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الإِسْلامُ﴾ [آل عمران:١٩]، يعني: والإيمان داخل في ذلك.

أما إذا جمعا فإن الإسلام هو الأعمال الظاهرة، والإيمان هو الأعمال الباطنة، إذا جمع بينهما كما في حديث جبريل أنه سأل النبي ﷺ عن الإسلام والإيمان، فسر له النبي ﷺ الإسلام بالأمور الظاهرة كالشهادتين والصلاة والزكاة والصيام والحج، وفسر له الإيمان بالأمور الباطنة قال :أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله، وباليوم الآخر وبالقدر خيره وشره.

هذا هو الفرق بينهما عند الاجتماع يكون الإســـلام المراد به الأعمال الظاهرة، والإيمان الأعمال الباطنة، وإن أطلق بأحدهما يدخل فيه الآخر، وهكذا قوله ﷺ: (الإيمان بضع وسبعون شعبة، فأفضلها قول: لا إله إلا الله، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق، والحياء شعبة من الإيمان) (الإيمان بضع وسبعون شعبة)، هذا يدخل فيه الإســلام، ولهذا ذكر :أفضل الإيمان لا إله إلا الله، وهي أصل الإسلام، فدل ذلك على أن الإيمان إذا أطلق دخل فيه الإسلام، وهكذا إذا أطلق الإسلام دخل فيه الإيمان عند أهل السنة. نعم اهـ

وقال العلامة العباد في "شرح حديث جبريل في تعليم الدين" (صـ/١٧):

أجاب النَّبيُّ ﷺ جبريل عندما سأله عن الإسلام بالأمور الظاهرة، وعندما سأله عن الإيمان، أجابه بالأمور الباطنة، ولفظَا الإســلام والإيمان من الألفاظ التي إذا جُمع بينهما في الذِّكر فُرِّق بينهما في المعنى، وقد اجتمعا هنا، ففُسِّر الإســلام بالأمور الظاهرة، وهي مناسبة لمعنى الإسلام، وهو الاستسلام والانقيادُ لله تعالى، وفسِّر الإيمان بالأمور الباطنة، وهي المناسبة لمعناه، وهو التصديق والإقرار، وإذا أُفرد أحدُهما عن الآخر شمل المعنيين جميعًا: الأمور الظاهرة والباطنة، ومن مجيء الإسلام مفرداً قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ومن مجيء الإيمان مفرداً قول الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِالأِيمَانِ فَقَدْ حَبِطَ عَمَلُهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾، ونظير ذلك كلمتَا الفقير والمسكين، والبر والتقوى وغير ذلك اهـ.

قال أبو العباس:

وبالنسبة لخلاصة الفرق بين الإسلام والإيمان فالاختلاف في ذلك على مذهبين:

الأول: أن الإيمان إسلام والإسلام إيمان:

وهذا مذهب أهل السنة وسبق نقله وتقريره عن العلامة ابن باز وعليه الكثير من العلماء فيما أعلم.

الثاني: أن كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمان:

وهذا مذهب الأشاعرة ولهم في ذلك فلسفة تقتضي تكفير أهل الإسلام مع أنهم مرجئة ومذهبهم يقتضي إسلام الكفار لا تكفير المسلمين.

وجعلهم الإيمان شعبة من الإسلام يلزم منه أن بقية شعب الإسلام لا علاقة لها بالإيمان وهذا يقتضي خروج العمل عن مسمى الإيمان وبالتالي اتفق رأيهم مع مذهبهم.

وقد أنكر شيخ الإسلام ابن تيمية هذا الاطلاق في رده على القاضي أبي بكر الباقلاني كما في "مجموع الفتاوى" (٧/١٥٥) فقال:

وقد قالوا: كل إيمان إسلام وليس كل إسلام إيمانا وهذا إن أرادوا به أن كل إيمان هو الإسلام الذي أمر الله به ناقض قولهم: إن الإيمان خصلة من خصاله فجعلوا الإيمان بعضه ولم يجعلوه إياه وإن قالوا: كل إيمان فهو إسلام أي هو طاعة لله وهو جزء من الإسلام الواجب وهذا مرادهم. قيل لهم: فعلى هذا يكون الإسلام

متعددا بتعدد الطاعات وتكون الشهادتان وحدهما إسلامًا والصلاة وحدها إسلامًا والزكاة إســلامًا بل كل درهم تعطيه للفقير إســلاما وكل ســجدة إســلاما وكل يوم تصومه إسلامًا وكل تسبيحة تسبحها في الصلاة أو غيرها إسلامًا. ثم المسلم إن كان لا يكون مســلمًا إلا بفعل كل ما سميتموه إســلامًا لزم أن يكون الفســاق ليســوا مسـلمين مع كونهم مؤمنين فجعلتم المؤمنين الكاملي الإيمان عندكم ليسـوا مسـلمين وهذا شر من قول الكرامية ويلزم أن الفساق من أهل القبلة ليسوا مسلمين؛ وهذا شـــر من قول الخوارج والمعتزلة وغيرهم بـل وأن يكون من ترك التطوعـات ليس مسـلمًا إذ كانت التطوعات طاعة لله إن جعلتم كل طاعة فرضًا أو نفلا إسـلامًا. ثم هـذا خلاف مـا احتججتم بـه من قولـه للأعراب: ﴿قُـلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾. فأثبت لهم الإسلام دون الإيمان اهـ

قال المؤلف:

المرتبة الأولى: الإسلام

فَأَرْكَانُ الإِسْلامِ خَمْسَةٌ: شَهَادَةُ أَن لا إله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَإِقَامُ الصَّلاةِ، وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ، وَصَوْمُ رَمَضَانَ، وَحَجُّ بَيْتِ اللهِ الْحَرَامِ.

الشرح:

أي المرتبة الأولى من مراتب الدين الثلاثة هي: الإسلام: وسبق تعريفه لغة وشرعًا، وبيان معناه بالمفهوم العام والخاص، وبيان معناه بالمفهوم الشرعي والكوني.

وذكر المؤلف رحمه الله تعالى أركانه الخمسة: وهي النطق بالشهادتين والقيام بفريضة الصلاة وإخراج الزكاة وصوم شهر رمضان والحج إلى بيت الله الحرام لمن قدر على ذلك. وسيأتي ذكرها بأدلتها.

قال المؤلف:

فَدَلِيلُ الشَّـــهَادَةِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿شَـــهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ وَأُولُو الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾

[آل عمران:١٨].

وَمَعْنَاهَا: لا مَعْبُودَ بِحَقٍّ إلا اللهُ، وَحَدُّ النَّفْيِ مِنْ الإِثْبَاتِ (لا إله) نَافِيًا جَمِيعَ مَا يُعْبَدُ مِنْ دُونِ اللهِ (إلا اللهُ) مُثْبِتًا الْعِبَادَةَ للهِ وَحْدَهُ لا شَرِيكَ لَهُ فِي عِبَادَتِهِ، كَمَا أَنَّهُ لَيْسَ لَهُ شَرِيكٌ فِي مُلْكِهِ.

الشرح:

قال العلامة ابن القيم في "المدارج" (٣/٤٤٣):

فالتوحيد مفتاح دعوة الرســـل ولهذا قال النبي ﷺ لرســـوله معاذ بن جبل رضـــي الله عنه وقد بعثه إلى اليمن: (إنك تـأتي قومًا أهل كتـاب فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله وحده فإذا شهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فـأخبرهم أن الله قـد فرض عليهم خمس صـــلوات في اليوم والليلـة) وذكر الحديث.

وقال ﷺ: (أمرت أن أقاتل النـاس حتى يشـــهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسـول الله) ولهذا كان الصـحيح أن أول واجب يجب على المكلف شـهادة

أن لا إله إلا الله لا النظر ولا القصـد إلى النظر ولا الشـك كما هي أقوال لأرباب الكلام المذموم.

فالتوحيد أول ما يدخل به في الإسـلام وآخر ما يخرج به من الدنيا كما قال النبي ﷺ: (من كان آخر كلامه لا إله إلا الله دخل الجنة) فهو أول واجب وآخر واجب فالتوحيد أول الأمر وآخره اهـ

قال المؤلف:

وَتَفْسِيرُهَا: الَّذِي يُوَضِّحُهَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَآء مِّمَّا تَعْبُدُونَ ﴿٢٦﴾ إِلاَّ الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ ﴿٢٧﴾ وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ [الزخرف:٢٦. ٢٨].

وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ تَعَالَوْاْ إِلَى كَلَمَةٍ سَوَاءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئاً وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضاً أَرْبَاباً مِّن دُونِ اللّهِ فَإِن تَوَلَّوْاْ فَقُولُواْ اشْهَدُواْ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [آل عمران:٦٤].

.

الشرح:

أي وتفسير شهادة أن لا إله إلا الله موجود في هاتين الآيتين؛ لتضمن الآيتين على ركني الشهادة وهما: النفي والاثبات، فنثبت الألوهية لله تعالى وحده وننفيها عما سواه من الآلهة المزعومة زروًا وبهتانًا.

وإنما يتحقق التوحيد باجتماع النفي والإثبات: لأن النفي المحض (لا إله) يقتضي التعطيل. والإثبات المحض (إله) يقتضي العموم وبالتالي لا يمنع المشاركة وفق دين عموم المشركين، ويقتضي الحلول والاتحاد وفق عقيدة الحلوليين والاتحاديين.

واعلم أنك لن تحقق شـــهادة: لا إله إلا الله. إلا بتحقيق شـــروطها والعمل بمقتضاها.

قال كبير العلماء العلامة ابن باز في "الدروس المهمة" (صـــــ/٦) وهي في "مجموع الفتاوى" (٣/٢٨٨):

(لا إله) نافيًا جميع ما يعبد من دون الله، (إلا الله) مثبتًا العبادة لله وحده لا شريك له.

وأما شـــــروط (لا إلـه إلا الله) فهي: العلم المنافي للجهـل، واليقين المنافي للشك، والإخلاص المنافي للشرك، والصدق المنافي للكذب، والمحبة المنافية للبغض، والانقياد المنافي للشرك، والقبول المنافي للرد، والكفر بما يعبد من دون الله اهـ

وقـد أحســـن العلامة المحقق ابن عثيمين فقال كما في "فتاوى نور على الدرب" (٤/٢):

فلهذا نقول: لابد من النطق بها باللســـــان، والعمل بمقتضــــاها بالأركان، والاعتقاد بمعناها ومدلولها في الجنان، أي: في القلب اهـ

قلت: وهذا هو خلاصـة الارتباط بين الإسـلام والايمان من خلال شـهادة أن لا إله إلا الله

قال القائل:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع

محبـة وانـقيـاد والـقبـول لهـا

وزيـد ثامنها الكفران منـك بما
سـوى الإله من الأشـياء قد ألها

وقال غيره:

العلـم واليـقين والقبـول   والانقيـاد فـادر مـا أقول
والصدق والإخلاص والمحبة   وفـقـك الله لمـا أحـبـه

وللعلامة ابن عثيمين رحمه الله كلامًا في شروطها من ناحية مختلفة فقد جعل شروطها ثلاثة قل أن تجدها في كتاب، وقد اختصرتها بالتالي:

الأول: وجوب اعتقاد معناها في القلب مع اعتقاد النفي والاثبات في قولنا: لا إله إلا الله بالقلب؛ لقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّ مَا يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [الحج: ٦٢]

الثاني: وجوب النطق بها باللسان؛ لأن النبي صلى الله عليه وعلى آله وسلم قال: (حتى يشهدوا ألا إله إلا الله). فلابد من النطق بها بالسان.

الثالث: وجوب العمل بمقتضاها، بأن لا يعبد إلا الله، وأن لا يصرف شيئًا من أنواع العبادة كالتوكل والرغبة والدعاء والخشوع والذبح والنذر لغير الله، فمن أشرك بالله ولو شركًا أصغر فإنه لم يحقق معنى قول: لا إله إلا الله.

قال المؤلف:

وَدِليلُ شَــهَادَةِ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُــولُ اللهِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُــولٌ مِنْ أَنْفُسِــكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:١٢٨].

وَمَعْنَى شَــهَادَة أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُــولُ اللهِ: طَاعَتُهُ فِيمَا أَمَرَ، وَتَصْــدِيقُهُ فِيمَا أَخْبَرَ، واجْتِنَابُ مَا نَهَى عَنْهُ وَزَجَرَ وأَلا يُعْبَدَ اللهُ إِلا بِمَا شَرَعَ.

الشرح:

أدلة شــهادة أن محمدًا رسول الله كثيرة جدًا، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُــولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُــلُ﴾ [آل عمران:١٤٤] وقوله تعالى: ﴿مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِنْ رِجَالِكُمْ وَلَكِنْ رَسُــولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ﴾ [الأحزاب:٤٠] وقوله تعالى: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ [الفتح: ٢٩]

ومن الســـنة حديث جبريل الطويل رواه مســـلم عن عمر بن الخطاب، وحديث بني الاسام على خمس وحديث أمرت أن أقاتل الناس وكلاما عند البخاري مسلم من حديث عبدالله بن عمر، وحديث الأذان.

وقد بين العلماء أن شــهادة أن محمدًا رســول الله ﷺ لا تتحقق إلا بأربعة شروط وهي:

الأول: طاعته فيما أمر: فمن جحد طاعته وأنكر وجوب الالتزام بها فإنه لم يشهد أنه رسول الله ﷺ، ويدخل في ذلك كل من أنكر سنته وادعى أن الأحاديث النبوية غير صحيحة أو غير واجبة العمل بها. فهذا هو وجه من أوجه النفاق. وقد بينت ذلك بشكل موسع في كتابي "الصواعق المحرقة على منكري السنة من المنافقين والمستشرقة".

وقد أمر الله تعالى بطاعة رسوله في آيات كثيرة ومنها: قوله تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران:٣٢] وقوله تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال:١] وفي هاتين الآيتين دلالة على كفر من لم يطع الرسول ﷺ

وقال تعالى: ﴿قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤] وفي هذه الآية دلالة على ضلال من لم يطعه ﷺ.

وروى البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: (**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**). قالوا: يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: (**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**).

الثاني: تصديقه فيما أخبر: وقد أجمع العلماء أن من وصف النبي ﷺ بالكذب سواء في كل شيء أو في شيء واحد فهو كافر؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝٥﴾ [النجم: ٣-

٥] وقوله تعالى: ﴿۞ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنْ كَذَبَ عَلَى اللَّهِ وَكَذَّبَ بِالصِّدْقِ إِذْ جَاءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ ﴿٣٢﴾ وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [الزمر: ٣٢-٣٣]

ففي القرآن الكريم الإخبار أن كلام النبي عليه الصلاة والسلام وحي وأنه صدق من عند الله تعالى وأن من كذب بما أخبر به فقد كذب بالصدق الذي جاءه من ربه وهذا يعني تكذيب من أخبره بذلك فكان تكذيب الرسول تكذيب للمرسل. وهذا هو الكفر الأصلي الذي وقع به من لم يؤمن بالرسالة وهو الردة لمن قبل الإسلام ثم أنكر السنة.

الثالث: اجتناب ما نهى عنه وزجر: والفرق بين الأوامر والنواهي النبوية أنه إذا أمر فالامتثال لأمره واجب إلا على العاجز وأما إذا نهى فإنه يجب اجتناب ما نهى عنه في كل حال إلا في حال الضرورة أو الاكراه، فقد روى مسلم عن أبي هريرة يحدث أنه سمع رسول الله ﷺ يقول: (ما نهيتكم عنه فاجتنبوه وما أمرتكم به فافعلوا منه ما استطعتم فإنما أهلك الذين من قبلكم كثرة مسائلهم واختلافهم على أنبيائهم).

وقال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ [الحشر:٧]

قال العلامة السعدي في "تيسير الكريم الرحمن" (صـ/٨٥٠):

ولذلك أمر الله بالقاعدة الكلية والأصل العام، فقال: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ وهذا شامل لأصول الدين وفروعه، ظاهره وباطنه،

وأن ما جاء به الرســـول يتعين على العباد الأخذ به واتباعه، ولا تحل مخالفته، وأن نص الرســول على حكم الشــيء كنص الله تعالى، لا رخصــة لأحد ولا عذر له في تركه، ولا يجوز تقديم قول أحد على قوله اهـ

وقال الحافظ ابن كثير في "تفسير القرآن العظيم" (٦٧/٨):

أي: مهما أمركم به فافعلوه، ومهما نهاكم عنه فاجتنبوه، فإنه إنما يأمر بخير وإنما ينهى عن شر اهـ.

قال أبو العباس:

والآيـة نزلـت في الغنـائم ولاخلاف بين العلمـاء أن العبرة بعموم اللفظ لا بخصـوص السـبب، فإذا أعطى الرسـول ﷺ لأحد ما شـيئًا ما ثم أمر الله تعالى ذلك الإنســـان بعينه بأخذه فإن اللفظ يحتمل الخصـــوص والعموم وأما إذا أمر الله تعالى أخذ ما جاء به الرســـول بشـــكل عام فإنه تدخل فيه تلك الحادثة العينية وغيرها، وذلك أن اللفظ وإن نزل بســـبب حادثة بعينها فأنه نزل كقاعدة عامة لها ولمثلها فيكون بمثابة الجواب للشيء ومثله؛ فإن القرآن شرع لعموم المكلفين.

ومثاله إذا حصـــل أمر ما من أحد ما فأنزل الله تعالى الأمر بتقوى الله فإنه لايقول أحد: إنما نزلت في فلان!! بل هي أمر بتقوى الله لجميع المكلفين.

قال الإمام البغوي في "معالم التنزيل" (٧٥/٥):

وهذا نازل في أموال الفيء، وهو عام في كل ما أمر به النبي ﷺ ونهى عنه اهـ.

الرابع: أن لا يعبد الله إلا بما شرع: لأن الأصل في العبادات أنها توقيفية فلايجوز القيام بعبادة إلا بإذن من المعبود ولا معبود إلا الله، وهذا يكون بعبادته بما شرع، فخرج بذلك عبادته بالمحدثات والبدع.

والتشريع يرجع لمصدرين: الأول: القرآن. والثاني: السنة. والدليل على كونهما مصدرين أدلة كثيرة جدًا في القرآن الكريم؛ فكل أمر باتباع الرسول وطاعته وامتثال أوامره والاقتداء به وعدم معصيته والتحذير من مخالفته كلها تدل أن له كلام يجب الامتثال له إيجادًا في الأوامر وتركًا في النواهي والزواجر. فإذا أمر فهو تشريع يراد به الايجاد وإذا نهى فهو تشريع يراد به الترك والابتعاد. ولهذا يقول العلماء: أمر الشرع بكذا ونهى الشرع عن كذا فدخل الأمر والنهي في مسمى الشرع.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾ [النحل:٤٤] وهذه الآية شديدة الصراحة في جعل المنزل هو القرآن والسنة وأن الذكر هو القرآن والسنة، فقوله: (وأنزلنا إليك الذكر) أي: السنة. وقوله: (لتبين للناس ما نزل إليهم) أي: القرآن. فبين أنه أنزل السنة لتبين القرآن. فإن قلت: القرآن بين بذاته؛ كما في قوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩].

قلت: الجواب من وجهين:

الأول: أن الذي قال إن القرآن بين هو الذي قال إن السنة مبينة له فهو رسالة بينة وعلى الرسول شرحها وبيانها لمن أرسل إليهم.

الثاني: أن بيان القرآن لكل شيء حق لاريب إلا أن هذا البيان متنوع بين التفصيل والتأصيل.

- **أما التفصيل**: فمثاله في حكم المواريث وفي حكم الزكاة وأحكام الطلاق ففي القرآن التفصيل الكافي لمعرفة حكم الله في ذلك.
- **وأما التأصيل**: فمعناه أن يبين الله تعالى في القرآن أصل المسألة كأمره بالصلوات فالقرآن بين ذلك لكنه بين أصل المسألة ولم يذكر شرطية الوضوء قبلها ولم يذكر ركنية تكبيرة الإحرام لافتتاحها ولم يذكر كيفيتها وموالاتها بالترتيب من التكبير إلى التسليم، بل كل ذلك مفصل في السنة النبوية.

فدل أن البيان حاصل لكنه مفصل في بعض ومجمل في بعض، وهذا كما قال تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [آل عمران:٧] فكما أن بعضه محكم وبعضه متشابه فبعضه مفصل وبعضه مجمل

وقد بين الله تعالى ذلك في ثلاث مراتب وهي:

المرتبة الأولى: الأمر باتباع القرآن وأنه كامل شامل واضح بين فقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل: ٨٩] وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ جِئْنَاهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَى عِلْمٍ﴾ [الأعراف:٥٢] وقال تعالى: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ

تَفْصِيلًا﴾ [الإسراء:١٢] وقال تعالى: ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ﴾ [الأنعام:١٥٥] وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص:٢٩]

فكل هذه الآيات تأمر الناس بالرجوع إلى القرآن والاهتداء به وبيان أن فيه الكفاية عن كل شيء

المرتبة الثانية: الأمر بمعرفة القرآن بواسطة تبيين الرسول ﷺ له والاهتداء بذلك، فوظيفة الرسول ﷺ كما بين العلماء ومنهم العلامة القرطبي في قوله: بيان ما كان منه مجملًا وتفسير ما كان منه مشكلًا وتحقيق ما كان منه محتملًا ليكون له مع تبليغ الرسالة ظهور الاختصاص به ومنزلة التفويض إليه قال الله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. فدلت الآية أن السنة هي النص المُبَيِّن بكسر الياء وأن القرآن هو النص المُبَيَّن بفتح الياء، وهذا معناه أن السنة تفسر القرآن وتشرحه.

المرتبة الثالثة: بيان منزلة العلماء والأمر بالرجوع إليهم لمعرفة حكم الله تعالى، فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة:١١] ومن هذه الرفعة منزلة الفتوى التي خولها الله تعالى للعلماء ببيان الدين للناس وتعليمهم ما جهلوه، فقال تعالى: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [النحل:٤٣] فهذه الآية جعلت الناس على قسمين: عالم وجاهل فوظيفة الجاهل الرجوع إلى العالم ووظيفة العالم تعليم الجاهل.

وتسميته للعلماء بأهل الذكر أي أهل الكتاب والسنة فكلاهما ذكر بدلالة القرآن، أما القرآن فقال تعالى: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وقيل: بل يدخل فيها الكتاب والسنة، وأما السنة فقال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾

فإذا جاز بل وجب الرجوع إلى العالم وطلب الفتوى منه عن مراد الله تعالى ومراد رسوله ﷺ، بدلالة النص القرآني فكيف يقول ذاك القائل: إنه لايصح الرجوع إلى السنة والاكتفاء بالقرآن؟ فهل يعقل أن نرجع للعالم ولا نرجع للرسول ﷺ؟

وقد أمر الله تعالى بطاعة نبيه في آيات كثيرة بل جعل طاعته هداية فدل أن معصيته ضلال فقال: ﴿وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا﴾ [النور:٥٤] بل أخبر الله تعالى بأن نبيه يقضي في الأمور وجعل قضاء نبيه بمنزلة قضائه فقال: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ [الأحزاب:٣٦]

والمتقرر عند أهل العلم أن القاعدة تنص أن كل الأنبياء علماء وليس كل العلماء أنبياء، ولهذا قال عن أنبيائه أنهم يوحى إليهم ومن ذلك قوله عن نبينا ﷺ: ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۝٣ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى ۝٤ عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى ۝٥﴾ فجعل كلامه ﷺ وحيًا، فكيف تجرأ ذلك الجاهل الكافر على الإقرار بآية الرجوع إلى العلماء وجعلهم مرجعية بالفتوى وأنكر الرجوع إلى الرسول ﷺ وزعم أن

الرجوع إلى ســــنته طعن في كمال وتمام القرآن، ولو كان كذلك لكان الرجوع إلى العلماء أشـــد طعنًا في كماله وتمامه، ولكنه ليس كما زعم بل الرجوع إلى الأنبياء لكونهم رسـل وظيفتهم شـرح الرسـالة التي بين أيديهم للناس الذين أرسـلوا إليهم. ووظيفة العلماء أنهم يحملون وظيفة أنبيائهم من بعدهم لكونهم ورثة الأنبياء، فمن جعل الوريث أعلى درجة من المورث وقع في عين الضـــلال وهو كافر في كل حال وبدون استفصال.

قال المؤلف:

وَدَلِيلُ الصَّــلاةِ، وَالزَّكَاةِ، وَتَفْسِــيرُ التَّوْحِيدِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِــينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّــلَاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَـاةَ وَذَلِـكَ دِينُ الْقَيِّمَـةِ﴾ [البينة:٥].

الشرح:

أما دلالة الآية على تفسير التوحيد فقد سبق في أكثر من موضع، فالأمر بالعبادة المراد به إخلاصـــها للمعبود دون ما ســـواه. ويدخل في ذلك كل أنواع العبادات فمن أخلص في بعضــها لله وصــرف بعضــها لغير الله فقد نقض توحيده؛ فالتوحيد واقع متكامل غير قابل للتجزئة.

أولًا: الصلاة: وهي الركن الثاني من أركان الإسلام.

وإقام الصـــلاة المراد به أداؤها في أوقاتها بشـــروطها وأركانها وواجباتها، وخلاصة ذلك في قول النبي ﷺ: (صلوا كما رأيتموني أصلي) رواه البخاري عن مالك بن الحويرث.

الصلاة لغة: الدعاء؛ لقوله تعالى: ﴿وَصَلِّ عَلَيْهِمْ﴾ [التوبة:١٠٣] أي: ادعو لهم. وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَــلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَــلُّوا

عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب:٥٦] قال العلماء: صلاة الله هي الثناء. وصلاة الملائكة هي الدعاء.

واصطلاحًا: أفعال وأقوال مخصوصة بشرائط مخصوصة وكيفية مخصوصة مفتتحة بالتكبير ومختتمة بالتسليم.

ولها شروط وأركان وواجبات وسنن ومبطلات

- **الأول**: **شروط الصلاة**: **وهي تسعة**:

الإسلام، والعقل، والتمييز، ورفع الحدث، وإزالة النجاسة، وستر العورة، ودخول الوقت، واستقبال القبلة، والنية.

- **الثاني**: **أركان الصلاة وهي أربعة عشر**:

القيام مع القدرة، وتكبيرة الإحرام، وقراءة الفاتحة، والركوع، والاعتدال بعد الركوع، والسجود على الأعضاء السبعة، والجلسة بين السجدتين، والطمأنينة في جميع الأفعال، والترتيب بين الأركان، والتشهد الأخير، والجلوس له، والصلاة على النبي ﷺ والتسليم.

- **الثالث**: **واجبات الصلاة وهي ثمانية**:

جميع التكبيرات غير تكبيرة الإحرام، وقول سمع الله لمن حمده للإمام والمنفرد، وقول ربنا ولك الحمد للكل، وقول سبحان ربي العظيم في الركوع، وقول سبحان ربي الأعلى في السجود، وقول رب اغفر لي بين السجدتين، والتشهد الأول، والجلوس له.

- **الرابع**: **سنن الصلاة ومنها**:

١ – الاستفتاح.

٢ – جعل كف اليد اليمنى على اليسرى فوق الصدر حين القيام.

٣ – رفع اليدين مضمومتي الأصابع ممدودة حذو المنكبين أو الأذنين، عند التكبير الأول، وعند الركوع والرفع منه، وعند القيام من التشهد الأول إلى الثالثة.

٤ – ما زاد عن واحدة في تسبيح الركوع والسجود.

٥ – ما زاد عن واحدة في الدعاء بالمغفرة بين السجدتين.

٦ – جعل الرأس حيال الظهر في الركوع.

٧ – مجافاة العضدين عن الجنبين، والبطن عن الفخذين في السجود.

٨ – رفع الذراعين عن الأرض حين السجود.

٩ – جلوس المصلي على رجله اليسرى، ونصب اليمنى في التشهد الأول وبين السجدتين.

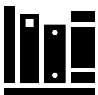
١٠ – التورك في التشهد الأخير.

١١ – نصب الرجل اليمنى حين الجلوس.

١٢ – الصلاة والتبريك على محمد وآل محمد وعلى إبراهيم وآل إبراهيم في التشهد الأول.

١٣ – الدعاء في التشهد الأخير.

١٤ – الجهر بالقراءة في صلاة الفجر وصلاة الجمعة وصلاة العيدين والاستسقاء وفي الركعتين الأوليين من صلاة المغرب والعشاء.



١٥ – الإسرار بالقراءة في الظهر والعصر وفي الثالثة من المغرب والأخيرتين من العشاء.

١٦ – قراءة ما زاد عن الفاتحة من القرآن، مع مراعاة بقية ما ورد من السنن في الصلاة سوى ما ذكرنا، ومن ذلك ما زاد على قول المصلي: ربنا ولك الحمد، بعد الرفع من الركوع في حق الإمام والمأموم والمنفرد، فإنه سنة، ومن ذلك أيضا وضع اليدين على الركبتين مفرجتى الأصابع حين الركوع.

- **الخامس: مبطلات الصلاة وهي ثمانية:**

١ – الكلام العمد مع الذكر والعلم، أما الناسي والجاهل فلا تبطل صلاته بذلك.

٢ – الضحك.

٣ – الأكل.

٤ – الشرب.

٥ – انكشاف العورة.

٦ – الانحراف الكثير عن جهة القبلة.

٧ – العبث الكثير المتوالي في الصلاة.

٨ – انتقاض الطهارة.

انتهى من "الدروس المهمة" للعلامة الكبير كبير العلماء عبد العزيز بن باز رحمه الله تعالى.

ثانياً: الزكاة وهي الركن الثالث من أركان الإسلام.

وإيتاء الزكاة المراد به إخراجها من أصـــنافها في مواطنها. وهي الركن الذي قاتل الصـديق رضـي الله عنه من امتنع عن إخراجها؛ عملًا بقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة:٥].

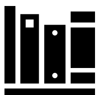
فمنطوقها ترك ســـبيل من آتى الزكاة بعد العمل بالركنين الأولين، (فإن تابوا) من الشـرك. (وأقاموا الصـلاة) الركن الثاني من أركان الإسـلام وشـعيرة أهل الإســـلام. (وآتوا الزكاة) أي أن وجوبها بمنزلة وجوب ما قبلها وهي الصـــلاة على خلاف بين العلماء.

ومفهومها عدم ترك من امتنع عن اخراجها. وهذا وبلا شك من خصـائص ولاة الأمر وليس لغيرهم التدخل في ذلك.

ويرجح هذا المعنى لقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّـــلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَإِخْوَانُكُمْ فِي الدِّينِ﴾ [التوبة:١١] فمن لم يخرجها فليس بأخ للمسـلمين وهذا يقتضـي كفر تارك الزكاة، والظاهر أن هذا يتنزل على تاركها جحودًا، ولأهل العلم تفصـيل في حكم تارك الزكاة ليس هذا محل بسطه.

الزكاة لغة: النماء والزيادة. ويطلق على الثناء لقولـه تعالى: ﴿فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ [النجم:٣٢].

واصطلاحاً: اخراج مال مخصـوص (الأصـناف: النقد: وهو المال والذهب والفضـــة. والمال: ويدخل فيه الحبوب وبهيمة الأنعام. والمبيعات: وهي عروض



التجارة. وغيرها.) لأناس مخصوصين (المصارف: للفقراء، المساكين، العاملين على جمع الزكاة، المؤلفة قلوبهم، الرقاب، الغارمين، في سبيل الله، وابن السبيل) بوجه مخصوص

قال المؤلف:

ودَلِيلُ الصِّيَامِ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [البقرة:١٨٣]

الشرح:

كتب بمعنى وجب وفرض، والصوم الذي كتب علينا هو رمضان بلا خلاف وأما الصوم الذي كتب على الذين من قبلنا فصوم اليهود قيل: هو عاشوراء وتلاعبوا به. وصوم النصارى قيل: ثلاثة أيام من كل شهر. وقيل: عاشوراء: وقيل: رمضان، وجاء أنهم تلاعبوا بصومهم بسبب تقلب الفصول فكانوا يصومونه في غير وقته.

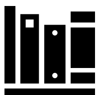
الصوم لغة: الإمساك فكل شيء أمسكت عنه فأنت صائم لغة.

قال أبو عبيدة: كلُّ ممسكٍ عن طعامٍ أو كلامٍ أو سيرٍ فهو صائِمٌ. "مختار الصحاح" (صـ/١٨٠) و "لسان العرب" (١٢/٣٥١)

ومن ذلك قوله تعالى عن السيدة مريم: ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا﴾ [مريم:٢٦] أي نذرت للرحمن صمتًا، قال الذبياني:

خَيْلٌ صِيامٌ وخَيْلٌ غَيْرُ صَائِمَةٍ تَحْتَ العَجَاجِ وأُخْرَى تَعْلُكُ اللُّجُمَا

أي خيل ممسكة عن الصهيل وقيل: عن العلف.



الصوم شرعًا: قال الكوراني: إمساك مخصوص، من شخص مخصوص، في وقت مخصوص. "الكوثر الجاري" (٤/٢٤٨)

قلت: الصوم شرعًا: هو الإمساك عن الطعام والشراب والجماع والدواء وسائر المفطرات من طلوع الفجر الصادق حتى غروب الشمس بنية التعبد لله تعالى.

قال المؤلف:

ودَلِيلُ الْحَجِّ: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران:٩٧]

الشرح:

الحج اللغة: الوجهة والقصد لشيء معظم.

وشرعًا: قال العلامة ابن عثيمين في "فتح ذي الجلال والاكرام" (٣/٣١٩): فهو التعبُّد لله تعالى بأداء المناسك على صفة مخصوصة في وقت مخصوص اهـ

والآية التي استدل بها المؤلف تدل على وجوب الحج؛ فقوله تعالى: (ولله على الناس حج البيت) أي ولله حق على الناس قصد بيته بأداء مناسك فريضة الحج، وقوله: (من استطاع إليه سبيلا) تقييد يفيد تحديد الوجوب على القادر بالمنطوق وخروج العاجز من الوجوب بالمفهوم.

والاستطاعة في الحجِّ تكون بدنية ومالية، وبالتالي فالعجز قد يكون بسبب الفقر وهو صحيح وقد يكون بسبب المرض وهو غني.

وقوله: (حج البيت) فيه دليل على حصر مكان الحج بالبيت العتيق بمكة المكرمة، وهذا رد على بدعتين:

الأولى: الحج لغير الله تعالى في أي مكان في العالم وهذه بدعة شركية أصحابها كفار بالإجماع.

الثانية: الحج لله تعالى في غير البيت الحرام، كالحج إلى مسجد معاذ بن جبل في الجند في اليمن، ويحددون زمنها في رجب!! ويسمونها الرجبية ويسمون الزيارة بحج الفقراء!! مع أن الله تعالى رفع عن الفقير وجوب الحج، وفعلهم هذا بدعة خبيثة وأصحابها مبتدعة.

قال المؤلف:

المرتبة الثانية: الإيمان:

وَهُوَ: بِضْـعٌ وَسَـبْعُونَ شُـعْبَةً، فَأَعْلاهَا قَوْلُ لا إله إلا اللهُ، وَأَدْنَاهَا إمَاطَةُ الأَذَى عَنِ الطَّرِيقِ، وَالْحَيَاءُ شُعْبَةٌ مِنْ الإِيمَانِ.

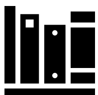
وَأَرْكَانُهُ سِـــتَّةٌ: كما في الحديث (أن تؤمن بالله وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر وتؤمن بالقدر خيره وشره).

وَالدَّلِيلُ عَلَى هَذِهِ الأَرْكَانِ السِّـتَةِ: قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْـــرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَـةِ وَالْكِتَـابِ وَالنَّبِيِّينَ﴾ [البقرة:١٧٧] ودليـل القدر: قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]

الشرح:

سـبق ذكر الايمان وذكر الاختلاف في تعريفه وأنه في اللغة التصـــديق وفي الشرع قول وعمل واعتقاد، وأنه يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، ونقلنا كلامًا نفيسًا للإمام المروزي وابن كثير حول الإيمان.

وأركان الإيمان سـتة: والأركان جمع ركن فإذا سـقط ركن سـقط الإيمان لأن ما يقوم على عدة أركان لا يمكن أن يقوم على بعضـــها، فمن آمن بخمســـة أركان وكذب بركن واحد فهو كافر.



قال أبو بكر الكاساني في "بدائع الصنائع في ترتيب الشرائع" (١/ ١٠٥):

والأصل أن كل متركب من معان متغايرة ينطلق اسم المركب عليها عند اجتماعها كان كل معنى منها ركنًا للمركب كأركان البيت في المحسوسات، والإيجاب والقبول في باب البيع في المشروعات اهـ.

قلت: والأركان الستة جاءت في النصوص إجمالًا: الإيمان بالله والملائكة والكتب والرسل واليوم الآخر والقدر.

وأما من حيث التفصيل فمن تتبع واستقرأ في النصوص وجد نصوصًا كثيرة تحمل تفاصيلًا تتعلق في كل ركن من الأركان الستة.

ومن أراد التوسع في فقه هذه الأركان فلينظر الكتب التي ألفت في شرح حديث جبريل، كشرح شيخ الإسلام ابن تيمية. وشرح الحافظ ابن رجب الحنبلي. ومن أحسن من ألف في ذلك من المعاصرين:

- العلامة الكبير ابن عثيمين في كتاب اسمه "شرح حديث جبريل" وهو من ألذ وأعذب المؤلفات في الباب. وله شرح آخر ضمن "شرح الأصول الثلاثة" فقد فصل تفصيلًا طيبًا مقتصدًا يسر الناظرين.
- العلامة الكبير عبد المحسن العباد البدر في رسالته "شرح حديث جبريل في تعليم الدين" وفيها قوة في الطرح وعمق في الاستدلال.

الركن الأول: الإيمان بالله:

وهو أصل الأصول وركن الأركان، فمن لم يؤمن به لا يمكن بحال من الأحوال أن يؤمن ببقية الأركان؛ فهي مضافة له، فالملائكة ملائكته والكتب كتبه

والرسل رسله واليوم الآخر هو يوم الرجوع إليه والوقوف بين يديه والقدر هو قدره وتقديره. فكيف يؤمن بها من لم يؤمن به؟

ومن أنكر وجود الله فليس بمؤمن، ومن أقر بوجوده وأنه رب كل شيء، لكنه أنكر ألوهيته أو آمن بألوهيته ولكنه أنكر انفراده بالألوهية فليس بمؤمن بالله تعالى، ومن آمن بكل ما سبق ولكنه لم يؤمن بأسمائه وصفاته، أو آمن بها ولكنه أنكر أن يكون مختصًا بها، فليس بمؤمن بالله تعالى بل هو كافر به.

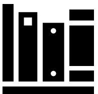
الركن الثاني: الإيمان بالملائكة:

عالم غيبي مخلوق من النور يتحلون بالقوة والقدرة على أشياء لا يستطيع عليها الجان والإنسان حتى ولو اجتمعوا على ذلك، حتى قال ملك الجبال لنبينا ﷺ: (لو شئت أن أطبق عليهم الأخشبين فعلت) فدل على امتلاكه على قوة عظيمة حيث يقدر أن يطبق عليهم بجبلين كبيرين، والأخشبان الجبلان المحيطان بمكة والأخشب هو الجبل الغليظ.

وهم مع ذلك في غاية التواضع والعبودية لله تعالى؛ فقد منحهم الله تعالى الانقياد التام لأمره، والقوة على تنفيذه. قال الله تعالى: ﴿وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ ۝١٩ يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ ۝٢٠﴾ [الأنبياء: ١٩-٢٠] وقال تعالى: ﴿عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم:٦].

والإيمان بالملائكة يتضمن أربعة أمور:

- **الإيمان بوجودهم:**



فقد ذكرهم الله تعالى في الكثير من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، فإنكارهم إنكار لأدلة القرآن والسنة.

- **الإيمان بأسمائهم:**

أي باسم من علمنا منهم: كجبرائيل وميكائيل وإسرافيل ومالك. وأما رضوان فذكر في الآثار ولكنه لم يذكر بالكتاب والسنة. وأما عزرائيل فقد ذكر في الاسرائيليات ولم نمنع بالحديث عنهم إلا فيما يتعارض مع ديننا، ولكن بما أن القرآن والسنة أطلقا عليه: ملك الموت وهو لقب لا اسم، فالأفضل أن نكتفي بذلك فهو لقب يحمل موعظة وذكره بلقبه تذكير للغافل.

- **الإيمان بأفعالهم:**

أي بوظائفهم التي وكلوا بها، ولايصح أن ننسب لأحد منهم فعلًا أو وظيفة إلا بدليل من الكتاب أو من السنة. ومن ذلك:

١- **جبرائيل**: وهو الملك الموكل بالوحي من الله تعالى إلى جميع الرسل. وله وظائف في غير عالمنا لانعلمها؛ فقد أشار القرآن لذلك بقوله: ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾ [التكوير:٢١] وفي الحديث أن (له ستمئة قد سد الأفق) جناح دليل أن له وظائف في الكون الكبير والواسع.

٣- **ميكائيل**: وهو الموكل بالقطر أي بالمطر وتصاريفه.

٤- **إسرافيل**: وهو الموكل بنفخ الصور مرتين، فالله أعلم هل له وظيفة غير ذلك أم لا.

٥- **مالك**: وهو الملك الموكل بالنار.

ومنهم الموكل بقبض الأرواح، ومنهم الموكل بكتابة أعمال العباد، ومنهم الملائكة السياحون الذين يتبعون مجالس الذكر، ومنهم منكر ونكير الموكلان بفتنة القبر، ومنكر ونكير وصف وليس اسم، وجاء في الحديث أن هناك ملك الجبال. ووجود ملك للجبال قد يدل بالقياس أن هناك ملك للبحار والله أعلم.

- **الإيمان بصفاتهم**:

ومن ذلك ما جاء في وصف جبريل أن له ستمائة جناح، ومن ذلك ما جاء أن واحد من حملة العرش ديك وأن عنقه ملتوية تحت العرش وأن قدماه قد مرقت الأرض السابعة.

- **الإيمان بأعدادهم**:

أي أن أعدادهم كثيرة جدًا لا يحصيهم إلا الله تعالى، وقد ثبت في الصحيحين من حديث أنس رضي الله عنه في قصة المعراج أن النبي ﷺ قال: (فرفع لي البيت المعمور فسألت جبريل فقال هذا البيت المعمور يصلي فيه كل يوم سبعون ألف ملك إذا خرجوا لم يعودوا إليه آخر ما عليهم).

الركن الثالث: **الإيمانُ بالكتب**:

وهي الكتب التي أنزلت على الأنبياء عليهم السلام، وذلك أنه ما من نبي إلا ومعه كتاب منزل من الله تعالى كما قال الله: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣] وقد يتمسك النبي بكتاب نبي قبله

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٥]

ومنها الصحف التي أنزلت على أبي الأنبياء الخليل إبراهيم عليه السلام، ومنها التوراة التي أنزلت على الكليم موسى عليه السلام، ومنها الزبور الذي أنزل على داود عليه السلام، ومنها الانجيل الذي نزل على المسيح عيسى بن مريم عليه السلام.

وقوله تعالى عن نبيه يحي عليه السلام: ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [مريم:١٢]

قال الماوردي في "النكت والعيون" (٣/٣٥٩):

وفي هذا الكتاب قولان: أحدهما: صحف إبراهيم. الثاني: التوراة اهـ.

وقال ابن عطية في "الوجيز" (٤/٧):

والْكِتابَ التوراة بلا اختلاف لأنه ولد قبل عيسى ولم يكن الإنجيل موجودا عند الناس اهـ وهكذا قال القرطبي أيضًا

ومنها القرآن العظيم الذي هو خاتمة الكتب والرسالات وأنزل على محمد ﷺ وهو خاتم الأنبياء والمرسلين، وهو الناسخ لكل الديانات السماوية وكل الكتب المنزلة كما قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨]

وقد نبه العلماء أن الإيمان بالكتب يعني الإيمان بأصل الكتب وأن الله تعالى أنزلها على رسله، وأما الكتب الباقية اليوم فلايصح منها إلا كتاب الله تعالى

وهو القرآن الكريم الذي قال الله تعالى عنه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر:٩] وأما الكتب التي في يد اليهود والنصارى فلايصح نسبتها إلى الله تعالى أبدًا لما فيها من التبديل والتحريف فقد وصفهم الله تعالى أنهم: ﴿يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ﴾ [المائدة:١٣] وقال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلْوُونَ أَلْسِنَتَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ﴾ [آل عمران:٧٨]

تنبيه حول عدد الكتب السماوية:

ودعت الحاجة لهذا التنبيه لأني قد رأيت مسابقة وفيها جوائز لمن ذكر عدد الكتب السماوية، فقال بعضهم: هي خمسة، وقال بعضهم: هي أربعة. والصحيح أن الكتب السماوية لايمكن معرفة عددها؛ لأنه مامن نبي إلا ومعه كتاب؛ كما قال تعالى عن كل الأنبياء بداية بنوح وحتى نبينا عليهم الصلاة والسلام: ﴿كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَ حِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ﴾ [سُورَةُ البَقَرَةِ:٢١٣].

والمعنى أن الناس كانوا أمة واحدة في زمن آدم عليه السلام وأنهم اختلفوا بعد ذلك فبعث الله النبيين وكل نبي معه كتاب، فدل أن عدد الكتب بعدد الأنبياء وعددهم كثير جدًا، فقد جاء عن أبي ذر :قلت يا رسول الله كم وفاء عدة الأنبياء؟ قال: (مائة ألف وأربعة وعشرون ألفًا، الرسل من ذلك ثلاثمائة وخمسة عشر جمًّا غفيرًا) وصححه العلامة الألباني.

وقال تعالى: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾ [الحديد:٢٥] والرسل في هذه الآية يدخلون في عموم الأنبياء في الآية السابقة، فدل أن كل الرسل معهم كتب، والرسل كثيرون جدًا ولايمكن حصر الكتب بالخمسة أبدًا.

وإنما بين العلماء أن الأنبياء مابعد موسى عليه السلام كان كتابهم هو التوراة لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ﴾ [البقرة:٨٧] ومعنى قفينا أي أنهم يقتفون أثره ويسيرون على دعوته ويتمسكون بالكتاب الذي أنزل إليه. فكل نبي من أنبياء بني إسرائيل يحمل كتابًا ولكنه نسخة من التوراة لا كتاب مستقل.

وأما عيسى عليه السلام فأنزل الله تعالى عليه الإنجيل وهو تابع للتوراة وناسخ لبعض أحكامه، وفيه زيادة في الرقائق ونحوها وهو ناقل لهم لعهد جديد ولهذا يسمى أتباع موسى اليهود ويسمون كتابهم: العهد القديم. ويسمى أتباع عيسى النصارى ويسمى كتابهم: العهد الجديد، وقد قال لهم عيسى عليه السلام: ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَلِأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾ [آل عمران:٥٠]

وقال تعالى يخاطب أهل الكتاب بإقامة الكتابين معًا فقال: ﴿قُلْ يَاأَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَى شَيْءٍ حَتَّى تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ﴾ [المائدة:٦٧] فدل أنهم أمة واحدة مخاطبة بإقامة الكتابين تحت مسمى الكتاب الواحد.

وبناء على ما ســـبق فالكتب كثيرة لايمكن معرفة عددها إلا بعدد الأنبياء باســتثناء الأنبياء مابعد موســى وحتى عيســى عليهم الســلام فكتابهم واحد وهو التوراة، فهو كتابهم كلهم، والظاهر أن تلك الفترة كانت هي فترة الوفرة والكثرة في عدد الأنبياء.

والدليل على أن كلهم كتابهم هو التوراة قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْــلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا﴾ [المائدة:٤٤] فجعل التوراة كتابًا واحدًا يسوس به الكثير من الأنبياء أقوامهم من اليهود من بعد موسى وحتى عيسى عليهم الصلاة والسلام.

وجاء في "الصـــحيحين" حديث عظيم في هذا الشـــأن عن أبي حازم قال قاعدت أبا هريرة خمس ســـنين فســـمعته يحدث عن النبي ﷺ قال: (كانت بنو إسرائيل تسوسهم الأنبياء كلما هلك نبي خلفه نبي وإنه لا نبي بعدى وستكون خلفاء فتكثر). قالوا: فما تأمرنا؟ قال: (فوا ببيعة الأول فالأول وأعطوهم حقهم فإن الله سائلهم عما استرعاهم).

فدل الحديث على كثرة ووفرة الأنبياء في بني إسـرائيل حتى أنه لايموت نبي إلا ويخلفه نبي على الفور، بل قد ثبت وجود أكثر من نبي في وقت واحد وفي قرية واحدة فيهم لكثرة فسادهم.

وكل هؤلاء الأنبياء كانوا يســـوســـون اليهود بكتاب واحد، وإنما اختلف البعض في قوله تعالى: ﴿يَايَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم:١٢] حكى واحد من العلماء

الخلاف فيه على قولين: قول إنها التوراة وقول إنها صحف إبراهيم، وحكى غيره الإجماع أن هذا الكتاب هو التوراة.

فهذه هي خلاصة المسألة، ولابأس أن يقال في السؤال: ماهي الكتب السماوية التي ذكرت في القرآن الكريم؟ أو كم عدد الكتب السماوية التي ذكرت في القرآن الكريم؟ فنقول في الجواب: إن الكتب المذكورة في القرآن الكريم على قسمين:

الأول: الكتب التي ذكرت إجمالا وهي على عدد الأنبياء والرسل وإن علمنا عددهم فليست الكتب بعددهم؛ لأن الكثير منهم كان كتابهم واحد. فهي بعددهم باعتبار أن كل واحد منهم جاء ومعه كتاب، وليست بعددهم باعتبار أن الكثير منهم جاء ومعه كتاب قد جاء به الذي قبله.

الثاني: الكتب التي ذكرت وسميت وهي خمسة:

- الصحف: وهي صحف إبراهيم وموسى عليهما الصلاة والسلام، وذكرت في قوله تعالى: ﴿أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِي صُحُفِ مُوسَى ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَاهِيمَ الَّذِي وَفَّى ﴿٣٧﴾﴾ [النجم] وقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى ﴿١٨﴾ صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى ﴿١٩﴾﴾ [الأعلى]

والصحف وصف وليس اسمًا لكتاب مخصص، ولهذا يقال للقرآن الكريم أنه صحف أيضًا؛ لقوله تعالى: ﴿رَسُولٌ مِنَ اللَّهِ يَتْلُو صُحُفًا مُطَهَّرَةً﴾ [البينة:٢] وقال تعالى عن القرآن: ﴿فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ﴾ [عبس:١٣]

- التوراة: وهو كتاب موسى عليه الصلاة والسلام، وذكر في آيات كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ﴾.
- الزبور: وهو كتاب داود عليه الصلاة والسلام وقد ذكر في موضعين، في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَا دَاوُودَ زَبُورًا﴾ [النساء:١٦٣]

وهو من أنبياء بني إسرائيل ومع ذلك فكتابه الزبور ليس هو التوراة بل هو كتاب مستقل كما هو ظاهر الآية، وكما هو ظاهر أقوال من قرأت من العلماء

وللفائدة فالزبور هو كتاب داود عليه السلام، والزبر هي عموم الكتب، كما قال تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِنْ أُولَئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر:٤٣] أي الكتب، وقال تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء:١٩٦]

- الإنجيل: وهو كتاب عيسى عليه الصلاة والسلام، وهو تابع للتوراة ولهذا يسمى العهد الجديد، وقد ذكر في آيات كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿وَقَفَّيْنَا عَلَى آثَارِهِمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَاةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِلْمُتَّقِينَ﴾ [المائدة:٤٦] فدلت الآية أنه يعمل فيهم بالتوراة ويعمل فيهم بالإنجيل أيضًا، وأن الانجيل فيه المواعظ والرقائق.
- القرآن وهو خاتمة الكتب على خاتم الرسل ومهيمن عليها كلها، لقوله تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيْمِنًا عَلَيْهِ﴾ [المائدة:٤٨] أي أن القرآن مهيمن على الكتب التي قبله فهو

ناسخ لها، وقال تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ تَصْدِيقَ الَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَتَفْصِيلَ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [يونس:]

الركن الرابع: الإيمان بالرسل:

الرسل هم الذين أوحى الله إليهم بوحي وأرسلهم إلى أقوامهم ليأمروهم بالتوحيد ويحذروهم من الشرك ويعلموهم شريعة الله تعالى، والإيمان بالرسل يتضمن أمورًا ومنها:

أن نؤمن بصدقهم: فسائر الأنبياء لا ينطقون عن الهوى بل يدعون قومهم بوحي من ربهم لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولهذا كانوا كلهم صادقون يجب تصديقهم

أن نؤمن بجميعهم: وهذا يعني أن نؤمن بمن علمنا عنهم بأسمائهم ومن لم نعلمهم بأسمائهم فنؤمن بهم على سبيل الإجمال، كما قال تعالى: ﴿وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾ [النساء:١٦٤]

فنوح ﷺ كان أول رسول للناس ولانعلم في أي بلدة بالتحديد، ويقال: إنه بين العراق وتركيا والله أعلم بصحة ذلك.

وبعده كان هود ﷺ وهو أول رسول بعد الطوفان بدلالة قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ قَوْمِ نُوحٍ﴾ [الأعراف:٦٩] وكان في اليمن في بلاد عاد في أحقاف حضرموت، ومن هناك بدأ ظهور العرب الأولى، ثم أبيدت بالريح

الصرصر إلا ان هذه الإبادة لم تشمل الجميع فقد نجا هود عليه السلام ومن معه ومن هنا تسلسلت العرب من نسل قحطان بن هود عليه السلام.

وبعده صالح ﷺ بدلالة قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ جَعَلَكُمْ خُلَفَاءَ مِنْ بَعْدِ عَادٍ﴾ [الأعراف: ٧٤] وهو قحطاني من نسل هود ﷺ وأرضه التي كان فيها هو وقومه في تبوك أو في القرب منها؛ فقد روى البخاري مسلم عن ابن عمر أن الناس نزلوا مع رسول الله ﷺ على الحجر أرض ثمود فاستقوا من آبارها وعجنوا به العجين فأمرهم رسول الله ﷺ (أن يهريقوا ما استقوا ويعلفوا الإبل العجين وأمرهم أن يستقوا من البئر التي كانت تردها الناقة). وكان ذلك في غزوة تبوك، فدل على تحديد مكان نبي الله تعالى صالح وقوم ثمود في دار الحجر، المشهورة بمدائن صالح، وهي شمال غربي المملكة العربية السعودية، بين المدينة المنورة وتبوك، شمال محافظة العلا.

وبعده إبراهيم ﷺ وهو خليل الله تعالى وهو أبو الأنبياء فكل الأنبياء من بعده من ذريته عدا شعيب ﷺ واختلفت الأقوال فيه هل هو عربي أم غير عربي، وقد ناقشت ذلك بما تيسر من الأدلة في كتابي "أصل العرب وأهل البيوتات والحسب".

وبعده لوط عليه السلام ثم شعيب عليه السلام ثم إسماعيل وإسحاق عليهما السلام ثم يعقوب عليه السلام ثم يوسف عليه السلام، وهكذا حتى موسى عليه السلام وجاء بعده يوشع عليه السلام وهكذا حتى جاء داود وسليمان عليهما

السلام وختمت نبوة بني إسرائيل بعيسى عليه السلام ثم ختمت عموم النبوة بمحمد عليه الصلاة والسلام وهو من بعث بين يدي الساعة.

الركن الخامس: الإيمان باليوم الآخر:

الإيمان باليوم الأخر هو التصديق واليقين بالأمور الغيبية التي جاءت في الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [البقرة: ٣] فاليوم الآخر داخل في الغيب وليس كل غيب داخل في اليوم الآخر.

وقد اختلف في اليوم الآخر على قولين:

القول الأول: اليوم الآخر أي اليوم النهائي الذي لا يوم بعده، واستدلوا بأن اليوم يتضمن على الليل والنهار وفي الآخرة لا ليل ولا نهار؛ فدل أن اليوم الآخر هو يوم واحد لانهاية له، واحتجوا على ذلك بأدلة ومنها: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ [الفاتحة:٤] ومنها: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا لَا تَجْزِي نَفْسٌ عَنْ نَفْسٍ شَيْئًا﴾ [البقرة:٤٨] ومنها: ﴿فَاللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [البقرة: ١١٣] ومنها: ﴿مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا بَيْعٌ فِيهِ وَلَا خُلَّةٌ وَلَا شَفَاعَةٌ﴾ [البقرة: ٢٥٤] ومنها: ﴿رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ﴾ [آل عمران: ٩] ومنها: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران: ١٠٦] وغيرها من الأدلة التي تسمي الآخرة مسمى اليوم الواحد.

القول الثاني: أن اليوم الآخر جاء في مقابل اليوم الأول ولهذا يقال: الدنيا والآخرة، والدنيا وإن سميت يومًا فهي في الحقيقة ليست يومًا واحدًا وهكذا الآخرة.

وهذا هو الظاهر لسببين ظاهرين:

- **الأول**: أن الآيات التي احتجوا بها إنما هي في يوم البعث وفي يوم الحساب فدل أن البعث يوم مستقل والحساب يوم مستقل فثبت أن هناك أكثر من يوم.

أما يوم البعث فقال تعالى: ﴿لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [الروم:٥٦]

وأما يوم الحساب قال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:٥٣] ويوم الحساب يدوم طويلًا.

- **الثاني**: أن ما بعد البعث والحساب هو دخول الجنة لأهل الجنة، والجنة ليست يومًا واحدًا؛ إذ لو كانت يومًا واحدًا لانتهى نعيم الجنة بعد ألف عام من دخولها؛ لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ يَوْمًا عِنْدَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِمَّا تَعُدُّونَ﴾ [الحج:٤٧]

فدل أن الجنة تدوم لأيام متكررة لا نهاية لها، ويؤيد ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ رِزْقُهُمْ فِيهَا بُكْرَةً وَعَشِيًّا﴾ [مريم: ٦٢] فدل على تكرار أيامها بتكرار البكرة والعشي فيها.

ومن أدلة ذلك ما رواه الطبراني من حديث أنس وفيه أن يوم الجمعة موجود في الجنة، وأن أهل الجنة يرون ربهم كل جمعة ويسمى في الجنة يوم المزيد.

قال المنذري: رواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط بإسنادين أحدهما جيد قوي وأبو يعلى مختصرا ورواته رواة الصحيح والبزار واللفظ له، وقال الألباني: حسن لغيره.

وسئل كبير المحدثين العلامة الألباني رحمه الله تعالى: هل هذا النظر لوجه الله تعالى دائم في كل وقت في الجنة؟ فقال رحمه الله: لا نعلم! لماذا مثل هذا السؤال؟ هلا سألت -مثلاً- عن حديث الجمعة، المسمى (بحديث يوم المزيد)، هل هو صحيح أم لا؟! نقول: نعم. فالحمد لله هو صحيح، إذاً المؤمنون يرون ربهم كل يوم جمعة اهـ

وقد ذكر شيخنا العلامة المجاهد والناصح الأمين يحيى بن علي الحجوري أحاديث يوم المزيد في كتابه "أحكام الجمعة" (صـ/١٩-٢١) وضعفها ثم قال: وحاصل ما في هذا الباب: أن يوم الجمع عيد المسلمين، وكونه المزيد هذا صحيح بطرقه وشواهده اهـ

قال أبو العباس:

وبهذا التحقيق المختصر يتضح أن اليوم الآخر ليس يومًا واحدًا بل هو أيام متكررة لا نهاية لها. وقد جاء عن الحسن البصري أنه قال: (أحق ما جاز عليه عند موته أول يوم من أيام الآخرة، وآخر يوم من أيام الدنيا) فسمى اليوم الآخر بأول أيام الآخرة أي أنها أيام متكررة.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في "متن العقيدة الواسطية" (صـ/٢١):

ومن الإيمان باليوم الآخر: الإيمان بكل ما أخبر به النبي ﷺ مما يكون بعد الموت اهـ.

قال أبو العباس: وذلك أربعة مراحل:

المرحلة الأولى: القبر وما فيه: فنؤمن بعذاب القبر، ونؤمن بمنكر ونكير، ونؤمن بالأسئلة الثلاثة، ونؤمن أن النار تعرض على أهل النار والجنة تعرض على أهل الجنة، ونؤمن بالمزربة التي يضرب بها الكفار، ونؤمن بالروح والريحان والسموم في القبر.

المرحلة الثانية: الحشر وأحواله: فنؤمن بالبعث بعد النفخ في الصور، وأن الأجساد تنبت كالزرع من عظمة صغيرة اسمها عجب الذنب، وأن الأرض تتبدل غير الأرض وكذلك السماوات، وأن الناس يخرجون من الأجداث حفاة عراة غرلًا سراعًا كأنهم إلى نصب يوفضون.

ونؤمن أنه في أرض المحشر يشتد العطش فيسقي النبي ﷺ أمته في أرض المحشر من الكوثر، وأصل الكوثر في الجنة وإنما يسقيهم من حوض في المحشر ينصب له الماء من حوض الجنة عبر ميزابين.

ونؤمن أن في أرض المحشر يطول على الناس الهول فيستشفعون بالأنبياء لفصل الحساب، فيعتذر كل نبي بسبب ما فيقول نبينا ﷺ: (أن لها أنا لها) فيشفع النبي ﷺ لعموم الناس عند ربه سبحانه أن يأتي لفصل القضاء.

ونؤمن أن بعد الشفاعة يحصل المجيء العظيم للخالق العظيم وهذا هو قوله تعالى: ﴿وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا﴾ [الفجر:٢٢] وقال تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللَّهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ﴾ [البقرة:٢١٠] وهو مجيء يليق بالله تعالى لانعلم

كيف ولا أين ولكن نؤمن قطعًا أن البشـــر يكونون حينها في الأرض المتبدلة في المحشـر، وأما الخالق فيجيء لفصـل القضـاء بدون كيف ولا أين، بل هو مجيء يليق بجلاله وعظيم سلطانه لايعلم ذلك إلا هو.

فيعرض عليه العباد والآيات في العرض كثيرة ومنها قوله تعالى: ﴿وَعُرِضُـوا عَلَى رَبِّكَ صَـــفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ [الكهف:٤٨] أي كما خلقوا حفاة عراة.

ونؤمن بعد العرض بوقوع الحســـاب ثم الميزان ثم تطاير الصـــحف وأخذ الكتاب باليمين أو بالشمال.

المرحلة الثالثة: الصـراط وما بعده: والصــراط جســر بين الجنة والنار، وهذه المرحلة تبدأ بالصــراط فمن ســقط انتقل إلى النار ومن نجا انتقل إلى القِنطرة وفيها القضـاء في المظالم وتصفية الحساب بين أهل الإيمان إما التسامح وإما التبادل بالحســنات والسـيئات كما في حديث: (أتدرون من المفلس) ثم يتصـافى العباد ثم يدخلون الجنة كما قال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَى سُـرُرٍ مُتَقَابِلِينَ﴾ [الحجر:٤٧] وقال تعالى: ﴿وَنَزَعْنَا مَا فِي صُـدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي هَدَانَا لِهَذَا وَمَا كُنَّا لِنَهْتَدِيَ لَوْلَا أَنْ هَدَانَا اللَّهُ﴾ [الأعراف:٤٣].

فنؤمن بكـل ذلـك وأن الجنـة درجات من النعيم المقيم وأن النـار دركـات وفيها الجحيم والعذاب الأليم والعذاب العظيم والعذاب المهين في اليوم العقيم.

وأن الجنة والنار مخلوقتان موجودتان وليس كما يزعم المعتزلة أنهما لم تخلقا بعد.

ونؤمن بيقين تام لا يخالطه مثقال ذرة من شك أن المؤمنين يرون ربهم يوم القيامة، ونستدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ ﴿٢٢﴾ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ ﴿٢٣﴾﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣] ناضرة من النضارة والبهاء وناظرة من النظر والرؤية فلما نظروا إلى ربهم ورأوا جمال خالقهم تحلت وجوههم بالنضارة والجمال.

وقال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهُمْ عَنْ رَبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَمَحْجُوبُونَ﴾ [المطففين:١٥] قال العلماء: حجب الكفار عن رؤية ربهم دليل على عدم حجب المؤمنين عن رؤيته سبحانه وتعالى.

الركن السادس: الإيمان بالقدر:

القدر هو تقدير الله تعالى لكل شيء إلى يوم القيامة، والإيمان بالقدر داخل في الإيمان بالله تعالى وبالتحديد الإيمان بربوبيته، ولهذا قال النبي ﷺ: (**ذاق طعم الإيمان من رضي بالله ربًا**) أي من آمن واستسلم لأفعاله وتصرفاته. فكل شيء في هذا الكون الواسع بتقديره سبحانه وتعالى وهو القائل: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر:٤٩]

ومن السنة ما رواه الإمام مسلم عن أبي هريرة أن النبي ﷺ قال: (**وإن أصابك شيءٌ فلا تَقل: لو أنّي فعلتُ كان كذا وكذا، ولكن قل: قدرُ الله وما شاء فعل؛ فإنَّ لو تفتحُ عملَ الشيطان**). وما رواه الترمذي عن ابن عباس أن النبي ﷺ قال: (**واعلم أنَّ الأمَّةَ لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلاَّ بشيءٍ**

قد كتبه اللهُ لك، ولو اجتمعوا على أن يَضُرُّوك بشيءٍ لَم يضرُّوك إلاَّ بشيءٍ قد كتبه اللهُ عليك، رُفعت الأقلامُ وجفَّت الصُّحُف) وصححه العلامة المجدد الوادعي في "الصحيح المسند مما ليس في الصحيحين" (١/٣٣٦) (٦٨٥) وتلميذه شيخنا العلامة الحجوري في "المبادئ المفيدة" (صـ/٢)

فيجب علينا أن نؤمن بالقدر خيره وشره وإلا فإيماننا بالله تعالى غير صحيح؛ فإنكار القدر إنكار للمقدر سبحانه وتعالى.

ولا يتحقق الإيمان بالقدر إلا بالإيمان بمراتبه وهي أربعة مراتب:

- **المرتبة الأولى: العلم:**

وهو علم الله تعالى الأزلي بكل شيء قد كان وبكل شيء كائن وبكل شيء سوف يكون، ولا يتجدد له علْمٌ بشيء لَم يكن عالماً به أزلاً؛ لأنه بكل شيء عليم، كما قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد:٣] وقال تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

وقال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَخْفَى عَلَيْهِ شَيْءٌ فِي الْأَرْضِ وَلَا فِي السَّمَاءِ ۝٥ هُوَ الَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي الْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاءُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ۝٦﴾ [آل عمران]

فأخبر سبحانه أن كل الأشياء ظاهرة لديه وجلية غير خافية عليه، وأنه لايوجد أي قوة في هذا الكون تستطيع أن تخفي عليه شيء من بين سائر الأشياء؛ فهو الخالق وكيف يخفى على الخالق خلقه؟ ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ

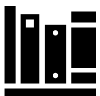
الْخَبِيرُ﴾ [الملك:١٤] فهو العالم بكل شـيء في العالم العلوي، وهو العالم بكل شـيء في العالم السـفلي فكلاهما من مخلوقاته وفي ملوكته ولايكون في ملكه إلا ما أراد ولايكون في ملكه شيء إلا وهو عالم به وبكل دقائقه وتفاصيله.

ثم ضـرب المثال بالشـيء الصـغير في الحجم والمغلف في المكان، وهو أنت عندما كنت في رحم أمك، وكانت أمك لاتعلم شـيئًا عن هيئتك وصـورتك، بل كانت تنتظرك بكيفية تتمناها أو تخشـى أن تكون عليها، ومع ذلك فهو سـبحانه يعلم كيف كنت في بطنها وكيف كانت صورتك من ساسك إلى رأسك، لأنه هو من صورك بالصورة التي أرادها قبل أن يلتقي أبوك بأمك!!

فلم تخف عليه وأنت في الرحم فهل ستخفى عليه وأنت على وجه الأرض؟ ومثلك غيرك من كبير أو صـغير من حيوان أو جماد فهو عالم بكلهم من مبدئهم إلى منتهى أمرهم، وليس هذا وحسـب بل إن سـعة علمه العظيمة التي علمناها بالنص المنقول وتقبلتها الفطرة ضـمن المعقول رغم الاندهاش والذهول، بالنسـبة لخالق الخلق وصاحب التدبير كل ذلك كان عليه يسير.

قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ جَعَلَكُمْ أَزْوَاجًا وَمَا تَحْمِلُ مِنْ أُنْثَى وَلَا تَضَعُ إِلَّا بِعِلْمِهِ وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [فاطر: ١١]

وقال تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]



- **المرتبة الثانية: الكتابة:**

فنؤمن أن الله تعالى كتب كل شيء في اللَّوح المحفوظ قبل خلق السماوات والأرض بخمسين ألف سنة، لما رواه الإمام مسلم من حيث عبدالله بن عمرو أن النبي ﷺ قال: (كتب اللهُ مقاديرَ الخلائق قبل أن يخلقَ اللهُ السماوات والأرض بخمسين ألف سنة قال: وعرشُه على الماء).

ومن أدلة الكتابة في القرآن الكريم قوله تعالى: ﴿۞ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ﴾ إلى قوله تعالى: ﴿إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام: ٥٩]

وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّ ذَلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠]

قال العلامة الكبير ابن عثيمين كما في "الفتاوى" (١٠/٩٩١):

فالأوراق التي تتساقط ميتة أي ورقة كانت صغيرة أو كبيرة في بر أو بحر، فإن الله تعالى يعلمها، والورقة التي تخلق يعلمها من باب أولى.

ولاحظ سعة علم الله عز وجل وإحاطته، فلو فرض أنه في ليلة مظلمة ليس فيها قمر وفيها سحاب متراكم ممطر وحبة في قاع البحر المائج العميق، فهذه ظلمات متعددة: ظلمة الطبقة الأرضية، وظلمة البحر، وظلمة السحاب، وظلمة المطر، وظلمة الأمواج، وظلمة الليل، فكل هذا داخل في قوله تعالى: ﴿وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ﴾، ثم جاء العموم المطلق: ﴿وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾، ولا كتابة إلا بعد علم اهـ.

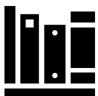
واعلم أن الكتابة أربعة أنواع:

النوع الأول: الأزلية: وتسمى الكتابة العامة، وهي كتابة كل شيء من الأزل إلى الأبد في اللوح المحفوظ، كما قال تعالى: ﴿وَمَا مِنْ غَائِبَةٍ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [النمل:٧٥] وقال تعالى: ﴿۞ وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ﴾ [الأنعام:٥٩]

وروى أحمد أبو داود والترمذي عن عبادة بن الصامت أن النبي ﷺ قال: (إن أول ما خلق الله القلم فقال له اكتب. قال رب وماذا أكتب قال اكتب مقادير كل شيء حتى تقوم الساعة)

النوع الثاني: الكتابة العُمريّة: فقد جاء في الصحيحين هن عبد الله بن مسعود قال: حدثنا رسول الله ﷺ وهو الصادق المصدوق قال: (إن أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوما ثم يكون علقة مثل ذلك ثم يكون مضغة مثل ذلك ثم يبعث الله ملكا فيؤمر بأربع كلمات ويقال له اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أم سعيد ثم ينفخ فيه الروح فإن الرجل منكم ليعمل حتى ما يكون بينه وبين الجنة إلا ذراع فيسبق عليه كتابه فيعمل بعمل أهل النار. ويعمل حتى ما يكون بينه وبين النار إلا ذراع فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل الجنة)

النوع الثالث: الكتابة الحولية: والحول هو العام، وهي التي تكون ليلة القدر، كما قال الله عزّ وجل: ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ [الدخان:٤]



قال بعض السلف: يقدر الله تعالى في ليلة القدر أمر السنة كلها في بلاده وعباده إلى السنة القابلة.

وقال عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما: يكتب من أمّ الكتاب في ليلة القدر ما يكون في السنة من موت وحياة ورزق ومطر حتى الحجّاج، يقال: يحج فلان ويحج فلان.

النوع الرابع: الكتابة اليومية: ﴿يَسْأَلُهُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن:٢٩]. جاء في تفسيرها: من شأنه أن يغفر ذنبًا ويفرج كربًا ويرفع قومًا ويضع آخرين، ومن شأنه أن يُعِزَّ ويُذِل، ويرفع ويخفض، ويُعطي ويمنع، ويُغني ويُفقر، ويُضحِكَ ويُبكي، ويُميت ويُحيي، إلى غير ذلك.

المرتبة الثالثة: المشيئةُ:

فنؤمن أن كلَّ ما كان في السابق وكل ماهو كائنٌ في الحاضر وكل ما سيكون في اللاحق إنَّما كان بمشيئة الله تعالى، وأنه لا يمكن بحال من الأحوال أن يقع في ملك الله تعالى إلاَّ ما أراده الله سبحانه، وذلك أنه ما شاء الله كان وما لَم يشأ لم يكن.

قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس:٨٢]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ﴾ [الأنعام:١١٢]

وقال تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير:٢٩].

واعلم رعاك الله برحمته أن مشيئة الخالق سبحانه وتعالى راجعة للحكمة فهو جل وعلا لا يشاء شيئًا إلا والحكمة تقتضيه، كما قال سبحانه: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ

﴿إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [الإنسان: ٣٠]، فدل أن الخالق سبحانه لا يشاء شيئًا إلا كان عن علم وله حكمة، وليس لمجرد المشيئة.

واعلم أن الجهمية وغيرهم زعموا أن خالقهم يفعل الأشـياء لمجرد المشـيئة، وأنه لاحكمة لمشـيئته!! فأسـاؤا الأدب مع ربهم وخالقهم وكفروا بذلك، واحذر طريقهم واستعذ بالله العظيم من شرهم.

المرتبة الرابعة: الخلق:

والخلق هو إيجاد المخلوقات، كما قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦]، ويدخل في ذلك كل عامل وما عمل؛ لقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦]

أقسام الناس في القضاء والقدر

اختلف الناس في القدر إلى ثلاث فرق:

الأولى: القدرية:

وهم الذين ينفون القدر ويغلون في إثبات الإرادة للمخلوق، ويقولون: إنَّ العبادَ يَخلقون أفعالَهم بأنفسهم، أي: أنَّ اللهَ تعالى لم يُقدِّرها عليهم ولم يردها، أي أن المخلوق مخير لا مسير، وهذا يعني أربعة لوازم:

١- أنه تم إيجاد خلق في كون الله تعالى لم يخلقه سبحانه وتعالى ولم يقدر على منع خلقه.

٢- أنَّ الله سبحانه وتعالى ليس خالقًا لكلِّ شيء، لأن العباد يخلقون أفعالَهم.

٣- أن الله تعالى يتفاجأ بما يحدثه العباد في أفعالهم؛ لأنه لم يكن يعلم بما سيفعلونه.

٤- أن أفعال الخلق خارجة عن إرادته سبحانه، وأنها جرت بغير مشيئته.

وهذا كله من أبطل الباطل؛ فإنَّ اللهَ سبحانه وتعالَى هو خالق العباد وخالق أفعالهم، فهو خالق الجوهر (الذات) والعرض (الصفات)، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وقال تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد:١٦]

الثانية: الجبرية:

وهم الذين غلوا في إثبات القدر وغلوا في نفي الاختيار عن العبد، فلَم يجعلوا له مشيئةً ولا إرادة، وزعموا أن المخلوق كالريشة في مهب الريح، وهذا يقتضي التسوية بين الحركات الاختيارية والحركات الإجبارية، فجعلوا حركةَ الآكلِ والشارب والمصلِّي والصائم كحركة الريشة في الرياح، ليس للريشة فيها كسبٌ ولا إرادة، أي أنه مسير لا مخير.

وهؤلاء يلزم من قولهم اتهام الله تعالى بالظلم؛ لأنهم يرون أن الله تعالى هو من كتب لفلان أن يشرك ولفلان أن يزني ولفلان أن يعق والديه ثم يعذبهم بالنار وأنهم لا اختيار لهم في تلك المعاصي بل هم مجبورون عليها بالقدر الذي قدره الله تعالى عليهم. فجعلوا تلك المعاصي بمنزلة الطاعة القدرية الكونية. فكيف يعذب من كتب له وقدر عليه موجبات العذاب؟

الثالثة: السلفية:

وهم أهل السُّنَّة والجماعة الأمة الوسطية بين تطرف الجبرية الغلاة في الإثبات، وتطرف القدرية الغلاة في النفي؛ فأثبتوا التخيير والتسيير أي أن للعبد مشيئةً لكنها تابعة لمشيئة الله تعالى، كما قال الله سبحانه: ﴿لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [التكوير: ٢٨-٢٩] وقرروا

بعلم وبصيرة أن القدر هو أن الله تعالى قد قدر كل شيء يكون إلى مالانهاية له وأنه جل وعلا قدر ذلك بعلم وحكمة فهو عالم بأفعاله وأفعال خلقه:

عالم بأفعاله: من نزول المطر ونبات الشجر وتحرك السحاب وهبوب الرياح ووقوع الزلازل وتساقط الأوراق والإحياء والإماتة وإمراض البعض وشفاء البعض والليل والنهار والكسوف والخسوف والبراكين وتقسيم الأرزاق وغير ذلك.

وأفعال خلقه: من ذهاب وإياب ومن أكل وشرب وقيام ونوم ومن وحركة وسكون ومن طاعة ومعصية ومن سر ونجوى ومن قول وفعل وغير ذلك من سائر أفعال العباد.

وهنا نجد أن أفعال العباد تكون بإرادتهم واختيارهم؛ لأنها ناتجة عن إرادة للفعل وقدرة على الفعل، ولكونه قد لايفعل ما يريد فعله وقد لايقدر على ما يقدر على فعله فهذا دليل أن مشيئته تخضع لمشيئة خالقه.

وقسمهم العلامة ابن عثيمين بتوضيح مختلف فقال كما في "مجموع الفتاوى والرسائل" (٤/٢١٥):

فاعلم أن الناس انقسموا في ذلك إلى قسمين:

القسم الأول: أهل الهدى والفلاح الذين آمنوا بقضاء الله وقدره على ما سبق بيانه من المراتب الأربع، وآمنوا أيضا بشرعه فقاموا بأمره ونهيه وآمنوا بما ترتب على ذلك من جزاء، ولم يحتجوا بقدره على شرعه، أو بشرعه على قدره، ولم يجعلوا ذلك تناقضًا من الخالق، وهؤلاء هم أهل الحق الذين حققوا مقام ﴿إِيَّاكَ

﴿نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ المؤمنون بمقتضى قوله تعالى: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف:٥٤]

القسم الثاني: أهل الضلال والهلاك المخالفون للجماعة وهم ثلاث فرق: مجوسية، ومشركية، وإبليسية.

فالمجوسية: هم: القدرية الذين آمنوا بشرع الله، وكذبوا بقدره:

- فغلاتهم أنكروا عموم علم الله تعالى وقالوا: إن الله تعالى لم يقدر أعمال العباد ولا علم له بها قبل وقوعها.
- ومقتصدوهم آمنوا بعلم الله بها قبل وقوعها وأنكروا أن تكون واقعة بقدر الله تعالى وأن تكون مخلوقة له.

وهؤلاء هم المعتزلة ومن وافقهم. ومذهبهم باطل بما سبق في أدلة مراتب القدر.

والمشركية: هم: الذين أقروا بقدر الله واحتجوا به على شرعه كما قال الله تعالى عنهم: ﴿سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِنْ شَيْءٍ كَذَلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ حَتَّى ذَاقُوا بَأْسَنَا﴾ [الأنعام: ١٤٨].

والإبليسية: هم: الذين أقروا بالأمرين بالقدر، وبالشرع لكن جعلوا ذلك تناقضًا من الله عز وجل، وطعنوا في حكمته تعالى، وقالوا: كيف يأمر العباد وينهاهم، وقد قدر عليهم ما قدر مما قد يكون مخالفًا لما أمرهم به ونهاهم عنه، فهل هذا إلا التناقض المحض والتصرف المنافي للحكمة؟.

وهؤلاء أتباع إبليس فقد احتج على الله عز وجل حين أمره أن يسجد لآدم فقال إبليس: ﴿قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِنْهُ خَلَقْتَنِي مِنْ نَارٍ وَخَلَقْتَهُ مِنْ طِينٍ﴾ [الأعراف: ١٢].

والرد على هاتين الفرقتين معلوم من الرد على المحتجين بالقدر على معصية الله تعالى اهـ.

فصل في فهم سر من أهم أسرار القدر

وأهل الســـنة هم الذين أثبتوا مراتب القدر الأربعة بأدلتها من الكتاب والسنة، وعلاقتها بأفعال العباد الاختيارية والاجبارية فقالوا:

١- العلـم:

عَلم الله تعالى قبل أن يخلق الخلق ماذا ســيفعلون عندما يخلقهم وأنهم ســيفعلون تلك الأفعال بإرادتهم واختيارهم. فلا عذر لهم بالقدر؛ لأن علم بالله تعالى بأفعالهم لايعني أنه أجبرهم عليها

٢- الكتابة:

وبعد أن علم الله تعالى بأفعال عباده قبل أن يخلقهم كتب في الكتاب كل ماهم فاعلوه من الخير والشـر. فصـارت أفعالهم: "مكتوبة عليهم" والكتابة هنا ليســت بمعنى الإجبار بل هي بمعنى الواقع الذي ســيكون، فلايجوز الاحتجاج بالمكتوب وأنه شيء لا مفر منه إلا بعد وقوعه، وأما قبل وقوعه فنحن لانعلم ماذا سيقع في الحقيقة.

٣- المشيئة:

وعندما خلق الله العباد وقبل أن تصـدر منهم تلك الأعمال التي قد علمها وكتبها من الخير أو الشـر، وحان وقوعها، فهل ستقع بمشـيئة الله تعالى أم

بغير مشيئته؟ فأهل السنة يقولون: إنها تقع بمشيئته لأنه لا يمكن أن يقع أي شيء بغير مشيئته، فالعبد شاءها وفعلها باختياره إلا أن مشيئة المخلوق تحت مشيئة الخالق، فإن كانت من الخير فقد أرادها الخالق شرعًا وقدرًا وإن كانت من الشر فقد أرادها قدرًا ولم يردها شرعًا.

ومن ذلك قوله تعالى عن السحر وأعمال السحرة: ﴿وَمَا هُمْ بِضَارِّينَ بِهِ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ [البقرة:١٠٢] فالسحرة عملوا بأسباب جالبة للضرر إلا أن هذا الضرر لا يمكن أن يقع إلا بإذن الله تعالى؛ فهو مقدر الأسباب بقدرته وهو من أذن في نفوذها

٤- الخلق:

وعندما خلقهم قاموا بتلك الأعمال والأفعال التي قد علمها في سابق علمه الأزلي وكتبها في الكتاب، فوقعت بإرادته، فهو من خلق العامل وأوجد فيه الإرادة والقدرة على ذلك العمل، فهو من خلقهم وخلق أعمالهم، فتبين أن خلق الله للمعاصي أي هو من خلق العاصي وخلق أعمالهم، فكان خلقه لها ليس من باب الإجبار لهم عليها ولكن لأنهم فعلوها بجوارحهم التي هو من خلقها وخلق حركاتها وسكناتها.

وقد جمع هذه المراتب بعضهم بقوله:

علمٌ كتابة مولانا مشيئته ... وخلقه وهو إيجادٌ وتكوين

وذكر الإمام البيهقي في "الأسماء والصفات" (١/٤٥٠) أن الإمام الشافعي رحمه الله تعالى سئل عن القدر فقال:

مَا شِـــئْتَ كَانَ وَإِنْ لَمْ أشـــأْ ... وَمَا شِـئْتُ إِنْ لَمْ تَشَـأْ لَمْ يَكُنْ
خَلَقْتَ الْعِبَادَ عَلَى مَا عَلِمْتَ ... فَفِي الْعِلْمِ يَجْرِي الْفَتَى وَالْمُسِنْ
عَلَى ذَا مَنَنْتَ وَهَذَا خَذَلْتَ ... وَهَـذَا أَعَـنْـتَ وَذَا لَمْ تُـعِـنْ
فَمِنْهُمْ شَــقِيٌّ وَمِنْهُمْ سَــعِيدٌ ... وَمِنْهُمْ قَبِيحٌ وَمِنْهُمْ حَسَـــنْ

فصل في الفرق بين الإرادة والمشيئة

قال العلامة ابن عثيمين كما في "مجموع الفتاوى والرسائل" (٣/١٩٨):

عندنا ثلاثة أشياء: المشيئة، والمحبة، والإرادة، وهذه الثلاثة ليست بمعنى واحد، بل تختلف.

المشيئة: تتعلق بالأمور الكونية سواء كانت محبوبة لله أو مكروهة له، أي إن الله تعالى قد يشاء الشيء وهو لا يحبه، وقد يشاء الشيء وهو يحبه. فالمعاصي كائنة بمشيئة الله، وهو لا يحبها، والفساد في الأرض كائن بمشيئة الله، والله لا يحب الفساد، والكفر كائن بمشيئة الله، والله لا يحب الكفر. فالمشيئة إذا تتعلق بالأمور الكونية فيشاء الله كونا ما لا يحبه وما يحبه.

المحبة: تتعلق بالأمور الشرعية، فلا تكون إلا فيما يبيحه الله، فالمعاصي غير محبوبة لله، وأما الطاعات فهي محبوبة له سبحانه، سواءً حصلت أم لم تحصل.

الإرادة: ولها جانبان: جانب تكون فيه بمعنى المشيئة، وجانب تكون فيه بمعنى المحبة، فإذا كانت بمعنى المحبة فهي الإرادة الشرعية، وإذا كانت بمعنى المشيئة فهي الإرادة الكونية اهـ.

فصل في حقيقة الإيمان بالقدر

قال أبو العباس:

والإيمان بالقدر يكون بواقعه المتكامل دون انتقاء، فيكون كما ثبت في الحديث (بخيره وشره) فدل أن القدر على قسمين:

الأول: الخير: وهو القدر الملائم: ومنه الصحة والرزق والذرية والوجاهة وكل ما هو مفرح وملائم له في نفسه أو في غيره.

الثاني: الشر: وهو القدر المؤلم: ومنه المرض والفقر والعقم والضعف وكل ما هو محزن وغير ملائم له في نفسه أو في غيره.

ومن الأدلة على هذين القسمين قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ ۝١ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ ۝٢﴾ [الفلق: ١-٢] وقال تعالى: ﴿وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾ [الأنبياء:٣٥] وقال تعالى: ﴿وَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ وَعَسَى أَنْ تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ [البقرة: ٢١٦]

فصل في بيان أن الدعاء يرد القدر

وهنا مسألة متعلقة بالكتابة وهي هل تتغير أو لاتتغير؟

والجواب: أن المكتوب على نوعين: نوع يتغير ونوع لايتغير؛ وقد على النوعين قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ [الرعد:٣٩] فجعل المكتوب على نوعين:

الأول: يمحى وهو المكتوب في الصحف التي في يد الملائكة، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ فهذا النوع منه ما يمحى ومنه ما يثبت ولا يمحى.

ولهذا جاء عن بعض الصحابة أنه كان يقول: (اللهم إن كنت كتبتني شقيًا فامحني واكتبني سعيدًا).

ومن أدلة ذلك قول النبي ﷺ: (لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر) رواه الترمذي وحسنه عن سلمان الفارسي رضي الله تعالى عنه، ورواه أحمد والحاكم وصححه والطبراني والبيهقي وابن ماجه وابن أبي شيبة عن ثوبان رضي الله تعالى عنه.

وجاء بلفظ: (لا يرد القضاء إلا الدعاء ولا يزيد العمر إلا البر) رواه الترمذي والطبراني والبزار عن سلمان رضي الله تعالى عنه.

الثاني: لايمحى وهو الذي في اللوح المحفوظ، فهو كائن لاتغيير فيه، وهو المراد بقوله تعالى: ﴿وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ وهو المراد بقوله تعالى: ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾ [ق:٢٩]

وهنا مسألة مهمة متعلقة بالعمل:

رأيت أن القدر ممكن التغيير وغير ممكن التغيير، أما الممكن فقد علمت أنه يتغير بالدعاء، وأما غير الممكن فنحن لانعلم ماهو من الأساس، فالواجب علينا أن نتعامل مع المعلوم ونفوض المجهول لله تعالى.

فنحن نعلم أن المرض قدر ولكن لانقول: بترك التداوي بحجة أن الأمر قد قدر!! بل نتداوى لأن العمل بالأسباب من القدر أيضًا.

ومن أدلة ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ [هود:١١٤].

فالسيئات قدر وهن موجبات للنار ولايمكن لعاقل أن يتغافل عن سيئاته ويرمي نفسه للنار وهو يعلم أن السيئات التي كتبت تمحى بالتوبة أو بالكفارة.

وقال تعالى عن نبيه يونس عليه السلام: ﴿فَالْتَقَمَهُ الْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَا أَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِي بَطْنِهِ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ ✱ فَنَبَذْنَاهُ بِالْعَرَاءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِنْ يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾﴾ [الصافات] فدلت الآية على قدرين:

الأول: أن اللبث في بطن الحوت إلى يوم القيامة كان من القدر الذي نجا منه، فقوله: (للبث) دليل على مصير محسوم بالفعل الذي بسببه كان قد لبث في

بطن الحوت حقيقة، وهذا من القدر الذي وقع، وإنما المعنى لزاد في لبثه واستمر في مكثه في بطن الحوت إلى يوم القيامة، وهذا قدر لم يقع.

الثاني: أن نجاته من بطن الحوت برميه بالعراء وتغطيته بشجرة الدباء وتماثله بعد ذلك للصحة والشفاء كان من القدر الذي قدر له. وهو قدر النجاة من قدر الهلاك.

فدل أن ما يقع وما يرفع كله قدر، فإذا وقع بسبب قد يرفع بغيره، فعلى الإنسان أن يتعامل مع الأسباب بالأسباب، كما قال فاروق هذه الأمة عندما قرر العودة من أرض الطاعون فقيل له: أتفر من قدر الله؟ فقال: "نفر من قدر الله إلى قدر الله". وهذا هو العلم والفقه والفهم، فإن الله تعالى بمنه وكرمه كما قدر للشيء الأسباب قدر لضده الأسباب. وأعني بذلك القابل للضد كالمرض والجوع والفقر وهكذا الذنوب والمعاصي.

وقد جاء في الصحيحين عن علي بن أبي طالب رضي الله تعالى عنه وأرضاه، قال: كان رسول الله ﷺ ذات يوم جالسًا وفي يده عود ينكت به فرفع رأسه فقال: (ما منكم من نفس إلا وقد علم منزلها من الجنة والنار). قالوا: يا رسول الله فلم نعمل أفلا نتكل؟ قال: (لا، اعملوا فكل ميسر لما خلق له).

ثم قرأ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى ۝٥ وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى ۝٦ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى ۝٧ وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى ۝٨ وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى ۝٩ فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى ۝١٠﴾ [الليل]

وذلك أن الله سبحانه تعالى صاحب العلم الواسع هو من علم مصير كل شيء، فقد ﴿وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه:٩٨] و ﴿قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [الطلاق:١٢] ومع علمه بمصيرك أمرك بحسن العمل ووعدك بالنجاة، وأخبرك أن من زعم وعزم ترك العمل فهو متوعد بالهلاك.

فإن كنت لاتعلم مقعدك من الجنة أو من النار فإنك تعلم وعد ربك بالجنة ووعيده بالنار، وأنه من أحسن يسره لليسرى، ومن أساء يسره للعسرى. وكل ميسر لما خلق له فاعمل بما علمته من الوعد والوعيد واترك ما جهلته من احدى المصيرين!!

وقد قال أحد العلماء لرجل: أرأيت لو قيل لك: إن هذا الطريق آمن منجي لخلوه من الوحوش والسباع والخطر، وهذا الطريق مهلك لامتلائه بالهوام والوحوش والغول، وها أنت قد علمت بمصير الطريقين فأيهما تختار لنفسك إن كنت عاقلًا؟ فقال: أختار الطريق الآمن.

وهكذا أنت قد أخبرك الله تعالى بالطريقين: الطريق الموصل إلى الجنة والطريق الموصل إلى النار، فقال تعالى: ﴿فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ ﴿١٥﴾ وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَئِكَ فِي الْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿١٦﴾﴾ [الروم:١٦]

وقال تعالى: ﴿فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ ﴿٨٨﴾ فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّتُ نَعِيمٍ ﴿٨٩﴾ وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩٠﴾ فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ ﴿٩١﴾ وَأَمَّا إِنْ

كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ ﴿٩٢﴾ فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ ﴿٩٣﴾ وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ ﴿٩٤﴾ إِنَّ هَذَا لَهُوَ حَقُّ الْيَقِينِ ﴿٩٥﴾﴾ [الواقعة] وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَنْ كَانَ تَقِيًّا﴾ [مريم: ٦٣] وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [البقرة: ٣٩]

والأدلة في هذا الباب كثيرة، ومنها قوله تعالى: ﴿وَهَدَيْنَاهُ النَّجْدَيْنِ﴾ [البلد:١٠] أي نجد الخير ونجد الشر. فالنجد هو الطريق، والله تعالى هدى العباد هداية دلالة وارشاد فبين لهم الهدى من الضلال، والرشد من الغي، ولم يترك أمة من الأمم في هذا العالم من بدايته إلى نهايته حتى أمة يأجوج ومأجوج إلا وأنزل فيهم الكتب وأرسل فيهم الرسل لهدايتهم لهذين النجدين.

وقال تعالى عن ذلك: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥] فلو كان للناس حجة بين يدي الله تعالى يوم القيامة لكانت في عدم بعث الرسل لا في القدر وقد قطع الله تعالى عليهم هذه الحجة فلا حجة لهم أبدًا، بل الحجة في القدر عليهم لا لهم؛ فإن الله تعالى قدر الأسباب وأمر بالعمل، وأمر نبيه ﷺ أن يقول لقومه: ﴿قُلْ يَاقَوْمِ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنِّي عَامِلٌ﴾ [الزمر:٣٩] فدل أن العاقبة النهائية والمصيرية الأبدية متعلقة بالعمل في هذه الدنيا قبل الموت.

وقد قال النبي ﷺ: (**كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى**) قيل: ومن يأبى يا رسول الله؟ فقال: (**من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى**) فدل أن الحجة ليست للعباد بالقدر بل هي عليهم بترك العمل.

قال المؤلف:

المرتبة الثالثة: الإحسان:

أركانه: وله رُكْنٌ وَاحِدٌ. كما في الحديث: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِن لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يرَاكَ). وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَواْ وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ [النحل:١٢٨]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى الْعَزِيزِ الرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ الَّذِي يَرَاكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِي السَّاجِدِينَ ﴿٢١٩﴾ إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿٢٢٠﴾﴾ [الشعراء: ٢١٧-٢٢٠] وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِنْ قُرْآنٍ وَلَا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾ [يونس:٦١].

الشرح:

سبق عقد فصل عن مرتبة الإحسان وتعريفه والتعريف به في موضع سابق فليراجع هناك. وقد استدل المؤلف عليه بثلاث آيات أما الأولى فهي دليل على الإحسان وأما الثانية والثالثة فهي دليل على الشطر الثاني من ركن الإحسان وهو "فإنه يراك"

قال المؤلف:

وَالدَّلِيلُ مِنَ السُّنَّةِ: حَدِيثُ جِبْرِيلَ الْمَشْهُورُ: عَنْ عُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ قَالَ: بَيْنَمَا نَحْنُ جُلُوسٌ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ إِذْ طَلَعَ عَلَيْنَا رَجُلٌ، شَدِيدُ بَيَاضِ الثِّيَابِ، شَدِيدُ سَوَادِ الشَّعْرِ، لا يُرَى عَلَيْهِ أَثَرُ السَّفَرِ، وَلا يَعْرِفُهُ مِنَّا أَحَدٌ، فَجَلَسَ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَسْنَدَ رُكْبَتَيْهِ إِلَى رُكْبَتَيْهِ، وَوَضَعَ كَفَّيْهِ عَلَى فَخِذَيْهِ، وَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ أَخْبِرْنِي عَنِ الإِسْلامِ فَقَالَ: (أَنْ تَشْهَدَ أَنْ لا اله إلا اللهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللهِ، وَتُقِيمَ الصَّلاةَ، وَتُؤْتِيَ الزَّكَاةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ، وَتَحُجَّ الْبَيْتَ إِنْ اسْتَطَعْتَ إِلَيْهِ سَبِيلا). قَالَ: صَدَقْتَ. فَعَجِبْنَا لَهُ يَسْأَلُهُ وَيُصَدِّقُهُ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِيمَانِ. قَالَ:(أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ، وَمَلائِكَتِهِ، وَكُتُبِهِ، وَرُسُلِهِ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ، وَتُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ). قَالَ: صَدَقْتَ. قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ الإِحْسَانِ. قَالَ: (أَنْ تَعْبُدَ اللهَ كَأَنَّكَ تَرَاهُ، فَإِنْ لَمْ تَكُنْ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ). قَالَ: أَخْبِرْنِي عَنِ السَّاعَةِ. قَالَ: (مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ). قَالَ: فَأَخْبِرْنِي عَنْ أَمَارَاتِهَا. قَالَ: (أَنْ تَلِدَ الأَمَةُ رَبَّتَهَا، وَأَنْ تَرَى الْحُفَاةَ الْعُرَاةَ الْعَالَةَ رِعَاءَ الشَّاءِ يَتَطَاوَلُونَ فِي الْبُنْيَانِ). قَالَ: فَمَضَى، فَلَبِثْنَا مَلِيًّا، فَقَالَ: (يَا عُمَرُ أَتَدْرُونَ مَنِ السَّائِلِ؟). قُلْنَا: اللهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قَالَ: (هَذَا جِبْرِيلُ أَتَاكُمْ يُعَلِّمُكُمْ أَمْرَ دِينِكُم).

الشرح:

حديث جبريل رواه الإمام مسلم في صحيحة، وفيه الكثير من الفوائد، وقد اعتنى به الكثير من العلماء فأفردوه بالشـــرح، ومهم: شـــيخ الإســـلام ابن تيمية، والحافظ ابن رجب، والعلامة ابن عثيمين، والعلامة عبدالمحسن العباد، وكلها شروح تأخذ الناظر فيها لما فيها من غزارة العلم والفائدة.

وقد شرحه شيخنا العلامة الحجوري ارتجالًا ضمن شرحه للأربعين النووية، في دار الحديث بدماج وتم تفريغ الشـــرح في كتاب مطبوع، وهو من أمتع وأنفس الشـــروح، وبعد انتهائه من شـــرح هذا الحديث ذكر ســـبعين فائدة مســـتنبطة من الحديث.

وخلاصة الحديث في أربعة أجزاء:

الأول: المقدمة المتضمنة على وصف جبريل وجلوسه بجانب النبي ﷺ وأنه وضع كفيه على فخذيه: وهنا بعض الفوائد:

١- أن الملائكة لا تتعب.

٢- أن المســـافات الطويلة بالنســـبة للإنســـان ليســـت طويلة بالنســـبة للملائكة.

٣- أن الملائكة تنعت بالرجال وليس فيهم أناث بدلالة القرآن الكريم

٤- أن الملائكة تتشكل؛ بدلالة تشكل جبريل بهيئة رجل وقد علم أن له ستمئة جناح قد سد الأفق.

الثاني: بيان مراتب الدين وأن الإسلام والإيمان والإحسان ليست ألفاظ مترادفة، بل هي درجات ومراتب: إسلام، وإيمان، وإحسان. وفيها تداخل وارتباط:

وقد سبق شرح هذه المراتب بالتفصيل في هذا الكتاب فنكتفي بالشرح السابق عن التكرار هنا.

الثالث: السؤال عن الساعة وعدم علم جبريل بوقتها، والسؤال عن علاماتها ولم يذكر منها غير علامتين: "أن تلد الأمة ربتها" "وأن ترى الحفاة العراة العالة يتطاولون في البنيان"

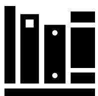
١- قوله: (**ما المسؤول عنها بأعلم من السائل**):

دليل أن جبريل ونبينا محمد عليهما الصلاة والسلام لا علم لهما متى تكون، فغيرهما من الخلق من باب أولى. وقد زعم بعضهم أنه أجرى دراسة تبين له من خلالها تحديد زمن نهاية العالم!! وهذه دراسة إما وهمية بقصد الشهرة، أو كيدية بقصد التشكيك بالغيب.

وأهل الإسلام يعتقدون أنها من الغيب الذي لايعلمه إلا الله تعالى كما قال في كتابه: ﴿يَسْأَلُكَ النَّاسُ عَنِ السَّاعَةِ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللَّهِ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ تَكُونُ قَرِيبًا﴾ [الأحزاب:٦٣] وقال تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ﴿٤٢﴾ فِيمَ أَنْتَ مِنْ ذِكْرَاهَا ﴿٤٣﴾ إِلَى رَبِّكَ مُنْتَهَاهَا ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا أَنْتَ مُنْذِرُ مَنْ يَخْشَاهَا ﴿٤٥﴾﴾ [النازعات: ٤٢-٤٥]

ومن زعم أنه يعلم متى تقوم الساعة فقد كفر.

٢- قوله: (**أن تلد الأمة ربتها**):



ربتها بمعنى سـيدتها، ومعناه أن السـراري والجواري تكثر في آخر الزمان، فيتزوج الرجل أمةً من السـراري أو الجواري وهو حر، فتلد له الأمةُ بنتًا فتكون البنت سيدة أمها.

٣- قوله: (وترى الحفاة العراة العالة رعاء الشـاة يتطاولون في البنيان).

وأبرز ما يؤخذ من هذه العبارات ما يلي:

- أن الكثير من فقراء العرب سـيغتنون في آخر الزمان، وهذا هو الواقع في زماننا، وهذا الغنى ليس عيبًا بل هو ابتلاء فهو في حق بعضهم نعمة لهم في دينهم ودنياهم وفي حق بعضهم نقمة في دينهم ودنياهم كل بحسب ما فعل واكتسب.

والتطاول في البنيان هو التنافس على التطاول في ذلك، وهذا معيب؛ فإن المال نعمة يستخدم في الحاجة لا في التنافس والتباهي.

- أن هؤلاء الأغنياء مهما تطورت حياتهم سيظل وصف رعاء الغنم يلاحقهم؛ لأنه وصـف موروث وهو وصـف لاعيب فيه فإنه ما من نبي إلا ورعى الغنم. والمراد بهذا اللفظ بيان انتقالهم من وضـع لآخر لا التعييب ولا التعيير.

الرابع: خاتمة الحديث وفيه أن الفاروق لبث مليًا ثم سـأله النبي ﷺ عن السـائل فاعتذر بعدم العلم والمعرفة به، فأجابه النبي ﷺ أنه جبريل جاء يعلمهم دينهم:

قيل: لبث مليًا أي ثلاثة أيام، وهذا مردود برواية البخاري: (ثم أدبر فقال: (ردوه) فلم يجدوه. وهو لفظ صـريح أن ذلك كان في نفس المجلس إلا أنه ليس في نفس الوقت. وقوله: (ردوه) يوهم أن النبي ﷺ لم يكن يعلم أنه جبريل إلا بعد ذهابه!! وهذا مردود بقوله: (ما المسـؤول عنها بأعلم من السـائل) ولعله قال: (ردوه) ليزداد الجميع يقينًا باختفائه أنه جبريل فيكون ذلك لهم بمنزلة ﴿بَلَى وَلَكِنْ لِيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾

قال شيخنا العلامة المجاهد يحيى الحجوري في "شرح الأربعين" (صـ/٤١):

جاء تفسيره بثلاثة أيام. وهو في "الصحيحين" من حديث أبي هريرة: "مليا" أنه زمنا قصـيرًا، قال: "ردوه" لما خرج، فلم يجدوه وهذا يدل أنه زمن قصـير وليس ثلاثة أيام كما في تلك الرواية المخالفة للحديث الصحيح والمعنى الصحيح اهـ.

وقوله: (إنه جبريل أتاكم يعلمكم دينكم):

١- فيه تعدد طرق نزول الوحي، وهذه الطريقة نادرة ووحيدة في نزوله

٢- وفيه فضـيلة تعليم الناس دين الله تعالى، وأن ذلك وظيفة الرسـل وهم رسـل السـماء ورسـل الأرض. وأن العلماء الذين يعلمون الناس الدين هم ورثة الأنبياء.

٣- المشـــهور في طلب العلم أن الطالب يأت العالم لأخذ العلم، وفي هذه الحادثة أن العالم قد يذهب إلى الناس ليعلمهم دين الله تعالى.

٤- وفيه فيما يظهر لي أن جبريل نزل حاســـر الرأس غير معمم، لأن الشعر إذا أطلق أريد به الرأس لا اللحية والله أعلم.

الأصل الثالث:

قال المؤلف:

الأصل الثالث: **معرفة نبيكم محمد ﷺ**:

وَهُوَ مُحَمَّـدُ بْنُ عَبْـدِ اللهِ بْنِ عَبْـدِ الْمُطَّلِـبِ بْنِ هَاشِـمٍ، وَهَاشِـمٌ مِنْ قُرَيْشٍ، وَقُرَيْشٌ مِنَ الْعَرَبِ، وَالْعَرَبُ مِنْ ذُرِّيَّةِ إِسْمَاعِيلَ بْنِ إِبْرَاهِيمَ الْخَلِيلِ عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَــلُ الصَّــلاةِ وَالسَّــلامِ، وَلَهُ مِنَ الْعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِـــتُّونَ سَـــنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ فِي النبوة. نُبِّئَ بِـ(اقْرَأ)، وَأُرْسِلَ بِـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ.

الشرح:

ذكر المؤلف رحمه الله تعالى في هذه الفقرة أربعة أمور:

الأمر الأول: النسـب الشـريف لسـيدنا وحبيبنا ونبينا وقدوتنا وشـفيعنا بين يدي ربنا وخالقنا في ذلك اليوم العظيم والعصيب.

ولا شـــك أن نبينا محمد ﷺ هو من ولد إسماعيل ﷺ ابن الخليل إبراهيم ﷺ. والنســـب الذي اكتفى المؤلف بالنســـبة إليه ولم يزد عليه وهو التوقف عند

هاشـــم هو مما اتفق عليه أهل العلم، ولهذا ينعت نبينا ﷺ أنه النبي الهاشمي، وبنو هاشم من أشرف العرب نسبًا.

وقد روى مسلم في صحيحه عن واثلة بن الأسقع قال: قال رسول الله ﷺ: (إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشًا من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم). وهذا الاصطفاء بين العرب العدنانيين لا بين عموم العرب، لأنه جعل في ولد إسماعيل، دون غيرهم من العرب، وأما نبينا محمد ﷺ فهو خير البرية كلها.

قال العلامة المعلمي اليماني كما في "الآثار" (٦/٦٧٦):

فهذا يدل أن عمرو بن لُحَيّ اســـتغوى بعضَ بني إسماعيل، وثبت كنانة. ثم ســـرى التبديل إلى بعض ذرية كنانة، وثبت قريش، فانفرد بالاحتراز عن التبديل أو عن الإغراق فيه. ثم سـرى الفسـاد في ذرية قريش، وانفرد هاشـم بنحو ما انفرد به قريش، فكان بنو هاشـم أقرب الناس إلى الحق حتى اصـطفى الله تعالى رسـولَه ﷺ منهم اهـ.

الأمر الثاني: قال المؤلف رحمه الله تعالى: (وقريش من العرب) وهذا واضح؛ ومعناه أن قريش جزء من كل. ثم قال: (والعرب من ذرية إسماعيل ﷺ) وهذا مشكل؛ لأنه جعل العرب كل من جزء. ولكن المؤلف لم يقصد ذلك؛ لأن سابق كلامه الحديث عن قريش وأن قريشًا من العرب، ثم نسب العرب لإسماعيل فدل أنه يقصد بالعرب التي نسبها لإسماعيل هي العرب التي قريش منها.

وبالمناسبة فإن نسبة عموم العرب لإسماعيل عليه الصلاة والسلام من الأخطاء التاريخية المنتشرة والتي لم ينبه عليها الكثير، وقد بينت ذلك بتوسع في كتابي "اليمن أصل العرب وأهل البيوتات والحسب" ومن أبرز الأدلة على ذلك:

١- أن العرب موجودة قبل إسماعيل بزمن بعيد جدًا، فكيف تنسب العرب كلها له والعرب وجدت قبله؟

٢- أن قبيلة جرهم التي وفدت إليه وأمه في البيت الحرام كانت قبيلة عربية يمنية يرجع أصلها لقحطان بن هود عليه السلام، وقبيلة جرهم هي التي ربته وعلمته العربية ولما كبر تزوج منهم، فهم أجداد لأبنائه فكيف يكون هو أب لأجداد أبنائه؟

قال العلامة النجمي في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٤٣):

والعرب تنقسم إلى قسمين: عرب عاربة، وهي الأصل في العرب، وهم القحطانيون. وعرب مستعربة وهم العدنانيون الذين ينتهي نسبهم إلى إسماعيل بن إبراهيم الخليل عليهما الصلاة والسلام. والنبي ﷺ من العرب المستعربة الذين يعود نسبهم إلى إبراهيم الخليل صلوات الله وسلامه عليه اهـ.

وبهذا القول قال غيره من الشراح ومنهم الشيخ عبدالله الفوزان صاحب "حصول المأمول" (صـ/١٤٧) حيث قال:

المراد بالعرب هنا: العرب المستعربة. فإن العرب قسمان:

١-عرب عاربة: وهم أصل العرب الباقية جميعًا ويسمون (القحطانيين) وينتسبون إلى سبأ بن يشجب بن يعرف بن قحطان، وقد سكنوا اليمن ثم تفرقوا في بقية شبه الجزيرة.

٢-عرب مستعربة: ويسمون (العدنانيين)، وقد نشأوا في مكة ومنها تفرقوا في جهات كثيرة من الحجاز وتهامة، وينتهي نسبهم إلى إسماعيل عليه الصلاة والسلام كما تقدم؛ لأنه لما أصهر إلى قبيلة (جرهم) كان من نسله (عدنان) الذي تنتسب إليه العرب المستعربة اهـ

قلت: كذا في الكتاب (يعرف) والصواب: (يَعْرُب) وإليه تنتسب العرب في أحد الأقوال، وقد ذكرت الأقوال في اسم العرب وسبب تسميتهم بالعرب في الكتاب الذي أشرت إليه فلينظره من أحب ذلك.

وقال كبير العلماء العلامة ابن باز في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/٣٥):

وقريش من العرب المستعربة التي استعرب لسانها فصار لها لسان عربي واضح، فهي أكثر عروبة من قحطان. ولهذا يقال لهم: العرب العاربة، والعرب المستعربة. وهم من ذرية إسماعيل بن إبراهيم الخليل اهـ.

وقال العلامة صالح آل الشيخ في "شرح الأصول الثلاثة" (صـ/١٤٠):

العرب قسمان عند أهل النسب:

عرب عاربة: وهؤلاء انقرضوا إلا قحطان في اليمن. وعرب مستعربة: وهم الذين لم يكونوا أصلا من العرب، لكنهم دخلوا وصاروا عربا بانفتاق لسانهم عن العربية، وبتكلمهم بالعربية اهـ

وقال العلامة عبدالرحمن بن قاسم النجدي في "الحاشية" (صـ/١٢٧):

والعرب هنا المراد بهم: المستعربة، فإن العرب قسمان: عاربة، ومستعربة، والعاربة قحطان، والمستعربة عدنان هـ

الأمر الثالث: بين المؤلف رحمه الله تعالى أن النبي ﷺ لَهُ مِنَ الِعُمُرِ ثَلاثٌ وَسِتُّونَ سَنَةً، مِنْهَا أَرْبَعُونَ قَبْلَ النُّبُوَّةِ، وَثَلاثٌ وَعِشْرُونَ في النبوة.

وهذا يدلنا على بركة دعوته ﷺ فإن عمره في الدعوة هو (ثلاث وعشرون سنة) وفي المدة القليلة أخرج الناس من الظلمات إلى النور، ولاتزال بركة دعوته تطرق أبواب فارس والروم والهند والحبشة وغيرهم فلا نزال حتى اليوم نرى الناس يدخلون في دين الله أفواجًا.

وقد أنقسم عمره ﷺ في الدعوة إلى مرحلتين:

المرحلة الأولى: وهي المرحلة المكية، وتقدر بثلاثة عشرة سنة على الصحيح وكان فيها في بلاء عظيم من الأذية والحصار الذي فرضه الكفار على أهل الإيمان في مكة!! ومع ذلك لم تكن تلك الصعاب عقبة في طريق رجالٍ أمثالهم، فمن عرف حقيقة التوحيد وعظمة الخالق لن يهاب كل الخلائق، ولهذا كانت تلك المرحلة هي مرحلة الأساس؛ فهي مرحلة إعداد لرجال الإيمان الصادق ومعرفة توحيد الخالق.

قال تعالى: ﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ ۝٣﴾ [العنكبوت: ٢-٣]

لقد كانت تلك المرحلة مرحلة تعدين لقلوب الرجال، وقد أثبت المؤمنون فيها عظيم صدقهم من خلال القوة في الصبر والتحمل في سبيل الله تعالى، ومن خلال القوة في الثبات رغم المعاناة في عمومهم ورغم التعذيب في بعضهم، لقد كانت تلك المرحلة الصعبة بمثابة البذور التي ستثمر أعظم أشجار النخيل رسوخًا ونتاجًا في المرحلة القادمة. فمن ثبت حينها فهو في غيرها أشد ثباتًا.

ومما فتنهم الله تعالى به هو الأمر بالهجرة من مكة المكرمة إلى المدينة النبوية، فاستجابوا لربهم واختاروا رفقة نبيهم فثبت صدقهم وثبتت صداقتهم، وفيهم قال خالقهم: ﴿لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنْصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

المرحلة الثانية: وهي المرحلة المدنية وتقدر بعشر سنوات، فقد كان في الانتقال لدار الأنصار نقلة نوعية نحو العز والتمكين والفتح والنصر المبين، ففيها آخى النبي ﷺ بين المهاجرين والأنصار وحقق الله تعالى بتلك الوحدة الإسلامية للنبي ﷺ النصر والفتح في الكثير من الأمصار؛ فانتشرت دعوته وبلغت الآفاق وفيها أعز العزيز الجبار اهل الإسلام وأذل أهل الكفر والشقاق.

ولست أقارن كل اليمنين بالأنصار، ولا كل السعوديين بالمهاجرين إلا أن خبر الإخاء بين المهاجرين والأنصار وانتقال الإسلام من بعد توحدهم من العسر إلى اليسر ومن الضعف إلى القوة، يجعلني أتفاءل أن يعز الله تعالى الإسلام وأهله بتوحد البلدين قادة وشعبًا، فإن لم تكن وحدتهم إندماجية فلتكن جزئية، وإن لم تكن كذلك لظروف تاريخية أو سياسية فلتكن وحدة صادقة في جميع المجالات والقوى؛ ففي هذه الوحدة قوة عظيمة للدولتين، بل ينبغي لهذه الأمة كلها أن تتوحد وبالأخص بلاد الجزيرة العربية، فلتكن البداية بتوحد هاتين الدولتين. وأسأل الله العظيم أن يحقق لأمتنا وحدة الجزيرة العربية تحت راية واحدة واسمها: "المملكة المتحدة السعودية".

الأمر الرابع: في قول المؤلف: "نُبِّئَ بـ(اقْرَأ)، وَأُرْسِلَ بـ (الْمُدَّثِّرْ)، وَبَلَدُهُ مَكَّةُ".

ومن هنا فرق بعض العلماء بين النبي والرسول؛ فقوله: (نبئ باقرا) أي بقوله تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:١]، و(أرسل بالمدثر) أي بقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ [المدثر:١-٢] ففي الأولى نبئ أي صار نبيًا وليس فيها أنه أمر بالبلاغ، وفي الثانية أرسل أي صار رسولًا وفيها أنه أمر بالبلاغ، فقال بعض العلماء: إن الفرق بين النبي والرسول، أن النبي هو من أوحي إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه والرسول هو من أوحي إليه بوحي وأمر بتبليغه.

وهذا التفريق ليس صــحيحًا، فكيف يكون النبي هو من أوحي إليه بوحي ولم يؤمر بتبليغه مع أن الأمر بالبلاغ يشــمل غير الأنبياء؛ فكل من بلغه الوحي من أتباع الأنبياء وجب عليهم تبليغه وعدم كتمانه، ومن أدلة ذلك:

- أدلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- وأدلة الدين النصيحة.
- وأدلة الصدع بالحق.
- وأدلة منع كتمان العلم.
- وأدلة منع كتمان الشهادة.

فـإذا كـان هـذا في حق العلماء ومن دونهم من حملة علمهم فهو في حق الأنبياء عليهم السلام من باب أولى.

وللعلامة عبد المحسن العباد جواب جميل في هذه المسألة فقد قال في "شرح حديث جبريل" (صـ/٣٥):

وأمَّا الفرق بين النَّبِيّ والرسول فقد اشتهر أنَّ النَّبيَّ هو مَن أُوحي إليه بشرع ولم يُؤمَر بتبليغه، والرسـولَ هو مَن أُوحي إليه بشـرع وأُمر بتبليغه، لكن هذا التفريق قد جاء في بعض الأدلَّة ما يدلُّ على عدم صحَّته، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿وَكَمْ أَرْسَلْنَا مِنْ نَبِيٍّ فِي الأَوَّلِينَ﴾ وقال: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُـولٍ وَلا نَبِيٍّ إِلا إِذَا تَمَنَّى أَلْقَى الشَّـيْطَانُ فِي أُمْنِيَّتِهِ﴾ وذلك يدلُّ على أنَّ النَّبيَّ مرسَـلٌ مأمورٌ بالتبليغ، وقال: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَاةَ فِيهَا هُدىً وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْـلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا وَالرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ بِمَا اسْـتُحْفِظُوا مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَكَانُوا عَلَيْهِ شُـهَدَاءَ﴾ الآية، فهذه

الآيةُ تدلُّ على أنَّ أنبياءَ بني إسرائيل من بعد موسى يَحكمون بالتوراة ويدعون إليها، وعلى هذا فيُمكن أن يُقال في الفرق بين الرسول والنَّبيِّ: إنَّ الرَّسولَ مَن أُوحي إليه بشرعٍ وأُنزل عليه كتاب، والنَّبيَّ هو الذي أُوحي إليه بأن يُبلِّغ رسالةً سابقة، وهذا هو المتَّفق مع الأدلَّة، لكن يبقى عليه إشكال، وهو أنَّ من المرسَلين مَن وُصف بأنَّه نبيٌّ رسول، كما قال الله عزَّ وجلَّ في نبيِّنا محمد ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ﴾، وقال في موسى: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ مُوسَى إِنَّهُ كَانَ مُخْلَصاً وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾، وقال في إسماعيل: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَبِيّاً﴾، ونبيُّنا محمد ﷺ نَزَل عليه الوحيُ أوَّلاً ولم يُؤمَر بالتبليغ، ثم أُمر بعد ذلك بالتبليغ بقوله: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ﴾، ولهذا قال شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله في الأصول الثلاثة: "نُبِّئ بـ ﴿اقْرَأْ﴾، وأُرسل بـ ﴿الْمُدَّثِّرُ﴾". وعلى هذا فيُقال: النَّبيُّ مَن أُوحي إليه ولم يُؤمَر بالتبليغ في وقت ما، أو أُمر بأن يبلِّغ شريعة سابقة، أو يُقال: النَّبيُّ يُطلق عليه الرسول، والرسول يُطلق عليه النَّبي اهـ.

قال أبو العباس: وقد اختلف العلماء هل نبئ أم أرسل أولًا، ولاشك أن الرسالة تتضمن النبوة، فكل من أرسل فقد نبئ وليس العكس. فقال جابر بن عبدالله: إن أول ما نزل على النبي ﷺ ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢﴾ وقال الجمهور: أول ما نزل ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾

قال المؤلف:

بَعَثَهُ اللهُ بِالنِّذَارَةِ عَنِ الشِّرْكِ، وَبالدَّعْوة إِلَى التَّوْحِيدِ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ۝١ قُمْ فَأَنْذِرْ ۝٢ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ۝٣ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ۝٤ وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ ۝٥ وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ۝٦ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ۝٧﴾ [المدثر: ١-٧].

وَمَعْنَى: (قُمْ فَأَنذِرْ): يُنْذِرُ عَنِ الشِّرْكِ، وَيَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ. (وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ): أَيْ: عَظِّمْهُ بِالتَّوْحِيدِ. (وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ): أَيْ: طَهِّرْ أَعْمَالَكَ عَنِ الشِّرْكِ. (وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ): الرُّجْزَ: الأَصْنَامُ، وَهَجْرُهَا: تَرْكُهَا، وَالْبَرَاءَةُ مِنْهَا وَأَهْلُهَا.

الشرح:

والمعنى المراد بيانه أن أول وظيفة قام بها النبي ﷺ هي الدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، وهذا هو الطريق الذي بدأ به كل الأنبياء عليهم السلام، كما قال تعالى عن أنبيائه: نوح وهود وصالح وشعيب عليهم الصلاة والسلام، كلهم قالوا: ﴿يَاقَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ وعمم جميع الأنبياء فقال: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

ثم استدل المؤلف بأوائل آيات سورة المدثر.

❁ قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ﴾:

الدثار هو الغطاء والمدثر هو المتغطي بثيابه، وذلك أن النبي ﷺ عندما رأى جبريل في المرة الأولى رجع إلى بيته وهو يقول: (دثروني دثروني) أي غطوني. والمدثر والمزمل معناهما واحد. والحديث رواه أحمد والنسائي وابن حبان والطيالسي وابن أبي شيبة كلهم من حديث جابر وهو حديث حسن

وهو في الصحيحين من حديث جابر، عند البخاري بلفظ: (دثروني وصبوا عليَّ ماء باردا) وعند مسلم بلفظ: (دثروني. فدثروني فصبوا عليَّ ماء)

❁ قوله تعالى: ﴿قُمْ فَأَنْذِرْ﴾:

بهذه الآية صار رسولًا، وأمر بالبلاغ ولم يبين له ماهو الأمر الذي يقوم بتبليغه، فحملت على أمرين: قيل: ينذر الناس بتلك الآيات التي نزلت عليه وإخبارهم أنه صار نبيًا. وقيل: إنه أمر بالتهيؤ لهذه الوظيفة العظيمة. والآية تتضمن القولين فكليهما صواب.

وقد كان القيام بالإنذار على مرحلتين:

الأولى: الدعوة السرية:

فكان يخص البعض دون البعض حتى اجتمع حوله ثلة من أهل الإيمان والتوحيد، فكانت خديجة هي أول من آمن على الاطلاق، ثم الصديق وعلي بن أبي طالب وزيد بن حارثة وبلال وأسلم على يد أبي بكر جماعة ومنهم: عثمان بن

عفّان، وطلحة بن عبيد الله، والزبير بن العوّام، وسعد بن أبي وقاص، وعبد الرحمن بن عوف، وعثمان بن مظعون، وأبو سلمة بن عبد الأسد، وأبو عبيدة بن الجراح، والأرقم بن أبي الأرقم، وخبّاب بن الأرت، وعمار بن ياسر وأمّه، رضي الله عنهم أجمعين.

الثانية: الدعوة الجهرية:

روى الطبراني في تفسيره عن عبد الله بن مسعود رضي الله تعالى عنه أنه قال: ما زال النبي ﷺ مستخفيا، حتى نزلت: ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الحجر: ٩٤] فخرج هو وأصحابه.

ولك أن تجعل المراحل أربع: السرية وكانت ثلاث سنوات في مكة. والجهرية وكانت في عشرين سنة عشر في مكة بدون جهاد، وعشر في المدينة أولها مع جهاد الدفع فقط وكانت سنة واحدة، ثم مع جهاد الطلب حتى مات النبي ﷺ والأمر على ذلك.

❁ قوله تعالى: ﴿وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾:

ربك: أي: سيدك ومولاك ومالكك ومصلح شأنك وجميع أمورك. **فكبر**: أي: عظمه في نفسك وعند غيرك.

وقال بعضهم: أي: اهتف بقولك: (الله أكبر) تعظيمًا للوحي وما جاء به من الدعوة إلى التوحيد وهدم عروش الشرك والتنديد.

ويرى بعض العلماء أن هذا أمر له بالصـــلاة لأن إحرامها هو التكبير.

والقول الأول أقوى.

❁ قوله تعالى: ﴿وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾:

قال العلامة القرطبي: فيه ثمانية أقوال:

الأول: أن المراد بالثياب العمل.

الثاني: القلب.

الثالث: النفس.

الرابع: الجسم.

الخامس: الأهل.

السادس: الخُلُق.

السابع: الدين.

الثامن: الثياب أي الملبوسات على الظاهر.

❁ قوله تعالى: ﴿وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ﴾:

هي الأصـــنام والأوثان. وكل مانصـــب للعبادة من دون الله عز وجل فهو رجز، ويطلق الرجز على الذنب في الدنيا وعقوبته في الآخرة. والرجز والرجس بمعنى متقارب.

❁ قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ﴾:

- قد تأتي في لغة العرب "تمنن" بمعنى "تضعف" فيكون المعنى لا تضعف من أن تستكثر من الخير وبهذا قال مجاهد.
- وعن ابن عباس: لا تعط العطية تلتمس أكثر منها. واختاره: عكرمة، ومجاهد، وعطاء، وطاوس، وأبو الأحوص، وإبراهيم النخعي، والضحاك، وقتادة، والسدي، وغيرهم.
- وعن الحسن البصري: لا تمنن بعملك على ربك تستكثره. وقاله الربيع بن أنس، واختاره ابن جرير.
- وقال ابن زيد: لا تمنن بالنبوة على الناس، تستكثرهم بها، تأخذ عليه عوضًا من الدنيا.

ذكر هذه الأقوال الحافظ ابن كثير ورجح القول الأول.

❁ قوله تعالى: ﴿وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ﴾:

دليل أن طريق الدعوة إلى الله تعالى محفوف بالابتلاء والتعرض للأذية من المشركين، وقد علم النبي ﷺ بذلك من خلال أمره بالصبر فامتثل ﷺ لأمر ربه، وبادر إليه، فقام فأنذر، وربه فكبر، وبالتوحيد أخبر وأمر، ومن الشرك حذر وزجر، وأحق لهم الحقائق بالآيات البينات وأبطل فيهم البواطل بالبراهين الساطعات. ودعاهم إلى الألوهية بمعالم الربوبية، ولم يمت إلا والحق جاء أبلجا والباطل مضى لجلجا فجاءه النصر من ربه ودخل الناس في دين الله أفواجا.

قال المؤلف:

أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْـــرَ سِـــنِينَ يَدْعُو إِلَى التَّوْحِيدِ، وَبَعْدَ الْعَشْـرِ عُرِجَ بِهِ إِلَى السَّـمَاءِ، وَفُرِضَـتْ عَلَيْهِ الصَّـلَوَاتُ الْخَمْسُ، وَصَلَّى فِي مَكَّةَ ثَلاثَ سِنِينَ.

وَبَعْدَهَا أُمِرَ بِالْهِجْرَةِ إِلَى الْمَدِينَةِ، وَالْهِجْرَةُ الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّـرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْلامِ.

الشرح:

تنقسم دعوة النبي ﷺ إلى قسمين: مكية ومدنية:

الأولى المكية: وهي على قسمين:

- **الأول**: قبل المعراج ومدتها عشـــر ســـنين كانت كلها دعوة إلى التوحيد وتحذير من الشرك وليس فيها أحكام ولا فرائض.
- **الثاني**: بعد المعراج ومدتها ثلاث ســـنين. وقد فرض الله تعالى عليه في المعراج الصـلوات في خمسـين صـلاة ثم بفضـله ورحمته خفضـها إلى خمس صـلوات في اليوم والليلة. فلم يصـل النبي ﷺ في مكة غير تلك السـنوات الثلاث.

وفي مكة نزل عليه من القرآن:

الفاتحة، الأنعام، الأعراف، يونس، هود، يوسف، إبراهيم، الحجر، النحل، الإسراء، الكهف، مريم، طه، الأنبياء، المؤمنون، الفرقان، الشعراء، النمل، القصص العنكبوت، الروم، لقمان، السجدة، سبأ، فاطر، يس، الصافات، ص، الزمر، غافر، فصلت، الشورى، الزخرف، الدخان، الجاثية، الأحقاف، ق، الذاريات، الطور، النجم، القمر، الواقعة، الملك، القلم، الحاقة المعارج، نوح، الجن، المزمل، المدثر، القيامة، الانسان، المرسلات، النبأ، النازعات، عبس، التكوير، الانفطار، المطففين، الانشقاق، البروج، الطلاق، الأعلى، الغاشية، الفجر، البلد، الشمس، الليل، الضحى، الشرح، التين، العلق، القدر، العاديات، القارعة، التكاثر، العصر، الهمزة، الفيل، قريش، الماعون، الكوثر، الكافرون، المسد، الإخلاص، الفلق، الناس.

الثانية المدنية: وعندما هاجر النبي ﷺ من مكة إلى المدينة مكث فيها عشر سنوات، وفيها استمر بالدعوة إلى التوحيد والتحذير من الشرك، وفيها نزلت الشرائع والأحكام. وكانت على مرحلتين باعتبار الجهاد:

الأولى: لم يؤذن لهم فيها بالجهاد وكان ذلك في السنة الأولى من الهجرة إلى المدينة.

الثانية: نزول الأذن الرباني بالجهاد بقوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾ [الحج:٣٩] وكان ذلك في السنة الثانية من الهجرة.

وفي المدينة نزل عليه من السور:

البقرة، آل عمران، النساء، المائدة، الأنفال، التوبة، الرعد، الحج، النور، الأحزاب، محمد، الفتح، الحجرات، الرحمن، الحديد، المجادلة، الحشر، الممتحنة، الصف، الجمعة، المنافقون، التغابن، الطلاق، التحريم، الانسان، البينة، الزلزلة، والنصر.

قال المؤلف:

وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَـةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ مِنْ بَلَدِ الشِّـرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ، وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّـاعَةُ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

قَالَ الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ.

وَالدَّلِيلُ عَلَى الْهِجْرَةِ مِنَ السُّنَّةِ: قَوْلُهُ ﷺ: (لا تَنْقَطِعُ الْهِجْرَةُ حَتَّى تَنْقَطِعَ التَّوْبَةُ، وَلا تَنْقَطِعُ التَّوْبَةُ حَتَّى تَطْلُعَ الشَّمْسُ مِنْ مَغْرِبِهَ).

الشرح:

الهجرة لغة: البعد والترك.

وفي الشرع: لها تعريفان:

- **التعريف العام:** البعد والترك لكل ما لا يحبه الله تعالى من الشـــرك والكفر والفسوق والعصيان.
- **التعريف الخاص:** ترك بلاد الكفر والانتقال لبلاد الإسلام.

والهجرة عبادة عظيمة وهي على قسمين:

الأول: الهجرة الحسـية: وهي كما قال الشـيخ: الانْتِقَالُ مِنْ بَلَدِ الشِّـرْكِ إِلَى بَلَدِ الإِسْـــلامِ. لقوله تعالى: ﴿قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِـــعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَـاءَتْ مَصِـيرًا﴾ والشـاهد من الآية أن اقتران عدم الهجرة بالوعيد دليل على وجوبها

الثاني: الهجرة المعنوية: وهي هجر كل الذنوب والمعاصي طاعة لله تعالى وابتغاء مرضـاته؛ لما رواه البخاري ومسـلم من حديث عن عبد الله بن عمرو رضـي الله عنهما عن النبي ﷺ قال: (المسـلم من سـلم المسـلمون من لسـانه ويده والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه).

وقد بين الشيخ رحمه الله تعالى ثلاثة أمور متعلقة بالهجرة وهي:

& **الأمر الأول: حكمها:**

فقال: "وَالْهِجْرَةُ فَرِيضَـةٌ عَلَى هَذِهِ الأُمَّةِ" واسـتدل على ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِـهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْـتَضْـعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِـــعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَـاءَتْ مَصِـيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْـتَضْـعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَـاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْـتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا

﴿٩٩﴾ [النساء: ٩٧-٩٩]. وَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦].

وفي هاتين الآيتين دلالة ظاهرة على وجوب الهجرة في حق القادر دون العاجز، لقوله تعالى: ﴿إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً﴾ فهذا استثناء في الحكم لغير المستطيع أنه لا يجب عليه ما يجب على القادر؛ فالمتقرر في قواعد العلم أن الأمر والنهي منوطان بالقدرة فلا واجب مع عجز ولا حرام مع ضرورة؛ فإن الله سبحانه وتعالى لا يكلف نفسًا إلا ما تقدر عليه. كما قال: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة:٢٨٦] وقال: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ﴾ [التغابن:١٦] فما وجب مع القدرة سقط مع العجز، مع مراعاة درجات القدرة والعجز بين الكلي والجزئي.

ولهذا تضمنت الآية التي ذكرها الدلالة على أن الناس على فريقين:

الفريق الأول: الذين لم يهاجروا مع القدرة وأن الملائكة التي تتوفاهم توبخهم على عدم الهجرة في أرض الله الواسعة.

وقال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوْا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُمْ مِنْ وَلَايَتِهِمْ مِنْ شَيْءٍ حَتَّى يُهَاجِرُوا﴾ [الأنفال: ٧٢]

وهؤلاء لم يظهر أنهم في دار كفر ولهذا جاء في تفسيرها أنهم آمنوا وبقوا في بواديهم، ومن نظر في الآية وجدها جعلت أهل الإيمان ثلاثة أقسام:

- الأول: المهاجرون من مكة إلى المدينة.
- الثاني: الأنصار الذين وقفوا مع المهاجرين ونصروا الله تعالى ورسوله ﷺ.
- الثالث: المؤمنون الذين آمنوا ولكنهم لم يهاجروا ولم يناصروا.

فأمر الله تعالى بعقيدة الحب في الله والبغض في الله ولم يجعل لهؤلاء المؤمنين نصيبًا من المحبة والولاء في بعض معانيها لا في كل ذلك؛ بسبب عدم هجرتهم مع حاجة المؤمنين لهم في ديار الإسلام.

الفريق الثاني: الذين لم يهاجروا بسبب العجز من المستضعفين وأن الله تعالى قد عفا عنهم لعجزهم.

ثم ذكر الشيخ قول الإمام الْبُغَوِيُّ رَحِمَهُ اللهُ: "نزلت هَذِهِ الآيَةِ فِي الْمُسْلِمِينَ الَّذِينَ بِمَكَّةَ ولَمْ يُهَاجِرُوا، نَادَاهُمُ اللهُ بِاسْمِ الإِيمَانِ". ولم أقف على كلامه بهذا اللفظ ولم أدر أين هو.

قال أبو العباس:

وقد نظرت في أقوال العلماء فرأيتهم يقسمون حكم الهجرة إلى ثلاثة أقسام:

القسم الأول: **الواجبة**:

وهي في حق المتواجد في دار كفر لا يتمكن فيها من إقامة دينه. وأدخل بعض العلماء وجوب الخروج من البلدان التي يحكمها أهل البدع ويفرضون فيها مذاهبهم الهدامة ولكنهم لم يجعلوا ذلك في حكم الهجرة.

القسم الثاني: **المستحبة**:

وهي في حق المتواجد في دار كفر لا يمنعونه من إقامة دينه، ويدخل في ذلك البلدان التي انتشر فيها الإسلام وكثر فيها المسلمون.

ومع ذلك فإن تلك البلدان فيها من التبرج والسفور وتيسير أمور الزنا والخنا والخمور ما يجعل المؤمن في فتنة في دينة فالذي يظهر هو وجوب مغادرة تلك البلدان، ولكن لا أقول: وجوب الهجرة. بل المغادرة والفرار بالدين.

القسم الثالث: المكروهة:

كأن يُسلم الرجل في ديار كفر، ولم يجد في تلك الديار ضررًا على دينه بل وجد القدرة على هدايتهم وتعليمهم الإسلام، فإن عليه أن يبقى بينهم ويعلمهم دينهم؛ فإن هداية الناس لها أجر عظيم.

& الأمر الثاني: مكانها:

فقال: "مِنْ بَلَدِ الشِّرْكِ إِلَى بلد الإِسْلامِ". فدل أن الهجرة لا تكون من بلد الإسلام، وإن تعرض لأذية تضره في دينه فإنه يغادر ولكن ليس بنية الهجرة، لأن الهجرة تعنى منع العودة إلى تلك البلاد التي هاجر منها إلا إذا دخلها لأمر ثم يتركها ويخرج منها؛ فقد روى البخاري عن أبي سعيد رضي الله عنه قال: جاء أعرابي إلى النبي ﷺ فسأله عن الهجرة فقال: (**ويحك إن الهجرة شأنها شديد فهل من إبل**). قال: نعم. قال: (**فتعطي صدقتها**). قال: نعم. قال: (**فهل تمنح منها**). قال: نعم. قال: (**فتحلبها يوم ورودها**). قال: نعم. قال: (**فاعمل من وراء البحاء فإن الله لن يترك من عملك شيئا**).

وبعض البلدان الكافرة في أوروبا وأمريكا قد لاتمنعك عن دينك ولكنها بموجب دستورها وقانونها تجبرك على القسم وهو مشابه للبيعة، وفيه القسم على حب الوطن والحفاظ عليه وعلى دينه ومعتقداته ومقدساته. أخبرني بذلك أخ مسلم حصل على الجنسية الأمريكية بعد هذا القسم. وهذا القسم شره كبير وخطره مستطير.

& **الأمر الثالث: زمانها:**

فقال: "وَهِيَ بَاقِيَةٌ إِلَى أَنْ تَقُومَ السَّاعَةُ". والأمر كما قال، إلا أن الهجرة ترجع لضابطها وهو عدم القدرة على إقامة الدين؛ لأن الآية نصت أنهم ماتوا ظالمي أنفسهم واعتذروا أنهم كانوا مستضعفين في الأرض التي كانوا فيها، فوبختهم الملائكة بأن أرض الله واسعة. فمن لم يقدر على عبادة الله تعالى في مكان ما انتقل لمكان غيره.

قال تعالى: ﴿يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَاسِعَةٌ فَإِيَّايَ فَاعْبُدُونِ﴾ [العنكبوت:٥٦] والمعنى أن أرض الله تعالى واسعة فنعبده في المكان الذي يتيسر لنا فيه عبادته.

فصل في حكم الهجرة في الأزمنة المتأخرة

مسألة بقاء الهجرة إلى قرب الساعة قد يشكل على البعض بسبب ما جاء في انتهاء الهجرة بعد الفتح؛ فقد روى البخاري عن عطاء بن أبي رباح أنه قال: (زرت عائشة مع عبيد بن عمير الليثي فسألناها عن الهجرة فقالت: (لا هجرة بعد اليوم كان المؤمنون يفر أحدهم بدينه إلى الله تعالى وإلى رسوله ﷺ مخافة أن يفتن عليه فأما اليوم فقد أظهر الله الإسلام والمؤمن يعبد ربه حيث شاء ولكن جهاد ونية). وفي لفظ عنده فقالت لنا: (انقطعت الهجرة منذ فتح الله على نبيه ﷺ مكة).

وجاء في الصحيحين وهذا لفظ البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ:(**لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية وإذا استنفرتم فانفروا**).

وقد ظن البعض أن هذه النصوص دليل على سقوط الهجرة. وأن الهجرة إنما كانت قبل الفتح.

والجواب:

أن الهجرة باقية إلى قرب الساعة؛ لأن معنى قوله ﷺ: (**لا هجرة بعد الفتح**) إنما هو خاص بمن كان في مكة، أي لا هجرة لهم من مكة إلى المدينة بعد فتح مكة.

وقد ثبت استمرار الهجرة في السنة النبوية لما رواه أحمد وأبو داود والنسائي والطبراني والبيهقي والدارمي وأبو يعلى عن معاوية بن أبي سفيان قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: (لا تنقطع الهجرة حتى تنقطع التوبة ولا تنقطع التوبة حتى تطلع الشمس من مغربها) وصححه العلامة الالباني

وجاء عند أحمد وابن حبان عن عبد الله بن واقد السعدي قال رسول الله ﷺ: (قال لا تنقطع الهجرة ما دام العدو يقاتل) وصححه العلامة أحمد شاكر

قال العلامة ابن الأمير في "سبل السلام" (٤/٤٤):

دل الحديث على ثبوت حكم الهجرة وأنه باق إلى يوم القيامة فإن قتال العدو مستمر إلى يوم القيامة اهـ

وقال الحافظ في "الفتح" (٧/٢٢٩):

الجمع بين حديث ابن عباس (لا هجرة بعد الفتح) وحديث عبد الله بن السعدي (لا تنقطع الهجرة). وقال الخطابي كانت الهجرة أي إلى النبي ﷺ في أول الإسلام مطلوبة ثم افترضت لما هاجر إلى المدينة إلى حضرته للقتال معه وتعلم شرائع الدين وقد أكد الله ذلك في عدة آيات حتى قطع الموالاة بين من هاجر ومن لم يهاجر فقال تعالى والذين آمنوا ولم يهاجروا ما لكم من ولايتهم من شيء حتى يهاجروا فلما فتحت مكة ودخل الناس في الإسلام من جميع القبائل سقطت الهجرة الواجبة وبقي الاستحباب. وقال البغوي في شرح السنة يحتمل الجمع بينهما بطريق أخرى بقوله لا هجرة بعد الفتح أي من مكة إلى المدينة وقوله لا تنقطع أي من دار الكفر في حق من أسلم إلى دار الإسلام قال ويحتمل وجها آخر وهو أن

قوله لا هجرة أي إلى النبي ﷺ حيث كان بنية عدم الرجوع إلى الوطن المهاجر منه إلا بإذن وقوله لا تنقطع أي هجرة من هاجر على غير هذا الوصف من الأعراب ونحوهم.

قلت: الذي يظهر أن المراد بالشق الأول وهو المنفي ما ذكره في الاحتمال الأخير وبالشق الآخر المثبت ما ذكره في الاحتمال الذي قبله وقد أفصح بن عمر بالمراد فيما أخرجه الإسماعيلي بلفظ انقطعت الهجرة بعد الفتح إلى رسول الله ﷺ ولا تنقطع الهجرة ما قوتل الكفار أي ما دام في الدنيا دار كفر فالهجرة واجبة منها على من أسلم وخشي أن يفتن عن دينه ومفهومه أنه لو قدر أن يبقى في الدنيا دار كفر أن الهجرة تنقطع لانقطاع موجبها والله أعلم وأطلق بن التين أن الهجرة من مكة إلى المدينة كانت واجبة وأن من أقام بمكة بعد هجرة النبي ﷺ إلى المدينة بغير عذر كان كافرا وهو إطلاق مردود والله أعلم اهـ

وقد رأيت تفصيلًا جميلًا لشيخ الإسلام ابن تيمية في "مجموع الفتاوى" (٢٨٤/١٨) قال فيه:

فأحوال البلاد كأحوال العباد فيكون الرجل تارة مسلما وتارة كافرا وتارة مؤمنا؛ وتارة منافقا وتارة برا تقيا وتارة فاسقا وتارة فاجرا شقيا. وهكذا المساكن بحسب سكانها فهجرة الإنسان من مكان الكفر والمعاصي إلى مكان الإيمان والطاعة كتوبته وانتقاله من الكفر والمعصية إلى الإيمان والطاعة وهذا أمر باق إلى يوم القيامة والله تعالى قال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ فَأُولَئِكَ مِنْكُمْ﴾ [الأنفال:٧٥].

قالت طائفة من السـلف: هذا يدخل فيه من آمن وهاجر وجاهد إلى يوم القيامة وهكذا قوله تعالى ﴿لِلَّذِينَ هَاجَرُوا مِنْ بَعْدِ مَا فُتِنُوا ثُمَّ جَاهَدُوا وَصَـبَرُوا إِنَّ رَبَّكَ مِنْ بَعْدِهَا لَغَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ [النحل:١١٠] يدخل في معناها كل من فتنه الشـيطان عن دينه أو أوقعه في معصـية ثم هجر السـيئات وجاهد نفسـه وغيرها من العدو وجاهد المنافقين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وغير ذلك وصبر على ما أصابه من قول أو فعل. والله سبحانه وتعالى أعلم اهـ.

والخلاصة:

أن المؤلف رحمه الله تعالى تحدث في هذه الرسـالة عن الهجرة لعلاقتها بالتوحيد؛ وعلاقة الهجرة بالتوحيد تكون من أكثر من وجه:

الوجه الأول: أن البعد عن الشـرك يسـتلزم البعد عن أهله والبراءة منهم، وهذا يقتضي مغادرة بلداهم وأماكن سلطاهم.

الوجه الثاني: أن البقاء في بقاع سـلطاهم وسـلطتهم قد يجر المسـلم لمداهنتهم، والمداهنة وجه من أوجه النفاق.

الوجه الثالث: أن المجالسـة تورث المجانسـة، فالبقاء في بلاد الكفار يورث المسـلم التعايش والتأقلم مع ماهم عليه في بعض الأمور الصـغار ثم يتماشـى مع أحوالهم أكثر وأكثر حتى يقع على أم رأسه إلا من رحم الله وعصم.

قال المؤلف:

فَلَمَّا اسْتَقَرَّ فِي الْمَدِينَةِ أُمِرَ بِبَقِيَّةِ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، مِثلِ: الزَّكَاةِ، وَالصَّوْمِ، وَالْحَجِّ، وَالأَذَانِ، وَالْجِهَادِ، وَالأَمْرِ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ شَرَائِعِ الإِسْلامِ، أَخَذَ عَلَى هَذَا عَشْرَ سِنِينَ، وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ. وَدِينُهُ بَاقٍ.

الشرح:

هذه حقيقة تاريخية يتضح من خلالها أن الدعوة المكية كانت مقتصرة على التوحيد فقط، وفي السنوات الثلاثة الأخيرة صلى هو ومن معه الصلوات الخمس، وأما الكفار فلم يأمرهم النبي ﷺ ببقية شرائع الإسلام؛ لأنهم لمن يؤمنوا بأصل التوحيد. فلو أنه أمرهم ببقة الشرائع فاستجابوا لذلك وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وصاموا وحجوا وجاهدوا معه فإن الله تعالى لن يقبل منهم شيئًا من ذلك؛ ولذهب كل ذلك هباء منثورًا؛ لكونهم لم يؤمنوا بالأصل الأصيل والأساس المتين وهو توحيد الخالق وافراده بالعبودية.

وأما الدعوة المدنية فقد بدأت بعد مرور أكثر من نصـف عمر الدعوة إلا أنها كانت شاملة في التوحيد وفي كل شرائع الإسلام، وهذا التغير العظيم في مسار الدعوة يرجع بعد مشيئة الله تعالى وإرادته لسببين:

الأول: المهاجرون: فقد استجابوا رضي الله تعالى عنهم للهجرة التي أمرهم الله تعالى بها فكانت الهجرة ترسـم خطى حوافر أقدام الذهاب بالقرح والأتراح والعودة بالفتح والأفراح.

الثاني: الأنصار: فقد استجابوا رضي الله تعالى عنهم للإسلام مرة واحدة ودخلوا في السـلم كافة من أول وهلة، وآووا إخوانهم من المهاجرين فلم يبدأ النبي ﷺ معهم من حيث بدأ مع قريش، بل بدأ معهم من حيث انتهى مع المهاجرين، فعلمهم كلهم التوحيد وجميع شـرائع الإسـلام، وجاهدوا معه الكفار وفتحوا الأمصار، فكان المهاجرون والأنصار هم علامة اسلام المسلم من نفاقه؛ فمن أحبهم واتبعهم فهو راض عن الله تعالى والله تعالى راض عنهم، ومن لم يحبهم ولم يتبعهم فليس راض عن الله تعالى وليس الله تعالى راض عنه، كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ [التوبة: ١٠٠]

ثم نبه المؤلف على قضية مهمة جدًا فقال: "وَتُوُفِّيَ صَلواتُ اللهِ وَسَلامُهُ عَلَيْهِ. وَدِينُهُ بَاقٍ"

وفي هذه العبارة رد على ثلاث فرق:

الأولى: الصـــوفية التي تعتقد أن النبي ﷺ لم يمت، أو أن موته مختلف عن موت غيره، وأنه يحضـر مجالســهم واحتفالاتهم وموالدهم ورقصــاتهم البدعية، وهذا منهم إسـاءة عظيمة للنبي ﷺ فحاشـاه أن يحضـر مجالس الضـلال وهو حي فكيف يفترون عليه وهو ميت.

الثانية: المنافقون في زماننا الذين يدعون أن الأحاديث التي كان يرددها النبي ﷺ لأصــحابه خاصــة بزمنه؛ لأنهم سمعوها منه مباشــرة، وأما في زماننا فلم نســمعها منه ولهذا لانقدر التمييز بين صــحيحها وضــعيفها. وقد أبنت في رســالتي "الصواعق المحرقة على منكري السنة من المنافقين والمستشرقة" بطلان هذه الشبهة وأنها تشكيك في صحة القرآن الكريم.

الثالثة: المشــككون بكمال وتمام هذا الدين باتهام النبي ﷺ بالتقصــير في الأداء والبلاغ على النحو الصــحيح، وهذا المعنى قرأته قديمًا قبل عشــرين ســنة تقريبًا في كلام لأبي الحســـن المودودي، وتكررت في عامنا هذا للحســـن الدودو وســـوف تتكرر من أبناء هذا الطريق مجددًا؛ فالنفاق له أتباع ومجددون حريصـــون على تفشي الباطل كحرصنا على تفشي الحق.

قال المؤلف:

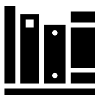
وَهَذَا دِينُهُ، لا خَيْرَ إِلا دَلَّ الأُمَّةَ عَلَيْهِ، وَلا شَرَّ إِلا حَذَّرَهَا مِنْهُ، وَالْخَيْرُ الَّذِي دَلَّهَا عَلَيْهِ التَّوْحِيدُ، وَجَمِيعُ مَا يُحِبُّهُ اللهُ وَيَرْضَاهُ، وَالشَّرُّ الَّذِي حَذَّرَهَا مِنْهُ الشِّرْكُ، وَجَمِيعُ مَا يَكْرَهُ اللهُ وَيَأْبَاهُ.

الشرح:

نشهد ونقر لنبينا ﷺ أنه أدى الأمانة وبلغ الرسالة وأنه ما من خير إلا دلنا عليه إما بنصه أو بقاعدة عامة تتضمنه، وما من شر إلا حذرنا منه إما بنصه أو بقاعدة عامة تتضمنه، وأن ذنوبنا ومعاصينا واختلافنا وتفرقنا ليس بسبب أمر ناقص أو نهي قاصر منه ﷺ، بل كل ذلك بما كسبت أيدينا وهو بريء يوم القيامة من كل أخطائنا وأفعالنا.

وأعظم خير دلنا عليه هو التوحيد ثم كل الطاعات تابعة له؛ لأنها لاتقبل بدونه، وأعظم شر حذرنا منه هو الشرك ثم كل المعاصي تابعة له؛ لأنها خطوات للوصول إليه.

فالتوحيد هو التقوى كما قال تعالى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح:٢٦] أي: كلمة التوحيد. ثم بين أن العمل الصالح من التقوى فقال تعالى:



﴿وَلِبَاسُ التَّقْوَى﴾ [الأعراف:٢٦] واللباس يكون في الظاهر، فأمرنا بالنطق بكلمة التوحيد ثم العمل بها وبكل الأعمال التابعة لها، وهذا هو الزاد الذي أمرنا بالتزود منه، وهو زاد التوحيد نطقًا باللسان واعتقاد بالجنان ثم إظهار ذلك كدليل وعلامة على صحته بالجوارح والأركان فقال تعالى: ﴿وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَى﴾ [البقرة:١٩٧]

قال العلامة محمد تقي الدين الهلالي في "سبيل الرشاد" (٢/٣٤٠):

التقوى امتثال ما أمر الله به، واجتناب ما نهى عنه؛ وأعظم ما أمر الله به توحيده؛ وأعظم ما نهى عنه الشرك به؛ فلو امتثل الإنسان جميع الأوامر إلا التوحيد واجتنب جميع النواهي إلا الشرك؛ لكان من الخاسرين اهـ

وقد ثبت في صحيح مسلم عن سلمان الفارسي أنه قيل له: قد علمكم نبيكم ﷺ كل شيء حتى الخراءة؟ فقال: (أجل لقد نهانا أن نستقبل القبلة لغائط أو بول أو أن نستنجي باليمين أو أن نستنجي بأقل من ثلاثة أحجار أو أن نستنجي برجيع أو بعظم).

فهل يعلمنا كيفية الجلوس للتغوط وكيفية إزالة النجس بعدها ويغفل عن ارشادنا لموجبات دخول الجنة وتحذيرنا من موجبات دخول النار؟

وروى الطبراني في الكبير عن أبي ذر: قال: تركنا رسول الله ﷺ وما طائر يقلب جناحيه في الهواء إلا وهو يذكرنا منه علمًا. قال فقال ﷺ: (**ما بقي شيء يقرب من الجنة ويباعد من النار إلا وقد بين لكم**) صححه العلامة الألباني وقال: وله شاهد من رواية عمرو عن المطلب مرفوعا بلفظ: (**ما تركت شيئا مما أمركم**

الله به إلا قد أمرتكم به وما تركت شـــيئا مما نهاكم عنه إلا قد نهيتكم عنه).

وإسناده مرسل حسن.

وقد وضح العلامة صالح بن عبدالعزيز آل الشيخ أن قول المؤلف: "وَهَذَا دِينُهُ الخ" أن المراد بذلك الأصــول الثلاثة التي ســبق وذكرها، فقال: (وهذا دينه) الضمير يرجع إلى أي شيء؟ إلى ما سبق إيضاحه في هذه الرسالة، هذا الذي وصف لك فيما قبل هو دينه؛ معرفة العبد ربه، ومعرفة دين الإسلام بالأدلة، ومعرفة العبد نبيه ﷺ اهـ

قال المؤلف:

بَعَثَهُ اللهُ إِلَى النَّاسِ كَافَّةً، وَافْتَرَضَ طَاعَتَهُ عَلَى جَمِيعِ الثَّقَلَيْنِ الجِنِّ وَالإِنْسِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ [الأعراف:١٥٨].

الشرح:

قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا﴾ هذه الآية تدل على دلالتين مهمتين:

الأولى: أن لفظ "الناس" يدخل فيه الجن والإنس، ففيها أمر، ونداء، ومنادى، ومنادى به: الأمر: "قل"، النداء: "يا أيها"، المنادى: "الناس"، والمنادى به: "إني رسول الله إليكم جميعًا" فقد جمع الله تعالى الجن والإنس كلهم بمسمى واحد وهو "الناس" وأخبر برسالته للناس جميعًا وقد علم أنه رسول للجن والإنس فدل أن الناس المرسل إليهم هم الجن والإنس.

وقد سبق بيان ذلك مفصلًا بدلالة هذه الآية وغيرها من الأدلة، عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾.

الثانية: أن رسالة النبي ﷺ تشمل البشرية كلها بجميع فرقها وطوائفها، والجن كلهم بجميع أشكالهم وأصنافهم؛ فهو خاتم الأنبياء والرسل لخاتمة الأمم كلها.

ومن الأدلة على عموم رســـالته لعموم الجن والإنس قوله تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَـلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِـيرًا وَنَذِيرًا﴾ [سبأ:٢٨] وقوله تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان:١] فدخل في ذلك كل الجن والإنس من يوم البعثة إلى أن تقوم الساعة، فمن كان بلا دين فدين محمد ﷺ ملزم له، ومن كان يدين بدين آخر، فإن كان من الأديان الوثنية فهو باطل، وإن كان من الأديان الســماوية فدين محمد ناســخ لدينه ويجب عليه الانتقال إليه؛ فهو ناســخ الديانات السماوية وهادم الديانات الشيطانية.

وجاء في صحيح الإمام مسلم من حديث أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: (والذي نفس محمد بيده لا يســمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ثم يموت ولم يؤمن بالذي أرسلت به إلا كان من أصحاب النار).

قال المؤلف:

وَكَمَّلَ اللهُ بِهِ الدِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ [المائدة:٣]

الشرح:

لقد أكمل الله تعالى الدين بنبينا محمد ﷺ ومن لم يدن بدينه حتى وإن لم يتمسك بأي دين آخر فقد دان بالكفر ودخل في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ۝١ لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ۝٢﴾ [الكافرون: ١-٢]

وقد أنعم الله تعالى على المسلمين بآية عظيمة فقال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾ حتى حسدتنا عليها اليهود فتمنوا لو أنها نزلت عليهم؛ فقد روى البخاري عن عمر بن الخطاب أن رجلًا من اليهود قال له: يا أمير المؤمنين آية في كتابكم تقرؤونها لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا ذلك اليوم عيدًا. قال: أي آية؟ قال: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾. قال عمر: (قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذي نزلت فيه على النبي ﷺ وهو قائم بعرفة يوم جمعة).

وقال الماوردي الشافعي في "الحاوي الكبير" (١٥/١٦٧):

فروى قبيصـــة أن كعب الأحبار قال: لو نزلت هذه الآية على غير هذه الأمة لعظموا اليوم الذي نزلت فيه، واتخذوه عيدا، فقال عمر: لقد نزلت بعرفة، في يوم جمعة، وكلاهما بحمد الله لنا عيد اهـ

قلت: وهي مثل قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّــلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ ﴿١١٤﴾ وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ [الأنعام: ١١٤-١١٥]

فالقرآن جاء مفصــلًا لكل شــي فهو دين كامل ولهذا أخبر أنه تمت كلمته صــدقًا في الأخبار وعدلًا في الأحكام، وهذه نعمة عظيمة صــانها الله تعالى بالحفظ من التغيير والتبديل فلا مبدل لكلماته.

فصل في علاقة البدع بالشرك

وفي هذه الآية: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ﴾.

رد على الذين يستحسنون البدع في الدين، وأصل الاستحسان في الدين هو الهوى!! حتى قال قائلهم عن بدعة المولد: والله لو بعث النبي ﷺ ومنعنا من الاحتفال بالمولد لاحتفلنا!!

وقد قرر العلماء تعارض البدع مع هذه الآية العظيمة؛ لأن الآية أخبرت بكمال وتمام الدين والبدعة مقتضاها اتهام الدين بالنقصان وجعل البدعة بمثابة اكمال مانقص فيه وردم فجواته، وهذا يؤكد صحة من ذهب من العلماء أن البدع كلها تدخل في الشرك؛ لأن البدعة تشريع والتشريع من خصائص الله تعالى كما قال: ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى: ٢١] فجعل البدعة شركًا.

والبدعة ليست من الدين الذي أكمله الله تعالى لنا، وليست من النعمة التي أتمها الله تعالى علينا، وعليه فليست من الإسلام الذي رضي الله تعالى لنا دينا، وبناء على ذلك فالبدعة ليست سوى مضاهاة للشرع بشرك التشريع، فإن كبرت دخلت في الشرك الأكبر، وإن صغرت دخلت في الشرك الأصغر.

وبعض العلماء لا يراها داخلة في الشرك بل يراها وسيلة إلى الشرك. وقد علم أن ما كان وسيلة للشرك الأكبر فهو شرك أصغر. والقول الذي نميل إليه أن البدعة داخلة في شرك التشريع وعليه فكل بدعة شرك، فإن كبرت كانت مخرجة من الملة، وإن صغرت كانت غير مخرجة من المملة

قال كبير العلماء العلامة ابن باز عليه رحمة الله تعالى كما في موقعه بمقال يحمل عنوان "البدع طريق إلى الشرك":

والمقصود أن البدع تجر إلى الشرك أعظم من المعاصي، البدع تجر إلى الشرك، الشيطان يحبها أكثر من المعاصي؛ لأنها عدول عن دين الله، وسوء ظن بالله، وسوء ظن بدينه، واعتراض على الله، وقدح في الدين، فالبدع معناها التنقص في الدين، معناها أن الدين ما كمل، معناها أن الدين يحتاج إلى زيادة، هذه البدعة الزيادة، والله أكمل الدين وأتمه، قال تعالى: ﴿ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ إِنَّهُمْ لَنْ يُغْنُوا عَنْكَ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [الجاثية:١٨-١٩]، فالله أمر نبيه أن يلزم الشريعة هو بنفسه عليه الصلاة والسلام، ولا يزيد عليها عليه الصلاة والسلام، بل يتبع ما أوحي إليه، وهؤلاء لا عندنا كذا وعندنا كذا، هذه الزيادات نبني على القبور نتخذ عليها المساجد نتخذ عليها القباب نقيم الموالد لفلان وفلان وفلان نمدحه ونثني عليه، ثم جرتهم الموالد إلى الشرك، احتفلوا بالنبي ﷺ أو بالبدوي أو عبد القادر أو زيد أو عمرو أو علي أو الحسين فهذه الاحتفالات ماذا فعلت جرتهم إلى الشرك، صاروا يمدحونه ويثنون

عليه، ثم جرهم هذا المدح المباح إلى المدح الزائد الغلو إلى الكفر والضـــلال مثلما قال النبي ﷺ: (لا تطروني كما أطرت النصــارى ابن مريم، إنما أنا عبد فقولوا عبد الله ورسوله) رواه البخاري في الصحيح.

فجرهم الإطراء والزيادة حتى قالوا: يا رسول الله! انصرنا! اشف مرضانا! اجمع شملنا! إلى غير هذا، فدعوه بما يدعا به الله ســـبحانه وتعالى، وهكذا قالوا في حق علي والحسن والحسين، وفلان وفلان، والبدوي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وابن عربي، وغيرهم، هكذا يسألونهم ما لا يقدر عليه إلا الله.

فهذه الاحتفالات المبتدعة التي أحدثوها واجتمعوا عليها وأكلوا عليها الطعام واللحوم وغير ذلك وأقاموا عليها الأشعار والمدائح جرتهم إلى الشرك، حتى قال صاحب البردة في بردته:

يا أكرم الخلق مالي من ألوذ به سواك
عند حدوث الحادث العمم
إن لم تكن في معادي آخذا بيدي
فضـــلا وإلا فقل يا زلة القدم
فإن من جودك الدنيا وضــــرتها
ومن علومك علوم اللوح والقلم

وأما العلامة ابن عثيمين فقد صـــرح رحمه الله بدخول البدعة في الشـــرك وأنه نوع من أنواعه فقال كما في "لقاء الباب المفتوح" (٥/١٣١):

ومن مفاسد البِدَع: أنها نوع من الشرك، كما قال الله تبارك وتعالى، ﴿أَمْ لَهُمْ شُرَكَاءُ شَرَعُوا لَهُمْ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ﴾ [الشورى:٢١].

ولا يخفى أن الشرك لا يُغْفَر، كما قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء:٤٨]، وظاهر الآية الكريمة: أن الشرك لا يُغْفَر ولو كان أصغر اهـ.

قلت: والمراد بعدم مغفرة الشرك أي بدون توبة وأما من تاب فإن الله تعالى وعد من تاب بالتوبة عليه.

قال المؤلف:

وَالدَّلِيلُ عَلَى مَوْتِهِ ﷺ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

الشرح:

في هذه الفقرة خمس مسائل:

المسألة الأولى: ثبوت موته ﷺ:

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

وقد نزل القرآن بالإخبار عن دنو أجله ﷺ في قوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ ۝١ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا ۝٢ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا ۝٣﴾ ولهذا قال العلماء أن هذه السورة فيها بشارة وإشارة

- **أما البشارة:** فهي في حصول ثلاثة أشياء: النصر من الله تعالى لرسوله ﷺ، والفتح لمكة المكرمة، ودخول الناس في دين الله أفواجا.
- **وأما الإشارة:** فهي انتهاء وظيفته واقتراب أجله ﷺ وقد علم بعض الصحابة أنها تدل على ذلك.

فقد روى البخاري عن ابن عباس رضـــي الله عنهما أنه قال: كان عمر يُدخلني مع أشـياخ بدر، فكأن بعضــهم وَجَد في نفســه، فقال: لم يَدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه ممن قد علمتم فدعاهم ذات يوم فأدخله معهم، فما رُؤيتُ أنه دعاني فيهم يومئذ إلا ليُريهم فقال: ما تقولون في قول الله، عز وجل: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾؟

فقال بعضهم: أمرنا أن نَحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفُتح علينا. وسكت بعضـهم فلم يقل شيئًا، فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا. فقال: ما تقول؟ فقلت: هو أجلُ رسول الله ﷺ أعلمه له، قال: ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ فذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ فقال عمر بن الخطاب: لا أعلم منها إلا ما تقول.

والســـبب في ذلك ما رواه أحمد عن ابن عباس قال: لما نزلت ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ﴾ قال رسـول الله ﷺ: (نعيت إليَّ نفسـي)، بأنه مقبوض في تلك السنة.

قال العلامة عبد الرحمن بن قاسم الحنبلي في "الحاشية" (صـ/١٣٦):

نعم هو حي ﷺ في قبره حياة برزخية أعلى وأكمل من حياة الشـــهداء المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٩].

وأما الحياة الجسمانية فلا ريب أنه مات ﷺ وغسل وكفن وصلي عليه. ودفن في ضريحه بالمدينة صلوات الله وسلامه عليه. ولم يقل إنه لم يمت إلا المبتدعة الخارجة عن منهج الكتاب والسنة. مخافة أن ينتقض عليهم أصلهم الباطل في توجههم إليه، وسؤاله ما لا يقدر عليه. وإلا فموته ﷺ معلوم بالسمع والمشاهدة مشهور يعلمه العام والخاص لا يمتري فيه إلا مكابر اهـ.

المسألة الثانية: أنه مات شهيداً ﷺ:

قال الحضرمي في "حدائق الأنوار ومطالع الأسرار في سيرة النبي المختار" وهو يتحدث عن الشاة المسمومة التي أهدتها اليهودية للنبي ﷺ فأكل منها (صـ/ ١٥٣):

في "الصّحيحين" عن جماعة من الصّحابة رضي الله عنهم: أنّ يهوديّة أيّام فتح (خيبر) أهدت للنّبيّ ﷺ شاة مصليّة – أي: مشويّة– سمّتها، فأكل منها النّبيّ ﷺ، ثمّ قال للقوم: (ارفعوا أيديكم، فإنّها أخبرتني أنّها مسمومة).

وفي رواية جابر: (أخبرتني هذه الذّراع)، وقال لليهوديّة: (ما حملك على ما صنعت؟)، فقالت: إن كنت نبيّا لم تضرّك، وإن كنت ملكا أرحت النّاس منك، فعفا عنها. فمات بشر بن البراء من السّمّ، فقتلها به قصاصًا.

وفي رواية أنس: فما زلت أعرفها في لهوات رسول الله ﷺ.

وفي حديث أبي هريرة رضي الله عنه: أنّ رسول الله ﷺ قال في وجعه الّذي مات فيه: (ما زالت أكلة خيبر تعادني) – أي: تعاودني – (فالآن قطعت أبهري) –أي: عرق الظّهر المتعلّق بالقلب–.

وفي حديث أبي سعيد رضي الله عنه، أنه ﷺ قال: (كلوا باسم الله)، فأكلنا.

وعند ابن إسحاق: إن كان المؤمنون ليرون أنّ النّبيّ ﷺ مات شهيدًا، مع ما أكرمه الله به من النّبوّة اهـ.

وقال العلامة ابن عثيمين في "تفسير الفاتحة والبقرة" (١/ ٢٨٣):

عند تفسير قوله تعالى: ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَا تَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقًا تَقْتُلُونَ﴾ [البقرة:٨٧]:

ثم إن بعض العلماء أبدى فيها نكتة: وهي أن هؤلاء اليهود استمر قتلهم الرسل حتى آخرهم محمد ﷺ فإنهم قتلوا الرسول ﷺ بالسم الذي وضعوه له في خيبر؛ فإنه ﷺ ما زال يتأثر منه حتى إنه ﷺ في مرض موته قال: (ما زالت أكلة خيبر تعاودني، وهذا أوان انقطاع الأبهر مني)؛ قال الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود تسببوا في قتله؛ وهذا ليس ببعيد أن يكون هذا من أسرار التعبير بالمضارع في القتل؛ وإن كان قد يَرِدُ عليه أن التكذيب استمر حتى زمن الرسول ﷺ فلماذا لم يقل: "فريقاً تكذبون وفريقاً تقتلون"؟!

والجواب عن هذا أن القتل أشد من التكذيب؛ فعبر عنه بالمضارع المستمر إلى آخر الرسل..

فإن قيل: كيف يصح قول الزهري: إن النبي ﷺ مات شهيدًا؛ لأن اليهود كانوا سببًا في قتله، وقد قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ [المائدة:٦٧]؟

فالجواب: المراد بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾: حال التبليغ؛ أي بلغ وأنت في حال تبليغك معصوم، ولهذا لم يعتد عليه أحد أبدًا في حال تبليغه، فقتله اهـ

قال أبو العباس:

قد أجاب الله تعالى على هذه المسألة فقال: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ﴾ [آل عمران:١٤٤]

فقوله: ﴿أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ فذكره للقتل دليل على أن مفارقته للحياة قائمة على الاحتمالين: إما بالموت أو بالقتل، ولو كان القتل غير وارد في حقه ﷺ ما ذكره في أحد الاحتمالين.

المسألة الثالثة: النهي عن الانتكاسة بعد موته ﷺ:

والدليل قوله تعالى: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران:١٤٤]

والانقلاب هو الانتكاسة عن الإيمان وكأن رسالة الإسلام تنتهي بموت الرسول عليه الصلاة والسلام!! ولهذا عندما ذهل من ذهل عند موته ﷺ قام فيهم أبوبكر الصديق منبهًا ومذكرًا فتلا عليهم هذه الآية ثم قال:

"من كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت" والقصة بطولها في صحيح البخاري

وفي هذه الآية التنبيه على الثبات عند موت العلماء والرؤســـاء وأهل الفضـــل، وأن لا نجعل من موتهم موتًا للإيمان في قلوبنا بســـبب فقدهم؛ فالعلماء يموتون ويبقى العلم وأهل الفضـــل يموتون ويبقى الفضـــل، وأهل العلم والفضـــل يذهبون ويأتي الله تعالى بغيرهم.

المسألة الرابعة: الخصومة يوم القيامة:

والدليل قوله تعالى: ﴿إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُم مَّيِّتُونَ ۝٣٠ ثُمَّ إِنَّكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عِندَ رَبِّكُمْ تَخْتَصِمُونَ ۝٣١﴾ [الزمر: ٣٠-٣١].

قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٧/٩٦):

ومعنى هذه الآية: ستنقلون من هذه الدار لا محالة وستجتمعون عند الله في الدار الآخرة، وتختصـمون فيما أنتم فيه في الدنيا من التوحيد والشـرك بين يدي الله عز وجـل، فيفصـــل بينكم، ويفتح بالحق وهو الفتـاح العليم، فينجي المؤمنين المخلصين الموحدين، ويعذب الكافرين الجاحدين المشركين المكذبين.

ثم إن هذه الآية وإن كان ســياقها في المؤمنين والكافرين، وذِكْر الخصــومة بينهم في الدار الآخرة فإنها شـــاملة لكل متنازعين في الدنيا، فإنه تعاد عليهم الخصومة في الدار الآخرة اهـ.

المسألة الخامسة: تاريخ موته ﷺ:

مات يوم الاثنين في السنة العاشرة للهجرة

قال الحافظ ابن كثير في "البداية والنهاية" (٥/٢٩٩):

فصل فيما روي من معرفة أهل الكتاب بيوم وفاته ﷺ:

قال أبو بكر بن أبي شيبة: حدثنا عبد الله بن إدريس، عن إسماعيل بن أبي خالد، عن قيس بن أبي حازم، عن جرير بن عبد الله البجلي. قال: كنت باليمن، فلقينا رجلين من أهل اليمن، ذا كلاع وذا عمرو، فجعلت أحدثهما عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فقالا لي: إن كان ما تقول حقا فقد مضى صاحبك على أجله منذ ثلاث.

قال: فأقبلت وأقبلا حتى إذا كنا في بعض الطريق، رفع لنا ركب من قبل المدينة فسألناهم فقالوا: قبض رسول الله ﷺ واستخلف أبو بكر والناس صالحون.

قال فقالا لي: أخبر صاحبك أنا قد جئنا، ولعلنا سنعود إن شاء الله عز وجل. قال: ورجعا إلى اليمن، فلما أتيت أخبرت أبا بكر بحديثهم. قال أفلا جئت بهم.

فلما كان بعد قال لي ذو عمرو: يا جرير إن لك علي كرامة، وإني مخبرك خبرا، أنكم معشر العرب لن تزالوا بخير ما كنتم إذا هلك أمير تأمرتم في آخر، وإذا كانت بالسيف كنتم ملوكا تغضبون غضب الملوك وترضون رضى الملوك.

هكذا رواه الامام أحمد والبخاري عن أبي بكر بن أبي شيبة وهكذا رواه البيهقي عن الحاكم عن عبد الله بن جعفر عن يعقوب بن سفيان عنه.

وقال البيهقي: أنبأنا الحاكم، أنبأنا علي بن المتوكل ثنا محمد بن يونس، ثنا يعقوب بن إسحاق الحضرمي، ثنا زائدة، عن زياد بن علاقة عن جرير. قال: لقيني حبر باليمن وقال لي: إن كان صاحبكم نبيا فقد مات يوم الاثنين، هكذا رواه البيهقي.

وقد قال الإمام أحمد: حدثنا أبو سعيد، ثنا زائدة، ثنا زياد بن علاقة عن جرير. قال: قال لي حبر باليمن: إن كان صاحبكم نبيا فقد مات اليوم. قال جرير: فمات يوم الاثنين اهـ

القسم الثالث:

خاتمة الأصول الثلاثة



قال المؤلف:

وَالنَّاسُ إِذَا مَاتُواْ يُبْعَثُونَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعالَى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ وَفِيهَا نُعِيدُكُمْ وَمِنْهَا نُخْرِجُكُمْ تَارَةً أُخْرَى﴾ [طه:٥٥]. وقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ أَنبَتَكُم مِّنَ الأَرْضِ نَبَاتاً * ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجاً﴾ [نوح:١٧- ١٨]. وَبَعْدَ الْبَعْثِ مُحَاسَبُونَ وَمَجْزِيُّونَ بِأَعْمَالِهِمْ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

وَمَنْ كَذَّبَ بِالْبَعْثِ كَفَرَ، وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

الشرح:

وهذه الفقرة داخلة في الإيمان باليوم الآخر وكلها تحوم حول البعث من ثلاث جهات:

الأولى: إثبات البعث بعد الموت:

ومن أدلة ثبوته قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ سِرَاعًا كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ ﴿٤٣﴾ خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ

﴿٤٤﴾ [المعارج: ٤٣-٤٤] وقال تعالى: ﴿وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾ [المؤمنون:١٠٠]

وإثبات البعث محل اتفاق بين أبي الأنبياء وبين أبي الشياطين؛ فهو حقيقة مسلمة.

قال أبو الأنبياء الخليل عليه الصلاة والتسليم: ﴿وَلَا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ﴾ [الشعراء:٨٧] وقال أبو الشيطان إبليس الرجيم: ﴿قَالَ رَبِّ فَأَنْظِرْنِي إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ﴾. فقال له الله تعالى: ﴿قَالَ فَإِنَّكَ مِنَ الْمُنْظَرِينَ ﴿٣٧﴾ إِلَى يَوْمِ الْوَقْتِ الْمَعْلُومِ ﴿٣٨﴾ قَالَ رَبِّ بِمَا أَغْوَيْتَنِي لَأُزَيِّنَنَّ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ الْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: ٣٦-٤٠].

فالبعث ثابت بالكتاب والسنة وإجماع المسلمين.

الثانية: إثبات الحساب بعد البعث:

لقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ أَسَاؤُوا بِمَا عَمِلُوا وَيَجْزِيَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى﴾ [النجم:٣١].

وقال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ [الرعد:٤٠]

وقال تعالى: ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ [ص:٥٣]

وفي الصحيحين عن السيدة عائشة رضي الله تعالى عنها قالت: قال رسول الله ﷺ: (من حوسب يوم القيامة عذب). فقلت: أليس قد قال الله عز وجل:

﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ فقال: (ليس ذاك الحساب إنما ذاك العرض من نوقش الحساب يوم القيامة عذب).

والحساب ثابت في الكتاب والسنة والإجماع، وهو حق واقع على المسلم والكافر لقوله تعالى: ﴿فَكَيْفَ إِذَا جَمَعْنَاهُمْ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ [آل عمران: ٢٥]

فإن قلت: وما الفائدة من حساب الكافر ومصيره النار في كل الأحوال؟

أقول: الكافر عاش معنا في هذه الدنيا، وبالتالي فإن له حسنات وله سيئات:

أما الحسنات فيكافئ عليها في الدنيا وتحبط عليه في الآخرة، والدليل على ذلك ما رواه مسلم في "صحيحه" عن أنس بن مالك أنه حدث عن رسول الله ﷺ قال: (إن الكافر إذا عمل حسنة أطعم بها طعمة من الدنيا وأما المؤمن فإن الله يدخر له حسناته في الآخرة ويعقبه رزقا في الدنيا على طاعته).

وأما السيئات فمن خلالها تكون منزلته في النار؛ فإن النار دركات وليس كل أهل النار في عذاب واحد.

الثالثة: **كفر من أنكر البعث**:

لقوله تعالى: ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [التغابن:٧].

وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَوَلَّوْا قَوْمًا غَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ قَدْ يَئِسُوا مِنَ الْآخِرَةِ كَمَا يَئِسَ الْكُفَّارُ مِنْ أَصْحَابِ الْقُبُورِ﴾ [الممتحنة:١٣]

وقال تعالى في معرض التفريق بين مصير المؤمنين ومصير الكافرين وأن من أوصاف الكفار أنهم يكذبون بيوم البعث: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ ۝١٠ الَّذِينَ يُكَذِّبُونَ بِيَوْمِ الدِّينِ ۝١١﴾ [المطففين: ٧-١١]

فصل في الرد على منكري البعث

وإنكار البعث كفر لا يصـــدر إلا من جاهل مكابر معاند؛ وإلا فالقاعدة تنص على أن الصــانع أعلم بما صـنع فكيف بصـانع كل شــيء والقادر على كل شــيء، ومع ذلك فلكل فكرة منحرفة شـبهة جارفة، وشـبهة منكري البعث ترجع لفئتين كافرتين

الفئة الأولى:

فئة تؤمن بوجود الخالق ولكنها لا تؤمن بالآخرة وهم بعض مشـــركي العرب:

قال الحافظ ابن كثير في "التفسير" (٦/٥٩٣):

قال مجاهد، وعِكْرِمَة، وعروة بن الزبير، والسُّــــدِّي. وقتادة: جاء أُبي بن خلف لعنه الله إلى رســـول الله ﷺ وفي يده عظم رميم وهو يُفَتِّتُه ويذريه في الهواء، وهو يقول: يا محمد، أتزعم أن الله يبعث هذا؟ فقال: (نعم، يميتك الله تعالى ثم يبعثك، ثم يحشـــرك إلى النـار). ونزلت هذه الآيات من آخر "يس": ﴿أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾ وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِ الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ ﴿٧٩﴾﴾ [يس: ٧٧-٧٩] الخ الآيات اهـ.

قلت: أخرجه الحاكم في "المستدرك" وقال: هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه. وقال الإمام الذهبي قي التلخيص: على شرط البخاري ومسلم. وذكره العلامة الوادعي في "الصحيح المسند من أسباب النزول".

الفئة الثانية:

فئة لا تؤمن بوجود الله ولا بالبعث، وهم الدهرية الذين أخذ منهم بعض مشركي العرب هذه الفكرة:

وهي طائفة قديمة تسمى الدهرية، وعقيدتهم مبنية على كون العالم يسير نفسه بنفسه وهو المؤثر، وأخذ فكرتهم في هذا الزمان الشيوعية؛ فهم متفقون على أن نظام العالم مبني على قولهم: "أرحام تدفع وأرض تبلع وليس بعد ذلك مرجع" وقد ذكرهم الله تعالى بقوله: ﴿وَقَالُوا مَا هِيَ إِلَّا حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلَّا الدَّهْرُ وَمَا لَهُمْ بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَظُنُّونَ﴾ [الجاثية:٢٤]

وقالوا أيضًا: ﴿وَإِذَا تُتْلَى عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ مَا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا ائْتُوا بِآبَائِنَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾ [الجاثية:٢٥]

ونقول في نقض شبهتهم:

أبي بن خلف لم يكن ملحدًا ولكن أخذ منهم فكرة إنكار البعث وكانت شبهة الدهرية ومن وافقهم من مشركي العرب كأبي بن خلف وغيره مبنية على استحالة إحياء العظام وهي رميم!! وإنما اختلفوا في سبب الاستحالة

فأجاب الله تعالى شبهتهم بقوله: ﴿وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا وَنَسِيَ خَلْقَهُ قَالَ مَنْ يُحْيِي الْعِظَامَ وَهِيَ رَمِيمٌ ﴿٧٨﴾ قُلْ يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ

﴿٧٩﴾ الَّذِي جَعَلَ لَكُمْ مِنَ الشَّجَرِ الْأَخْضَرِ نَارًا فَإِذَا أَنْتُمْ مِنْهُ تُوقِدُونَ ﴿٨٠﴾ أَوَلَيْسَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِقَادِرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ بَلَى وَهُوَ الْخَلَّاقُ الْعَلِيمُ ﴿٨١﴾ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴿٨٢﴾ فَسُبْحَانَ الَّذِي بِيَدِهِ مَلَكُوتُ كُلِّ شَيْءٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾﴾ [يس: ٧٨-٨٣]

والمعنى أن القادر على إنشاء العظام قادر على إعادتها، بل إن الخلق من العدم يدل على أن البعث بعد الموت من باب أولى، وكل ذلك على الله يسير، وإنما صدر منهم ذلك لعدم معرفتهم بقدر الخالق العظيم، فلما وجدوا أن الأمر في غاية الصعوبة والاستحالة بالنسبة لهم كبشر ظنوا أن الخالق مثلهم، وغفلوا عن أمر مهم وهو أنهم لم يخلقوا حتى يعيدوا بينما الخالق كما قدر على الخلق كان أقدر على البعث؛ كما قال تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم:٢٧] فجعل البعث أهون من الايجاد.

وهذه الآيات كل آية منها دليل على إبطال شبهاتهم، وفيها سبع دلالات داحضة لشبهتهم ومحق باطلهم وضلالهم:

- الدليل الأول: أنه لو أمعن الإنسان في التفكر في خلق نفسه لم يكن لينكر بعثه بعد موته.
- الدليل لثاني: أن من أنشأ الخلق أول مرة قادر على إعادته المرة الثانية بل الإعادة بعد الموت أهون من الخلق من العدم.

- الدليل الثالث: أن الخالق عليم بكل ما خلق، والعلم أصـــل القدرة فكما أنه خلق بعلم كان العلم دليل على القدرة على البعث.
- الدليل الرابع: أن الله تعالى هو من خلق الشـجر للناس ومع ذلك فهي مع كونهم يحتطبون منها ويحرقون من حطبها إلا أنها تنبت مرة أخرى وتخرج مرة أخرى. فما يحصـل للشـجر من التجدد مثال لما سيحصـل للناس من البعث.
- الدليل الخامس: أن الله تعالى هو الذي خلق الســـماوات والأرض وقدرته على خلق الســـماوات والأرض دليل على قدرته على خلق مثلهن فكان خلق الإنسان وبعثه أهون من ذلك بكثير.
- الدليل الســادس: أن أمره بعد الكاف والنون فلا مســتحيل على الله تعالى وهو القادر على كل شيء والقاهر فوق كل شيء.
- الدليل الســابع: أنه ســبحانه وتعالى بيده ملكوت كل شــيء والمالك لكل شيء قادر على كل شيء

قال المؤلف:

وَأَرْسَـــلَ اللهُ جَمِيعَ الرُّسُـــلِ مُبَشِّـــرِينَ وَمُنْذِرِينَ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء:١٦٥].

وَأَوَّلُهُمْ نُوحٌ عَلَيْهِ السَّـــلامُ، وَآخِرُهُمْ مُحَمَّدٌ ﷺ وَهُوَ خَاتَمُ النَّبِيِّينَ؛ وَالدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ أَوَّلَهُمْ نُوحٌ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣].

الشرح:

وفي هذه الفقرة الحديث عن مسألتين:

المسألة (١): إرسال الرسل لإقامة الحجة:

أرســل الله جميع الرسـل بالبشــارة والنذارة: أما البشــارة فهي لمن وحد الله تعالى، وأما النذارة فهي لمن أشـرك به، وهذه هي الغاية العظمى من إرســالهم، فبهم ينقسم الناس إلى قسمين:

- **القســم الأول:** هم الذين تكون رســالة الرســل لهم هداية لهم فيخرجون بالاســتجابة للرســل من الظلمات إلى النور، فينجون بإيمانهم في الدنيا من الضلال وفي الآخرة من النار.

- **القسم الثاني:** هم الذين تكون رسالة الرسل لهم حجة عليهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة، فيضلون في الدنيا ويعذبون في الآخرة، ولا عذر لهم على كفرهم بعد قيام الحجة عليهم.

قال تعالى: ﴿رُسُلًا مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [النساء: ١٦٥]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّا أَهْلَكْنَاهُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ [طه: ١٣٤]

وقال تعالى: ﴿وَلَوْلَا أَنْ تُصِيبَهُمْ مُصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [القصص: ٤٧]

وقال تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٣١]

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الأسراء:١٥]

قال العلامة ابن القيم في "مفتاح دار السعادة" (٢/٧):

فأخبر تعالى أن ما قدمت أيديهم قبل البعثة سبب لإصابتهم بالمصيبة وأنه سبحانه لو أصابهم بما يستحقون من ذلك لاحتجوا عليه بأنه لم يرسل إليهم رسولا ولم ينزل عليهم كتابا فقطع هذه الحجة بإرسال الرسول وإنزال الكتاب لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل وهذا صريح في أن أعمالهم قبل البعثة كانت قبيحة بحيث استحقوا أن يصيبوا بها المصيبة ولكنه سبحانه لا يعذب إلا بعد إرسال الرسل وهذا هو فصل الخطاب اهـ

قال الحافظ ابن كثير في مقدمة "التفسير" (١/٥):

والحمد لله الذي أرسل رسله ﴿مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ لِئَلا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾، وختمهم بالنبي الأمي العربي المكي الهادي لأوضح السبل، أرسله إلى جميع خلقه من الإنس والجن، من لدن بعثته إلى قيام الساعة، كما قال تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ لا إِلَهَ إِلا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾، وقال تعالى: ﴿لأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ﴾.

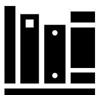
فمن بلغه هذا القرآن من عرب وعَجَم، وأسودَ وأحمرَ، وإنس وجان، فهو نذير له؛ ولهذا قال تعالى: ﴿وَمَنْ يَكْفُرْ بِهِ مِنَ الأَحْزَابِ فَالنَّارُ مَوْعِدُهُ﴾. فمن كفر بالقرآن ممن ذكرنا فالنار موعده، بنص الله تعالى اهـ

وقد أبنت مسألة إقامة الحجة على الناس بالرسل في كتابي "الإعلام بثبوتية الخلاف في العذر بالجهل بين الأعلام" وكان ذلك عبارة عن رد على من يكفرون الجاهل دون تفريق بين جهل وجهل، بل ويكفرون من يعذر الجاهل دون تفريق بين عاذر وعاذر.

وسبق الحديث عن الرسل في شرح حديث جبريل.

المسألة (٢): من هو أول الرسل:

لاشك أن نوحًا عليه الصلاة والسلام هو أول الرسل؛ فهذا أمر ثابت في القرآن والسنة:



أما الدليل من القرآن: فهو قوله تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ [النساء:١٦٣].

فقال: (والنبيين من بعده) وهذا دليل على ثلاثة أمور:

- **الأمر الأول**: أن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام يوحى إليهم، وحتى من قال: إن النبي يبلغ رسالة من قبله فهذا لايلزم منه أنه في كل الأنبياء، ولايلزم منه أنه لايوحى إليه، فقد قال تعالى: ﴿۞ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ﴾ فدلت الآية أن الأنبياء يوحى إليهم، وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة:٢١٣] فدلت الآية أن مع الأنبياء كتب منزلة من عند الله تعالى.
- **الأمر الثاني**: أن الوحي كان من بعد نوح عليه السلام فدل أنه أول الرسل، ويشكل على هذا نبوة آدم عليه السلام فنبوته ثابته فهل كان يوحى إليه أم لا؟ الجواب: الآية تشير أن الوحي كان من بعد نوح فدل أنه لم ينزل الوحي قبله، فإن قلت: وكيف يكون آدم نبيًا بغير وحي؟ والجواب: أنه نزل من السماء وقد علمه الله الأسماء كلها. فكان عنده من العلم السابق فعلم أبنائه ورباهم وفق ذلك والله أعلم.
- **الأمر الثالث**: أنه خص نوحًا عليه السلام ومن بعده بنزول الوحي فدل أن ما قبل نوح لم يحصل مقتضى نزول الوحي، لأن الأمة قبل نوح كانت موحدة وباقية على الأصل الأول الذي قال الله تعالى عنه: ﴿وَمَا كَانَ

النَّاسُ إِلَّا أُمَّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا﴾ [يونس:١٩] أمة واحدة على التوحيد وهذه هي مرحلة آدم وذريته حتى جاء قوم نوح فاختلفوا.

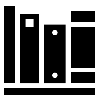
وقال تعالى: ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ﴾ [البقرة: ٢١٣]

والمعنى أن الناس اختلفوا بعد أن كانوا أمة واحدة، وهذا الخلاف حصل في زمن نوح عليه السلام، فبعث الله النبيين أي ابتداء بنوح لأن أول خلاف في التوحيد حصل في زمنه وما بعده. وأخبر أنه أنزل معهم الكتاب فدل أنه لا كتاب قبل نوح لأنه لا خلاف في التوحيد قبله، فدل أنه أول من نزل معه الكتاب. والله أعلم.

- **وأما الدليل من السنة**: ففي حديث الشفاعة في "الصحيحين" عن أبي هريرة وفيه قول الناس لنوح عليه الصلاة والسلام: (فيأتون نوحا فيقولون: يا نوح، أنت أول الرسل إلى الأرض، وسماك الله عبدا شكورا، اشفع لنا إلى ربك).

ولا إجماع في ذلك فقد ذهب الإمام ابن كثير إلى أن شيث هو أول نبي في الأرض وأنه قبل نوح عليه السلام، وقد حاولت الإجابة على ذلك في كتاب أسميته "الإسلام قانون الحياة" ثم شغلت عن إكمال الكتاب والله المستعان.

وأما مسألة أن محمدًا هو آخر الرسل فهذا ثابت في القرآن والسنة والإجماع: ولم يختلف في ذلك مسلمان إلا كان أحدهما قد فارق الجماعة وارتد عن دينه.



قال المؤلف:

وَكُلُّ أُمَّةٍ بَعَثَ اللهُ إِلَيْهَا رَسُولًا مِنْ نُوحٍ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ يَأْمُرُهُمْ بِعِبَادَةِ اللهِ وَحْدَهُ، وَيَنْهَاهُمْ عَنْ عِبَادَةِ الطَّاغُوتِ؛ وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ﴾ [النحل:٣٦].

الشرح:

وهذه المسألة تشبه المسالة التي قبلها، والفرق بين المسالتين أن الأولى بينت أن الله تعالى أرسل جميع الرسل بالبشارة والنذارة إقامة للحجة وقطعًا للعذر، وهذه المسألة بينت أن ذلك شمل جميع الأمم أي أنه ما من أمة إلا وقد جاءتها الرسل وأقيمت عليها الحجة.

ومسألة شمولية الرسل لسائر الأمم دل عليها القرآن الكريم بالكثير من الأدلة، ومن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ذَلِكَ أَنْ لَمْ يَكُنْ رَبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ [الأنعام:١٣١]

والشاهد منها أن أهل القرى رفعت عنهم الغفلة بالرسالة، والغفلة غفلتان:

الأولى: الغفلة التي هي بمعنى عدم المعرفة، وهذه هي التي رفعت بالرسالات.

الثانية: الغفلة التي هي بمعنى عدم الاستجابة للمعرفة، وهذه هي التي ذم الله تعالى أهلها وتوعدهم بالعقاب.

وقال تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [السراء:١٨]

وقال تعالى: ﴿إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ بِالْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر:٢٤]

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ﴾ [النحل: ٣٦]

وبالمقابل فقد أثبتت الأدلة أن كل مستحق للنار فهو قطعًا قد أقيمت عليه الحجة ومن هذه النصوص

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ٨ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ [الملك: ٩،٨]

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَى وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ [الزمر: ٧١]

قال أبو العباس هداه الله وغفر له:

والخلاصة أنه ما من أمة إلا خلا فيها نذير، وهذا لكمال عدل الله سبحانه وتعالى كي لا يعذب أحدًا إلا بعد قيامة الحجة عليه، حتى جزم شيخنا العلامة الحجوري أن يأجوج ومأجوج أرسل الله إليهم الرسل، واستدل على ذلك بأدلة

ومنها ﴿وَإِنْ مِنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ وعلل أن ثبوت الأدلة أنهم من أهل النار دليل أنهم قد أقيمت عليهم الحجة بالرسل لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾.

وما ذهب إليه شيخنا حق واضح؛ فقد دلت الآية أن كل من ثبت في حقه العذاب فقد ثبت في حقه قيام الحجة كما قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ ﴿١٠٥﴾ قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ ﴿١٠٦﴾ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ ﴿١٠٧﴾﴾ [المؤمنون: ١٠٥-١٠٧].

وهذا اعتراف منهم أنهم لم تحل بهم العقوبة إلا بسبب غلبت شقوتهم عليهم وعدم عملهم بالحجة البالغة التي أقيمت عليهم بواسطة الرسل

وهذا كقوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا بَلَى قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نزلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلا فِي ضَلالٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنْبِهِمْ فَسُحْقًا لأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾.

وفيها قوله تعالى: ﴿فَاعْتَرَفُوا﴾ وهذا الاعتراف هو في قولهم: ﴿فَكَذَّبْنَا﴾ فدل أنهم صاروا من أصحاب السعير بعد قيامة الحجة عليهم بالرسل وتكذيبهم لهم.

قال العلامة الشنقيطي في "أضواء البيان" (١٨/١٢٦):

ونظير ذلك قوله تعالى: ﴿وَقَالَ الَّذِينَ فِي النَّارِ لِخَزَنَةِ جَهَنَّمَ ادْعُوا رَبَّكُمْ يُخَفِّفْ عَنَّا يَوْمًا مِنَ الْعَذَابِ ﴿٤٩﴾ قَالُوا أَوَلَمْ تَكُ تَأْتِيكُمْ رُسُلُكُمْ بِالْبَيِّنَاتِ قَالُوا بَلَى قَالُوا فَادْعُوا وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿٥٠﴾﴾ [غافر: ٤٩ - ٥٠] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على أن جميع أهل النار أنذرتهم الرسل في دار الدنيا اهـ

قال المؤلف:

وَافْتَرَضَ اللهُ عَلَى جَمِيعِ الْعِبَادِ الْكُفْرَ بِالطَّاغُوتِ وَالإِيمَانَ بِاللهِ.

قَالَ ابْنُ الْقَيِّمِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: مَعْنَى الطَّاغُوتِ مَا تَجَاوَزَ بِهِ الْعَبْدُ حَدَّهُ مِنْ مَعْبُودٍ أَوْ مَتْبُوعٍ أَوْ مُطَاعٍ.

وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ: إِبْلِيسُ لَعَنَهُ اللهُ، وَمَنْ عُبِدَ وَهُوَ رَاضٍ، وَمَنْ دَعَا النَّاسَ إِلَى عِبَادَةِ نَفْسِهِ، وَمَنْ ادَّعَى شَيْئًا مِنْ عِلْمِ الْغَيْبِ، وَمَنْ حَكَمَ بِغَيْرِ مَا أَنْزَلَ اللهُ.

الشرح:

وفي هذه الفقرة ثلاثة مسائل:

المسألة الأولى: **حكم الطاغوت**:

نجد أن المؤلف بدأ بالحكم على الطاغوت قبل البدء بتعريفه، وهذه طريقة تشويقية؛ فمن عرف حكم الشيء واتضح له خطورته عليه تشوق لمعرفته كي يحذره ويبتعد عنه.

وحكم الطاغوت هو كفر من لم يكفر به؛ لقوله تعالى: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا﴾ فجعل الكفر بالطاغوت مرادف للإيمان به؛ فدل أن من لم يكفر بالطاغوت أنه لم يؤمن به وأنه تفلت عن العروة الوثقى وهي التوحيد.

المسألة الثانية: **تعريف الطاغوت**:

الطاغوت في اللغة: مأخوذ من طغا يطغو وهو التجاوز في الحد، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ﴾ [البقرة:١٥] أي: في تجاوزهم. وقال تعالى: ﴿وَنُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلَّا طُغْيَانًا كَبِيرًا﴾ [الإسراء:٦٠] أي: إلا تجاوزًا كبيرًا

وأما قوله تعالى: ﴿۞ قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ﴾ [ق: ٢٧] فأطغيته هنا بمعنى لم أضله وأتسبب بجعله طاغيًا.

والطغيان جاء في القرآن منسوبًا لأكثر من فاعل:

- الإنسان: قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى ۝٦ أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى ۝٧﴾ [العلق: ٦-٧] أي أن المال يتسبب بجعله طاغيًا.
- الماء: قال تعالى: ﴿إِنَّا لَمَّا طَغَى الْمَاءُ حَمَلْنَاكُمْ فِي الْجَارِيَةِ﴾ [الحاقة:١١].
- البصر: قال تعالى: ﴿مَا زَاغَ الْبَصَرُ وَمَا طَغَى﴾ [النجم: ١٧] فنفي الطغيان عن البصر هنا دليل على وقوعه في غير النبي ﷺ.
- الصوت: قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ثَمُودُ فَأُهْلِكُوا بِالطَّاغِيَةِ﴾ [الحاقة:٥] أي: بالصيحة. وسميت طاغية لأنها صيحة تجاوزت حد الصيحات. فهي صيحة عذاب لمن تجاوز الحد. قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا﴾ [الشمس:١١] فبسبب طغيانهم عذبوا بالطاغية.

- الدم: لحديث: (إذا هاج الدم بأحدكم فليحتجم فإن الدم إذا تبيغ بصاحبه قتله) رواه الطبري في "تهذيب الآثار" من حديث أنس بن مالك رضي الله تعالى عنه.

(هاج) يدخل فيه صورتان: ارتفاع الضغط. وكثرة الدم. و (تبيغ) يدخل فيه صورتان: كثرة الدم. وتخثر الدم. والهيجان والتبيغ كلاهما داخلان في معنى الطغيان.

الطاغوت في الاصطلاح:

قال العلامة ابن القيم في "إعلام الموقعين" (١/٥٠):

والطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع اهـ.

وقد فسر الفاروق رضي الله تعالى عنه الطاغوت أنه الشيطان. ذكر ذلك الحافظ ابن كثير وعقب بقوله كما في "التفسير" (١/٦٨٣):

ومعنى قوله في الطاغوت: إنه الشيطان قوي جدًّا فإنه يشمل كل شر كان عليه أهل الجاهلية، من عبادة الأوثان والتحاكم إليها والاستنصار بها اهـ.

قال أبو العباس:

وقد دل القرآن على تفسير الطاغوت بالشيطان بقوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا﴾ [النساء:٧٦].

والفرق بين الطغيان والطاغوت أن طغى وطغيان وصف للفعل وطاغي وطاغوت وصف للفاعل. فدل أنه ليس كل من طغى فهو طاغوت؛ ففي الأدلة

السابقة أن الماء طغى وأن ثمود أهلكوا بالطاغية فهنا لانكفر بالماء ولا بالصوت بل نؤمن بوقوع ذلك ونصـــدق بهذا الخبر. ولايصـــح أن نصــف ذلك الماء ولا ذلك الصوت بالطاغوت أبدًا.

والظاهر أن الطاغوت في القرآن هو الشـــيطان؛ فإن الله تعالى جعل القتال بين المؤمنين والكافرين كل فريق يقاتل في ســـبيل من آمنوا به، فجعل قتال أهل الإيمان في سبيل الله وقتال أهل الكفر في سبيل الطاغوت ثم جعل أهل القتال على فريقين:

الأول: فريق الإيمان.

والثاني: فريق الشيطان.

فدل أن الطاغوت هو الشيطان الذي يقاتل الكفار في سبيله.

المسألة الثالثة: رؤوس الطواغيت:

قال العلامة ابن القيم في "إعلام الموقعين" (١/٥٠):

فطاغوت كل قوم:

١- من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله.

٢- أو يعبدونه من دون الله.

٣- أو يتبعونه على غير بصيرة من الله.

٤- أو يطيعونه فيما لا يعلمون أنه طاعة لله.

فهذه طواغيت العالم إذا تأملتها وتأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم من عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن التحاكم إلى الله وإلى الرســول إلى التحاكم إلى الطاغوت، وعن طاعته ومتابعة رسوله إلى الطاغوت ومتابعته.

وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة وهم الصحابة ومن تبعهم ولا قصدوا قصدهم بل خالفوهم في الطريق والقصد معا اهـ

وبينهم المؤلف بقوله: وَالطَّوَاغِيتُ كَثِيرُونَ وَرُؤُوسُهُمْ خَمْسَةٌ:

الطاغوت الأول: إبليس لعنه الله:

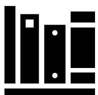
وهو رأس الطواغيت وزعيمهم، وكل طاغوت إنما هو عبد للطاغوت الأكبر وهو إبليس لعنه الله تعالى، ومع خطورته وشـــر أفعاله وعبثه وتلاعبه بالأغلبية العظمى من الجن والإنس إلا أنه ضعيف بل ضعيف جدًا، وإنما قوته بضعف وجبن وجهل أتباعه الذين اتخذوه وليًا فأطاعوه.

وهو أخطر أعداء الإنسـان إطلاقًا، وليس صـحيحًا أن النفس أخطر منه؛ فالنفس متقلبة: تارة مطمئنة وتارة أمارة وتارة لوامة، فهي متقلبة على أحوال، وأما الشيطان فإنه عدو في كل حال.

كما أن النفس تفسـد بإفسـاده لها؛ فهو الموسـوس في الأنفس والمغير لها، فتارة يفسـدها مباشـرة بالمخاطبة، وتارة يفسـدها بتزيين الذنوب لها ثم يدع الذنوب تعمل فيها عملها من الفساد والتغيير.

قال تعالى مبينًا أهداف إبليس بإغواء الناس وصرفهم عن عبادته وتوحيده: ﴿قَالَ أَرَأَيْتَكَ هَذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٦٢]

وهذا الإحتناك هو اتخاذهم عبادًا له من خلال عدم الامتثال لخالقهم بالطاعة، قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ



﴿وَمَنْ يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿١١٦﴾ إِنْ يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ إِلَّا إِنَاثًا وَإِنْ يَدْعُونَ إِلَّا شَيْطَانًا مَرِيدًا ﴿١١٧﴾ لَعَنَهُ اللَّهُ وَقَالَ لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِيبًا مَفْرُوضًا ﴿١١٨﴾﴾ [النساء: ١١٦-١١٨]

إن يدعون أي يعبدون، فدل أن البشر عبدوا الشيطان والعياذ بالله تعالى، فالدعاء هو العبادة، ولهذا نهى الله تعالى عن عبادة الشيطان فقال: ﴿۞ أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَابَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ ﴿٦٠﴾ وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ ﴿٦١﴾﴾ [يس: ٦٠-٦١].

فالنهي عن عبادته دليل أنهم قد عبدوه، وهذه مصيبة وايما مصيبة، والمصيبة الأدهى أن الشيطان عندما توعد بإغواء بني آدم لم يكن متيقنًا أن محاولته سوف تنجح!! وذلك لعلمه أنهم أبناء آدم وما كان لأبناء آدم أن يتمكن منهم من تمكن من إخراجهم من الجنة؛ وذلك أنه لا يلدغ مؤمن من جحر مرتين، وأيضًا فهم قد عرفوه وعرفوا عداوته لهم ومكره بهم، فكيف يستجيبون له وهو عدو أبيهم وعدوهم من بعده!!

ومع ذلك أجرى إبليس بعض المحاولات على غير يقين من نجاحها فوجدها حققت نجاحًا عظيمًا بالنسبة له، واستمر بلعبته فوجد أن الكثير من الآدميين ألعوبات سهلة، ففرح بهم كثيرًا وحقق بهم أكثر مما كان يتوقع؟

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [سبأ: ٢٠].

قال ابن قتيبة في "تأويل مشكل القرآن" (صـ/١٩٠):

أن إبليس لما ســـأل الله تبارك وتعالى النّظرة فأنظره قال: ﴿وَلَأُضِـــلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ آذَانَ الْأَنْعَامِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء:١١٩] ﴿لَأَتَّخِذَنَّ مِنْ عِبَادِكَ نَصِـيبًا مَفْرُوضًـا﴾ [النسـاء:١١٨] وليس هو في وقت هذه المقالة مســتيقنا أنّ ما قدّره الله فيهم يتمّ، وإنما قاله ظانا، فلما اتبعوه وأطاعوه، صــدق ما ظنّه عليهم أي فيهم، ثم قال الله: وما كان تســـليطنا إيّاه إلا لنعلم من يؤمن، أي المؤمنين من الشاكين اهـ.

وفي الحديث القدســـي يقول الله تعالى: (خلقت عبادي حنفاء فاجتالتهم الشـياطين) فدل أن الشـيطان هو أصـل فسـاد الفطرة من التوحيد إلى الشـرك ومن الطاعة إلى المعصية، ولهذا قال تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَّتَهُ أَوْلِيَاءَ مِنْ دُونِي وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف:٥٠]

فهـذا العدو هو الطاغوت الأكبر وهو المتســـبب بطغيان الأمم الكـافرة والغابرة، فمنهم من يكتفي بمجرد طغيانهم، ومنهم من لم يكتف إلا بجعلهم أندادًا له بالطاغوتية!! حتى وإن لم يصيروا مثله في المنزلة إلا أنه صيرهم من رؤوس الطواغيت تحت توجيهاته ووفق مخططاته.

وقد قسم العلماء الذنوب إلى أربعة أقسام:

١- **الـذنوب البـهيميـة**: لأن أصـــحـابها تجـاوزوا الحـد في ذنوب الشــهوات، فكانوا كالبهائم لاتهم ســوى بطونها وفروجها: وأصــل ذنوبهم: شدة الحرص على قضاء شهوة البطن والفرج، ومنها يتولّد

الزّنى، واللواط والسّـــرقة، وأكل أموال الناس بالباطل، والبخل، والشّح.

٢- **الذنوب السـبعية**: لأن أصــحابها تجاوزوا الحد في ذنوب الظلم والعدوان، فكانوا كالسـباع في البطش في الآخرين: وتتمثل ذنوبهم بالظلم والعدوان والقهر والبطش في الضعفاء.

٣- **الذنوب الشـيطانية**: لأن أصــحابها تجاوزوا الحد في ذنوب البدع والمحدثات ومخالفة الشرع واستحسان الضلالات.

٤- **الذنوب الملكية**: لأن أصـحابها تجاوزوا الحد في ذنوب تنزيل النفس منزلة الربوبية: ومن صـــورها: ادعاء الألوهية والربوبية كالنمرود والفرعون.

وكالعظمة، والكبرياء، والجبروت، والقهر، والعلوّ، واستعباد الخلق، ونحو ذلك.

وقد ذكر هذه الأربع الإمام ابن القيم في كتابه "الجواب الكافي" وشـــرحها بشرح أجمل وأكمل مما ذكرنا ولولا الإطالة لنقلناه هنا.

الطاغوت الثاني: من عبد وهو راض:

من عبده الناس فرضي بعبادتهم له فهو رأس من رؤوس الطاغوت حتى وإن لم يدع لعبادة نفسه، ولكنه عُبِدَ فلم ينكر ذلك على من عبده.

وقوله: (وهو راض): خرج به من عُبِدَ في حياته وهو غير راض فإنه لا إثم عليه. وأما من عبد بعد موته فله حالتان:

- الأولى: عدم علمه بذلك في حياته.
- والثانية: أنه علم في حياته أنهم ســـيعبدونه بعد مماته من خلال القرائن أو تصريحهم بذلك فأنكر عليهم ثم مات فإنه لا إثم عليه.

الطاغوت الثالث:

وهو من دعا الناس إلى عبادة نفسه

حتى وإن لم يستجب له أحد ولم يعبده أحد، فبمجرد دعوته لعبادة نفسه صار طاغوتًا كافرًا ملعونًا. بل هو أشد من الأول الذي رضي بعبادته؛ لأن الثاني يشمل الأول والأول لا يشمل الثاني.

ومن هؤلاء الطواغيت فرعون لعنه الله تعالى، فقد دعا الناس لعبادته كما في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ [القصص:٣٨]

وهكذا النمرود بادعائه الربوبية والقدرة على الإحياء والإماتة فإن من ادعى الربوبية فقد ادعى أنه يستحق العبادة.

والكثير من طواغيت غلاة الصوفية يدعون لأتباعهم القدرة على رزق الذرية وإنزال المطر وحفظ الولد، فهذه الادعاءات دعت الناس لعبادتهم بالنذر والذبح والدعاء والتوسل لهم، فهم بهذا دعوا الناس لعبادة أنفسهم، وعبدهم من عبدهم من الناس وهم راضين بذلك.

الطاغوت الرابع:
ومن ادعى شيئاً من علم الغيب

وعلم الغيب من خصائص الله تعالى وحده لا شريك له كما في قوله عز وجل: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يُبْعَثُونَ﴾ [النمل: ٦٥]

وللخالق سبحانه أن يطلع من شاء من عباده على الغيب وقد صرح سبحانه أنه لا يطلع على الغيب إلا من شاء من الرسل فقال: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾ [الجن: ٢٦-٢٧]

فلا يعلم الغيب إلا من قدره في الأزل قبل وقوعه، ومن ادعى العلم به فقد ادعى أن له تدخل في تقديره أو أن له قدرة على اكتشافه وإن لم يرد الله سبحانه ذلك!!

والغيب بالنسبة للخالق معلوم؛ لأنه هو العالم بكل شيء والكاتب لكل شيء ومشيئته فوق كل شيء وهو الخالق لكل شيء، ولهذا فهو يعلم ما كان في الماضي وماهو كائن في الحاضر وما سيكون في المستقبل، لأنه المقدر لكل شيء قبل كل شيء

والغيب بالنســبة للمخلوقين خفي بشــكل تام، فهم لايعلمون شــيئًا عن الماضــي إلا ما أطلعه الله تعالى لهم، ولا يعلمون شــيئًا عن الحاضــر إلا ما أبانه الله تعالى وأظهره لهم وهذا لم يعد غيبًا، ولايعلمون شــيئًا عن القادم إلا ما أخبرهم به في الوحي وهو غيب حتى يتحقق.

وهناك صور من الغيب لا تدخل في ادعاء الغيب ومنها:

- **الرؤيا:** فالرؤيا قد تخبر عن غيب فات أو آت، ولهذا جعلها النبي ﷺ من النبوة، والنبوة من الإنباء، فهي بمنزلة الوحي الصادق في الإخبار عن شيء خفي قد حصل أو سوف يحصل.
- **الفراسة:** وهي على قسمين:

الأول: الاعتبار بالعلامات على شـيء قد حصـل: فالبعرة تدل على البعير وأثر القدم تدل على المسير.

الثاني: اعتبار الحال على أمر ســيحل: فالســحاب تدل على المطر، ومن وجد من فرد أو أمة تعمل عملًا توعد الله تعالى من عمل بهذا العمل بعقوبة معينة فقال: ســوف يقع لهؤلاء كذا وكذا من البلاء، فهذا ليس من ادعاء الغيب بل هو من اعتبار الحال. ولهذا أنذر الله تعالى الأمم على أفعالهم بما حل بمن قبلهم بســبب الفعل نفسه.

وقبل زمن قرت في بعض الكتب أن الحمام تعلم بنزول المطر قبل نزوله، فكنت إذا تغير الجو وظهرت الســحاب وتغطت الســماء بالغيوم، وربما تســاقطت القطرات الخفيفة من المطر، فيقول القائل: ســينزل المطر، فأقوم إلى النافذة وأقول

لهم: لن ينزل المطر. ويكون كما أخبرتهم!! فقالوا لي: وكيف تعلم؟ فأقول لهم: إذا بقت الحمام ولم تهرب رغم ظهور الغيوم وتساقط القطرات فهذا يدل أنه لا مطر؛ فإن الحمام تهرب من المطر المتحقق قبل نزوله.

وبعد أيام فعل أحدهم مثلي فقام إلى النافذة وقال: لن ينزل المطر وقلت لهم: بل ينزل مطر قوي، فكان كما قلت لهم!! فتحير الرجل وقال لنا: نظرت من النافذة والسطوح ممتلئة بالغربان، فضحك من معنا وقالوا له: هو يراقب الحمام وليس الغربان.

وعلى كل فهذا مجرد ظن لا يجوز القطع والجزم به. فقد جربت مرة وأخطأت رغم كثرة الصواب في التجارب السابقة، فقد هربت الحمام ولم ينزل المطر، ومرة لم تهرب الحمام إلا بعد هطوله.

والفراسة بالاعتبارين تدخل في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِلْمُتَوَسِّمِينَ﴾ [الحجر:٧٥] أي علامات للمتفرسين. ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ۝١٠٢ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِمَنْ خَافَ عَذَابَ الْآخِرَةِ﴾ [هود: ١٠٢-١٠٣] وقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَهْدِ لَهُمْ كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ يَمْشُونَ فِي مَسَاكِنِهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِأُولِي النُّهَى﴾ [طه: ١٢٨]

وقال تعالى عن شعيب حين أنذر قومه بالاعتبار بأحوال من قبلهم: ﴿وَيَا قَوْمِ لَا يَجْرِمَنَّكُمْ شِقَاقِي أَنْ يُصِيبَكُمْ مِثْلُ مَا أَصَابَ قَوْمَ نُوحٍ أَوْ قَوْمَ هُودٍ أَوْ قَوْمَ صَالِحٍ وَمَا قَوْمُ لُوطٍ مِنْكُمْ بِبَعِيدٍ﴾ [هود:٨٩] إلى قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ أَمْرُنَا نَجَّيْنَا

شُعَيْبًا وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ بِرَحْمَةٍ مِنَّا وَأَخَذَتِ الَّذِينَ ظَلَمُوا الصَّيْحَةُ فَأَصْبَحُوا فِي دِيَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾ [هود: ٩٤]

- **اكتشاف الماء والنفط والمعادن**: فهذا اكتشف الخبراء لها علامات تدل عليها، ومن ذلك على سبيل المثال تواجد النمل الأبيض في بقعة من الأرض بأوصاف معينة فإنها تدل عند الخبراء على وجود الذهب. وهكذا العروق التي على الجبال لها أوصاف عند أهل الخبرة إن توفرت دلت على الذهب.
- **الأرصاد**: لمعرفة نزول المطر وحصول الكسوف والخسوف وحصول الرياح وتغير الجو.

وفي كل هذه الحالات لا يجوز الجزم بهذه الأمور؛ لأنها مجرد علامات قد يفقهها المتعلم وقد لا يفقهها، ولهذا يسميها أصحابها أنها توقعات؛ لأنها مبنية على الظن الغالب أحيانًا والضعيف أحيانًا.

الطاغوت الخامس: ومن حكم بغير ما أنزل الله

والمراد بذلك عدم تحكيم شـــريعة الله تعالى في أمور الحياة المتعلقة بالدين والدنيا والبدن، وهذه مســألة عميقة زل فيها أقوام بالإفراط فصــاروا من الخوارج التكفيريين، وزل فيها غيرهم بالتفريط فصـــاروا من المرجئة المميعين، ووقف أهل الســنة بين طرفي الإفراط والتفريط بالعمل بكل النصــوص لا ببعضــها دون بعض فكانوا هم الأمة الوسط.

والحكم بغير ما أنزل خطر كبير وشــر مســتطير؛ وذلك أن الله تعالى يقول: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ [الأنعام:٥٧] ولهذا بين العلماء أن الحكم بما أنزل الله تعالى داخل في التوحيد.

فهل هو داخل في توحيد الربوبية أم توحيد الألوهية؟

والجواب:

أنه داخل في توحيد الربوبية باعتباره حكمًا لله تعالى، وهو داخل في توحيد الألوهية باعتبار امتثال العبد له والتعبد به.

والحكم بغير ما أنزل الله تعالى فيه تفصيل ذكره الله تعالى في ثلاث آيات في سورة المائدة:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]

الثانية: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [المائدة:٤٥].

الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [المائدة:٤٧].

فدلت الآيات الثلاث على احتمالين:

الاحتمال الأول: أن الحكم بغير ما أنزل الله كفر وأن الكفر يوصف بالفسق والظلم، وقد شهدت النصوص على وصف الكفر بالفسق والظلم، كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾ [البقرة:٩٩] وقوله تعالى: ﴿وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ [البقرة:٢٥٤]

وهذا ذهب إليه بعض أهل السنة فقالوا: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، ولكن يجب أن تتنبه فهناك حَدُ شعرةٍ تجعلك واقع في مذهب الخوارج والمعتزلة فهم قالوا بذلك أيضًا، والفرق بين المذهبين:

- أن المعتزلة والخوارج جعلوا الأوصاف لموصوف واحد، ومن خلال ذلك قاموا بتكفير كل من حكم بغير ما أنزل الله تعالى دون أي تفصيل، فكل من حكم بغير ما أنزل الله تعالى فهو كافر وظالم وفاسق.
- وأما أهل السنة الذين قالوا: إن هذه الأوصاف لموصوف واحد، لم يقولوا بتكفير كل من حكم بغير ما أنزل الله، بل جعلوها على قسمين: كفر وظلم وفسق أكبر مخرج من الملة. وكفر وظلم وفسق أصغر غير مخرج من الملة.

فعلم أن الفرق بين الفريقين كالفرق بين الحق والباطل.

الاحتمال الثاني: أن الحكم بغير ما أنزل الله تعالى تارة يكون كفرًا، وتارة يكون ظلمًا، وتارة يكون فسقًا، وقد شهدت النصوص في الكتاب والسنة على صحة التفريق بين الكفر والفسق والظلم.

فمن أدلة الظلم الذي ليس كفراً:

قوله تعالى عن آدم ﷺ: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة:٣٥]. وقال تعالى عن موسى ﷺ: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾ [القصص:١٦]

وجاء عند الإمام مسلم عن على بن أبي طالب رضي الله عنه أن النبي ﷺ كان إذا قام إلى الصلاة قال: (وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين) إلى قوله ﷺ: (أنت ربى وأنا عبدك ظلمت نفسي واعترفت بذنبي).

وجاء في الصحيحين عن أبي بكر الصديق رضي الله عنه: أنه قال لرسول الله ﷺ علمني دعاء أدعو به في صلاتي. قال: (قل اللهم إني ظلمت نفسي ظلمًا كثيرا ولا يغفر الذنوب إلا أنت فاغفر لي مغفرة من عندك وارحمني إنك أنت الغفور الرحيم).

فدلت هذه الأدلة أن هذا الظلم ليس كفرًا.

ومن أدلة الفسق الذي ليس كفراً:

قال تعالى: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ الْكُفْرَ وَالْفُسُوقَ وَالْعِصْيَانَ﴾ [الحجرات:٧] فغاير بين الكفر والفسق فدل أن الفسق هنا ليس كفرًا.

وقال تعالى بعد أن نادى عباده باسم الإيمان: ﴿وَلَا يُضَارَّ كَاتِبٌ وَلَا شَهِيدٌ وَإِنْ تَفْعَلُوا فَإِنَّهُ فُسُوقٌ بِكُمْ﴾ [البقرة:٢٨٢] وقال تعالى عن المعصية في الحرم: ﴿فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾ [البقرة:١٩٧] وقال تعالى عن التنابز بالألقاب: ﴿وَلَا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾ [الحجرات:١١] وقال تعالى عمن يرمي المحصنات: ﴿وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور:٤] فالفسق في كل هذه الآيات ليس هو الكفر.

والمعنى من هذا أننا لا نكفر كل من حكم بغير ما أنزل الله، بل نحكم عليه بحسب الحكم نفسه، فتارة نحكم عليه بالكفر وتارة نحكم عليه بالظلم وتارة نحكم عليه بالفسق.

وبعض العلماء يفصل الحكم عليه بالكفر ثم التفصيل في جعله على قسمين: كفر أكبر، وكفر دون كفر وهو الكفر الأصغر، وهذا الرأي له قوته من حيث جعل الحكم بغير ما أنزل الله تعالى لا يكون إلا كفرًا، إلا أنه لايشترط فيه الخروج من الملة فإن كان أكبر فهو مخرج من الملة وإن كان أصغر فهو غير مخرج من الملة.

فقد دلت النصوص بمجموعها أن الكفر يوصف بالظلم والفسق، ودلت أنه ليس كل فسق يكون كفرًا، وليس كل ظلم يكون كفرًا. والمعنى أن الظلم والفسق على قسمين: أكبر وأصغر، فالأكبر يعد كفرًا والأصغر لا يعد كفرًا.

ومن هنا كان الواجب هو النظر للاحتمالين السابقين بعين العلم والبصيرة والترجيح بالتقوى لا بمجرد الفتوى.

قال أبو عُبيد القاسم بن سلام في "الإيمان" (صـ/٨٩):

وأما الفرقان الشاهد عليه في التنزيل، فقول الله جل وعز: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ [المائدة:٤٤]

وقال ابن عباس: "ليس بكفر ينقل عن الملة".

وقال عطاء بن أبي رباح: "كفر دون كفر".

فقد تبين لنا أنه كان ليس بناقل عن ملة الإسلام أن الدين باق على حاله، وإن خالطه ذنوب، فلا معنى له إلا خلاف الكفار وسنتهم، على ما أعلمتك من الشرك سواء؛ لأن من سنن الكفار الحكم بغير ما أنزل الله، ألا تسمع قوله: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة:٥٠].

تأويله عند أهل التفسير أن من حكم بغير ما أنزل الله وهو على ملة الإسلام كان بذلك الحكم كأهل الجاهلية، إنما هو أن أهل الجاهلية كذلك كانوا يحكمون.

وهكذا قوله: (ثلاثة من أمر الجاهلية الطعن في الأنساب والنياحة والأنواء). ومثله الحديث الذي يروى عن جرير وأبي البختري الطائي: (ثلاثة من سنة الجاهلية: النياحة، وصنعة الطعام، وأن تبيت المرأة في أهل الميت من غيرهم).

وكذلك الحديث: (آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف وإذا ائتمن خان).

وقول عبد الله "الغناء ينبت النفاق في القلب".

ليس وجوه هذه الآثار كلها من الذنوب: أن راكبها يكون جاهلًا ولا كافرًا ولا منافقًا وهو مؤمن بالله وما جاء من عنده، ومؤد لفرائضه، ولكن معناها أنها تتبين من أفعال الكفار محرمة منهي عنها في الكتاب وفي السنة ليتحاماها المسلمون ويتجنبوها فلا يتشبهوا بشيء من أخلاقهم ولا شرائعهم اهـ.

قال أبو العباس:

ولو نظر الناظر لمسألة الحكم بغير ما أنزل الله تعالى من زوايا متعددة وبعيدة لعلم أن المسألة أوسع مما يظن، فالذي أنزله الله تعالى هو الوحي من الكتاب والسنة دون تفريق، وكل ما فيهما من الأحكام فهي حكم الله تعالى، فكل أوامره ونواهيه هي الأحكام التي أنزلها ويجب الحكم بها، ولهذا تسمى في كتب الفقه بالأحكام الشرعية.

فلو أن أحدهم:

- أعطى زوجته الأولى أكثر من الثانية فقد حكم بغير ما أنزل الله.
- أو أخر الصلاة عن وقتها فقد حكم بغير ما أنزل الله.
- أو أعطى أحد أولاده ولم يعط الآخر فقد حكم بغير ما أنزل الله.
- أو لعن فلانًا. أو اغتاب فلانًا. أو شرب الخمر. أو كذب. أو سرق.

فكل هذه المخالفات وغيرها من الحكم بغير ما أنزل الله تعالى؛ لأن الله تعالى أنزل فيها أحكامًا من عمل بها فقد امتثل لحكم الله عز وجل الذي أنزله في وحيه ومن لم يعمل بها فإنه لم يحكم بما أنزل الله تعالى.

ولم يقل أحد: إن هؤلاء كفار، ولم يقل أحد: إن الحكم بما أنزل الله خاص بالحاكم دون غيره!! وهل يقول عاقل: إن الحاكم إن لم يجلد الزاني كافر بينما الزاني نفسه ليس بكافر. وعلى هذا فقس.

ولشيخ الفقهاء ونبراس العلماء العلامة المحقق والمحرر المدقق الشيخ ابن عثيمين كلام كثير في مسألة الحكم بغير ما أنزل الله تعالى لو جمع لخرج في رسالة مستقلة.

وهذه احدى فتاويه حيث قال كما في "مجموع الفتاوى والرسائل" (١٤٥/٢):

والحكم بغير ما أنزل الله ينقسم إلى قسمين:

الأول: أن يستبدل هذا الحكم بحكم الله تعالى بحيث يكون عالمًا بحكم الله، ولكنه يرى أن الحكم المخالف له أولى وأنفع للعباد من حكم الله ، أو أنه مساو لحكم الله، أو أن العدول عن حكم الله إليه جائز فيجعله القانون الذي يجب التحاكم إليه فمثل هذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة لأن فاعله لم يرض بالله ربًا ولا بمحمد رسولًا ولا بالإسلام دينًا، وعليه ينطبق قوله تعالى: ﴿أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾.

وقوله تعالى: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا لِلَّذِينَ كَرِهُوا مَا نَزَّلَ اللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِي بَعْضِ الْأَمْرِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ الْمَلَائِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَارَهُمْ ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾.

ولا ينفعه صلاة، ولا زكاة، ولا صوم، ولا حج؛ لأن الكافر ببعض كافر به كله قال الله تعالى: ﴿أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ الْكِتَابِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ فَمَا جَزَاءُ مَنْ يَفْعَلُ ذَلِكَ مِنْكُمْ إِلَّا خِزْيٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يُرَدُّونَ إِلَى أَشَدِّ الْعَذَابِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾

وقال سبحانه: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُونَ نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾.

الثاني: أن يستبدل بحكم الله تعالى حكمًا مخالفًا له في قضية معينة دون أن يجعل ذلك قانونًا يجب التحاكم إليه فله ثلاث حالات:

- **الأولى:** أن يفعل ذلك عالمًا بحكم الله تعالى معتقدًا أن ما خالفه أولى منه وأنفع للعباد، أو أنه مساو له، أو أن العدول عن حكم الله إليه جائز فهذا كافر كفرًا مخرجًا عن الملة لما سبق في القسم الأول.
- **الثانية:** أن يفعل ذلك عالمًا بحكم الله معتقدًا أنه أولى وأنفع لكن خالفه بقصد الإضرار بالمحكوم عليه أو نفع المحكوم له، فهذا ظالم وليس بكافر

وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾.

- **الثالثة:** أن يكون كذلك لكن خالفه لهوى في نفسه أو مصلحة تعود إليه فهذا فاسق وليس بكافر وعليه يتنزل قول الله تعالى: ﴿وَمَنْ لَمْ يَحْكُمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾.

وهذه المسألة أعني مسألة الحكم بغير ما أنزل الله من المسائل الكبرى التي ابتلي بها حكام هذا الزمان فعلى المرء أن لا يتسرع في الحكم عليهم بما لا يستحقونه حتى يتبين له الحق؛ لأن المسألة خطيرة نسأل الله تعالى أن يصلح للمسلمين ولاة أمورهم وبطانتهم كما أن على المرء الذي آتاه الله العلم أن يبينه لهؤلاء الحكام لتقوم الحجة عليهم وتبين المحجة، فيهلك من هلك عن بينة، ويحيا من حيَّ عن بينة، ولا يحقرن نفسه عن بيانه، ولا يهابن أحدًا فيه فإن العزة لله ولرسوله وللمؤمنين. والله ولي التوفيق اهـ.

وذكر نحو هذا التفصيل بشكل مختصر في "القول المفيد" ثم انتقل للتنبيه عن مسألة مهمة في المعاملات فقال في (١٠٩/٢):

وعندما نقول بأنه كافر، فنعني بذلك أن هذا الفعل يوصل إلى الكفر. ولكن قد يكون الواضع له معذورًا، مثل أن يغرر به كأن يقال: إن هذا لا يخالف الإسلام، أو هذا من المصالح المرسلة، أو هذا مما رده الإسلام إلى الناس.

فيوجد بعض العلماء وإن كانوا مخطئين يقولون: إن مسألة المعاملات لا تعلق لها بالشرع، بل ترجع إلى ما يصلح الاقتصاد في كل زمان بحسبه، فإذا اقتضي

الحال أن نضع بنوكًا للربا أو ضرائب على الناس، فهذا لا شيء فيه. وهذا لا شك في خطئه، فإن كانوا مجتهدين غفر الله لهم، وإلا فهم على خطر عظيم، واللائق بهؤلاء أن يلقبوا بأنهم من علماء الدولة لا علماء الملة.

ومما لا شك فيه أن الشرع جاء بتنظيم العبادات التي بين الإنسان وربه والمعاملات التي بين الإنسان مع الخلق في العقود والأنكحة والمواريث وغيرها، فالشرع كامل من جميع الوجوه، قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]

وكيف يقال: إن المعاملات لا تعلق لها بالشرع وأطول آية في القرآن نزلت في المعاملات، ولولا نظام الشرع في المعاملات لفسد الناس؟!

وأنا لا أقول: نأخذ بكل ما قاله الفقهاء، لأنهم قد يصيبون وقد يخطئون، بل يجب أن نأخذ بكل ما قاله الله ورسوله ﷺ، ولا يوجد حال من الأحوال تقع بين الناس إلا في كتاب الله وسنة رسوله ما يزيل إشكالها ويحلها، ولكن الخطأ إما من نقص العلم أو الفهم، وهذا قصور، أو نقص التدبر، وهذا تقصير.

أما إذا وفق الإنسان بالعلم والفهم وبذل الجهد في الوصول إلى الحق، فلابد أن يصل إليه حتى في المعاملات، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾ [النساء:٨٢] وقال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَدَّبَّرُوا الْقَوْلَ﴾ [المؤمنون:٦٨]، وقال تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ﴾ [ص:٢٩] وقال تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾ [النحل:٨٩]، فكل شيء يحتاجه الإنسان في دينه أو دنياه، فإن القرآن بينه بياناً شافيًا اهـ.

وله رحمه الله تعالى أكثر من فتوى يشـــترط فيها عدم تكفير الحاكم بغير ما أنزل الله إلا بعد إقامة الحجة.

وقال كبير العلماء الشـــيخ الصـــالح الفوزان في "شـــرح الأصـــول الثلاثة" (صـ/٣٠٤):

- فالذي يحكم بغير ما أنزل الله مستحلًا لذلك يكون طاغوتًا، والذي يقول: أنه يجوز أن يتحاكموا إلى القانون أو إلى العوائد في الجاهلية أو عوائد القبائل والبادية ويتركوا الشرع، يقول: هذا حلال، أو: هذا يساوي ما أنزل الله، فإذا قال: إنه أحسن مما أنزل الله، أو يساوي ما أنزل الله، أو قال: إنه حلال فقط، ولم يقل: إنه يساوي، ولا أفضل، قال: حلال جائز، هذا يعتبر طاغوتًا، وهذا بنص القرآن، قال تعالى: ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ﴾ سمي طاغوتًا لأنه تجاوز حده.
- أما من حكم بغير ما أنزل الله وهو يقر أن ما أنزل الله هو الواجب الاتباع والحق، وأن غيره باطل، وأنه يحكم بباطل، فهذا يعتبر كافرًا الكفر الأصـغر الذي لا يخرج من الملة، لكنه على خطر عظيم، على طريق قد يصل به إلى الكفر المخرج من الملة إذا تساهل في هذا الأمر.
- وأما من حكم بغير ما أنزل الله عن غير تعمد بل عن اجتهاد، وهو من أهل الاجتهاد من الفقهاء واجتهد ولكن لم يصـــب حكم الله، وأخطأ في اجتهاده فهذا مغفور له، قال ﷺ: (إذا حكم الحاكم، فاجتهد ثم أصـــاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد، ثم أخطأ فله أجر) لأنه لم يتعمد الخطأ هو

يريد الحق ويريد موافقة حكم الله عز وجل؛ لكنه لم يوفق له فهذا يعتبر معذورًا ومأجورًا؛ ولكن لا يجوز اتباعه على الخطأ، لا يجوز لنا أن نتبعه على الخطأ، ومن هذا اجتهادات الفقهاء التي أخطأوا فيها أو اجتهادات القضاة في المحاكم إذا اجتهدوا وبذلوا وسعهم في طلب الوصول إلى الحق ولكن لم يوفقوا فخطؤهم مغفور اهـ.

قال المؤلف:

وَالدَّلِيلُ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [البقرة:٢٥٦].

وَهَذَا هُوَ مَعْنَى لا إله إِلا اللهُ، وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ). وَاللهُ أَعْلَمُ. وَصَلَّى اللهُ عَلَى مُحَمَّدٍ وَعلى آله وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

الشرح:

قوله والدليل قوله تعالى: ﴿لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ الخ الآية

أي والدليل على قوله: إن الله افترض على الناس الكفر بالطاغوت هو هذه الآية، والشاهد منها قوله: ﴿فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ﴾ فدل أن الإيمان بالله تعالى لا يمكن أن يتحقق بدون الكفر بالطاغوت، فالإسلام كله في أمرين: الكفر بالطاغوت والإيمان بالله تعالى، ولهذا قال المؤلف: وَهَذَا هو معنى لا إله إلا الله. أي إثبات ونفي: فقولنا: (لا إله) نفيٌ معناهُ كفرنا بكل الطواغيت. وقوله: (إلا الله) إثباتٌ معناهُ آمنا بالله تعالى وحده.

ففي هذه الآية بيان لحقيقة التوحيد وأنه يتمثل بخلع الأنداد والأوثان وكل ما يدعو إليه الشيطان ويزينه من الإشراك بالخالق وعبادة المخلوق، فمن حقق ذلك فقد حقق شهادة أن لا إله إلا الله.

وقد وصف الله المتمسك بالشهادة بالمتمسك بالعروة الوثقى وهي الراسخة والثابتة التي لا يمكن أن تجتث أو تسقط.

وتأتي العروة في اللغة بمعنى الشيء الثابت الذي يتمسك به من خشي السقوط، وتأتي بمعنى الشجرة القوية والراسخة والثابتة المتفرعة العروق تحت الأرض، وهي نفسها النخلة التي ضرب الله تعالى بها المثل بالتوحيد فقال: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ﴾ [إبراهيم: ٢٤]

والكلمة الطيبة هي: لا إله إلا الله.

وعن أبي أمامة الباهلي، عن رسول الله ﷺ قال: (لتنقضن عرى الإسلام عروة عروة، فكلما انتقضت عروة تشبث الناس بالتي تليها، وأولهن نقضًا الحكم وآخرهن الصلاة).

فقوله: (تشبث الناس بالتي تليها) دليل أن العروة هي الشيء الذي يتمسك به الناس خشية الوقوع.

رواه الحاكم وصححه، وابن حبان وصححه، والطبراني والبيهقي في "الشعب" وصححه العلامة المجدد مقبل الوادعي في "الصحيح المسند" وحسنه شيخنا العلامة يحيى الحجوري في "النصيحة المحتومة"

ثم قال المؤلف: وَفِي الْحَدِيثِ: (رَأْسُ الأَمْرِ الإِسْلامِ، وَعَمُودُهُ الصَّلاةُ، وَذِرْوَةُ سَنَامِهِ الْجِهَادُ فِي سَبِيلِ اللهِ).

✷**رأس الأمر الإسلام:**

الأمر هو الدين ورأسه الإسلام وهو شهادة أن لا إله إلا الله وشهادة أن محمدًا رسول الله.

وإنما سمي الإسلام بذلك لأنه الاستسلام لله بالتوحيد. فمن كان إسلامه مناقض للشهادتين فليس مسلمًا حقيقيًا. وذلك أن الأسماء الشرعية تدل على مسمياتها بشروطها وأركانها وواجباتها، فمن لم يحقق حقيقة المسمى فليس له نصيب من حقيقة ذلك الاسم.

✷**وعموده الصلاة:**

أي عمود الدين، ويفهم من هذا تكفير تارك الصلاة؛ لأن العمود يقي من السقوط فمن لا صلاة له سقط دينه، وبما أن السقوط يقع على الأمر وليس على الإسلام فإن السقوط قد يكون كليًا وقد يكون جزئيًا، ولهذا اختلف العلماء في كفر تارك الصلاة، أو لنقل: إن الترك نوعان:

- **الأول: ترك جحود:** وهذا النوع اتفق العلماء في كفره وخروجه من ملة الإسلام، وأنه إن مات لايرث ولا يورث ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر أهل المسلمين.
- **الثاني: ترك تهاون:** وهذا النوع هو الذي حصل فيه الخلاف من زمن قديم فَكَفَّرَهُ فريق من أهل العلم ولم يكفره فريق آخر، ولكل فريق أدلة

استند عليها، فلا ذاك الفريق ينكر على هذا ولا هذا الفريق ينكر على ذاك.

ثم نبتت نابتة سوء في زماننا هذا فبدعوا من لم يكفر تارك الصلاة واتهموه بالإرجاء!! وتجاوز بعضهم فكفروا من لم يكفر تارك الصلاة بناء على قاعدة من لم يكفر الكافر فهو كافر. ومن أشد من ظلموه في زماننا هذا ووصفوه بالكفر تارة وبالإرجاء تارة هو يافوخ العلماء والمتعلمين وشيخ الحديث والمحدثين محمد بن ناصر الدين الألباني رحمه الله تعالى، وقد انتصرت له برسالة أسميتها "صواعق السماء في الرد على متهمي العلامة الألباني بالإرجاء"

وبالنسبة للخلاف في تارك الصلاة فالذي يظهر لي أن الأولى وصفه بالكفر لحديث النبي ﷺ: (العهد الذي بيننا وبينهم الصلاة فمن تركها فقد كفر) ثم نفصل القول فنقول: إن تركها جحودًا فهو كفر أكبر وإن تركها تهاونًا فهو كفر أصغر. وبهذا يكون ترجيحنا في المسألة خال من إهدار اللفظ النبوي الذي وَسَمَ تاركها بالكفر.

✷وذروة سنامه الجهاد في سبيل الله:

من الخطط العسكرية في الحروب وضع الجنود في التباب لحماية القلاع والحصون، ولما كان الجمل بمثابة الجبل والسنام بمثابة التبة في أعلاه كان الجهاد هو ذروة سنام الدين، فبه صيانة الدين وحمايته وتوسعه والعمل به، ولتكون كلمة الله تعالى هي العليا وكلمة الطاغوت هي السفلى، وقد قال تعالى: ﴿وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا

تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ﴾ [الأنفال:٣٩] واعلم أن هيبة الإسلام في شيئين: الأول: العلم الثاني: الجهاد. والثاني يدخل في الأول والأول شرط في الثاني.

ثم ختم المؤلف رسالته النافعة والمباركة بأمرين:

الأول: رد العلم إلى الله تعالى:

ورد العلم إلى الله تعالى ليس فيه قصد الشك فيه وعدم اليقين منه، بل هو من باب أن الله تعالى هو الذي علمنا فلزم رد العلم له كي يبارك لنا في علمنا ويزيدنا علما.

وقرأت فائدة ثم أضعت مصدرها وفيها جعل العلم على قسمين: متفق عليه ومختلف فيه، فالمختلف فيه نقول في نهايته: "والله أعلم" والمتفق عليه نقول في نهايته: "والله الموفق".

والذي يظهر أن قول: "والله أعلم" صالح في الموضعين، إلا إن كان بين ناس يفهمون منه الشك في العلم وعدم اليقين منه، فإنه يعدل عن ذلك للفظ آخر، كقوله: "والله الموفق"

الثاني: الصلاة على النبي ﷺ:

فالصلاة عليه بمثابة شكره لما قدمه لنا من هداية الدلالة والإرشاد ومعرفة ديننا النافع لنا يوم المعاد، فبه ﷺ أخرجنا الله تعالى من الظلمات إلى النور، وبه ﷺ هدينا لمعرفة النجدين والفرقان بين سائر المنافع والخيرات وسائر المضار والشرور. وقد جاء في الحديث: (لأن يهدي الله بك رجلًا واحدًا خير لك من حمر النعم)

وأما هو ﷺ فقد هدى الله تعالى به أمة عظيمة هي خير الأمم، فجزاه ربي عنا خير الجزاء وحشرنا معه دار السلام.

والصلاة عليه معناها كما في "التحبير" لابن الأمير الصنعاني (٤/١٠٣): عَظِّمْهُ في الدنيا بإعلاء ذكره، وإنفاذ شريعته، وفي الآخرة بإجزال مثوبته، وتشفيعه في أمته، وإبداء فضيلته بالمقام المحمود، وعلى هذا فالمراد بقوله تعالى: "صلُّوا عليه" ادعوا ربكم بالصلاة عليه اهـ.

اللهم صل وسلم وبارك على نبينا وحبيبنا وقدوتنا محمد وعلى آله كما صليت وباركت على أبيه نبيك وخليلك إبراهيم وعلى آله في العالمين إنك حميد مجيد.

اللهم واجعلنا من أتباعهما وعلى ملتهما في طلب العلم والعمل به والدعوة إليه والصبر على الأذى فيه

وكان الانتهاء من كتابه هذا الشرح

في الثامن من شهر رجب سنة ألف وأربعمئة وسبعة وأربعين

من الهجرة النبوية

وتم الانتهاء من مراجعته في يوم الجمعة

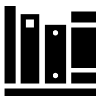
الحادي عشر من شهر شعبان

سنة ألف وأربعمئة وسبعة وأربعين

من الهجرة النبوية



الفهرس





ملاحظاتك

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

....

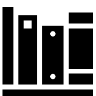
....

....

....

....

....




٦٣٩

